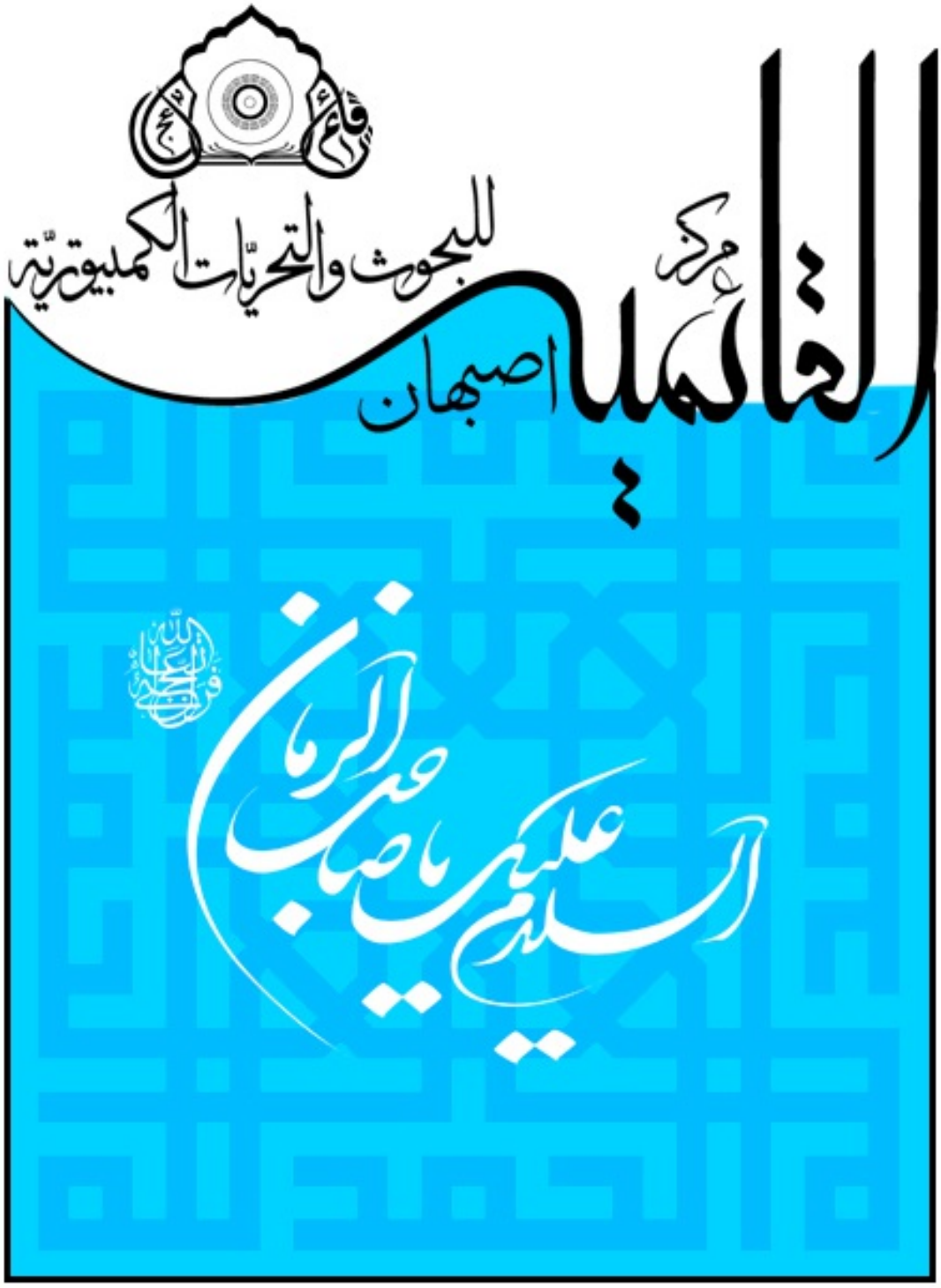

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

وفاء الوفا
بأخبار دار المصطفى ﷺ

تأليف
الشيخ العلامة نور الدين علي بن أحمد السمهودي
المتوفى سنة ٩١١هـ

تحقيق وتعليق
خالد عبد الغني محفوظ

المجلد الأول

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى

كاتب:

سمهودی، علی بن احمد

نشرت فی الطباعة:

دارالکتب العلمیة

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵
وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى المجلد ۱ ----- ۲۲
اشارة ----- ۲۲
تقديم ----- ۲۲
ترجمة المصنّف ----- ۲۳
خطبة المؤلف ----- ۲۳
اشارة ----- ۲۳
أبواب الكتاب ----- ۲۴
الباب الأول فى أسماء هذه البلدة الشريفة ----- ۲۶
اشارة ----- ۲۶
أثرب ----- ۲۷
أرض الله ----- ۲۷
الهجرة ----- ۲۸
أكالة البلدان ----- ۲۸
أكالة القرى ----- ۲۸
الإيمان ----- ۲۸
البارة و البرة ----- ۲۸
البحرة و البحيرة ----- ۲۸
البلد ----- ۲۹
بيت الرسول ----- ۲۹
ندد و تندر ----- ۲۹
الجابرة ----- ۲۹
جبار ----- ۲۹

الجبارة ----- ۲۹
جزیرة العرب ----- ۲۹
الجنة الحصینة ----- ۳۰
الحبیبة ----- ۳۰
الحرم ----- ۳۰
حرم رسول اللّه ----- ۳۰
حسنة ----- ۳۰
الخیرة ----- ۳۰
الدار ----- ۳۰
دار الأبرار ----- ۳۱
دار الإیمان ----- ۳۱
دار السنة و نحوها ----- ۳۱
ذات الحجر ----- ۳۱
ذات الحرار ----- ۳۱
ذات النخل ----- ۳۱
السلقة ----- ۳۲
سیدة البلدان ----- ۳۲
الشافیة ----- ۳۲
طابة و طیبة ----- ۳۲
ظباب ----- ۳۳
العاصمة ----- ۳۳
العذراء ----- ۳۳
العرّاء ----- ۳۳
العروض ----- ۳۳

الغرّاء ----- ۳۳
غلبة ----- ۳۴
الفاضحة ----- ۳۴
القاصمة ----- ۳۴
قبة الإسلام ----- ۳۴
قرية الأنصار ----- ۳۴
قرية رسول الله ----- ۳۴
قلب الإيمان ----- ۳۵
المؤمنة ----- ۳۵
المباركة ----- ۳۵
مبوأ الحلال و الحرام ----- ۳۵
مبين الحلال و الحرام ----- ۳۵
المجبورة ----- ۳۵
المحبة ----- ۳۵
المحبّبة ----- ۳۶
المحبوبة ----- ۳۶
المحبورة ----- ۳۶
المحرمة ----- ۳۶
المحفوفة ----- ۳۶
المحفوظة ----- ۳۶
المختارة ----- ۳۶
مدخل صدق ----- ۳۶
المدينة ----- ۳۷
المرحومة ----- ۳۷

المرزوقة ----- ۳۷
مسجد الأقصى ----- ۳۷
المسكينة ----- ۳۷
المسلمة ----- ۳۷
مضجع الرسول ----- ۳۸
المطيبة ----- ۳۸
المقدسة ----- ۳۸
المقر ----- ۳۸
المكتان ----- ۳۸
المكينة ----- ۳۸
مهاجر الرسول ----- ۳۹
الموفية ----- ۳۹
الناجية ----- ۳۹
نبلاء ----- ۳۹
النحر ----- ۳۹
الهذراء ----- ۳۹
يثرب ----- ۳۹
يندد ----- ۴۰
يندر ----- ۴۰
الباب الثانى ----- ۴۰
اشارة ----- ۴۰
الفصل الأول فى تفضيلها على غيرها من البلاد ----- ۴۰
مكة أفضل أم المدينة ----- ۴۰
الأرض أفضل أم السماء؟ ----- ۴۱

عود لتفضیل مکة أو المدینة ----- ۴۱
اشارة ----- ۴۱
کلام للعز بن عبد السلام ----- ۴۱
کلام للتقی السبکی ----- ۴۲
یخلق الإنسان من تربة الأرض التی یدفن فیها ----- ۴۳
الفصل الثانی وعد من صبر علی شدها ----- ۴۶
اشارة ----- ۴۶
المدینة تنفی الخبث ----- ۴۷
وعید من أراد أهلها بسوء ----- ۴۸
بسر بن أرطاة یغزو المدینة ----- ۴۹
وعید من أحدث بها حدثا ----- ۴۹
الفصل الثالث فی الحث علی حفظ أهلها، و إکرامهم ----- ۵۰
اشارة ----- ۵۰
الوصیة بحفظ أهلها ----- ۵۰
الفصل الرابع فی بعض دعائه صلّی اللّه علیه و سلّم لها و لأهلها ----- ۵۲
اشارة ----- ۵۲
حب النبی صلّی اللّه علیه و سلّم للمدینة ----- ۵۲
دعاؤه صلّی اللّه علیه و سلّم للمدینة بالبرکة ----- ۵۳
الدعاء بنقل و بائها ----- ۵۴
الوباء بالمدینة جاهلی قدیم ----- ۵۶
ثنیة الوداع ----- ۵۶
تحویل الوباء من دلائل النبوة ----- ۵۶
الفصل الخامس فی عصمتها من الدجال و الطاعون ----- ۵۷
حراسة المدینة من الدجال و الطاعون ----- ۵۷

الفصل السادس فی الاستشفاء بترابها، و بتمرها ----- ۶۰
اشارة ----- ۶۰
ما جاء فی أن ترابه شفاء ----- ۶۰
الاستشفاء بتراب صعیب ----- ۶۰
ما جاء فی أن تمرها شفاء ----- ۶۱
الفصل السابع فی سرد خصائصها ----- ۶۳
اشارة ----- ۶۳
الخاصة الأولی: ما تقدمت الإشارة إلیه من کونه صلّی اللّه علیه و سلّم خلق من طینتها، ----- ۶۳
الثانیة: اشتمالها علی البقعة التی انعقد الإجماع علی تفضیلها علی سائر البقاع، ----- ۶۳
الثالثة: دفن أفضل الأمة بها ----- ۶۳
الرابعة: أنها محفوفة بأفضل الشهداء ----- ۶۴
الخامسة: أن الله تعالی اختارها دارا و قرارا لأفضل خلقه ----- ۶۴
السادسة: أن الله تعالی اختار أهلها للنصرة و الإیواء. ----- ۶۴
السابعة: أن سائر البلاد افتتحت بالسیف، و افتتحت هی بالقرآن، ----- ۶۴
الثامنة: أن الله تعالی افتتح منها سائر بلاد الإسلام، ----- ۶۴
التاسعة: ما ذکره عیاض من الاتفاق علی وجوب الهجرة إلیها قبل فتح مکة، ----- ۶۴
العاشرة: أنه یبعث أشراف هذه الأمة یوم القیامة منها، ----- ۶۴
الحادیة عشرة: ما تقدم فی الأسماء من تسمیتها بالمؤمنة و المسلمة، ----- ۶۴
الثانیة عشرة: إضافتها إلی الله تعالی ----- ۶۴
الثالثة عشرة: إضافة الله إیاها إلی رسوله بلفظ البیت ----- ۶۴
الرابعة عشرة: إقسام الله تعالی بها ----- ۶۵
الخامسة عشرة: أن الله بدأ بها ----- ۶۵
السادسة عشرة: تسمیتها فی التوراة بالمرحومة و نحوه، ----- ۶۵
الثامنة عشرة: تحریکه صلّی اللّه علیه و سلّم دابته أو إیضاعها إذا أبصر جدرانها عند قدومها، ----- ۶۵

التاسعة عشرة: اهتمامه صلّى اللّه عليه و سلّم بأمر الدعاء لها ---- ۶۵
العشرون: تحريمها على لسان أفضل الأنبياء صلوات الله و سلامه عليه إكراما له، ---- ۶۵
الحادية و العشرون تأسيس مسجدها الشريف على يده صلّى اللّه عليه و سلّم و عمله فيه بنفسه، ---- ۶۵
الثانية و العشرون: اختصاصها بالمسجد ---- ۶۵
الثالثة و العشرون: كون ما بين بيته و منبره روضة من رياض الجنة، ---- ۶۵
الرابعة و العشرون: كون منبره الشريف على ترعة من ترع الجنة، ---- ۶۶
الخامسة و العشرون: ما ورد فى مسجده الشريف من المضاعفة الآتى بيانها. ---- ۶۶
السادسة و العشرون: حديث «من صلّى فى مسجدى هذا أربعين صلاة كتب له براءة من النار، و براءة من العذاب، و برئ من النفاق» ---- ۶۶
السابعة و العشرون: ما سيأتى أن من خرج على طهر لا يريد إلا الصلاة فيه كان بمنزلة حجة، ---- ۶۶
الثامنة و العشرون: أن إتيان مسجد قباء يعدل عمرة ---- ۶۶
التاسعة و العشرون: حديث «صيام شهر رمضان فى المدينة كصيام ألف شهر فيما سواها، و صلاة الجمعة فى المدينة كألف صلاة فيما سواها» ـ ۶۶
الثلاثون: حديث «لا يسمع النداء فى مسجدى هذا ثم يخرج منه إلا لحاجة ثم لا يرجع إليه إلا منافق». ---- ۶۶
الحادية و الثلاثون: تأكد التعلم و التعليم بمسجدها ---- ۶۶
الثانية و الثلاثون: اختصاصه بمزيد الأدب و خفض الصوت؛ ---- ۶۶
الثالثة و الثلاثون: أنه لا يجتهد فى محرابه؛ لأنه صواب قطعا؛ ---- ۶۷
الرابعة و الثلاثون: أن ما بين منبره صلّى اللّه عليه و سلّم و مسجد المصلى روضة من رياض الجنة، ---- ۶۷
الخامسة و الثلاثون: حديث «أحد على ترعة من ترع الجنة» ---- ۶۷
السادسة و الثلاثون: حديث «إن بطحان على ترعة من ترع الجنة». ---- ۶۷
السابعة و الثلاثون: وصف العقيق بالوادى المبارک، ---- ۶۷
الثامنة و الثلاثون: حثه صلّى اللّه عليه و سلّم على الإقامة بها. ---- ۶۷
التاسعة و الثلاثون: حثه على اتخاذ الأصل بها. ---- ۶۷
الأربعون: حثه على الموت بها، ---- ۶۷
الحادية و الأربعون: حرصه صلّى اللّه عليه و سلّم على موته بها. ---- ۶۷
الثانية و الأربعون: كون أهلها أول من يشفع لهم، ---- ۶۷

الثالثة و الأربعون: بعث الميت بها من الآمنين ----- ۶۷
الرابعة و الأربعون: أنه يبعث من بقيعها سبعون ألفا على صورة القمر يدخلون الجنة بغير حساب، ----- ۶۷
الخامسة و الأربعون: بعث أهلها من قبورهم قبل سائر الناس. ----- ۶۸
السادسة و الأربعون: شهادته- أو شفاعته- صلّى اللّه عليه و سلّم لمن صبر على لأوائها و شدتها. ----- ۶۸
السابعة و الأربعون: وجوب شفاعته صلّى اللّه عليه و سلّم لمن زاره بها. ----- ۶۸
الثامنة و الأربعون: استجابة الدعاء بها عند القبر الشريف، ----- ۶۸
التاسعة و الأربعون: كونها تنفى خبثها. ----- ۶۸
الخمسون: كونها تنفى الذنوب كما تنفى النار خبث الفضة. ----- ۶۸
الحادية و الخمسون: الوعيد الشديد لمن ظلم أهلها أو أخافهم. ----- ۶۸
الثانية و الخمسون: من أرادها و أهلها بسوء أذابه الله كما يذوب الملح فى الماء، ----- ۶۸
الثالثة و الخمسون: الوعيد الشديد لمن أحدث بها حدثا أو آوى محدثا، ----- ۶۸
الرابعة و الخمسون: الوعيد لمن لم يكرم أهلها و أن إكرامهم و حفظهم حق على الأمة، ----- ۶۹
الخامسة و الخمسون: حديث «من أخاف أهل المدينة فقد أخاف ما بين جنبىّ». ----- ۶۹
السادسة و الخمسون: حديث «من غاب عن المدينة ثلاثة أيام جاءها و قلبه مشرب جفوة» ----- ۶۹
السابعة و الخمسون: إكرام الله لها بنقل وبائها و تحويل حماها. ----- ۶۹
الثامنة و الخمسون: الاستشفاء بترابها، ----- ۶۹
التاسعة و الخمسون: عصمتها من الطاعون. ----- ۶۹
الستون: عصمتها من الدجال، ----- ۶۹
الحادية و الستون: ما فى حديث الطبرانى من قوله صلّى اللّه عليه و سلّم «و حق على كل مسلم زيارتها». ----- ۶۹
الثانية و الستون: سماعه صلّى اللّه عليه و سلّم سلام من سلّم و صلاة من صلّى عليه عند قبره الشريف، ----- ۶۹
الثالثة و الستون: اختصاصها بملك الإيمان و الحياء، ----- ۶۹
الرابعة و الستون: كون الإيمان يأزر إليها. ----- ۶۹
الخامسة و الستون: اشتباكها بالملائكة و حراستهم لها. ----- ۶۹
السادسة و الستون: كونها أول أرض اتخذ بها مسجد لعامة المسلمين فى هذه الأمة. ----- ۶۹

السابعة و الستون: كون مسجدها آخر مساجد الأنبياء، ---- ۷۰
الثامنة و الستون: كثرة المساجد و المشاهد و الآثار بها، ---- ۷۰
التاسعة و الستون: ما يوجد بها من رائحة الطيب الزكية، ---- ۷۰
السبعون: طيب العيش بها، ---- ۷۰
الحادية و السبعون: استحقاق من عاب تربتها للتعزير؛ ---- ۷۰
الثانية و السبعون: الوعيد الشديد لمن حلف يمينا فاجرة عند منبرها. ---- ۷۰
الثالثة و السبعون: استحباب الدخول لها من طريق و الرجوع فى أخرى، ---- ۷۰
الرابعة و السبعون: استحباب الاغتسال لدخولها. ---- ۷۰
الخامسة و السبعون: استحباب الدعاء و الطلب من الله الموت بها. ---- ۷۰
السادسة و السبعون: أنها دار إسلام أبدا؛ ---- ۷۰
السابعة و السبعون: أنها آخر قرى الإسلام خرابا، ---- ۷۰
الثامنة و السبعون: تخصيص أهلها بأبعد المواقيت و أفضلها؛ ---- ۷۰
التاسعة و السبعون: ذهب بعض السلف إلى تفضيل البداءة بالمدينة قبل مكة، ---- ۷۱
الثمانون: اختصاص أهلها فى قيام رمضان بستّ و ثلاثين ركعة، ---- ۷۱
الحادية و الثمانون: زيادة البركة بها، على مكة المشرفة، ---- ۷۲
الثانية و الثمانون: نقل عن مالک أن خبر الواحد إذا عارضه إجماع أهل المدينة قدم إجماعهم، ---- ۷۲
الثالثة و الثمانون: حديث النسائى و البزار و الحاكم و اللفظ له «يوشک الناس أن يضربوا أكباد الإبل فلا يجدوا عالما أعلم من عالم المدينة» --- ۷۲
الرابعة و الثمانون: تحريم نقل أحجار حرمها و ترابه ---- ۷۲
الخامسة و الثمانون: لو نذر تطييب مسجد المدينة و كذا الأقصى ففيه تردد لإمام الحرمين؛ ---- ۷۲
السادسة و الثمانون: إذا نذر زيارة قبر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لزمه الوفاء بذلک وجها واحدا، ---- ۷۳
السابعة و الثمانون: قيام مسجدها مقام المسجد الأقصى كالمسجد الحرام ---- ۷۳
الثامنة و الثمانون: الاكتفاء بزيارة قبر رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم لمن نذر إتيان مسجد المدينة، ---- ۷۳
التاسعة و الثمانون: قال ابن المنذر: إذا نذر أن يمشى إلى مسجد الرسول و المسجد الحرام لزمه الوفاء به لأنه طاعة؛ ---- ۷۳
التسعون: قوله صلّى اللّه عليه و سلّم فى أحاديث تحريمها «و لا يحمل فيها سلاح لقتال». ---- ۷۳

الحادیة و التسعون: قوله فیها أیضا: «و لا تلتقط لقطته إلا لمن أشاد بها». ۷۳
الثانیة و التسعون: إذا قلنا بضمان صیدها و قطع شجرها فالصحیح أنه یسلب الصائد کما یسلب قتیل الکفار، ۷۳
الثالثة و التسعون: جواز نقل ترابها للتداوی. ۷۳
الرابعة و التسعون: ظهور نار الحجاز التی أخبر بها صلّی اللّه علیه و سلّم مما حولها؛ ۷۳
الخامسة و التسعون: دعاؤه صلّی اللّه علیه و سلّم بالبرکة فی سوقها. ۷۴
السادسة و التسعون: ما سیأتی فی سوقها من أن الجالب إلیه کالمجاهد فی سبیل اللّه. ۷۴
السابعة و التسعون: أن المحتکر فیه کالملحد فی کتاب اللّه. ۷۴
الثامنة و التسعون: ما سیأتی فی بئر غرس من أنه صلّی اللّه علیه و سلّم «رأی أنه أصبح علی بئر من آبار الجنة، فأصبح علی بئر غرس» ۷۴
التاسعة و التسعون: ما سبق فی ثمارها من أن العجوة من الجنة؛ ۷۴
الفصل الثامن فی الأحادیث الواردة فی تحریمها، و هی کثیرة ۷۴
الفصل التاسع فی بیان عیر و ثور ۷۵
اشارة ۷۵
موقع جبل عیر ۷۶
موقع جبل ثور ۷۶
الاختلاف فی وجود جبل ثور بالمدینة ۷۶
الفصل العاشر فی أحادیث تقتضی زیادة الحرم علی ذلک التحدید، و أنه مقدر ببرید ۷۷
الفصل الحادی عشر فی بیان ما فی هذه الأحادیث من الألفاظ المتعلقة بالتحدید ۷۹
اشارة ۷۹
ذات الجیش ۷۹
شریب ۷۹
أشراف مخیض ۷۹
أشراف المجتهر ۸۰
الحفیاء ۸۰
ذو العشیرة ۸۰

ثیب ---- ۸۰
وعیرة ---- ۸۰
ثنیة المحدث ---- ۸۰
مضرب القبة ---- ۸۱
ثریر ---- ۸۱
غزوة ذی قرد ---- ۸۱
مقدار البرید و الفرسخ و المیل ---- ۸۲
الفصل الثانی عشر فی حکمة تخصیص هذا المقدار المعین بالتحریم ---- ۸۲
حکمة التخصیص ---- ۸۲
وجوه تذکر فی حکمة التحدید ---- ۸۲
الفصل الثالث عشر فی أحکام هذا الحرم الشریف، و فیه مسائل ---- ۸۳
الأولی: القول فی تحریم الصید و قطع الشجر ---- ۸۳
الثانیة: ما یستثنی مما یحرم ---- ۸۵
الثالثة: ما ذکروه فی الأخذ للدواء و نحوه ---- ۸۶
الرابعة: دیة القتل الخطأ فی المدینة مغلظة ---- ۸۶
الخامسة: حکم لقطة حرم المدینة ---- ۸۷
السادسة: حکم المقاتلة فی حرم المدینة ---- ۸۷
السابعة: حکم الاستنجاء بحجارة الحرم ---- ۸۷
الثامنة: حکم نقل تراب الحرم المدنی ---- ۸۷
الفصل الرابع عشر فی ذکر بدء شأنها، و ما یؤول إلیه أمرها ---- ۸۹
الفصل الخامس عشر فیما ذکر من وقوع ما أخبر به صلّی اللّه علیه و سلّم من خروج أهلها و ترکها، و ذکر کائنة الحرة المقتضیة لذلک ---- ۹۱
اشارة ---- ۹۱
وقعة الحرة ---- ۹۳
سبب نقمة یزید بن معاویة علی أهل المدینة ---- ۹۳

عدد القتلی فی وقعة الحرة ۹۶
من قتل من الصحابة یوم الحرة ۹۶
حرق مسلم بن عقبة و الخلاف فیه ۹۷
مسیر أبی حمزة إلی المدینة ۹۹
الفصل السادس عشر فی ظهور نار الحجاز التی أنذر بها النبی صلّی اللّه علیه و سلّم ۹۹
اشارة ۹۹
الأحادیث الواردة فی هذه النار ۱۰۰
بیان أن المدینة یمانیة کما أنها حجازیة ۱۰۰
ابتداء الزلزلة التی حدثت بالمدینة ۱۰۱
مدة النار ۱۰۲
قوة النار ۱۰۲
ضوء النار ۱۰۳
هل رؤیت النار ببصری ۱۰۴
مبدأ ظهور النار ۱۰۵
من فوائد هذه النار ۱۰۵
النذر الحادثة فی عام النار و الذی یلیه ۱۰۵
بعض ما یناسب هذه النار ۱۰۶
شأن خالد بن سنان العبسی ۱۰۶
قف علی کرامة لتمیم الداری ۱۰۷
الباب الثالث فی أخبار سکانها فی سالف الزمان، و مقدمه صلّی اللّه علیه و سلّم إلیها، ۱۰۷
اشارة ۱۰۷
الفصل الأول فی سکانها بعد الطوفان، و ما ذکر فی سبب نزول الیهود بها، و بیان منازلهم ۱۰۷
نزول عبیل بیثرب ۱۰۷
أول من سکن یثرب ۱۰۸

سکنی العمالیق المدینة ----- ۱۰۸
قوم من الیهود ینزلون المدینة ----- ۱۰۸
داود النبی یغزو سکان المدینة ----- ۱۰۸
مهلک العمالیق بالحجاز ----- ۱۰۹
سبب نزول الیهود المدینة ----- ۱۰۹
بقایا الیهود بالمدینة ----- ۱۱۱
الفصل الثانی فی سبب سکنی الأنصار بها ----- ۱۱۲
قصة مأرب و سیل العرم غسان ----- ۱۱۲
غسان ----- ۱۱۳
أول خبر سیل العرم ----- ۱۱۳
عمرو بن عامر یصف البلاد لقومه ----- ۱۱۵
نزول خزاعة فی مکة ----- ۱۱۵
نزول ثعلبة بن عمرو فی المدینة ----- ۱۱۶
الفصل الثالث فی نسبهم ----- ۱۱۶
اشارة ----- ۱۱۶
نسب قحطان ----- ۱۱۶
أول من تکلم بالعربیة ----- ۱۱۷
أم الأنصار و نسبها ----- ۱۱۷
الفصل الرابع فی تمکنهم بالمدینة، و ظهورهم علی یهود، و ما اتفق لهم مع تبع ----- ۱۱۸
اشارة ----- ۱۱۸
إقامة الأوس و الخزرج مع الیهود ----- ۱۱۹
قصة الفطیون ملک الیهود الطاغیة ----- ۱۱۹
قصة زرقاء الیمامة ----- ۱۲۳
الفصل الخامس فی منازل قبائل الأنصار بعد إذلال الیهود، ----- ۱۲۵

الفصل السادس فيما كان بينهم من حرب بعاث ---- ۱۳۶
اشارة ---- ۱۳۶
الحروب قبل بعاث ---- ۱۳۶
سبب حرب بعاث ---- ۱۳۷
الفصل السابع فی مبدأ إكرام الله لهم بهذا النبی صلّی اللّه علیه و سلّم و ذكر العقبة الصغری ---- ۱۳۹
الفصل الثامن فی العقبة الكبری ---- ۱۴۳
اشارة ---- ۱۴۳
أول من بايع ---- ۱۴۴
عدة أهل البيعة ---- ۱۴۵
إسلام عمرو بن الجموح ---- ۱۴۶
الفصل التاسع فی هجرة النبی صلّی اللّه علیه و سلّم إليها ---- ۱۴۶
رؤيا النبی صلّی اللّه علیه و سلّم دار هجرته ---- ۱۴۶
إذن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم لأصحابه فی الهجرة ---- ۱۴۶
قصة أم معبد ---- ۱۴۹
خروج أبی بريدة لاستقبال الرسول صلّی اللّه علیه و سلّم ---- ۱۵۰
الفصل العاشر فی دخوله صلّی اللّه علیه و سلّم أرض المدينة، و تأسيس مسجد قباء ---- ۱۵۱
اشارة ---- ۱۵۱
اختلاف العلماء فی تاريخ مقدمة المدينة ---- ۱۵۱
ابتداء التأريخ من الهجرة ---- ۱۵۳
متی بنی مسجد قباء ---- ۱۵۴
الفصل الحادی عشر فی قدومه صلّی اللّه علیه و سلّم باطن المدينة ---- ۱۵۵
اشارة ---- ۱۵۶
المؤاخاة بين الأنصار و المهاجرين ---- ۱۶۱
اليهود تحاول الإفساد بين الأوس و الخزرج ---- ۱۶۲

الفصل الثانی عشر فیما کان من أمره صلّی اللّه علیه و سلّم بها فی سنی الهجرة إلی أن توفاه الله عز و جل مختصرا ----- ۱۶۳
اشارة ----- ۱۶۳
السنة الأولی من الهجرة: ----- ۱۶۳
اشارة ----- ۱۶۳
أول رایة عقدت فی الإسلام ----- ۱۶۴
زواج عائشة ----- ۱۶۴
زواج سودة بنت زمعة ----- ۱۶۴
إسلام عبد الله بن سلام ----- ۱۶۴
السنة الثانیة من الهجرة ----- ۱۶۵
اشارة ----- ۱۶۵
التوجه إلی الکعبة ----- ۱۶۶
غزوة السویق ----- ۱۶۷
السنة الثالثة من الهجرة ----- ۱۶۸
اشارة ----- ۱۶۸
غزوة الکدر ----- ۱۶۸
غزوة أنمار ----- ۱۶۸
غزوة ذی أمر ----- ۱۶۸
سریة القردة ----- ۱۶۸
غزوة أحد ----- ۱۶۹
اشارة ----- ۱۶۹
الرسول یقتل أبی بن خلف ----- ۱۷۲
الحکم التی فی قصة أحد ----- ۱۷۵
أبو عزة الجمحی و مقتله ----- ۱۷۶
تحریم الخمر ----- ۱۷۶

السنة الرابعة من الهجرة ----- ۱۷۶
اشارة ----- ۱۷۶
غزوة الرجيع ----- ۱۷۷
غزوة بنى النضير ----- ۱۷۷
زواج أم سلمة هند بنت أبى أمية ----- ۱۷۸
غزوة ذات الرقاع ----- ۱۷۸
السنة الخامسة من الهجرة ----- ۱۷۸
اشارة ----- ۱۷۸
غزوة الخندق ----- ۱۷۹
إسلام نعيم بن مسعود الأشجعى ----- ۱۸۱
غزوة بنى قريظة ----- ۱۸۱
السنة السادسة من الهجرة ----- ۱۸۴
اشارة ----- ۱۸۴
قصة العرنيين ----- ۱۸۵
غزوة بنى المصطلق (المريسيع) ----- ۱۸۵
السنة السابعة من الهجرة ----- ۱۸۶
السنة الثامنة من الهجرة ----- ۱۸۷
السنة التاسعة من الهجرة ----- ۱۸۷
السنة العاشرة من الهجرة ----- ۱۸۷
الباب الرابع فيما يتعلق بأمور مسجدها الأعظم النبوى ----- ۱۸۹
اشارة ----- ۱۸۹
الفصل الأول فى أخذه صلّى اللّه عليه و سلّم لموضع مسجده الشريف، و كيفية بنائه ----- ۱۹۰
اشارة ----- ۱۹۰
زيادة النبى فى مسجده ----- ۱۹۷

الفصل الثانی فی ذرعه و حدوده التی یتمیز بها عن سائر المسجد الیوم ---- ۱۹۸
اشارة ---- ۱۹۸
فأحد الأقوال: ---- ۲۰۴
و الثانی: ---- ۲۰۵
و الثالث: ---- ۲۰۵
و الرابع: ---- ۲۰۵
و الخامس: ---- ۲۰۵
الفصل الثالث فی مقامه الذی کان یقوم به صلّی اللّه علیه و سلّم فی الصلاة قبل تحویل القبلة، و بعد ما جاء فی تحویلها ---- ۲۰۷
اشارة ---- ۲۰۷
تاریخ تحویل القبلة ---- ۲۰۹
مدة الصلاة إلی بیت المقدس ---- ۲۰۹
أول صلاة إلی الکعبة ---- ۲۱۰
إلی أیّ جهة کانت الصلاة بمکة قبل الهجرة؟ ---- ۲۱۰
کیف حرّرت قبلة مسجد النبی صلّی اللّه علیه و سلّم؟ ---- ۲۱۱
محراب المسجد النبوی، و متی صنع؟ ---- ۲۱۳
هل مصلاه صلّی اللّه علیه و سلّم علی عین القبلة أو جهتها؟ ---- ۲۱۹
فهرس الجزء الأول ---- ۲۲۰
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ---- ۲۲۱

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى المجلد ۱

اشارة

نام کتاب: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفی

نویسنده: سمهودی، علی بن احمد

تاریخ وفات مؤلف: ۹۱۱ ه. ق

سمهودی، علی بن احمد، ۸۴۴ - ق۹۱۱

محقق / مصحح: محفوظ، خالد عبدالغنی

موضوع: شرح حال

زبان: عربی

تعداد جلد: ۴

ناشر: دار الکتب العلمیة

مکان چاپ: بیروت

سال چاپ: ۲۰۰۶ م

=

موضوع: سرگذشتنامه = محمد (ص)، پیامبر اسلام، ۵۳ قبل از هجرت - ق۱۱

مابقی پدیدآورندگان: مصحح = عبدالحمید، محمد محی الدین

شرح پدیدآور: تالیف نورالدین علی بن احمد المصری السمهودی؛ حققه و فصله و علق حواشیه محمد محی الدین عبدالحمید

ناشر: داراحیاء التراث العربی

محل نشر: بیروت

رده کنگره: BP۲۲/۶۵/س۸/و۷

زبان: عربی

مشخصات ظاهری: ۴ج. (در دو مجلد)

جلد: ۱-۲ = ۳-۴

ISBN: م۱۹۸۴. = ق۱۴۰۴. = ۱۳۶۳

تقدیم

الحمد للّه ربّ العالمین، و الصلاة و السلام علی سیّد ولد آدم محمد بن عبد اللّه و علی آله و أصحابه أجمعین.

أمّا بعد.

فهذا کتاب فی تاریخ المدینة المنوّرة مدینة الرسول صلّی اللّه علیه و سلّم، و هو کتاب اختصره مؤلّفه من کتاب آخر له بعنوان «اقتفاء الوفا بأخبار دار المصطفی صلّی اللّه علیه و سلّم».

اختصره مع توسّط غیر مفرط کما یقول فی مقدمة الکتاب.

و قد رتّبه علی ثمانیة أبواب مفصّلة فی المقدمة.

و إذ نعيد- فى دار الكتب العلمية- نشر هذا الكتاب، نشير إلى أنّنا لم نثقل حواشيه إلا بما دعت الضرورة إليه، كضبط الغريب و شرحه، و تخريج الآيات الكريمة، و بعض التعاليق الموجزة، و وضع بعض العناوين الفرعية.

راجين من اللّه سبحانه و تعالى أن يجعل عملنا هذا فى سجلّ حسناتنا، و أن ينفع به القرّاء الكرام، إنه على كل شىء قدير.

و الحمد للّه أولا و آخرا.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۵

ترجمة المصنّف

هو الإمام الحجّة نور الدين أبو الحسن على بن عبد اللّه بن أحمد الحسنى الشافعى السمهودى. مؤرخ المدينة المنوّرة و مفتيها.

ولد فى سمهود (بصعيد مصر) سنة ۸۴۴ ه (۱۴۴۰ م) و نشأ فى القاهرة، و استوطن المدينة سنة ۸۷۳ ه.

من مؤلفاته:

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى صلّى اللّه عليه و سلّم: و هو الكتاب الذى بين أيدينا.

خلاصة الوفاء: اختصر به الأول.

جواهر العقدين: فى فضل العلم و النسب.

الفتاوى: و هى مجموع فتاواه.

الغماز على اللماز: رسالة فى الحديث.

درّ السموط: رسالة فى شروط الوضوء.

الأنوار السنية فى أجوبة الأسئلة اليمنية.

العقد الفريد فى أحكام التقليد.

و غيرها.

توفى السمهودى فى المدينة المنورة سنة ۹۱۱ ه (۱۵۰۶ م).

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۷

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم و به نستعين، و صلّى الله على سيدنا محمد و على آله و أصحابه.

خطبة المؤلف

اشارة

أما بعد: حمد الله على آلائه، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد أشرف أنبيائه، و على آله و أصحابه و أصفيائه؛ فقد سألنى من طاعته غنم، و مخالفته غرم، أن أختصر تأليفى المسمى ب «اقتفاء الوفا، بأخبار دار المصطفى» - صلّى اللّه عليه و سلّم! و زاده شرفا و فضلا لديه!- اختصارا مع توسط غير مفرط، هذا مع كونه بعد لم يقدّر إتمامه بتكامل أقسامه؛ لسلوكى فيه طريقة الاستيعاب، و جمع ما افترق من معانى تلك الأبواب، و تلخيص مقاصد جميع تواريخ المدينة التى وقفت عليها، و إضافة ما اقتضى الحال أن يضاف إليها، مع عروض الموانع، و ترادف الشواغل و القواطع، فأجبته إلى سؤاله؛ لما رأيت من شغفه بذلك و إقباله، مع ما رأيت فى ذلك من الإتحاف بأمور لا توجد فى غيره من المختصرات بل و لا المبسوطات، سيما فيما يتعلق بأخبار الحجرة الشريفة، و معالمها المنيفة، فإنى قد استفدته عيانا، و علمت أخبارها إيقانا، بسبب ما حدث فى زماننا من العمارة التى سنشير إليها، و نقف فى محلها عليها؛ لاشتمالها

على تجديد ما كاد أن يهى فى الحجرة الشريفة من الأركان، و إحكام ما أحاط بها من البنيان. و تشرفت بالخدمة فى إعادة بنيانها، و تجنبت شهود نقض أركانها، و حظيت بالوقوف على عرصتها، و تمتعت بانتشاق تربتها، و نعمت العين بالاكتحال بأرضها الشريفة، و محال الأجساد المنيفة، فامتلأ القلب حياء و مهابة، و اكتسى من ثياب الذال أثوابه، هذا و قد جبلت القلوب على الشغف بأخبار هذا المحل و أحواله، كما هو دأب كل محب مغرم واله، و لله درّ القائل:

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۸

أمليانى حديث من سكن الجزع و لا تكتباه إلا بدمعى

فاتنى أن أرى الدّيار بطرفى فلعلّى أرى الديار بسمعى

و لعمرى إن الاعتناء بذاك و ضبطه و إفادته من مهمّات الدين، و إن النظر فيه مما يزيد فى الإيمان و اليقين؛ لما فيه من معرفة معاهد دار الإيمان، و نشر أعلامها المرغمة للشيطان، و تذكر آياتها الواضحة التبيان، و المرجو من الله تعالى أن يكون كتابنا هذا تحفة لمحبّى دار الأبرار، و من سكن بها من الأخيار، و وفد عليها من الوفّاد، و قد بذلت الجهد فى تهذيبه و تقريبه، رجاء دعوة تمحو الأوزار، و تقيل العثار، و نظرة قبول من المصطفى المختار، صلى الله عليه و سلّم و على آله الأطهار، و صحابته الأخيار!

و سميته «وفاء الوفا، بأخبار دار المصطفى» صلى الله عليه و سلم، و شرف و عظم!

و رتّبته على أبواب:

أبواب الكتاب

الباب الأول: فى أسماء هذه البلدة الشريفة.

الباب الثانى: فى فضائلها، و بدء شأنها، و ما يؤول إليه أمرها، و ما يتعلق بذلك، و فيه ستة عشر فصلا: الأول: فى تفضيلها على غيرها من البلاد، الثانى: فى الحث على الإقامة بها، و الصبر على لأوائها و شدتها، و كونها تنفى الخبث و الذنوب، و وعيد من أرادها و أهلها بسوء أو أحدث بها حدثا أو آوى محدثا، الثالث: فى الحديث على حفظ أهلها و إكرامهم، و التحريض على الموت بها، و اتخاذ الأصل، الرابع: فى بعض دعائه صلّى اللّه عليه و سلّم لها و لأهلها، و ما كان بها من الوباء، و دعائه بنقله، الخامس: فى عصمتها من الدجال و الطاعون، السادس: فى الاستشفاء بترابها و تمرها، السابع: فى سرد خصائصها، الثامن:

فى صحيح ما ورد فى تحريمها، التاسع: فى بيان عير و ثور اللذين وقع تحديد الحرم بهما، العاشر: فى أحاديث أخر تقتضى زيادة الحرم على ذلك التحديد و أنه مقدر ببريد، الحادى عشر: فى بيان ما فى هذه الأحاديث من الألفاظ المتعلقة بالتحديد، و من ذهب إلى مقتضاها، الثانى عشر: فى حكمة تخصيص هذا المقدار المعين بالتحريم، الثالث عشر: فى أحكام هذا الحرم الكريم، الرابع عشر: فى بدء شأنها، و ما يؤول إليه أمرها، الخامس عشر: فيما ذكر من وقوع ما ورد من خروج أهلها و تركهم لها، السادس عشر:

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۹

فى ظهور نار الحجاز التى أنذر بها النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فظهرت من أرضها، و انطفائها عند وصولها إلى حرمها.

الباب الثالث: فى أخبار سكانها فى سالف الزمان، و مقدمه صلّى اللّه عليه و سلّم إليها، و ما كان من أمره بها فى سنى الهجرة، و فيه اثنا عشر فصلا. الأول: فى سكانها بعد الطوفان، و ما ذكر فى سبب سكنى اليهود بها، و بيان منازلهم، الثانى: فى سبب سكنى الأنصار بها، الثالث:

فى نسبهم، الرابع: فى ظهورهم على اليهود، و ما اتفق لهم مع تبّع، الخامس: فى منازلهم بعد إذلال اليهود، و شىء من آطامهم و حروبهم، السادس: فى ما كان بينهم من حرب بغاث، السابع: فى مبدأ إكرام الله لهم بهذا النبى الكريم، و ذكر العقبة الصغرى، الثامن: فى العقبة الكبرى و ما أفضت إليه، التاسع: فى مبدأ هجرته صلّى الله عليه و سلم، العاشر: فى دخوله صلّى الله عليه و سلّم أرض المدينة

و تأسيس مسجد قباء، الحادى عشر: فى قدومه باطن المدينة المنيفة، و سكناه بدار أبى أيوب الأنصارى، و خبر هذه الدار، و مؤاخاته بين المهاجرين و الأنصار، الثانى عشر: فى ما كان من أمره صلّى الله عليه و سلّم فى سنين الهجرة.

الباب الرابع: فيما يتعلق بأمور مسجدها الأعظم، و الحجرات المنيفات، و ما كان مطيفا بها من الدور و البلاط، و سوق المدينة، و منازل المهاجرين، و اتخاذ السور، و فيه سبعة و ثلاثون فصلا: الأول: فى أخذه صلّى الله عليه و سلّم لموضع مسجده الشريف، و كيفية بنائه، الثانى: فى ذرعه و حدوده التى يتميز بها عن سائر مسجده اليوم، الثالث: فى مقامه الذى كان يقوم به قبل تحويل القبلة و بعده، و ما جاء فى تحويلها، الرابع: فى خبر الجذع، و اتخاذ المنبر، و ما اتفق فيه، الخامس: فى فضل المسجد الشريف، السادس:

فى فضل المنبر المنيف و الروضة الشريفة، السابع: فى الأساطين المنيفة، الثامن: فى الصِّفَّة و أهلها، و تعليق الأقناء لهم بالمسجد، التاسع: فى حجره صلّى الله عليه و سلم، و بيان إحاطتها بمسجده إلا من جهة المغرب، العاشر: فى حجرة ابنته فاطمة رضى الله عنها، الحادى عشر: فى الأمر بسد الأبواب، و بيان ما استثنى من ذلك، الثانى عشر: فى زيادة عمر رضى الله عنه فى المسجد، الثالث عشر: فى البطيحاء التى بناها بناحيته، و منعه من إنشاد الشعر و رفع الصوت فيه، الرابع عشر: فى زيادة عثمان رضى الله عنه،

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۰

الخامس عشر: فى المقصودة التى اتخذها به، السادس عشر: فى زيادة الوليد على يد عمر بن عبد العزيز، السابع عشر: فيما اتخذه عمر فيها من المحراب و الشرفات و المنارات و الحرس، و منعهم من الصلاة على الجنائز فيه، الثامن عشر: فى زيادة المهدى، التاسع عشر: فيما كانت عليه الحجرة المنيفة الحاوية للقبور الشريفة فى مبدأ الأمر، العشرون:

فى عمارتها بعد ذلك، و الحائز الذى أدير عليها، الحادى و العشرون: فيما روى فى صفة القبور الشريفة بها، و أنه بقى هناك موضع قبر لعيسى عليه الصلاة و السلام، و تنزل الملائكة حافين بالقبر الشريف، و تعظيمه، و الاستسقاء به، الثانى و العشرون: فيما ذكر من صفتها و صفة الحائز الدائر عليها، و ما شاهدناه مما يخالف ذلك، الثالث و العشرون: فى عمارة اتفقت بها بعد ما تقدم، على ما نقله بعضهم، و ما نقل من الدخول إليها و تأزيرها بالرخام، الرابع و العشرون: فى الصندوق الذى فى جهة الرأس الكريم و المسمار الفضة المواجه للوجه الشريف، و مقام جبريل عليه السلام، و كسوة الحجرة و تحليتها، الخامس و العشرون: فى قناديلها و معاليقها، السادس و العشرون: فى الحريق الأول القديم المستولى على تلك الزخارف المحدثة بها و بالمسجد و سقفها و ما أعيد من ذلك، السابع و العشرون: فى اتخاذ القبة الزرقاء تمييزا للحجرة الشريفة و المقصورة الدائرة عليها، الثامن و العشرون: فى عمارتها المتجدّدة فى زماننا، على وجه لم يخطر قط بأذهاننا، و ما حصل من إزالة هدم الحريق من ذلك و المحل الشريف، و مشاهد وضعه المنيف، و تصوير ما استقر عليه أمر الحجرة، التاسع و العشرون: فى الحريق الحادث فى زماننا بعد العمارة السابقة، و ما ترتب عليه ألحقته هنا مع إلحاق ما تقدمت الإشارة إليه فى الفصول؛ لحدوثه بعد الفراغ من مسوّدة كتابنا هذا، و فى آخره خاتمة فيما نقل من عمل نور الدين الشهيد لخندق مملوء من الرصاص حول الحجرة، الثلاثون: فى تحصيب المسجد، و أمر البزاق فيه، و تخليقه، و إجماره، و شىء من أحكامه، الحادى و الثلاثون: فيما احتوى عليه من الأروقة و الأساطين و البلوعات و السقايات و الحواصل، و غير ذلك، الثانى و الثلاثون: فى أبوابه و خوخاته، و ما يميّزها من الدور المحاذية لها، الثالث و الثلاثون: فى خوخة آل عمر رضى الله عنه، الرابع و الثلاثون: فيما كان مطيفا به من الدور، الخامس و الثلاثون: فى البلاط و ما حوله من منازل المهاجرين، السادس و الثلاثون: فى سوق المدينة، السابع و الثلاثون: فى منازل القبائل من المهاجرين، و ما حدث من اتخاذ السور.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۱

الباب الخامس: فى مصلّى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى الأعياد، و غير ذلك من مساجد المدينة التى صلى فيها النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أو جلس مما علمت عينه أو جهته، و فضل مقابرها، و من سمى ممن دفن بها، و فضل أحد و الشهداء به، و فيه سبعة فصول: الأول: فى مصلّى الأعياد، الثانى:

فی مسجد قباء، و خبر مسجد الضرار، الثالث: فی بقیة المساجد المعلومة العین فی زماننا، الرابع: فیما علمت جهته من ذلک، و لم یعلم عینه، الخامس: فی فضل مقابرها، السادس: فی تعیین بعض من دفن بالبقیع من الصحابة و أهل البیت رضوان الله علیهم، و المشاهد المعروفة بها، السابع: فی فضل أحد و الشهداء به.

الباب السادس: فی آبارها المبارکات، و العین و الغراس و الصدقات، التی هی للنبی صلّی اللّه علیه و سلّم منسوبات، و ما یعزی إلیه من المساجد التی صلّی فیها فی الأسفار و الغزوات، و فیه خمسة فصول: الأول: فی الآبار المبارکات، و فیه تتمة فی العین المنسوبة للنبی صلّی اللّه علیه و سلّم و العین الموجودة فی زماننا، الثانی: فی صدقاته صلّی اللّه علیه و سلّم و ما غرسه بیده الشریفة، الثالث: فیما ینسب إلیه من المساجد التی بین مکة و المدینة بالطریق التی کان یسلکها صلّی اللّه علیه و سلّم الرابع: فی بقیة المساجد التی بینهما بطریق رکب الحاج فی زماننا، و طریق المشیان، و ما قرب من ذلک، الخامس: فی بقیة المساجد المتعلقة بغزواته و عمره صلّی اللّه علیه و سلّم.

الباب السابع: فی أودیتها و أحمائها و بقاعها و جبالها و أعمالها و مضافاتها، و مشهور ما فی ذلک من المیاه و الأودیة، و ضبط أسماء الأماکن المتعلقة بذلک، و فیه ثمانیة فصول: الأول: فی فضل وادی العقیق و عرصته و حدوده، الثانی: فیما جاء فی إقطاعه و ابتناء القصور به و طریق أخبارها، الثالث: فی العرصة و قصورها، و شیء مما قیل فیها و فی العقیق من الشعر، الرابع: فی جماواته، و أرض الشجرة، و ثنیة الشرید، و غیرها من جهاته، و فیه خاتمة فی سرد ما یدفع فیه من الأودیة و ما به من الغدران، الخامس: فی بقیة أودیة المدینة، السادس: فیما سمی من الأحماء و من حماها و شرح حال حمی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم بالنقیع، السابع: فی شرح بقیة الأحماء، و أخبارها، الثامن: فی بقاع المدینة و أعراضها و أعمالها و مضافاتها و أندیتها و جبالها و تلاعها، و مشهور ما فی ذلک من الآبار و المیاه و الأودیة، و ضبط أسماء الأماکن المتعلقة بذلک و بالمساجد و الآطام و الغزوات، و شرح حال ما یتعلق بجهات المدینة و أعمالها من ذلک، علی ترتیب حروف الهجاء.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفی، ج۱، ص: ۱۲

الباب الثامن: فی زیارته صلّی اللّه علیه و سلّم، و فیه أربعة فصول: الأول: فی الأحادیث الواردة فی الزیارة نصّا، الثانی: فی بقیة أدلتها، و بیان تأکد مشروعیتها، و قربها من درجة الوجوب، حتی أطلقه بعضهم علیها، و بیان حیاة النبی صلّی اللّه علیه و سلّم فی قبره، و شدّ الرحال إلیه، و صحة نذر زیارته، و الاستئجار للسلام علیه، الثالث: فی توسّل الزائر، و تشفّعه به صلّی اللّه علیه و سلّم إلی ربه تعالی، و استقباله له صلّی اللّه علیه و سلّم فی سلامه و توسّله و دعائه، الرابع: فی آداب الزیارة و المجاورة، و التبرک بتلک المساجد و الآثار، و هذا الباب و إن کان من حقه التقدیم، لکنه لما کان کنتیجة الکتاب، و مقدماته ما تقدمه من الأبواب، ختمت به أقسامه؛ لیکون المسک ختامه، و سر الوجود تمامه، و تفاؤلا بأن یفتح لی به ثمانیة أبواب الجنة، و یعظم لی بسببه سوابغ المنة، و باللّه لا سواه أعتصم، و أسأله العصمة مما یصم، فهو حسبی و نعم الوکیل.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفی، ج۱، ص: ۱۳

الباب الأول فی أسماء هذه البلدة الشریفة

اشارة

أعلم أن کثرة الأسماء تدل علی شرف المسمی، و لم أجد أکثر من أسماء هذه البلدة الشریفة، و قد استقصیتها بحسب القدرة حتی إنی زدت علی شیخ مشایخنا المجد الشیرازی اللغوی- و هو أعظم الناس فی هذا الباب- نحو ثلاثین اسما، فرقمت علی ذلک صورة لیتمیزوها، و أنا أوردها مرتّبة علی حروف المعجم.

أثرب

الأول: أثرب- كمسجد، بفتح الهمزة و سكون المثلاثة و كسر الراء و باء موحدة- لغة فى «يثرب» الآتى، و أحد الأسماء كألملم و يلملم، قيل: سميت بذلك لأنه اسم من سكنها عند تفرّق ذرية نوح عليه السلام فى البلاد، و هل هو اسم للناحية التى منها مدينة الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم أو للمدينة نفسها، أو لموضع مخصوص من أرضها؟ أقوال، الأول لأبى عبيدة، و الثانى عن ابن عباس رضى الله عنهما، و مشى عليه الزمخشرى، و الثالث هو المعنى بقول محمد بن الحسن أحد أصحاب مالك و يعرف بابن زبالة: و كانت يثرب أم قرى المدينة، و هى ما بين طرف قناة إلى طرف الجرف، و ما بين المال الذى يقال له البرنى إلى زبالة، و قد نقل ذلك الجمال المطرى عنه، و زاد فى النقل أنه كان بها ثلاثمائة صائغ من اليهود، و ابن زبالة إنما ذكر أن ذلك كان بزهوة، و قد غاير بينها و بين يثرب، و كأن الجمال فهم اتحادهما، و قد قال عقب نقله لذلك عنه: و هو يعنى يثرب معروفة اليوم بهذا الاسم، و فيها نخيل كثيرة ملك لأهل المدينة و أوقاف للفقراء و غيرهم، و هى غربى مشهد سيدنا حمزة، و شرقى الموضع المعروف بالبركة مصرف عين الأزرق، ينزلها الحاج الشامى فى وروده و صدوره، و تسميها الحجاج عيون حمزة، و هى إلى اليوم معروفة بهذا الاسم، أعنى يثرب، و ربما قالوا فيها «أثارب» بصيغة الجمع، و به عبر البرهان ابن فرحون فى مناسكه، فلك أن تعده اسما آخر، و هذا الموضع يثرب قال المطرى: كان به منازل بنى حارثة بطن ضخم من الأوس، قال: و فيهم نزل قوله تعالى فى يوم الأحزاب: وَ إِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا [الأحزاب: ۱۳] و رجح به القول الثالث، و ذلك أن قريشا

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۴

و من معهم نزلوا يوم الأحزاب و يوم أحد أيضا على ما ذكره المطرى برومة و ما والاها بالقرب من منازل بنى حارثة من الأوس و منازل بنى سلمة من الخزرج، و كان الفريقان مع رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فى مركز الحرب، و لذلك خافوا على ذراريهم و ديارهم العدو يوم أحد؛ فنزل فيها: إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَ اللَّهُ وَلِيُّهُما [آل عمران: ۱۲۲] قال عقلاؤهم: ما كرهنا نزولها لتولى الله إيانا، و دفع الله عنهم ببركة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و صدق نياتهم، و قيل: إن القائل لبنى حارثة: «يا أهل يثرب لا مقام لكم» هو أوس بن قيظى و من معه، و قيل: غير ذلك.

قلت: و يرجح القول الثالث أيضا قول الحافظ عمر بن شبّة النميرى: قال أبو غسان: و كان بالمدينة فى الجاهلية سوق بزبالة فى الناحية التى تدعى يثرب، انتهى. و لا شك فى إطلاق يثرب على المدينة نفسها، كما ثبت فى الصحيح، و شواهده أشهر من أن تذكر، و سيأتى فى الفصل الرابع عشر من الباب الثانى ما يقتضى أن الله تعالى سماها قبل أن تعمر و تسكن، فإما أن يكون موضوعا لها، أو هو من باب إطلاق اسم البعض على الكل، أو من باب عكسه على الخلاف المتقدم.

و روى ابن زبالة و ابن شبة نهيه صلّى اللّه عليه و سلّم عن تسمية المدينة يثرب، و فى تاريخ البخارى حديث: من قال يثرب مرة فليقل المدينة عشر مرات»، و روى أحمد و أبو يعلى حديثا:

«من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله، و هى طابة» و رجاله ثقات، و فى رواية «فليستغفر الله ثلاثا» و لهذا قال عيسى بن دينار: من سمى المدينة يثرب كتبت عليه خطيئة، و كره بعض العلماء تسميتها بذلك، و ما وقع فى القرآن من تسميتها به إنما هو حكاية عن قول المنافقين، و وجه كراهة ذلك إما لأنه مأخوذ من الثّرب- بالتحريك- و هو الفساد، أو لكراهة التثريب و هو المؤاخذة بالذنب، أو لتسميتها باسم كافر، و قد ينازع فى الكراهة بما فى حديث الهجرة فى الصحيحين من قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «فذهب وهلى إلى اليمامة أو هجر، فإذا هى المدينة يثرب» و حديث مسلم: «إنه وجهت إلى أرض ذات نخل لا أراها إلا يثرب» و كذا جاء فى غيرهما من الأحاديث، و قد يجاب بأن ذلك كان قبل النبى.

أرض اللّه

الثانى: «أرض الله» قال الله تعالى: أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها [النساء:

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۵

۹۷] ذكر مقاتل و الثعلبى و غيرهما أن المراد به المدينة، و فى هذه الإضافة من مزيد التعظيم ما لا يخفى.

الهجرة

الثالث: «أرض الهجرة» كما فى حديث «المدينة قبّة الإسلام».

أكالة البلدان

الرابع: «أكالة البلدان» لتسلطها على جميع الأمصار، و ارتفاعها على سائر بلدان الأقطار، و افتتاحها منها على أيدى أهلها فغنموها و أكلوها.

أكالة القرى

الخامس: «أكالة القرى» لحديث الصحيحين «أمرت بقرية تأكل القرى» و قد استدل به مثبتو الاسم قبله، و هو أصرح فى هذا؛ للفرق بين البلدة و القرية.

الإيمان

السادس: «الإيمان» قال الله تعالى مثنيا على الأنصار وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَ الْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ [الحشر: ۹] و أسند ابن زبالة عن عثمان بن عبد الرحمن و عبد الله بن جعفر قالا: سمّى الله المدينة الدار و الإيمان، و أسند ابن شبة عن الثانى فقط. و قال البيضاوى فى تفسيره، قيل سمى الله المدينة بالإيمان لأنها مظهره و مصيره.

و روى أحمد الدينورى فى كتابه المجالسة فى قصة طويلة عن أنس بن مالك «أن ملك الإيمان قال: أنا أسكن المدينة، فقال ملك الحياء: و أنا معك» فأجمعت الأمة على أن الإيمان و الحياء ببلد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و سيأتى فى حديث «الإيمان يأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها».

البارة و البرة

السابع: «البارة»، الثامن «البرة» هما من قولك: امرأة بارة و برة، أى: كثيرة البر، سميت بذلك لكثرة برها إلى أهلها خصوصا و إلى جميع العالم عموما؛ إذ هى منبع الأسرار و إشراق الأنوار، و بها العيشة الهنية، و البركات النبوية.

البحرة و البحيرة

التاسع: «البحرة» بفتح أوله و سكون المهملة. العاشر: «البحيرة» تصغير ما قبله.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۶

الحادى عشر: «البحيرة» بفتح أوله- نقلت ثلاثتها عن منتخب كراع، و الأولان عن معظم ياقوت، و الاستبحار: السعة، و يقال: هذه بحرتنا، أى: أرضنا أو بلدتنا، سميت بذلك لكونها فى متسع من الأرض، و فى الصحيح قول سعد فى قصة ابن أبىّ «و لقد اصطلح

أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه» رواه ابن شبة بلفظ «أهل هذه البحيرة» و قال عياض فى المشارق: البحرة مدينة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و يروى البحرة، و البحيرة: بضم الباء مصغرا و بفتحها على غير التصغير، و هى الرواية هنا، و يقال «البحر» أيضا بغير تاء ساكن الحاء، و أصله القرآن و كل قرية بحرة. انتهى.

الثانى عشر: «البلاط» بالفتح- نقل عن كتاب ليس لابن خالويه، و هو لغة الحجارة التى تفرش على الأرض، و الأرض المفروش بها و المستوية الملساء، فكأنها سميت به لكثرته فيها، أو لاشتمالها على مواضع تعرف به كما سيأتى فى الباب الرابع إن شاء الله تعالى.

البلد

الثالث عشر: «البلد» قال تعالى: لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ [البلد: ۱] قال الواسطى فيما نقله عن عياض: أى: يحلف لك بهذا البلد الذى شرفته بمكانك فيه حيا و ببركتك ميتا، يعنى المدينة، و قيل: المراد مكة، و نقل عن ابن عباس، و به استدل من ذكره فى أسمائها، و رجّحه عياض لكون السورة مكية، و البلد لغة صدر القرى.

بيت الرسول

الرابع عشر: «بيت الرسول» صلّى اللّه عليه و سلّم قال تعالى: كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِ [الأنفال: ۵]، قال المفسرون: أى: من المدينة لأنها مهاجره و مسكنه فهى فى اختصاصها به كاختصاص البيت بساكنه، أو المراد بيته بها.

ندد و تندر

الخامس عشر: «تندد» بالمثناة الفوقية و النون و إهمال الدالين.

السادس عشر: «تندر» براء بدل الدال الأخيرة مما قبله، و سيأتى دليلهما فى يندد و يندر بالمثناة التحتية، و أن المجد صوّب حذف ما عدا يندر بالتحتية.

الجابرة

السابع عشر: «الجابرة» لعده فى حديث «للمدينة عشرة أسماء» سميت به لأنها تجبر

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۷

الكسير، و تغنى الفقير، و تجبر على الإذعان لمطالعة بركاتها، و شهود آياتها: و جبرت البلاد على الإسلام.

جبار

الثامن عشر: «جبار» كحذام، رواه ابن شبة بدل الجابرة فى الحديث المذكور.

الجبارة

التاسع عشر: «الجبارة» نقله صاحب كتاب أخبار النواحى مع الجابرة و المجبورة عن التوراة.

جزيرة العرب

العشرون: «جزيرة العرب» قال ابن زبالة: كان ابن شهاب يقول: جزيرة العرب المدينة، و سيأتى فى حديث ابن عباس: «خرجت مع رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم من المدينة، فالتفت إليها و قال: إن الله برّأ هذه الجزيرة من الشرك» و نقل الهروى عن مالك أن المراد من حديث «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب» المدينة خاصة، و الصحيح عن مالك كقولنا أن المراد الحجاز.

الجنة الحصينة

الحادى و العشرون: «الجنة الحصينة» بضم الجيم، و هى الوقاية؛ لما حكاه بعضهم من قوله صلّى اللّه عليه و سلّم فى غزوة أحد «أنا فى جنة حصينة- يعنى المدينة- دعوهم يدخلون نقاتلهم» و روى أحمد برجال الصحيح حديث: «رأيت كأنى فى درع حصينة، و رأيت بقرا تنحر، فأولت الدرع الحصينة المدينة» و هذا هو المذكور فى كتب السير.

الحبيبة

الثانى و العشرون: «الحبيبة» لحبه لها صلّى اللّه عليه و سلّم و قال: «اللهم حبّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد» و سيأتى مزيد بيان لذلك فى اسمها المحبوبة.

الحرم

الثالث و العشرون: «الحرم» بالفتح بمعنى الحرام؛ لتحريمها، و فى حديث مسلم «المدينة حرم» و فى رواية «إنها حرم آمن».

حرم رسول اللّه

الرابع و العشرون: «حرم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم» لأنه الذى حرمها، و فى الحديث: «من

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۸

أخاف أهل حرمى أخافه الله»، و روى ابن زبالة حديث: «حرم إبراهيم مكة و حرمى المدينة».

حسنة

الخامس و العشرون: «حسنة» بلفظ مقابل السيئة، قال تعالى: لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً [النحل: ۴۱] قال المفسرون: مباءة حسنة، و هى المدينة، و قيل: حسنة اسم المدينة، و قد اشتملت على الحسن الحسى و المعنوى.

الخيرة

السادس و العشرون: «الخيّرة» بتشديد المثناة التحتية كالنيرة.

السابع و العشرون: «الخيرة» كالذى قبله إلا أن الياء مخففة، تقول: رجل خيّر و خير، و امرأة خيّرة و خيرة، بالتشديد و التخفيف، بمعنى، و هو الكثير الخير، و إذا أردت التفضيل قلت: فلان خير الناس، و فى الحديث: «و المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون» و سيأتى حديث «المدينة خير من مكة».

الدار

الثامن و العشرون: «الدار» لقوله تعالى: وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَ الْإِيمانَ [الحشر: ۹] على ما سبق فى الإيمان، سميت به لأمنها و الاستقرار بها و جمعها البناء و العرصة.

دار الأبرار

التاسع و العشرون: «دار الأبرار». الثلاثون «دار الأخيار» لأنها دار المصطفى المختار، و المهاجرين و الأنصار، و لأنها تنفى شرارها و من أقام بها منهم فليست فى الحقيقة له بدار، و ربما نقل منها بعد الدفن على ما جاء فى بعض الأخبار.

دار الإيمان

الحادى و الثلاثون: «دار الإيمان» كما فى حديث «المدينة قبة الإسلام و دار الإيمان» إذ منها ظهوره و انتشاره، و سيأتى فى حديث «الإيمان يأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها».

دار السنة و نحوها

الثانى و الثلاثون: «دار السنة». الثالث و الثلاثون: «دار السلامة». الرابع و الثلاثون:
«دار الفتح». الخامس و الثلاثون: «دار الهجرة»؛ ففى صحيح البخارى قول عبد الرحمن لعمر رضى الله عنهما «حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة و السنة» و فى رواية الكشميهنى
وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۹
«و السلامة» و قد فتحت منها مكة و سائر الأمصار، و كانت بها عصابة الأنصار، و مهاجرة النبى المختار صلّى اللّه عليه و سلّم و المهاجرين الأبرار، و منها انتشرت السنة فى الأقطار.

ذات الحجر

السادس و الثلاثون: «ذات الحجر» لاشتمالها عليها، قال أبو بكر رضى الله عنه مثنيا على الأنصار: ما وجدت لنا و لهذا الحىّ من الأنصار مثلا إلا ما قال طفيل الغنوى:
أبوا أن يملّونا و لو أنّ أمّنا تلاقى الّذى يلقون منّا لملّت
هم خلطونا بالنّفوس و أولجوا إلى حجرات أدفأت و أظلّت

ذات الحرار

السابع و الثلاثون: «ذات الحرار» لكثرة الحرار بها، و فى قصة خنافر بن التوأم الحميرى الكاهن عن رئيه من الجن و قد وصف له دين الإسلام، فقال له خنافر: من أين أبغى هذا الدين؟ قال: من ذات الأحرين، و النفر الميامين، أهل الماء و الطين، قلت: أوضح، قال: الحق بيثرب ذات النخل و الحرة ذات النعل، قال الأصمعى: أحرون و حرار جمع حرة.

ذات النخل

الثامن و الثلاثون: «ذات النخل» و هو و ذات الحجر مما استعمله المتأخرون فى أشعارهم، و قد نسجت على منوالهم حيث قلت فى

مطلع قصيدة:

أشجان قلبى بذات النّخل و الحجر و أختها تلك ذات الحجر و الحجر

تقسّم القلب بين البلدتين؛ فلا أنفك من لهب الأشواق فى سعر

و فى أحاديث الهجرة «أريت دار هجرتى ذات نخل و حرة»، و قال عمران بن عامر الكاهن يصف البلاد لقومه: و من كان منكم يريد الراسخات فى الوحل، المطعمات فى المحل، فليلحق بالحرة ذات النخل. و روى كما سيأتى بيثرب ذات النخل

السلقة

التاسع و الثلاثون: «السلقة» ذكره أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أمين الأقشهرى فى أسمائها المنقولة عن التوراة، و لم نضبطه، و هو محتمل لفتح اللام و كسرها، و السّلق بالتحريك: القاع الصفصف، و سلقت البيض: أغليته بالنار، و المسلاق: الخطيب البليغ،

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۰

و ربما قيل للمرأة السليطة: سلقة- بكسر اللام- فتسميتها بذلك لاتساعها و بعدها عن جبالها، أو للأوائها، أو لشدة حرها و ما كان بها من الحمى الشديدة، أو لأن الله تعالى سلط أهلها على سائر البلاد فافتتحوها.

سيدة البلدان

الأربعون: «سيدة البلدان» لما أسنده الديلمى من الحلية لأبى نعيم عن ابن عمر مرفوعا «يا طيبة يا سيدة البلدان».

الشافية

الحادى و الأربعون: «الشافية» لحديث «ترابها شفاء من كل داء» و ذكر الجذام و البرص، و لقد شاهدنا من استشفى بترابها من الجذام فنفعه الله به، و الاستشفاء بتربة صعيب من الحمى مشهور، كما سيأتى، و لما صح فى الاستشفاء بتمرها، و ذكر ابن مسدى الاستشفاء من الحمى بكتابة أسمائها و تعليقها على المحموم، و سيأتى أنها تنفى الذنوب فتشفى من دائها.

طابة و طيبة

الثانى و الأربعون: «طابة» بتخفيف الموحدة. الثالث و الأربعون: «طيبة» بسكون المثناة التحتية.

الرابع و الأربعون: «طيّبة» بتشديدها. الخامس و الأربعون: «طائب» ككاتب، و هذه الأربعة مع اسمها المطيبة أخوات لفظا و معنى، مختلفات صيغة و مبنى، و قد صح حديث «إن الله سمى المدينة طابة» و فى رواية «إن الله أمرنى أن أسمى المدينة طابة» و روى ابن شبة و غيره: كانوا يسمون يثرب، فسماها رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم طيبة، و فى حديث «للمدينة عشرة أسماء هى المدينة و طيبة و طابة» و رواه صاحب النواحى بلفظ طابت بدل طيبة، و عن وهب بن منبه: و الله إن اسمها فى كتاب الله- يعنى التوراة- طيبة و طابة، و نقل عن التوراة تسميتها بالمطيبة أيضا، و كذا بطابة و الطيبة، و تسميتها بهذه الأسماء إما من الطيب بتشديد المثناة، و هو الطاهر؛ لطهارتها من أدناس الشرك، أو لموافقتها من قوله تعالى: بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ [يونس: ۲۲] أو لحلول الطيب بها صلّى اللّه عليه و سلّم أو لكونها كالكير تنفى خبثها و ينصع طيبها، و إما من الطيب- بسكون المثناة- لطيب أمورها كلها، و طيب رائحتها، و وجود ريح الطيب بها، قال ابن بطّال: من سكنها يجد من ترتبها و حيطانها رائحة حسنة، و قال الإشبيلى: لتربة المدينة نفحة، ليس طيبها كما عهد من الطيب، بل هو عجب من الأعاجيب، و قال ياقوت:

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۱

من خصائصها طيب ريحها، و للمطر فيها رائحة لا توجد فى غيرها، و ما أحسن قول أبى عبد الله العطار:

بطيب رسول الله طاب نسيمها فما المسك ما الكافور ما المندل الرّطب

ظباب

السادس و الأربعون: «ظباب» ذكره ياقوت، و لم يضبطه، و هو إما بكسر المهملة أو بفتح المعجمة؛ فالأول بمعنى القطعة المستطيلة من الأرض، و الثانى من ظبب و ظبظب إذا حمّ؛ لأنها كانت لا يدخلها أحد إلا حمّ، قاله المجد.

العاصمة

السابع و الأربعون: «العاصمة» لأنها عصمت المهاجرين و وقتهم أذى المشركين، و لما تقدم فى «الجنة الحصينة» و يحتمل: أن يكون بمعنى المعصومة لعصمتها قديما بجيوش موسى و داود عليهما السلام المبعوث إلى من كان بها من الجبابرة، و حفظها حديثا نبى الرحمة صلّى اللّه عليه و سلّم حتى صارت حرما آمنا، لا يدخلها الدجال و لا الطاعون، و من أرادها بسوء أذابه الله.

العذراء

الثامن و الأربعون: «العذراء» بإهمال أوله و إعجام ثانيه، منقول عن التوراة، سميت به لحفظها من وطء العدو القاهر فى سالف الزمان، إلى أن تسلمها مالكها الحقيقى سيد الأنام، مع صعوبتها و امتناعها على الأعداء، و لذلك سميت البكر بالعذراء.

العرّاء

التاسع و الأربعون: «العرّاء» بإهمال أوله و ثانيه و تشديده، بمعنى الذى قبله، قال أئمة اللغة: العراء الجارية العذراء، كأنها شبهت بالناقة العراء التى لا سنام لها و صغر سنامها كصغر نهد العذراء أو عدمه؛ فيجوز أن يكون تسمية المدينة بذلك لعدم ارتفاع أبنيتها فى السماء.

العروض

الخمسون: «العروض» كصبور، و قيل: هو اسم لها و لما حولها؛ لانخفاض مواضع منها و مسائل أودية فيها، و قال الخليل: العروض: طريق فى عرض الجبل، و عرض الرجل إذا أتى المدينة؛ فإن المدينة سميت عروضا لأنها من بلاد نجد، و نجد كلها على خط مستقيم طولانى و المدينة معترضة عنها ناحية على أنها نجدية.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۲۲

الغرّاء

الحادى و الخمسون: «الغرّاء» بالغين المعجمة- تأنيث الأغر، و هو ذو الغرة من الخيل:

أى: البياض فى مقدم وجهه، و الغرة أيضا: خيار كل شىء، و غرة الإنسان: وجهه، و الأغر: الأبيض من كل شىء، و الذى أخذت اللحية جميع وجهه إلا القليل، و من الأيام الشديد الحر، و الرجل الكريم، و الغراء: نبت طيب الرائحة، و السيدة الكبيرة فى قبيلتها؛ فسميت المدينة بذلك لشرف معالمها، و وضوح مكارمها، و اشتهارها، و سطوع نورها، و بياض نورها، و طيب رائحتها، و كثرة نخلها،

و سيادتها على القرى، و كرم أهلها، و رفعة محلها.

غلبة

الثانى و الخمسون: «غلبة» محركة بمعنى الغلب؛ لظهورها و استيلائها على سائر البلاد، و هو اسم قديم جاهلى، قال ابن زبالة: حدثنى داود بن مسكين الأنصارى عن مشيخته قالوا: كانت يثرب فى الجاهلية تدعى غلبة، نزلت اليهود على العماليق فغلبتهم عليها، و نزلت الأوس و الخزرج على اليهود فغلبوهم عليها، و نزل الأعاجم على المهاجرين فغلبوهم عليها، كذا فى النسخة التى وقفت عليها من كتاب ابن زبالة، و نقله المجد عن الزبير بن بكار راوى كتاب ابن زبالة، و قال فيه بدل قوله و نزل الأعاجم: و نزل المهاجرون على الأوس و الخزرج فغلبوهم عليها.

الفاضحة

الثالث و الخمسون: «الفاضحة» بالفاء و الضاد المعجمة و الحاء المهملة- نقله بعضهم عن كراع، و مأخذها ما سيأتى فى معنى كونها تنفى خبثها من أنها تميزه و تظهره فلا يبطن بها أحد عقيدة فاسدة أو يضمر أمرا إلا ظهر عليه، و افتضح به، بخلاف غيرها من البلاد، و قد شاهدنا ذلك كثيرا بها.

القاصمة

الرابع و الخمسون: «القاصمة» بالقاف و الصاد المهملة- نقل عن التوراة سميت به لقصمها كل جبار عناها، و كسر كل متمرد أتاها، و من أرادها بسوء أذابه الله.

قبة الإسلام

الخامس و الخمسون: «قبة الإسلام» لحديث «المدينة قبة الإسلام».

قرية الأنصار

السادس و الخمسون: «قرية الأنصار» قال ابن سيدة: القرية- بفتح القاف و كسرها-

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۲۳

المصر الجامع، من قريت الماء فى الحوض، إذا جمعته، و قال أبو هلال العسكرى:

العرب تسمى كل مدينة صغرت أو كبرت قرية، قلت: و سيأتى فى معنى «المدينة» ما يقتضى أنه يعتبر فى مسماها زيادتها على القرية و نقصها على المصر، و قيل: يطلق عليه، و الأنصار: واحدهم ناصر، سموا بذلك لنصرهم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و إيوائهم له و للمهاجرين، فمدحهم الله بقوله: وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا [الأنفال: ۷۲] فسماهم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم الأنصار، و كان يقال لهم قبل ذلك الأوس و الخزرج، و فى الحديث عن غيلان بن جرير قال: قلت لأنس بن مالك: أ رأيتم اسم الأنصار، كنتم تسمون به أم سماكم الله؟ قال: بل سمانا الله. و سيأتى فى حديث «إن الله قد طهر هذه القرية من الشرك» فلك أن تعده اسما آخر.

قرية رسول الله

السابع و الخمسون: «قرية رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم» لما سيأتى فى عصمتها من الدجال من قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «ثم يسير حتى يأتى المدينة، و لا يأذن له فيها؛ فيقول: هذه قرية ذاك الرجل» يعنى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم.

قلب الإيمان

الثامن و الخمسون: «قلب الإيمان» أورده ابن الجوزى فى الوفاء فى حديث «المدينة قبة الإسلام».

المؤمنة

التاسع و الخمسون: «المؤمنة» إما لتصديقها بالله حقيقة كذوى العقول؛ إذ لا بعد فى خلق الله تعالى قوة فى الجماد قابلة للتصديق و التكذيب، و قد سمع تسبيح الحصى فى كفه صلّى اللّه عليه و سلّم أو مجازا لاتصاف أهلها بذلك، و لانتشار الإيمان منها، و اشتمالها على أوصاف المؤمن من النفع و البركة و عدم الضرر و المسكنة، و إما لإدخالها أهلها فى الأمان من الأعداء، و أمنهم من الدجال و الطاعون، و روى ابن زبالة فى حديث «و الذى نفسى بيده إن ترتبها لمؤمنة» و روى «أنها مكتوبة فى التوراة مؤمنة».

المباركة

الستون: «المباركة»؛ لأن الله تعالى بارك فيها بدعائه صلّى اللّه عليه و سلّم لحديث «اللهم اجعل

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۴

بالمدينة ضعفى ما جعلت بمكة من البركة» و غيره من الأحاديث الصحيحة الكثيرة، و آثار تلك الدعوات من الأمور الظاهرات.

مبوأ الحلال و الحرام

الحادى و الستون: «مبوّأ الحلال و الحرام» رواه الطبرانى فى حديث «المدينة قبة الإسلام» و التبوؤ: التمكن و الاستقرار، سميت به لأنها محل تمكن هذين الحكمين و استقرارهما، و فى بعض النسخ «مثوى» بالمثلاثة الساكنة بدل الموحدة، و الأول هو الذى رأيته بخط الحافظ أبى الفتح المراغى.

مبين الحلال و الحرام

الثانى و الستون: «مبين الحلال و الحرام» رواه ابن الجوزى و السيد أبو العباس القرافى فى حديث «المدينة قبة الإسلام» بدل الذى قبله، سميت به لأنها المحل الذى ابتدأ فيه ببيان الحلال و الحرام.

المجبورة

الثالث و الستون: «المجبورة» بالجيم- ذكره فى حديث «للمدينة عشرة أسماء» و نقل عن الكتب المتقدمة، و سميت به لأن الله تعالى جبرها بسكنى نبيه و صفيه صلّى اللّه عليه و سلّم حيا و ضمها لأعضائه الشريفة ميتا بعد نقل حمّاها، و تطييب مغناها، و الحث على سكناها، و تنزل البركات بمدها و صاعها؛ فهى بهذا السر الشريف مسرورة، و بهذه المنح العظيمة محبورة، تسحب ذيل الفخار، على سائر الأقطار.

المحبة

الرابع و الستون: «المحبة» بضم الميم و بالحاء المهملة و تشديد الموحدة- نقل عن الكتب المتقدمة.

المحبّبة

الخامس و الستون: «المحببة» بزيادة موحدة على ما قبله.

المحبوبة

السادس و الستون: «المحبوبة» نقل عن الكتب المتقدمة أيضا، و هذه ثلاثة مع ما تقدم من اسمها الحبيبة من مادة واحدة، سميت بذلك لما تقدم من حبه صلّى اللّه عليه و سلّم لها و دعائه بذلك، و جاء ما يقتضى أنها أحب البقاع إلى الله تعالى، و يؤيده أنه تعالى اختارها لحبيبه صلّى اللّه عليه و سلّم حيّا و ميتا؛ فهى محبوبة إلى الله تعالى و رسوله و سائر المؤمنين، و لهذا ترتاح النفوس لذكرها، و تهيم القلوب لشهود سرها.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۲۵

المحبورة

السابع و الستون: «المحبورة» من الحبر، و هو السرور، و كذلك الحبر و الحبور و الحبرة، لما تقدم فى الحبورة، أو هو من الحبرة بمعنى النعمة، و الحبرة أيضا المبالغة فيما وصف بجميل، و المحبار من الأرض: السريعة النبات الكثيرة الخيرات.

المحرمة

الثامن و الستون: «المحرمة» لما سيأتى فى تحريمها.

المحفوفة

التاسع و الستون: «المحفوفة» لأنها محفوفة بالبركات، و ملائكة السموات، محفوظة من المخاوف و الأوجال، و على أبوابها و أنقابها الملائكة يحرسونها من الطاعون و الدجال، و سيأتى حديث «المدينة و مكة محفوفتان بالملائكة، على كل نقب منها ملك، لا يدخلها الدجال و لا الطاعون».

المحفوظة

السبعون: «المحفوظة» لأن الله تعالى حفظها من الدجال و الطاعون و غيرهما، و فى حديث «القرى المحفوظة أربع» و ذكر المدينة منها، و فى حديث آخر رويناه فى فضائل المدينة للمفضل الجندى «المدينة مشتبكة بالملائكة، على كل نقب منها ملك يحرسها» فلك أن تسميها المحروسة أيضا.

المختارة

الحادى و السبعون: «المختارة» لأن الله تعالى اختارها للمختار من خلقه فى حياته و مماته.

مدخل صدق

الثانى و السبعون: «مدخل صدق» قال الله تعالى: وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِی مُدْخَلَ صِدْقٍ [الإسراء: ۸۰]، قال بعض المفسرين: مدخل صدق: المدينة، و مخرج صدق: مكة،

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۲۶

و سلطانا نصيرا: الأنصار، و روى ذلك عن زيد بن أسلم، و يدل له ما رواه الترمذى و صححه فى سبب نزول الآية.

المدينة

الثالث و السبعون: «المدينة». الرابع و السبعون: «مدينة الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم» من مدن بالمكان إذا أقام، أو من دان إذا أطاع، فالميم زائدة؛ لأن السلطان يسكن المدن فتقام له طاعة فيها، أو لأن الله تعالى يطاع فيها، و المدينة: أبيات مجتمعة كثيرة تجاوز حد القرى كثرة و عمارة، و لم تبلغ حد الأمصار، و قيل: يقال لكل مصر. و المدينة و إن أطلق على أماكن كثيرة فهو علم مدينة الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم و هجر كونه علما فى غيرها، بحيث إذا أطلق لا- يتبادر إلى الفهم غيرها؛ و لا يستعمل فيها إلا معرفة، قيل: لأنه صلّى اللّه عليه و سلّم سكنها، و له دانت الأمم و لأمته، و النكرة اسم لكل مدينة، و قد نسبوا للكل مدينى، و إلى مدينة الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم مدنى، للفرق، و تسميتها بذلك متكررة فى القرآن العظيم، و نقل عن التوراة.

المرحومة

الخامس و السبعون: «المرحومة» نقل عن التوراة، سميت به لأنها دار المبعوث رحمة للعالمين، و محل تنزيل الرحمة من أرحم الراحمين، و أول بلد رحمت بسيد المرسلين صلّى اللّه عليه و سلّم.

المرزوقة

السادس و السبعون: «المرزوقة» لأن الله تعالى رزقها أفضل الخلق فسكنها، أو المرزوق أهلها أرزاقا حسية و معنوية و من فوقهم و من تحت أرجلهم، و لا يخرج أحد منها رغبة عنها إلا أبدلها الله خيرا منه كما جاء فى الحديث.

مسجد الأقصى

السابع و السبعون: «مسجد الأقصى» نقله التادلى فى منسكه عن صاحب المطالع.

المسكينة

الثامن و السبعون: «المسكينة» نقل عن التوراة، و ذكر فى حديث «للمدينة عشرة أسماء» و روى عن على يرفعه «إن الله تعالى قال للمدينة: يا طيبة، يا طابة، يا مسكينة، لا تقبلى الكنوز، أرفع أجاجيرك على أجاجير القرى» عن كعب أنه وجد ذلك فى التوراة،

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۲۷

و الأجاجير: السطوح، و أصل المسكنة الخضوع، فسميت بذلك إما لأن الله تعالى خلق فيها الخضوع و الخشوع له، و إما لأنها مسكن المساكين، سكنها كل خاضع و خاشع، و فى الحديث «اللهم أحينى مسكينا، و أمتنى مسكينا، و احشرنى فى زمرة المساكين».

المسلمة

التاسع و السبعون: «المسلمة» كالمؤمنة، و قد قدمناه، و الإسلام يطلق على الانقياد و الانقطاع إلى الله تعالى، فسميت بذلك إما لأن الله تعالى خلق فيها الانقياد و الانقطاع إليه، و إما لانقياد أهلها بالطاعة و الاستسلام، و فتح بلدهم بالقرآن، لا بالسيف و السهام، و انقطاعهم إلى الله و رسوله، و تبتلهم لنصره و تحصيل سوله.

مضجع الرسول

الثمانون: «مضجع رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم» لما سيأتى فى حفظ أهلها و إكرامهم من قوله صلّى اللّه عليه و سلّم «المدينة مهاجرى و مضجعى فى الأرض».

المطيبة

الحادى و الثمانون: «المطيّبة» بضم أوله و فتح ثانيه- تقدم مع أخواته فى الطيبة.

المقدسة

الثانى و الثمانون: «المقدسة» لتنزّهها و لطهارتها من الشرك و الخبائث، و لأنها يتبرك بها و يتطهر عن أرجاس الذنوب و الآثام.

المقر

الثالث و الثمانون: «المقرّ» بالقاف: من القرار كما رأيته فى بعض كتب اللغة و سيأتى فى دعائه صلّى اللّه عليه و سلّم لها قوله: «اللهم اجعل لنا بها قرارا و رزقا حسنا».

المكتان

الرابع و الثمانون: «المكّتان» قال سعد بن أبى سرح فى حصار عثمان:

أرى الأمر لا يزداد إلّا تفاقما و أنصارنا بالمكّتين قليل

و قال نصر بن حجاج فيما كتب به إلى عمر رضى الله عنه بعد نفيه إياه من المدينة لما سمع امرأة تترنم به فى شعرها لجماله:

حقّقت بى الظّنّ الذى ليس بعده مقام؛ فما لى بالنّدىّ كلام

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۲۸

فأصبحت منفيّا على غير ريبة و قد كان لى بالمكّتين مقام

و الظاهر: أن المراد المدينة؛ لأن قصة عثمان و نصر بن حجاج كانتا بها، و أطلق ذلك لانتقال أهل مكة أو غالبهم إليها و انضمامهم إلى أهلها، و قد ذكر البرهان القيراطى المكتين فى أسماء مكة، قال التقى الفاسى: و لعله أخذه من قول ورقة بن نوفل:

ببطن المكتين على رجائى

قال السهيلى: ثنّى مكة- و هى واحدة- لأن لها بطاحا و ظواهر، و إنما مقصد العرب فى هذه الإشارة إلى جانبى كل بلدة، أو أعلى البلد و أسفلها، فيجعلونها اثنين على هذا المعنى، انتهى. و يحتمل أن تكون التثنية فيما استشهدنا به من قبيل التغليب و أن المراد مكة و المدينة، فيسقط الاستشهاد به.

المكينة

الخامس و الثمانون: «المكينة» لتمكنها فى المكانة و المنزلة عند الله تعالى.

مهاجر الرسول

السادس و الثمانون: «مهاجر رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم»؛ لقوله: «المدينة مهاجرى».

الموفية

السابع و الثمانون: «الموفّية» بتشديد الفاء- من التوفية، و يجوز تخفيفها، إذ التوفية و الإيفاء بمعنى؛ سميت به لتوفيتها حق الواردين، و إحسانها نزل الوافدين حسّا و معنى، أو لأن سكانها من الصحابة الموفون بما عاهدوا الله عليه.

الناجية

الثامن و الثمانون: «الناجية» بالجيم من نجا إذا خلص أو أسرع، أو من نجاه و ناجاه سارّه، أو من النّجوة للأرض العالية، سميت بذلك لنجاتها من العتاة و الطاعون و الدجال، و لإسراعها فى الخيرات، و سبقها إلى حيازة السبق بأشرف المخلوقات، و لارتفاع شأنها بين الورى، و رفع أجاجيرها على أجاجير القرى.

نبلاء

التاسع و الثمانون: «نبلاء» نقل من كراع، و أظنه بفتح النون و سكون الموحدة ممدودا، من النبل- بالضم و السكون- و هو الفضل و النجابة، و يقال: امرأة نبيلة فى الحسن، بينة النبالة، و أنبل النخل: أرطب، و النّبلة- بالضم- الثواب و الجزاء و العطية.
وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۲۹

النحر

التسعون: «النحر» بفتح النون و سكون الحاء المهملة- سميت به إما لشدة حرها، كما يقال: نحر الظهيرة، و لذا شاركتها مكة فيه، و إما لإطلاق النحر على الأصل، و هما أساس بلاد الإسلام و أصلها.

الهذراء

الحادى و التسعون: «الهذراء» ذكره ابن النجار بدل العذراء نقلا عن التوراة، و تبعه جماعة كالمطرى؛ فلذلك أثبتناه، و إن كان الصواب إسقاطه كما بيناه فى الأصل، و قد رويناه فى كلام من أثبته بالذال المعجمة، فالتسمية به لشدة حرها، يقال: يوم هاذر شديد الحر، أو لكثرة مياهها و سوانيها المصوّتة عند سوقها، يقال: هذر فى كلامه، إذا أكثره، و الهذر- محركا- الكثير الردىء، و يحتمل أن يكون بالمهملة من «هدر الحمام» إذا صوّت، و الماء انصب و انهمر، و العشب طال، و أرض هادرة: كثيرة النبات.

يثرب

الثانى و التسعون: «يثرب» لغة فى أثرب، و قد تقدم الكلام عليه فيه، و ليست المذكورة فى قول الشاعر:
و عدت و كان الخلف منك سجيّة مواعيد عرقوب أخاه بيترب

لأن المجد قال: أجمعوا فيه على تثنية التاء و فتح الراء، و قال: هى مدينة بحضرموت، قيل: كان بها عرقوب صاحب المواعيد، مع أن المجد صحّح أنه من قدماء يهود مدينة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و فى مشارق عياض قيل: إن يثرب المذكورة فى البيت مثل يثرب المدينة النبوية، و قيل: قرية باليمامة، و قيل: إنما هى يترب بمثناة فوقية وراء مفتوحة اسم تلك القرية، و قيل: اسم قرية من بلاد بنى سعد من تميم، كما اختلف فى عرقوب هذا؛ فقيل: رجل من الأوس من أهل المدينة، و قيل: من العماليق أهل اليمامة، و قيل: من بنى سعد المذكورين اه. و أما قول هند بنت عتبة:

لنهبطنّ يثربه بغارة منشعبه

فالظاهر أن الهاء فيه للسكت، فلس اسما آخر.

يندد

الثالث و التسعون: «يندد» ذكره كراع هكذا بالمثناة التحتية و دالين، و هو إما من النّدّ

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۳۰

و هو الطيب المعروف، و قيل: العنبر، أو من النّد للتل المرتفع، أو من الناد و هو الرزق.

يندر

الرابع و التسعون: «يندر» بإبدال الدال الأخيرة من الاسم قبله راء، ذكره المجد عند سرد الأسماء، و لم يتكلم عليه بعد، لما سنذكره، و إنباته لوقوعه كذلك فى حديث «للمدينة عشرة أسماء» فى بعض الكتب، و فى بعضها بمثناة فوقية و دالين، و فى بعضها كذلك مع إبدال الدال الأخيرة راء؛ فتحرر من مجموع ذلك أربعة أسماء: اثنان بالمثناة التحتية، و اثنان بالفوقية، و ذلك المستند فى تقديمها فى محلها، و قال المجد: إن ذلك كله تصحيف، و إن الصواب يندد بالمثناة التحتية و دالين، و فيه نظر؛ لأن الزركشى عند ذكر أسماء المدينة جمع بين اثنين من هذه الأربعة و قال: ذكرهما البكرى؛ فيحتمل ثبوت الأخيرين، و حديث «للمدينة عشرة أسماء» رواه ابن شبة من طريق عبد العزيز بن عمران، و سردها فيه ثمانية فقط، ثم روى من طريقه أيضا عن عبد اللّه بن جعفر بن أبى طالب سمى اللّه المدينة الدار و الإيمان، قال: و جاء فى الحديث الأول ثمانية أسماء، و جاء فى هذا اسمان، فاللّه أعلم أ هما تمام العشرة أم لا اه. و رواه ابن زبالة كذلك إلا أنه سرد تسعة فزاد اسم الدار، و أسقط العاشر، و نقل ابن زبالة أن عبد العزيز بن محمد الدراوردى قال: بلغنى أن للمدينة فى التوراة أربعين اسما، و اللّه أعلم.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۳۱

الباب الثانى

اشارة

فى فضائلها، و بدء شأنها و ما يؤول إليه أمرها، و ظهور النار المنذر بها من أرضها، و انطفائها عند الوصول إلى حرمها، و فيه ستة عشر فصلا.

الفصل الأول فى تفضيلها على غيرها من البلاد

مكة أفضل أم المدينة

قد انعقد الإجماع على تفضيل ما ضم الأعضاء الشريفة، حتى على الكعبة المنيفة، و أجمعوا بعد على تفضيل مكة و المدينة على سائر البلاد، و اختلفوا أيهما أفضل؛ فذهب عمر بن الخطاب و ابنه عبد الله و مالك بن أنس و أكثر المدنيين إلى تفضيل المدينة، و أحسن بعضهم فقال: محل الخلاف فى غير الكعبة الشريفة، فهى أفضل من المدينة ما عدا ما ضم الأعضاء الشريفة إجماعا، و حكاية الإجماع على تفضيل ما ضم الأعضاء الشريفة نقله القاضى عياض، و كذا القاضى أبو الوليد الباجى قبله كما قال الخطيب ابن جملة، و كذا نقله أبو اليمن ابن عساكر و غيرهم، مع التصريح بالتفضيل على الكعبة الشريفة، بل نقل التاج السبكى عن ابن عقيل الحنبلى أن تلك البقعة أفضل من العرش.

و قال التاج الفاكهى: قالوا: لا خلاف أن البقعة التى ضمت الأعضاء الشريفة أفضل بقاع الأرض على الإطلاق حتى موضع الكعبة، ثم قال: و أقول أنا: أفضل بقاع السموات أيضا، و لم أر من تعرض لذلك، و الذى أعتقده أن ذلك لو عرض على علماء الأمة لم يختلفوا فيه، و قد جاء أن السموات تشرفت بمواطئ قدميه صلّى اللّه عليه و سلّم بل لو قال قائل: إن جميع بقاع الأرض أفضل من جميع بقاع السماء شرفها لكون النبى صلّى اللّه عليه و سلّم حالّا فيها لم يبعد، بل هو عندى الظاهر المتعين.

الأرض أفضل أم السماء؟

قلت: و قد صرح بما بحثه من تفضيل الأرض على السماء ابن العماد نقلا عن الشيخ تاج الدين إمام الفاضلية.

قال: و قالوا: إن الأكثرين عليه؛ لأن الأنبياء خلقوا من الأرض و عبدوا الله فيها، و دفنوا بها اه.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۳۲

و قال النووى: المختار الذى عليه الجمهور أن السموات أفضل من الأرض، و قيل:

إن الأرض أشرف؛ لأنها مستقر الأنبياء و مدفنهم، و هو ضعيف.

قلت: و كأن وجه تضعيفه للثانى أن الكلام عن مطلق الأرض، و لا يلزم من تفضيل بعضها لكونها مدفن الأنبياء تفضيل كلها، و ضعف أيضا بأن أرواح الأنبياء فى السموات و الأرواح أفضل من الأجساد، و جوابه ما سنحققه إن شاء الله تعالى من حياة الأنبياء فى قبورهم، صلوات الله و سلامه عليهم.

و قال شيخنا المحقق ابن إمام الكاملية فى تفسير سورة الصف: و الحق أن مواضع الأنبياء و أرواحهم أشرف من كل ما سواها من الأرض و السماء، و محل الخلاف فى غير ذلك كما كان يقرره شيخ الإسلام البلقينى.

قال الزركشى: و تفضيل ما ضم الأعضاء الشريفة للمجاورة، و لهذا يحرم للمحدث مس جلد المصحف.

عود لتفضيل مكة أو المدينة

اشارة

قال القرافى: و لما خفى هذا المعنى على بعض الفضلاء أنكر حكاية الإجماع على تفضيل ما ضم الأعضاء الشريفة، و قال: التفضيل إنما هو بكثرة الثواب على الأعمال، و العمل على قبر رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم محرم، قال: و لم يعلم أن أسباب التفضيل أعم من الثواب، و الإجماع منعقد على التفضيل بهذا الوجه لا بكثرة الثواب، و يلزمه أن لا يكون جلد المصحف- بل و لا المصحف نفسه- أفضل من غيره لتعذر العمل فيه، و هو خرق للإجماع.

قلت: و ما ذكره من التفضيل بالمجاورة مسلّم، لكن ما اقتضاه من عدم التفضيل لكثرة الثواب فى ذلك ممنوع لما سنحققه.

كلام للعز بن عبد السلام

و أصل الإشكال لابن عبد السلام فإنه قال فى أماليه: تفضيل مكة على المدينة أو عكسه معناه أن الله يرتب على العمل فى إحداهما من الثواب أكثر مما يرتبه على العمل فى الأخرى؛ فيشكل قول القاضى عياض: أجمعت الأمة على أن موضع القبر الشريف أفضل؛ إذ لا يمكن أحد أن يعبد الله فيه.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۳۳

كلام للتقى السبكى

قال التقى السبكى: و قد رأيت جماعة يستشكلون نقل هذا الإجماع، و قال لى قاضى القضاة السروجى الحنفى: طالعت فى مذهبنا خمسين تصنيفا فلم أجد فيها تعرضا لذلك، قال السبكى: و قد وقفت على ما ذكره ابن عبد السلام من أن الأزمان و الأماكن كلها متساوية، و يفضلان بما يقع فيهما، لا بصفات قائمة بها، و يرجع تفضيلها إلى ما ينيل الله العباد فيهما، و أن التفضيل الذى فيهما أن الله يجود على عباده بتفضيل أجر العاملين فيهما، قال السبكى: و أنا أقول: قد يكون التفضيل لذلك، و قد يكون لأمر آخر فيهما، و إن لم يكن عمل؛ فإن القبر الشريف ينزل عليه من الرحمة و الرضوان و الملائكة، و له عند الله من المحبة، و لساكنه ما تقصر العقول عن إدراكه، و ليس ذلك لمكان غيره، فكيف لا يكون أفضل الأماكن؟ و ليس محل عمل لنا، فهذا معنى غير تضعيف الأعمال فيه، و أيضا فباعتبار ما قيل: إن كل أحد يدفن بالموضع الذى خلق منه، و أيضا فقد تكون الأعمال مضاعفة فيها باعتبار أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم حى، و أن أعماله مضاعفة أكثر من كل أحد؛ فلا يختص التضعيف بأعمالنا نحن.

قلت: و هذا من النفاسة بمكان، على أنى أقول: الرحمات و البركات النازلة بذلك المحل يعم فيضها الأمة، و هى غير متناهية؛ لدوام ترقياته عليه الصلاة و السلام، و ما تناله الأمة بسبب نبيها هو الغاية فى الفضل، و لذا كانت خير أمة بسبب كون نبيها خير الأنبياء، فكيف لا يكون القبر الشريف أفضل البقاع مع كونه منبع فيض الخيرات؟ أ لا ترى أن الكعبة على رأى من منع الصلاة فيها ليست محل عملنا، أ فيقول عاقل بتفضيل المسجد حولها عليها لأنه محل العمل مع أن الكعبة هى السبب فى إنالة تلك الخيرات؟ و أيضا فاهتمامه صلّى اللّه عليه و سلّم بأمر أمته معلوم، و إقبال الله عليه دائم، و هو بهذا المحل الشريف، فتكثر شفاعته فيه لأمته و أمداده إياهم، و قد ورد فى حديث «وفاتى خير لكم» و جاء بيان ذلك بأن «أعمالكم تعرض علىّ؛ فإن رأيت خيرا حمدت الله، و إن رأيت غير ذلك استغفرت لكم» و فى رواية «استوهبت الله ذنوبكم» و له شواهد تقويه، و سيأتى فى الباب الثامن أن المجىء المذكور فى قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ [النساء: ۶۴] الآية حاصل بالمجىء إلى قبره الشريف أيضا، فزيارته و المجاورة عنده من أفضل القربات، و عنده تجاب الدعوات، و تحصل الطلبات، فقد جعله الله تعالى سببا فى ذلك أيضا، فهو روضة من رياض الجنة، بل أفضل رياضها، و قد قال صلّى اللّه عليه و سلّم: «لقاب قوس

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۳۴

أحدكم فى الجنة خير من الدنيا و ما فيها» بل لو تعلق متعلق بما قررناه من كون القبر الشريف منبع جميع الخيرات و هو بالمدينة فتكون هى أفضل لكان له وجه.

و قد قال الحكيم الترمذى فى نوادره: سمعت الزبير بن بكار يقول: صنّف بعض أهل المدينة فى المدينة كتابا، و صنف بعض أهل مكة فى مكة كتابا، فلم يزل كل واحد منهما يذكر بقعته بفضيلة، يريد كل واحد منهما أن يبرز على صاحبه بها، حتى برز المدنى على المكى فى خلّة واحدة عجز عنها المكى، و أن المدنى قال: إذ كل نفس إنما خلقت من تربته التى يدفن فيها بعد الموت، و كان نفس الرسول إنما خلقت من تربة المدينة؛ فحينئذ تلك التربة لها فضيلة بارزة على سائر الأرض.

يخلق الإنسان من تربة الأرض التى يدفن فيها

قلت: و يدل لما ذكر من أن النفس تخلق من تربة الدفن ما رواه الحاكم فى مستدركه و قال صحيح و له شواهد صحيحة عن أبى سعيد، قال: «مرّ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عند قبر، فقال: قبر من هذا؟ فقالوا: فلان الحبشى يا رسول الله، فقال: لا إله إلا الله، سيق من أرضه و سمائه إلى التربة التى منها خلق» و رواه الحكيم الترمذى بنحوه عن أبى هريرة، و رواه البزار عن أبى سعيد بنحوه، و فيه عبد الله والد ابن المدينى و هو ضعيف، و روى الطبرانى فى الأوسط نحوه عن أبى الدرداء، و فيه الأحوص بن حكيم، وثّقه العجلى، و ضعفه الجمهور، و روى فى الكبير أيضا نحوه عن ابن عمر، و قال الذهبى فى بعض رواته:

ضعفوه، و أسند ابن الجوزى فى الوفاء عن كعب الأحبار: لما أراد الله عز و جل أن يخلق محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم أمر جبريل فأتاه بالقبضة البيضاء التى هى موضع قبره صلّى اللّه عليه و سلّم فعجنت بماء التسنيم، ثم غمست فى أنهار الجنة، و طيف بها فى السموات و الأرض، فعرفت الملائكة محمدا و فضله قبل أن تعرف آدم عليه السلام، و سيأتى لهذا مزيد بيان فى سرد خصائصها.

و قال الحكيم الترمذى فى حديث: «إذا قضى الله لعبد أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة: "إنما صار أجله هناك لأنه خلق من تلك البقعة، و قد قال الله تعالى: مِنْها خَلَقْناكُمْ وَ فِيها نُعِيدُكُمْ [طه: ۵۵] الآية، قال: فإنما يعاد المرء من حيث بدئ منه، قال: و روى أن الأرض عجّت إلى ربها لما أخذت تربة آدم عليه السلام، فقال لها: سأردها إليك، فإذا مات دفن فى البقعة التى منها تربته.

و عن يزيد الجريرى قال: سمعت ابن سيرين يقول: لو حلفت حلفت صادقا بارّا غير شاك و لا مستثن أن الله تعالى ما خلق نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم و لا أبا بكر و لا عمر إلا من طينة واحدة ثم ردهم إلى تلك الطينة.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۳۵

و روى ابن الجوزى فى الوفاء عن عائشة قالت: لما قبض النبى صلّى اللّه عليه و سلّم اختلفوا فى دفنه؛ فقالوا: أين يدفن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم؟ فقال على: إنه ليس فى الأرض بقعة أكرم على الله من بقعة قبض فيها نفس نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم و روى يحيى أن عليا قال لما اختلفوا: لا يدفن إلا حيث توفاه الله عز و جل، و أنهم رضوا بذلك.

قلت: و يؤخذ مما قاله على مستند نقل الإجماع السابق على تفضيل القبر الشريف؛ لسكوتهم عليه، و رجوعهم إلى الدفن به.

و لما قال الناس لأبى بكر رضى الله عنه: يا صاحب رسول الله، أين يدفن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم؟ قال: فى المكان الذى قبض الله تعالى روحه فيه؛ فإن الله لم يقبض روحه إلا فى مكان طيب، رواه الترمذى فى شمائله، و النسائى فى الكبرى، و إسناده صحيح، و رواه أبو يعلى الموصلى، و لفظه: سمعت رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «لا يقبض النبى إلا فى أحب الأمكنة إليه».

قلت: و أحبها إليه أحبها إلى ربه؛ لأن حبه تابع لحب ربه إلا أن يكون حبه عن هوى نفس، و ما كان أحب إلى الله و رسوله كيف لا يكون أفضل، و لهذا أخذت تفضيل المدينة على مكة من قوله صلّى اللّه عليه و سلّم كما فى الصحيح: «اللهم حبّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد» أى بل أشد، أو و أشد، كما روى به، و من إجابة دعوته صلّى اللّه عليه و سلّم كان يحرك دابته إذا رآها من حبها.

و قد روى الحاكم فى مستدركه حديث: «اللهم إنك أخرجتنى من أحب البقاع إلى، فأسكنّى فى أحب البقاع إليك» و فى بعض طرقه أنه صلّى اللّه عليه و سلّم قاله حين خرج من مكة، و فى بعضها أنه وقف بالحزورة، و فى بعضها بالحجون فقاله، و قد ضعفه ابن عبد البر.

قيل: و لو سلمت صحته فالمراد أحب البقاع إليك بعد مكة؛ لحديث: «إن مكة خير بلاد الله» و فى رواية: «أحب أرض الله إلى الله» و لأنه قد صح لمسجد مكة من المضاعفة زيادة على ما صح لمسجد المدينة كما سيأتى.

قلت: فيما قدمناه من دعائه صلّى اللّه عليه و سلّم بحبها أشد من حب مكة مع ما أشرنا إليه من إجابة دعائه صلّى اللّه عليه و سلّم و من أنه تعالى لا يجعلها أحب إلى نبيه إلا بعد جعلها أحب إليه تعالى غنية عن صحة هذا الحديث، و كون المراد منه ما ذكر خلاف

الظاهر، و ما ذكر لا يصلح مستندا فى

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۳۶

الصرف عن الظاهر؛ لأنه صلّى اللّه عليه و سلّم قصد به الدعاء للدار التى تكون هجرته إليها، فطلب من الله أن يصيرها أحب البقاع إليه تعالى، و الحب من الله تعالى إنالة الخير و التعظيم للمحبوب، و هذا يمكن تجدده بعد أن لم يكن، و قوله: «إن مكة خير بلاد الله و أحبها إليه» محمول على أنه صلّى اللّه عليه و سلّم قاله فى بدء الأمر قبل ثبوت الفضل للمدينة، فلما طالت إقامته صلّى اللّه عليه و سلّم بالمدينة و أظهر الله دينه، و تجدد لها ما سيأتى من الفضائل حتى عاد نفعها على مكة، فافتتحها الله و سائر بلاد الإسلام منها؛ فقد أنالها الله تعالى و أنال بها من الخير ما لم ينله غيرها من البلاد، و ظهر إجابة الدعوة الكريمة، و أنها صارت خير أرض الله و أحبها إليه بعد ذلك، و لهذا لم يعد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إلى مكة بعد فتحها.

فإن قيل: إنما لم يعد إليها لأن الله افترض عليه المقام بدار هجرته.

قلنا: لم يكن الله ليفترض عليه المقام بها إلا و هى أفضل؛ لكرامته عنده، و قد حثّ صلّى اللّه عليه و سلّم على الاقتداء به فى سكناها و الإقامة بها، و قال: «و المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون».

فإن قيل: قال التقى الفاسى: ظن بعض أهل عصرنا أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إن مكة خير بلاد الله» حين خرج من مكة للهجرة، و ليس كذلك؛ لأن فى بعض طرق الحديث أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال ذلك و هو على راحلته بالحزورة، و هو لم يكن بهذه الصفة حين هاجر؛ لأن الأخبار تقتضى أنه خرج من مكة مستخفيا، و لو ركب بالموضع المشار إليه- و هو الذى يقول له عوام مكة عزوة- لأشعر ذلك بسفره.

قلنا: جاء فى رواية لابن زبالة أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم حين أمره الله بالخروج قال: «اللهم إنك أخرجتنى» الحديث، و قد وقع فى رواية لابن حبان فى حديث الهجرة «فركبا- يعنى هو و أبو بكر- حتى أتيا الغار- و هو ثور- فتواريا فيه» و سيأتى فى أحاديث الهجرة ما يقتضى أنهما توجها إلى الغار ليلا بعد أن ذرّ صلّى اللّه عليه و سلّم ترابا على رءوس جماعة من الكفار كانوا يرصدونه، و قرأ أوائل يس يستتر بها منهم، فلم يروه، فلا يمتنع أن يكون راكبا فى هذا الموضع.

و أما أمر مزيد المضاعفة لمسجد مكة، فجوابه أن أسباب التفضيل لا تنحصر فى المضاعفة، أ لا ترى أن فعل الصلوات الخمسة للمتوجه إلى عرفات و ظهر يوم النحر بمنى أفضل من فعلها بمسجد مكة، و إن اشتمل فعلها بالمسجد على المضاعفة إذ فى الاتّباع ما يربو عليها، و لهذا قال عمر رضى الله عنه بمزيد المضاعفة لمسجد مكة كما سيأتى مع قوله بتفضيل المدينة، و غايته أن للمفضول مزية ليست للفاضل، و يؤيد ذلك ما سيأتى مع أن المضاعفة تعم الفرض و النفل، و أن النفل بالبيت أفضل، على أنه إن أريد بالمسجد الحرام فى حديث المضاعفة الكعبة فقط كما ستأتى الإشارة إليه، فالجواب أن الكلام فيما

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۳۷

عداها، مع أن دعاءه صلّى اللّه عليه و سلّم للمدينة بضعفى ما بمكة من البركة، و مع البركة بركتين شامل للأمور الدينية و الدنيوية، و قد يبارك فى العدد القليل فيربو نفعه على الكثير، و لهذا استدل به على تفضيل المدينة لأكثرية المدعو به لها من البركة الشاملة.

و لا يرد على ما قررناه ما جاء فى فضل الكعبة الشريفة؛ إذ الكلام فيما عداها، و لهذا روى مالك فى الموطأ أن عمر رضى الله عنه قال لعبد الله بن عياش المخزومى: أنت القائل لمكة خير من المدينة؟ فقال عبد الله: هى حرم الله و أمنه، و فيها بيته، فقال عمر:

لا- أقول فى حرم الله و لا فى بيت الله شيئا، ثم قال عمر: أنت القائل لمكة خير من المدينة؟ فقال عبد الله: هى حرم الله و أمنه، و فيها بيته، فقال عمر: لا أقول فى حرم الله و لا فى بيت الله شيئا، ثم انصرف، و فى رواية لرزين: فاشتد على ابن عياش، فانصرف.

و لا يرد أيضا ما بمكة من مواضع النسك؛ لتعلق النسك بالكعبة، و أيضا فقد عوّض الله المدينة عن العمرة ما سيأتى فى مسجد قباء، و عن الحج ما سيأتى مرفوعا:

«من خرج لا يريد إلا الصلاة فى مسجدى حتى يصلى فيه كان بمنزلة حجة»، و هذا أعظم؛ لكونه أيسر، و يتكرر فى اليوم و الليلة مرارا، و الحج لا يتكرر، و يؤخذ منه أنه يضاف إلى ما جاء فى المضاعفة بمسجدها الحجة لمن أخلص قصده للصلاة.

و لا يرد أيضا كونه صلّى اللّه عليه و سلّم أقام بمكة بعد النبوة أكثر من إقامته بالمدينة، على الخلاف فيه؛ لأن إقامته بالمدينة كان سببا فى إعزاز دين الله و إظهاره، و بها تقررت الشرائع، و فرضت غالب الفرائض، و أكمل الله الدين، و استقر بها صلّى اللّه عليه و سلّم إلى قيام الساعة.

و قد ثبت فى محبته صلّى اللّه عليه و سلّم للمدينة ما لم يثبت مثله لمكة، و حثّ على الإقامة و الموت بها، و الصبر على لأوائها و شدتها، كما ستقف عليه، و سيأتى حديث: «اللهم لا تجعل منايانا بمكة» و حديث: «ما على الأرض بقعة أحب إلى من أن يكون قبرى بها منها» يعنى المدينة، قالها ثلاث مرات.

و قد شرع الله لنا أن نحب ما كان رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يحبه، و أن نعظم ما كان يعظمه، و إذا ثبت تفضيل الموت بالمدينة ثبت تفضيل سكناها، لأنه طريقه هذا، و قد روى الطبرانى فى الكبير و المفضل الجندى فى فضائل المدينة و غيرهما عن رافع بن خديج رضى الله عنه قال: أشهد سمعت- و فى رواية «لسمعت» - رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «المدينة خير من مكة»، و فى إسناده محمد بن عبد الرحمن الرداد، و قد ذكره ابن حبان فى الثقات، و قال:

كان يخطئ، و قال أبو حاتم: ليس بقوى، و قال أبو زرعة: ليّن، و قال الأزدى: لا يكتب حديثه، و قال ابن عدى: روايته ليست محفوظة، و لهذا قال ابن عبد البر: هو حديث ضعيف، و فيما قدمناه غنية عنه.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۳۸

و فى الصحيحين حديث: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها» و يأرز كمسجد أى: ينقبض و يجتمع و ينضم و يلتجئ، و قد رأينا كل مؤمن له من نفسه سائق إلى المدينة لحبه فى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فيشمل ذلك جميع الأزمنة؛ لأنه فى زمنه صلّى اللّه عليه و سلّم للتعلم منه، و فى زمن الصحابة و التابعين للاقتداء بهم، و من بعد ذلك لزيارته، و فضل بلده، و التبرك بمشاهدة آثاره، و الاتباع له فى سكناها.

و روينا فى فضائل المدينة للجندى حديث: «يوشك الإيمان أن يأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها» يعنى: يرجع إليها الإيمان.

و أسند ابن زبالة حديث: «لا تقوم الساعة حتى يحاز الإيمان إلى المدينة كما يحوز السيل الدّمن».

و قد تقدم فى الأسماء حديث الصحيحين: «أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون يثرب و هى المدينة» قال ابن المنذر: يحتمل أن يكون المراد بأكلها القرى غلبة فضلها على فضل غيرها؛ فمعناه أن الفضائل تضمحل فى جنب عظيم فضلها حتى تكاد تكون عدما، و هذا أبلغ من تسمية مكة «أم القرى»؛ لأن الأمومة لا تنمحى معها ما هى له أم، لكن يكون لها حق الأمومة، انتهى.

و جزم القاضى عبد الوهاب بهذا الاحتمال.

و روى البزار عن على رضى الله عنه حديث: «إن الشياطين قد يئست أن تعبد ببلدى هذا» يعنى: المدينة «و بجزيرة العرب، و لكن التحريش بينهم» و له أصل فى صحيح مسلم من حديث جابر.

و روى أبو يعلى بسند فيه من اختلف فى توثيقه و بقية رجاله ثقات عن العباس رضى الله عنه قال: خرجت مع رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم من المدينة فالتفت إليها و قال: «إن الله قد برأ هذه الجزيرة من الشرك» و فى رواية: «إن الله قد طهّر هذه القرية من الشرك، إن لم تضلّهم النجوم، قال: ينزل الله الغيث، فيقولون: مطرنا بنوء كذا و كذا» و قد تقدم فى الأسماء تسميتها بالمؤمنة و المسلمة، و أنه لا مانع من إجرائه على ظاهره فهو مقتض للتفضيل، سيما و سببه ما سبق من كونه صلّى اللّه عليه و سلّم خلق من تربتها.

و قد استدل أبو بكر الأبهرى من المالكية على تفضيلها على مكة بما سبقت الإشارة إليه من أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مخلوق من

تراب المدينة، و هو أفضل البشر، فكانت تربته أفضل الترب. قال الحافظ ابن حجر: و كون تربته أفضل الترب لا نزاع فيه، و إنما النزاع هل يلزم من ذلك أن تكون المدينة أفضل من مكة؟ لأن المجاور للشيء لو ثبت له جميع مزاياه

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۳۹

لكان لجار ذلك المجاور نحو ذلك؛ فيلزم أن يكون ما جاور المدينة أفضل من مكة، و ليس كذلك اتفاقا، كذا أجاب به بعض المتقدمين، و فيه نظر، انتهى.

قلت: لم يبين وجه النظر، و لعل وجهه أن الأفضل لقوة أصالته فى الفضل يفيد مجاوره الأفضلية لمزية هذه المجاورة الخاصة، و هى منتفية عن مجاور المجاور، أ لا ترى أن جلد المصحف قد ثبت له مزية التعظيم للمجاورة، و لم يلزم من ذلك ثبوت نحوها لمجاوره، و أيضا فالمقتضى لتفضيل المدينة خلقه صلّى اللّه عليه و سلّم من تربتها، و هذا لا يوجد لمجاورها، و اللّه أعلم.

الفصل الثانى وعد من صبر على شدها

اشارة

فى الحث على الإقامة بها، و الصبر على لأوائها و شدتها، و كونها تنفى الخبث و الذنوب، و وعيد من أرادها و أهلها بسوء أو أحدث بها حدثا أو آوى محدثا.

روينا فى الصحيحين حديث «من صبر على لأوائها و شدتها كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة».

و فى صحيح مسلم عن سعيد مولى المهرى أنه جاء إلى أبى سعيد الخدرى ليالى الحرة، فاستشاره فى الجلاء من المدينة، و شكا إليه أسعارها و كثرة عياله، و أخبره أن لا صبر له على جهد المدينة و لأوائها، فقال: و يحك! لا آمرك بذلك، إنى سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «لا يصبر» و فى رواية «لا يثبت أحد على لأوائها و جهدها إلا كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة» و فى رواية «فقال أبو سعيد: لا تفعل، الزم المدينة» و ذكر الحديث بزيادة قصة.

و فى مسلم و فى الموطأ و الترمذى عن يحنّس مولى مصعب بن الزبير أنه كان جالسا عند ابن عمر فى الفتنة، فأتته مولاة له تسلم عليه، فقالت: إنى أردت الخروج يا أبا عبد الرحمن، اشتد علينا الزمان، فقال لها عبد اللّه: اقعدى لكاع، و لفظ الترمذى: اصبرى لكاع. فإنى سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «لا يصبر على لأوائها و شدتها أحد إلا كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة».

فإن قيل: ما معنى التردد فى قوله: «شفيعا أو شهيدا»؟ و ما معنى هذه الشفاعة مع عموم شفاعته صلّى اللّه عليه و سلّم؟

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۴۰

قلنا: ذكر عياض ما ملخصه أن بعض مشايخه جعل «أو» للشك من الراوى، و أن الظاهر خلافه لكثرة رواته بذلك، بل الظاهر أنه من لفظه صلّى اللّه عليه و سلّم فإما أن يكون أعلم بهذه الجملة هكذا، و إما أن تكون «أو» للتقسيم، و يكون شفيعا للعاصين و شهيدا للمطيعين، أو شهيدا لمن مات فى حياته و شفيعا لمن مات بعده، قال: و هذه الشفاعة أو الشهادة زائدة على الشفاعة للمذنبين أو للعاملين فى القيامة و على شهادته على جميع الأمم، فيكون لتخصيصهم بذلك مزية و زيادة منزلة و حظوة قال: و يحتمل أن يكون «أو» بمعنى الواو.

قلت: و يدل له ما رواه البزار برجال الصحيح عن عمر رضى اللّه عنه بلفظ: «فمن صبر على لأوائها و شدتها كنت له شفيعا و شهيدا يوم القيامة» و أسنده ابن النجار بلفظ: «كنت له شفيعا و كنت له شهيدا يوم القيامة» و أسنده المفضل الجندى فى فضائل المدينة عن أبى هريرة أيضا بلفظ: «لا يصبر أحد على لأواء المدينة» و فى نسخة: «و حرها إلا كنت له شفيعا و شهيدا» قال القاضى: و إذا جعلنا «أو» للشك فإن كانت اللفظة شهيدا فالشهادة أمر زائد على الشفاعة المجردة المدخرة لغيرهم من الأمة، و إن كانت اللفظة شفيعا فهذه

شفاعة غير العامة تكون لأهل المدينة بزيادة الدرجات أو تخفيف الحساب أو بإكرامهم يوم القيامة بأنواع من الكرامات كإيوائهم فى ظل العرش أو كونهم فى روح و على منابر أو الإسراع بهم إلى الجنة أو غير ذلك من خصوص الكرامات. قلت: و يحتمل: أن يجمع لهم ببركة شفاعته صلّى اللّه عليه و سلّم أو شهادته الخاصة بين ذلك كله؛ فالجاه عظيم، و الكرم واسع، و تأيد الوصية بالجار يؤيد ذلك، و يحتمل أيضا: أن يكون المراد مع ذلك البشرى بموتهم على الإسلام؛ لأن شفاعته و شهادته صلّى اللّه عليه و سلّم المذكورة خاصة بالمسلمين، و كفى بذلك نعمة و مزية، و سيأتى الإشارة إلى نحو ذلك فى أول الباب الثامن.

و فى الموطأ و الصحيحين حديث: «تفتح اليمن فيأتى قوم يبسّون فيتحملون بأهليهم و من أطاعهم، و المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون» الحديث.

و قوله «يبسون» بفتح المثناة التحتية أوله و ضم الباء الموحدة و كسرها، و يقال أيضا بضم المثناة و كسر الموحدة- يسوقون بهائمهم سوقا شديدا، و قيل: البسّ: سرعة الذهاب.

المدينة تنفى الخبث

و فى مسلم حديث «يأتى على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه أو قريبه: هلم إلى الرخاء، هلم إلى الرخاء، و المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، و الذى نفسى بيده لا يخرج

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۴۱

أحد رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيرا منه، ألا إن المدينة كالكير تخرج الخبث، لا تقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها كما ينفى الكير خبث الحديد».

و فى الصحيحين: «أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون يثرب و هى المدينة تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد» و فى رواية لابن زبالة: «إن المدينة تنفى خبث الرجال» و فى رواية: «خبث أهلها كما ينفى الكير خبث الحديد». و فى صحيح البخارى حديث: «إنها طيبة تنفى الذنوب كما ينفى الكير خبث الفضة».

و فى الصحيحين قصة الأعرابى الذى جاء من الغد محموما فقال: أقلنى بيعتى، فأبى صلّى اللّه عليه و سلّم فخرج الأعرابى، فقال صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنما المدينة كالكير تنفى خبثها و تنصع طيّبها».

قوله: «أقلنى بيعتى» أى: انقض العهد حتى أرجع إلى وطنى، و كأنه كان قد بايع على هجرة الإقامة. و قوله: «تنفى خبثها» يحتمل أن يكون بمعنى الطرد و الإبعاد لأهل الخبث، و قصة الأعرابى المذكور ظاهرة فيه، و خصه ابن عبد البر بزمنه صلّى اللّه عليه و سلّم و الظاهر كما قال النووى عدم التخصيص؛ ففى الصحيح: «لا تقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها» يعنى عند ظهور الدجال، و سيأتى فى الفصل الخامس فى حديث أحمد و غيره برجال الصحيح قصة خروج من بالمدينة من المنافقين إلى الدجال، ثم قال: «و ذلك يوم التخليص، ذلك يوم تنفى المدينة الخبث» و قال عمر بن عبد العزيز مشفقا إذ خرج منها لمن معه: أ تخشى أن نكون ممن نفت المدينة؟ و قد طهرها الله تعالى ممن كان بها من أرباب الأديان المخالفين لدين الإسلام، و أهلك من كان بها من المنافقين، و هؤلاء هم أهل الخبث الكامل، و من عداهم من أهل الخبث و الذنوب قد يكون طرده و إبعاده إن استمر على ذلك بآخرة الأمر بنقل الملائكة له إلى غيرها من الأرض كما أشار إليه الأقشهرى قال: و يكون قوله: «تنفى خبثها، و تنفى الذنوب» أى أهل ذلك، على طريقة حذف المضاف، و يحتمل أن يكون بمعنى طرد أهل الخبث الكامل، و هم أهل الشقاء و الكفر، لا أهل السعادة و الإسلام؛ لأن القسم الأول ليس قابلا للشفاعة و لا للمغفرة، و قد وعد صلّى اللّه عليه و سلّم من يموت بها بالشفاعة لهذا وجب انتفاء القسم الأول منها، و يحتمل أن يكون بمعنى تخليص النفوس من شرهها و ميلها إلى اللذات بما فيها من اللأواء و الشدة، و يؤيده رواية «إنها طيبة تنفى الذنوب» الحديث، و يكون نفيها للذنوب على ظاهره، سيما و قد اشتملت على عظيم المضاعفات، و تنوع المثوبات، و توالى

الرحمات، و قد قال تعالى:

إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ [هود: ۱۱۴] مع ما لأهلها من الشفاعة و الشهادة الخاصة، و ما بها من تضاعف البركات، و يحتمل أن يكون بمعنى أنه لا- يخفى حال من انطوى فيها على خبث، بل تظهر طويته كما هو مشاهد بها، و لم أر الآن من نصّ على هذا الاحتمال،

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۴۲

و هو فى حفظى قديما، و يؤيده ما فى غزوة أحد فى الصحيح من أنه صلّى اللّه عليه و سلّم لما خرج إلى أحد رجع ناس من أصحابه- أى و هم المنافقون- فقال صلّى اللّه عليه و سلّم: «المدينة كالكير» الحديث، و لهذا سميت بالفاضحة كما قدمته، مع أن الذى ظهر لى من مجموع الأحاديث و استقراء أحوال هذه البلدة الشريفة أنها تنفى خبثها بالمعانى الأربعة.

و قوله: «و تنصع» بالفوقانية المفتوحة و النون و المهملتين كتمنع- أى: تخلص، و الناصع: الخالص الصافى، و «طيبها» بفتح الطاء و التشديد منصوبا على أنه مفعول هذا هو المشهور فيه، و اللّه أعلم.

وعيد من أراد أهلها بسوء

و فى صحيح مسلم من حديث جابر فى تحريم المدينة مرفوعا: «و لا يريد أحد أهل المدينة بسوء إلا أذابه اللّه فى النار ذوب الرصاص، أو ذوب الملح فى الماء».

قال عياض: قوله «فى النار» يدفع إشكال الأحاديث التى لم تذكر فيها هذه الزيادة، و يبين أن هذا حكمه فى الآخرة. قال: و قد يكون المراد به أن من أرادها فى حياة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كفى المسلمون أمره، و اضمحل كيده كما يضمحل الرصاص فى النار. قال:

و يحتمل أن يكون المراد من كادها اغتيالا- و طلبا لغرتها فلا- يتم له أمر، بخلاف من أتى ذلك جهارا. قال: و قد يكون فى اللفظ تقديم و تأخير: أى أذابه اللّه كذوب الرصاص فى النار، و يكون ذلك لمن أرادها فى الدنيا فلا يمهله اللّه و لا يمكن له سلطانا، بل يذهبه عن قرب، كما انقضى شأن من حاربها أيام بنى أمية مثل مسلم بن عقبة، فأهلك فى منصرفه منها. ثم هلك يزيد بن معاوية مرسله على أثر ذلك، و غيرهما ممن صنع صنيعهما، انتهى.

و هذا الاحتمال الأخير هو الأرجح، و ليس فى الحديث ما يقتضى أنه لا يتم له ما أراد منهم، بل الوعد بإهلاكه، و لم يزل شأن المدينة على هذا حتى فى زماننا هذا لما تظاهرت طائفة العياشى بإرادة السوء بالمدينة الشريفة لأمر اقتضى خروجهم منها حتى أهلك اللّه تعالى عتاتهم مع كثرتهم فى مدة يسيرة.

و قد يقال: المراد من الأحاديث الجمع بين إذابته بالإهلاك فى الدنيا و بين إذابته فى النار فى الأخرى، و المذكور فى هذا الحديث هو الثانى، و فى غيره الأول؛ ففى رواية لأحمد برجال الصحيح من جملة حديث: «من أرادها بسوء» يعنى المدينة «أذابه اللّه كما

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۴۳

يذوب الملح فى الماء» و كذا فى مسلم أيضا، و فى فضائل المدينة للجندى حديث «أيما جبّار أراد المدينة بسوء أذابه اللّه تعالى كما يذوب الملح فى الماء» و فى رواية لمسلم «من أراد أهل هذه البلدة بسوء- يعنى المدينة- أذابه اللّه تعالى كما يذوب الملح فى الماء» فى رواية له أيضا «من أراد أهل هذه البلدة بدهم أو بسوء»، و روى البزار بإسناد حسن حديث: «اللهم اكفهم من دهمهم ببأس» يعنى أهل المدينة «و لا يريدها أحد بسوء إلا أذابه اللّه كما يذوب الملح فى الماء».

و قوله: «دهمهم» محركا أى: غشيهم بسرعة، و قوله فى الحديث قبله «بدهم» بفتح أوله و إسكان ثانيه- أى بغائلة و أمر عظيم، و لذا قيل: المراد غازيا مغيرا عليها.

و فى البخارى حديث «لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح فى الماء» و أسند ابن زبالة عن سعيد بن المسيب أن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم أشرف على المدينة فرفع يديه حتى رؤى عفرة إبطيه ثم قال: «اللهم من أرادنى و أهل بلدى بسوء فعجّل هلاكه» و روى الطبرانى فى الأوسط برجال الصحيح حديث: «اللهم من ظلم أهل المدينة و أخافهم فأخفه و عليه لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين، لا يقبل منه صرف و لا عدل» و فى رواية لغيره:

«من أخاف أهل المدينة أخافه الله يوم القيامة، و غضب عليه، و لم يقبل منه صرفا و لا عدلا» و روى النسائى حديث: «من أخاف أهل المدينة ظالما لهم أخافه الله، و كانت عليه لعنة الله» الحديث، و لابن حبان نحوه، و روى أحمد برجال الصحيح عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن أميرا من أمراء الفتنة قدم المدينة، و كان قد ذهب بصر جابر، فيل لجابر: لو تنحيت عنه، فخرج يمشى بين ابنيه، فنكب، فقال: تعس من أخاف رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم! فقال ابناه، أو أحدهما: يا أبت، فكيف أخاف رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و قد مات؟ فقال:

سمعت رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «من أخاف أهل المدينة فقد أخاف ما بين جنبى».

بسر بن أرطاة يغزو المدينة

قلت: و الظاهر أن الأمير المشار إليه هو بسر بن أرطاة.

قال القرطبى: ذكر فى رواية ابن عبد البر أن معاوية رضى الله عنه بعد تحكيم الحكمين أرسل بسر بن أرطأة فى جيش، فقدموا المدينة، و عاملها يومئذ لعلى رضى الله عنه أبو أيوب الأنصارى- رضى الله عنه!- ففر أبو أيوب و لحق بعلى، و دخل بسر المدينة، و قال لأهلها: و الله لو لا ما عهد إلى أمير المؤمنين ما تركت فيها محتلما إلا قتلته، ثم أمر أهل المدينة بالبيعة لمعاوية، و أرسل إلى بنى سلمة فقال: ما لكم عندى أمان و لا مبايعة حتى تأتونى بجابر بن عبد الله، فأخبر جابر، فانطلق حتى جاء أم سلمة زوج النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال لها: ما ذا ترين فإنى أخشى أن أقتل، و هذه بيعة ضلال، فقالت: أرى أن

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۴۴

تبايع، و قد أمرت ابنى عمر بن أبى سلمة أن يبايع، فأتى جابر بسرا فبايعه، و هدم بسر دورا بالمدينة، ثم انطلق.

و فى رواية ستأتى فى الفصل الخامس عشر أن أهل المدينة فرّوا يومئذ حتى دخلوا الحرة حرة بنى سليم، و الله أعلم.

و فى الكبير للطبرانى حديث: «من آذى أهل المدينة آذاه الله، و عليه لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين، و لا يقبل منه صرف و لا عدل».

و روى ابن النجار حديث: «من أخاف أهل المدينة ظلما أخافه الله، و عليه لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا و لا عدلا» و الأحاديث فى هذا الباب كثيرة.

وعيد من أحدث بها حدثا

و فى الصحيحين فى أحاديث تحريم المدينة: «فمن أحدث فيها حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا و لا عدلا» و لفظ البخارى: «لا يقبل منه صرف و لا عدل» قيل: الصرف الفريضة، و العدل التطوع، و نقل عن الجمهور، و قيل: عكسه، و قيل: الصرف التوبة، و العدل الفدية، قيل: و المعنى لا يقبل الله فريضته و نافلته أو توبته قبول رضا، و لا يجد فى القيامة فداء يفتدى به من يهودى أو نصرانى، بخلاف سائر المذنبين، و قيل غير ذلك، و معنى هذا اللعن المبالغة فى الإبعاد عن رحمة الله تعالى و الطرد عن الجنة أول الأمر لأنه كلعن الكفار.

قال القاضى: و معنى قوله: «من أحدث فيها حدثا إلى آخره» من أتى فيها إثما أو آوى من أتاه و ضمه إليه و حماه، و آوى بالمد و

القصر، قال: و استدلوا به على أن ذلك من الكبائر؛ لأن اللعنة لا تكون إلا فى كبيرة.

قلت: فيستفاد منه أن إثم الصغيرة بها كإثم الكبيرة بغيرها؛ لصدق الإثم بها، بل نقل الزركشى عن مالك رحمه الله ما يقتضى شمول الحديث المذكور للمكروه كما بيناه فى الأصل، و ذلك لأن الإساءة بحضور الملك ليست كالإساءة فى أطراف المملكة، وفقنا الله تعالى لحسن الأدب فى هذه الحضرة الشريفة بمنّه و كرمه!!

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۴۵

الفصل الثالث فى الحث على حفظ أهلها، و إكرامهم

اشارة

، و التحريض على الموت بها و اتخاذ الأصل.

الوصية بحفظ أهلها

روينا فى كتاب ابن النجار عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: «المدينة مهاجرى، فيها مضجعى، و منها مبعثى، حقيق على أمتى حفظ جيرانى ما اجتنبوا الكبائر، من حفظهم كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة، و من لم يحفظهم سقى من طينة الخبال» قيل للمزنى: ما طينة الخبال؟ قال: عصارة أهل النار. قلت: قال بعضهم: المراد بالمزنى معقل بن يسار، و تفسير طينة الخبال بذلك رفعه مسلم، و الحديث فى الكبير للطبرانى بسند فيه متروك، و لفظه «المدينة مهاجرى و مضجعى فى الأرض، حق على أمتى أن يكرموا جيرانى ما اجتنبوا الكبائر، فمن لم يفعل ذلك سقاه الله من طينة الخبال» قلنا: يا أبا يسار، و ما طينة الخبال؟ قال: عصارة أهل النار.

و روى القاضى أبو الحسن على الهاشمى فى فوائده عن خارجة بن زيد عن أبيه قال:

قال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: «المدينة مهاجرى و فيها مضجعى، و منها مخرجى، حق على أمتى حفظ جيرانى فيها، من حفظ وصيتى كنت له شهيدا يوم القيامة، و من ضيّعها أورده الله حوض الخبال، قيل: و ما حوض الخبال يا رسول الله؟ قال: حوض من صديد أهل النار».

و روى ابن زبالة عن عطاء بن يسار و غيره حديث: «إن الله جعل المدينة مهاجرى، و بها مضجعى، و منها مبعثى، فحق على أمتى حفظ جيرانى ما اجتنبوا الكبائر، فمن حفظ فيهم حرمتى كنت له شفيعا يوم القيامة، و من ضيع فيهم حرمتى أورده الله حوض الخبال». و فى رواية له: «المدينة مهاجرى، و بها وفاتى، و منها محشرى، و حقيق على أمتى أن يحافظوا جيرانى ما اجتنبوا الكبيرة، من حفظ فيهم حرمتى كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة».

و فى مدارك عياض قال محمد بن مسلمة: سمعت مالكا يقول: دخلت على المهدى فقال: أوصنى، فقلت: أوصيك بتقوى الله وحده، و العطف على أهل بلد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و جيرانه؛ فإنه بلغنا أن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «المدينة مهاجرى، و منها مبعثى، و بها قبرى، و أهلها جيرانى، و حقيق على أمتى حفظ جيرانى؛ فمن حفظهم فىّ كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة، و من لم يحفظ وصيتى فى جيرانى سقاه الله من طينة الخبال».

و روى مالك فى الموطأ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان جالسا و قبر يحفر بالمدينة، فاطّلع رجل فى القبر فقال: بئس مضجع المؤمن! فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: «بئس ما قلت» قال الرجل: إنى

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۴۶

لم أرد هذا، إنما أردت القتل فی سبیل الله، فقال رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم: «لا مثل للقتل فی سبیل الله، ما علی الأرض بقعة أحب إلی من أن یکون قبری بها منها» یعنی المدینة، ثلاث مرات.

و روی ابن شبة فی أخبار مکة عن سعید بن أبی هند قال: سمعت أبی یذکر أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم «کان إذا دخل مکة قال: اللهم لا تجعل منایانا بمکة حتی نخرج منها» و رواه أحمد فی مسنده برجال الصحیح عن ابن عمر مرفوعا، إلا أنه قال: «حتی تخرجنا منها».

و روی مالک و البخاری و رزین العبدری أن عمر بن الخطاب رضی الله عنه قال:

اللهم ارزقنی شهادة فی سبیلک، و اجعل موتی فی بلد رسولک، زاد رزین أن ذلک کان من أجلّ دعاء عمر.

و سبق ما جاء فی أن الإنسان یدفن فی التربة التی خلق منها؛ فالنبی صلّی اللّه علیه و سلّم و أکثر أصحابه و أفضلهم خلقوا من تربة المدینة، و قد ثبت حدیث: «من مات بالمدینة کنت له شفیعا یوم القیامة» و رواه البیهقی بلفظ: «من استطاع أن یموت بالمدینة فلیمت، فمن مات بالمدینة کنت له شفیعا و شهیدا» و فی روایة له: «فإنه من یمت بها أشفع له، أو أشهد له» و قد ذکر هذه الروایة ابن حبان فی صحیحه.

و روی الترمذی و ابن حبان فی صحیحه و ابن ماجه و البیهقی و عبد الحق و صححه حدیث «من استطاع أن یموت بالمدینة فلیمت بها، فإنی أشفع لمن یموت بها» و لفظ ابن ماجه «فإنی أشهد» بدل «فإنی أشفع» و رواه الطبرانی فی الکبیر بسند حسن، و لفظه «من استطاع منکم أن یموت بالمدینة فلیمت؛ فإنه من مات بها کنت له شهیدا- أو شفیعا- یوم القیامة» و رواه ابن رزین بنحوه، و زاد «و إنی أول من تنشق عنه الأرض، ثم أبو بکر، ثم عمر، ثم آتی أهل البقیع فیحشرون، ثم أنتظر أهل مکة فأحشر بین أهل الحرمین» و فی روایة لابن النجار «فأخرج أنا و أبو بکر و عمر إلی البقیع فیبعثون، ثم یبعث أهل مکة».

و روی الطبرانی حدیث «أول من أشفع له من أمتی أهل المدینة، ثم أهل مکة، ثم أهل الطائف» و أخرجه الترمذی بالواو بدل ثم، و سیأتی فی فضل البقیع زیادة تتعلق بذلک.

و بالجملة: فالترغیب فی الموت فی المدینة لم یثبت مثله لغیرها، و السکنی بها وصلة إلیه؛ فیکون ترغیبا فی سکناها، و تفضیلا لها علی غیرها، و اختیار سکناها هو المعروف من حال السلف، و لا شک أن الإقامة بالمدینة فی حیاته صلّی اللّه علیه و سلّم أفضل إجماعا، فنستصحب ذلک بعد وفاته حتی یثبت إجماع مثله برفعه.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفی، ج۱، ص: ۴۷

و أسند ابن شبة فی أخبار مکة عن إسماعیل بن سالم قال: سألت عامرا عن فتیا أفتی بها حبیب بن أبی ثابت، فقال: أ لا یفتی حبیب نفسه حیث نزل مکة و هی قریة أعرابیة، و لأن أنزل دوران أحب إلی من أن أنزل مکة، و هی قریة هاجر منها النبی صلّی اللّه علیه و سلّم.

و عن الشعبی أنه کان یکره المقام بمکة، و یقول: هی دار أعرابیة، هاجر منها رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم و قال: أ لا یفتی حبیب نفسه حیث یجاور بمکة و هی دار أعرابیة، و قال عبد الرزاق فی مصنفه: کان أصحاب رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم یحجون ثم یرجعون، و یعتمرون ثم یرجعون، و لا یجاورون.

قلت: و لم أظفر عن السلف بنقل فی کراهة المجاورة بالمدینة الشریفة، بخلاف مکة، لکن اقتضی کلام النووی فی شرح مسلم حکایة الخلاف فیها، و کأنه قاس المدینة علی مکة من حیث إن علة الکراهة و هی خوف الملل و قلة الحرمة للأنس و خوف ملابسة الذنوب لأن الذنب بها أقبح، و نحوه موجود بالمدینة، و لهذا قال: و المختار أن المجاورة بهما جمیعا مستحبة إلا أن یغلب علی ظنه الوقوع فی المحذورات المذکورة.

و قال الزرکشی عقب نقل کلام النووی: إن الظاهر ضعف الخلاف فی المدینة أی:

لما قدمناه من الترغيب فيها، و لأن كل من كره المجاورة بمكة استدل بترك الصحابة الجوار بها، بخلاف المدينة فكانوا يحرصون على الإقامة بها، و قد روى الطبرانى فى الأوسط حديث «من غاب عن المدينة ثلاثة أيام جاءها و قلبه مشرب جفوة» و أسند ابن أبى حثمة حديث «من كان له بالمدينة أصل فليتمسك به، و من لم يكن له بها أصل فليجعل له بها أصلا و لو قصرة» قال ابن الأثير: القصرة محركة أصل الشجرة، أى و لو نخلة واحدة، و القصرة أيضا: العنق، و قال الخطابى: القصرة النخلة، و قرأ الحسن إِنَّها تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ [المرسلات: ۳۲] و فسروه بأعناق النخل، و رواه الطبرانى فى الكبير بلفظه إلى قوله «فليجعل له بها أصلا» و قال عقبه: «فليأتين على الناس زمان يكون الذى ليس له بها أصل كالخارج منها المجتاز إلى غيرها» و رواه ابن شبة أيضا بنحوه، ثم أسند عن الزهرى أن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لا تتخذوا الأموال بمكة، و اتخذوها الأموال فى دار هجرتكم؛ فإن المرء مع ماله» و أسند أيضا عن ابن عمر حديث «لا تتخذوا من وراء الروحاء مالا، و لا تردوا على أعقابكم بعد الهجرة و لا تنكحوا بناتكم طلقاء أهل مكة، و أنكحوهن بأترابهن فأترابهن» أى: مستويات فى السن فى ثلاث و ثلاثين سنة.

و هذا كله متضمّن للحث على سكنى المدينة و تفضيله على سكنى مكة، و هى جديرة بذلك؛ لأن الله تعالى اختارها لنبيه صلّى اللّه عليه و سلّم قرارا، و جعل أهلها شيعة له و أنصارا، و كانت لهم

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۴۸

أوطانا، و لو لم يكن إلا جواره صلّى اللّه عليه و سلّم بها و قد قال صلّى اللّه عليه و سلّم «ما زال جبريل يوصينى بالجار» الحديث، و لم يخص جارا دون جار، و لا يخرج أحد عن حكم الجار و إن جار، و لهذا اخترت تفضيل سكناها على مكة، مع تسليم مزيد المضاعفة لمكة؛ إذ جهة الفضل غير منحصرة فى ذلك؛ فتلك لها مزيد العدد، و لهذه تضاعف البركة و المدد، و لتلك جوار بيت الله، و لهذه جوار حبيب الله و أكرم الخلق على الله، سر الوجود، و البركة الشاملة لكل موجود.

قال عياض فى المدارك: قال مصعب: لما قدم المهدى المدينة استقبله مالك و غيره من أشرافها على أميال، فلما بصر بمالك انحرف المهدى إليه فعانقه و سلّم عليه و سايره، فالتفت مالك إلى المهدى فقال: يا أمير المؤمنين، إنك تدخل الآن المدينة فتمر بقوم عن يمينك و يسارك، و هم أولاد المهاجرين و الأنصار، فسلم عليهم؛ فإنه ما على وجه الأرض قوم خير من أهل المدينة، و لا خير من المدينة، قال: و من أين قلت ذلك يا أبا عبد الله؟

فقال: إنه لا- يعرف قبر محمد صلّى اللّه عليه و سلّم عندهم فينبغى أن يعرف فضلهم على غيرهم، ففعل المهدى ما أمره به، فأشار مالك- رحمه الله!- إلى أن المقتضى للتفضيل هو وجود قبر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بها، و مجاورة أهلها له.

الفصل الرابع فى بعض دعائه صلّى اللّه عليه و سلّم لها و لأهلها

اشارة

، و ما كان بها من الوباء، و نقله

حب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم للمدينة

روينا فى الصحيحين حديث «اللهم حبّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد» و رواه رزين العبدرى و الجندى بالواو بدل «أو» مع أن أوفى تلك الرواية بمعنى بل، و قد صح عنه صلّى اللّه عليه و سلّم فى محبة المدينة ما لم يرد مثله لمكة؛ ففى صحيح البخارى و جامع الترمذى حديث «كان رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم إذا قدم من سفر فنظر إلى جدران المدينة أوضع راحلته، و إن كان على دابة حركها من حبها» و فى رواية لابن زبالة «تباشرا بالمدينة»، و فى رواية له «كان إذا أقبل من مكة فكان بالأثاية طرح رداءه عن منكبيه و

قال: هذه أرواح طيبة» و قد تكرر دعاؤه صلّى اللّه عليه و سلّم بتحبيب المدينة إليه كما سيأتى، و الظاهر أن الإجابة حصلت بالأول، و التكرير لطلب الزيادة، و فى كتاب الدعاء للمحاملى و غيره عن أنس رضى الله عنه عن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم أنه «كان إذا قدم من سفر من أسفاره فأقبل على المدينة يسير أتم السير، و يقول: اللهم اجعل لنا بها قرارا، و رزقا حسنا».

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۴۹

دعاؤه صلّى اللّه عليه و سلّم للمدينة بالبركة

و فى الصحيحين حديث «اللهم اجعل بالمدينة ضعفى ما جعلت بمكة من البركة».

و فى مسلم «اللهم بارك لنا فى تمرنا، و بارك لنا فى مدينتنا، و بارك لنا فى صاعنا، و بارك لنا فى مدّنا، اللهم إن إبراهيم عبدك و خليلك و نبيك، و إنى عبدك و نبيك، و إنه دعاك لمكة، و أنا أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة و مثله معه» و فيه أيضا «اللهم بارك لنا فى مدينتنا، اللهم بارك لنا فى صاعنا، اللهم بارك لنا فى مدنا، اللهم بارك لنا فى مدينتنا، اللهم اجعل مع البركة بركتين» و فيه أيضا و فى الترمذى حديث «كان الناس إذا رأوا أول الثمرة جاءوا به إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فإذا أخذه قال: اللهم بارك لنا فى تمرنا، و بارك لنا فى مدينتنا، و بارك لنا فى صاعنا، و بارك لنا فى مدنا» الحديث، و هو يقتضى تكرر هذا الدعاء بتكرر ظهور الثمرة و الإتيان بأولها، و فى الترمذى- و قال: حسن صحيح- عن على رضى الله عنه «خرجنا مع رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم حتى إذا كنا بحرة السقيا التى كانت لسعد بن أبى وقاص، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: ائتونى بوضوء، فتوضأ ثم قال فاستقبل القبلة فقال: اللهم إن إبراهيم كان عبدك و خليلك، و دعاك لأهل مكة بالبركة، و أنا عبدك و رسولك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم فى مدهم و صاعهم مثلى ما باركت لأهل مكة، مع البركة بركتين». و رواه ابن شبة فى أخبار مكة بنحوه، إلا أنه قال: «حتى إذا كنا بالحرة بالسقيا التى كانت لسعد بن أبى وقاص قال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: ائتونى بوضوء، فلما توضأ قام فاستقبل القبلة ثم قال» الحديث بنحوه، و رواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد جيد، و لفظه:

«خرجنا مع رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم حتى إذا كنا عند السقيا التى كانت لسعد قال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم:

اللهم إن إبراهيم عبدك و خليلك دعاك لأهل مكة بالبركة، و أنا محمد عبدك و رسولك و إنى أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم فى صاعهم و مدهم مثل ما باركت لأهل مكة، و اجعل مع البركة بركتين» هكذا فى النسخة التى وقعت لنا، و لعله «مثلى» كما فى الرواية السابقة، و يؤخذ منه الإشارة إلى أن المدعو به ستة أضعاف ما بمكة من البركة، و فى حديث رواه ابن زبالة عن أبى هريرة أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم «خرج إلى ناحية من المدينة، و خرجت معه، فاستقبل القبلة و رفع يديه حتى إنى لأرى بياض ما تحت منكبيه، ثم قال: اللهم إن إبراهيم نبيك و خليلك دعاك لأهل مكة، و أنا نبيك و رسولك أدعوك لأهل المدينة، اللهم بارك لهم فى مدهم و صاعهم، و قليلهم و كثيرهم، ضعفى ما باركت لأهل مكة، اللهم من هاهنا و هاهنا و هاهنا، حتى أشار إلى نواحى الأرض كلها، اللهم من أرادهم بسوء فأذبه كما يذوب الملح فى الماء» و فى الأوسط للطبرانى و رجاله ثقات عن ابن عمر قال: «صلى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم الفجر، ثم أقبل على القوم فقال: اللهم بارك لنا فى مدينتنا، و بارك لنا فى مدنا

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۵۰

و صاعنا» الحديث، و فى الكبير له و رجاله ثقات عن ابن عباس نحوه، و روى أحمد و البزار و إسناده حسن عن جابر قال: سمعت رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم نظر يوما إلى الشام فقال: اللهم أقبل بقلوبهم، و نظر إلى العراق فقال: اللهم مثل ذلك، و نظر قبل كل أفق ففعل ذلك، و قال:

اللهم ارزقنا من ثمرات الأرض، و بارك لنا فى مدنا و صاعنا» و فى الصحيحين حديث «اللهم بارك لهم فى مكيالهم، و بارك لهم فى صاعهم، و بارك لهم فى مدهم» قال القاضى فى الكلام عليه: البركة هنا بمعنى النمو و الزيادة، و تكون بمعنى الثبات، فقيل:

يحتمل أن تكون هذه البركة دينية، و هى ما تتعلق بهذه المقادير فى الزكاة و الكفارات؛ فتكون بمعنى الثبات لثبات الحكم بها و بقائه ببقاء الشريعة، و يحتمل أن تكون دنيوية من تكثير الكيل و القدر بهذه الأكيال حتى يكفى منه ما لا يكفى من غيره فى غير المدينة، أو ترجع البركة إلى كثرة ما يكلأ بها من غلاتها و ثمراتها، و فى هذا كله ظهر إجابة دعوته صلّى اللّه عليه و سلّم و قال النووى: الظاهر أن المراد البركة فى نفس المكيل فى المدينة، بحيث يكفى المد فيها لمن لا يكفيه فى غيرها. قلت: هذا هو الظاهر فيما يتعلق بأحاديث الكيل، و أما غيرها فعلى عمومه فى سائر الأمور الدينية و الدنيوية. و روينا فى فضائل المدينة للجندى حديث:

«اللهم حبّب إلينا المدينة، كحبنا مكة و أشد، و صححها لنا، و بارك لنا فى مدها و صاعها، و انقل حماها، و اجعلها بالجحفة» و روى أحمد برجال الصحيح عن أبى قتادة أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم «صلى بأرض سعد بأصل الحرة عند بيوت السقيا، ثم قال: اللهم إن إبراهيم خليلك و عبدك و نبيك دعاك لأهل مكة، و أنا محمد عبدك و رسولك أدعوك لأهل المدينة مثلى ما دعاك به إبراهيم لمكة، أدعوك أن تبارك لهم فى صاعهم و مدهم و ثمارهم، اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة، و اجعل ما بها من وباء بخم» الحديث، و قوله «بخم» بضم الخاء المعجمة و تشديد الميم- مكان قرب الجحفة كما سيأتى فى موضعه، و روى ابن زبالة حديث «لما قدم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة وعك فيها أصحابه» و فيه «فجلس رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم على المنبر، ثم رفع يده، ثم قال: اللهم انقل عنا الوباء» فلما أصبح قال: أتيت هذه الليلة بالحمى، فإذا بعجوز سوداء ملبّبة فى يدى الذى جاء بها، فقال: هذه الحمى، فما ترى فيها؟ فقلت: اجعلوها بخمّ».

الدعاء بنقل و بائها

و فى مسلم حديث عن عائشة رضى الله عنها: «قدمنا إلى المدينة و هى وبيئة فاشتكى أبو بكر، و اشتكى بلال، فلما رأى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم شكوى أصحابه قال: «اللهم حبّب إلينا

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۵۱

المدينة كما حببت مكة أو أشد، و صححها، و بارك لنا فى صاعها و مدها، و حوّل حمّاها إلى الجحفة».

و هو فى البخارى بلفظ: «لما قدم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة وعك أبو بكر و بلال- رضى الله عنهما!- و كان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كلّ امرئ مصبّح فى أهله و الموت أدنى من شراك نعله

و كان بلال إذا قلع عنه يرفع عقيرته و يقول:

ألا ليت شعرى هل أبيتنّ ليلة بواد و حولى إذخر و جليل

و هل أردن يوما مياه مجنّة و هل يبدون لى شامة و طفيل

اللهم العن شيبة بن ربيعة و عتبة بن ربيعة و أمية بن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء، ثم قال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: «اللهم حبّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم بارك لنا فى صاعنا و فى مدنا، و صححها لنا، و انقل حمّاها إلى الجحفة» قالت: و قدمنا المدينة و هى أوبأ أرض الله، و كان بطحان يجرى نجلا، تعنى ماء آجنا.

و رواه فى الموطأ بزيادة: «و كان عامر بن فهيرة يقول:

قد ذقت طعم الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه»

و رواه ابن إسحاق بزيادة أخرى، و لفظه: «لما قدم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة قدمها و هى أوبأ أرض الله من الحمى، فأصاب أصحابه منها بلاء و سقم، و صرفه الله عن نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم قالت: فكان أبو بكر و عامر بن فهيرة و بلال مولى أبى بكر مع أبى بكر فى بيت واحد، فأصابتهم الحمى، فدخلت عليهم أعودهم، و ذلك قبل أن يضرب الحجاب، و لهم ما لا يعلمه إلا الله من

شدة الوعك، فدنوت من أبى بكر، فقلت: كيف تجدك يا أبت؟ أى كيف تجد نفسك، فقال:

كل امرئ

البيت المتقدم، فقلت: و الله ما يدرى أبى ما يقول، ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة، فقلت: كيف تجدك يا عامر؟ فقال:

لقد وجدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه

كل امرئ مجاهد بطوقه كالثور يحمى جلده بروقه

قالت: فقلت ما يدرى عامر ما يقول، و قالت: و كان بلال إذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته و قال:

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۵۲

ألا ليت شعرى

البيتين.

و رواه ابن زبالة بلفظ: «لما قدم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة وعك أصحابه، فخرج يعود أبا بكر، فوجده يهجر، فقال: يا رسول الله:

لقد لقيت الموت قبل ذوقه

البيت المتقدم، فخرج من عنده، فدخل على بلال فوجده يهجر و هو يقول:

ألا ليت شعرى

البيتين المتقدمين، و دخل على أبى أحمد بن جحش فوجده موعوكا، فلما جلس إليه قال:

وا حبذا مكّة من وادى أرض بها تكثر عوّادى

أرض بها تضرب أوتادى أرض بها أهلى و أولادى

أرض بها أمشى بلا هادى

فخرج رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فدعا أن ينقل الوباء من المدينة فيجعله بخم.

و فى رواية له أنه «أمر عائشة بالذهاب إلى أبى بكر و مولييه، و أنها رجعت و أخبرته بحالهم، فكره ذلك، ثم عمد إلى بقيع الخيل- و هو سوق المدينة - فقام فيه و وجهه إلى القبلة، فرفع يديه إلى الله فقال: «اللهم حبّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم بارك لأهل المدينة فى سوقهم، و بارك لهم فى صاعهم، و بارك لهم فى مدهم، اللهم انقل ما كان بالمدينة من وباء إلى مهيعة».

قوله «رفع عقيرته» أى صوته، و قوله «بواد» روى «بفخ» و هو وادى الزاهر، و الجليل- بالجيم- الثمام، و مجنة- بكسر الميم و فتحها- سوق بأسفل مكة، و قال الأصمعى: بمر الظهران، و شامة و طفيل: جبلان يشرفان على مجنة، قاله ابن الأثير، قال: و يقال «شابة» بالباء الموحدة، و هو جبل حجازى، قال المحب الطبرى: و روايته بالباء الموحدة بخط شيخنا الصاغانى، و كتب عليها صح، و قال الطبرى: و الأشهر أنهما جبلان على مراحل من مكة من جهة اليمن، و قال الخطابى: عينان. و قوله «بطوقه» أى بطاقته، و قوله «بروقه» أى بقرنه، و «مهيعة» هى الجحفة أحد المواقيت المشهورة، و خم: بقربها، و إنما دعا صلّى اللّه عليه و سلّم بنقل الحمى إليها لأنها كانت دار شرك، و لم تزل من يومئذ أكثر بلاد الله حمى، قال بعضهم:

و إنه ليتقى شرب الماء من عينها التى يقال لها عين خم، فقلّ من شرب منها إلا حم.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۵۳

و روى البيهقى حديث عائشة من طريق هشام بن عروة عن أبيه، و فيه «قال هشام:

فكان المولود يولد بالجحفة فلا يبلغ الحلم حتى تضرعه الحمى».

و قال الخطابى: كان أهل الجحفة إذ ذاك يهودا، و قيل: إنه لم يبق أحد من أهلها إلا أخذته الحمى.

قال النووى: و هذا علم من أعلام نبوته صلّى اللّه عليه و سلّم فإن الجحفة من يومئذ وبيئة، و لا يشرب أحد من مائها إلا حم.

و بطحان: من أودية المدينة كما سيأتى، و الماء الآجن: المتغير الطعم و اللون.

الوباء بالمدينة جاهلى قديم

و اتفق أهل الأخبار أن الوباء بالمدينة كان شديدا، حتى روى ابن إسحاق عن هشام بن عروة قال: كان وباؤها معروفا فى الجاهلية، و كان الإنسان إذا دخلها و أراد أن يسلم من وبائها قيل له: انهق، فينهق كما ينهق الحمار.

و فى دلائل النبوة من طريق هشام عن أبيه عن عائشة قالت: «قدم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة و هى أوبأ أرض الله، و واديها بطحان نجل يجرى عليه الأثل» قال هشام: و كان وباؤها معروفا فى الجاهلية، و كان إذا كان الوادى وبيا فأشرف عليه الإنسان قيل له: انهق نهيق الحمار، فإذا فعل ذلك لم يضره وباء ذلك الوادى، قال الشاعر حين أشرف على المدينة:

لعمرى لئن عشّرت من خيفة الرّدى نهيق الحمار إننى لجزوع

قالت عائشة: فاشتكى أبو بكر، الحديث.

ثنية الوداع

و روى ابن شبة عن عامر بن جابر قال: كان لا يدخل المدينة أحد إلا من طريق واحد، من ثنية الوداع، فإن لم يعشّر بها- أى: ينهق كالحمار عشرة أصوات فى طلق واحد- مات قبل أن يخرج منها، فإذا وقف على الثنية قيل: قد ودع، فسميت ثنية الوداع، حتى قدم عروة بن الورد العبسى، فقيل له: عشر بها، فلم يعشر، و أنشأ يقول:

لعمرى لئن عشّرت من خشية الردى نهاق الحمار إننى لجزوع

ثم دخل فقال: يا معشر يهود، ما لكم و للتعشير؟ قالوا: إنه لا يدخلها أحد من غير أهلها فلم يعشّر بها إلا مات، و لا يدخلها أحد من غير ثنية الوداع إلا قتله الهزال، فلما ترك عروة التعشير تركه الناس و دخلوا من كل ناحية.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۵۴

تحويل الوباء من دلائل النبوة

و تحويل الوباء من أعظم المعجزات؛ إذ لا يقدر عليه جميع الأطباء، و فى البخارى حديث «رأيت امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى نزلت مهيعة، فتأولتها أن وباء المدينة نقل إلى مهيعة» و فى الأوسط للطبرانى نحوه، و فى كتاب ابن زبالة «أصبح رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يوما، فجاءه إنسان كأنه قدم من ناحية طريق مكة، فقال له النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: هل لقيت أحدا؟ قال: لا- إلا- امرأة سوداء عريانة ثائرة الشعر، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: تلك الحمى، و لن تعود بعد اليوم أبدا» و فيه أيضا حديث: «اللهم حبّب إلينا المدينة، و انقل وباءها إلى مهيعة، و ما بقى منه فاجعله تحت ذنب مشعط» و حديث: «إن كان الوباء فى شىء من المدينة فهو فى ظل مشعط». قال المجد: هو جبل أو موضع بالمدينة. قلت:

سيأتى عن ابن زبالة فى المنازل أن بنى حديلة ابتنوا أطمين أحدهما يقال له «مشعط» كان موضعه فى غربى مسجد بنى حديلة، و فى موضعه بيت يقال له بيت أتى نبيه، ثم أورد عقبه الحديث المذكور، فأفاد أنه هو المراد، و فيه أيضا حديث: «أصح المدينة من الحمى ما بين حرّة بنى قريظة و العريض» و هو يؤذن ببقاء شىء من الحمى بالمدينة، و أن الذى نقل عنها أصلا و رأسا سلطانها و شدتها و وباؤها و كثرتها بحيث لا يعد ما بقى بالنسبة إليه شيئا، و يحتمل أنها رفعت أولا بالكلية، ثم أعيدت خفيفة لئلا يفوت ثوابها كما أشار إليه الحافظ بن حجر، و يدل له ما روى أحمد برجال الصحيح و أبو يعلى و ابن حبان فى صحيحه عن جابر: استأذنت الحمى على

رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: من هذه؟ فقالت: أم ملدم، فأمر بها إلى أهل قباء، فلقوا ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فأتوه فشكوا ذلك إليه، فقال: ما شئتم، إن شئتم دعوت الله ليكشفها عنكم، و إن شئتم تكون لكم طهورا، قالوا:

أو تفعل؟ قال: نعم، قالوا: فدعها» و رواه الطبرانى بنحوه، و قال فيه: «إن شئتم تركتموها و أسقطت بقية ذنوبكم، قالوا: فدعها يا رسول الله» و روى أحمد و رجاله ثقات حديث:

أتانى جبريل بالحمى و الطاعون فأمسكت الحمى بالمدينة، و أرسلت الطاعون بالشام، فالطاعون شهادة لأمتى و رحمة لهم و رجز على الكفار» و الأقرب أن هذا كان فى آخر الأمر بعد نقل الحمى بالكلية، لكن قال الحافظ ابن حجر: لما دخل صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة كان فى قلة من أصحابه، فاختار الحمى لقلة الموت بها على الطاعون لما فيها من الأجر الجزيل، و قضيتها إضعاف الأجساد، فلما أمر بالجهاد دعا بنقل الحمى إلى الجحفة، ثم كانوا من حينئذ من فاتته الشهادة بالطاعون ربما حصلت له بالقتل فى سبيل الله، و من فاته ذلك حصلت له

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۵۵

الحمى التى هى حظ المؤمن من النار، ثم استمر ذلك بالمدينة، يعنى بعد كثرة المسلمين تمييزا لها على غيرها، انتهى، و هو يقتضى عود شىء من الحمى إليها بآخرة الأمر، و المشاهد فى زماننا عدم خلوها عنها أصلا، لكنه كما وصف أولا، بخلاف الطاعون، فإنها محفوظة عنه بالكلية كما سيأتى، و الأقرب أنه صلّى اللّه عليه و سلّم لما سأل ربه تعالى لأمته أن لا يلبسهم شيعا و لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعه ذلك فقال فى دعائه: «فحمى إذا أو طاعونا» أراد بالدعاء بالحمى للموضع الذى لا يدخله طاعون كما سنشير إليه فى الفصل الآتى؛ فيكون ما بالمدينة اليوم ليس هو حمى الوباء، بل حمى رحمة بدعائه صلّى اللّه عليه و سلّم كما سنوضحه، و الله أعلم.

الفصل الخامس فى عصمتها من الدجال و الطاعون

حراسة المدينة من الدجال و الطاعون

روينا فى الصحيحين و غيرهما حديث «على أنقاب المدينة ملائكة يحرسونها، لا يدخلها الطاعون و لا الدجال» و فيهما أيضا حديث «ليس من بلد إلا سيطؤها الدجال، إلا مكة و المدينة، ليس نقب من أنقابها إلا عليه ملائكة صافين يحرسونها، فينزل السبخة، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج إليه كل كافر و منافق» و فى رواية «فيأتى سبخة الجرف، فيخرج إليه كل منافق و منافقة» و فى البخارى حديث «لا يدخل المدينة رعب المسيح، لها يومئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان» و فى مسلم حديث «يأتى المسيح من قبل المشرق و همته المدينة حتى ينزل دبر أحد، ثم تصرف الملائكة وجهه قبل الشام، و هناك يهلك» و فى الصحيحين «قصة خروج الرجل الذى هو خير الناس، أو من خير الناس، من المدينة إلى الدجال إذا نزل بعض سباخها فيقول له: أشهد أنك الدجال الذى حدثنا رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم» الحديث بطوله.

قال معمر فيما رواه أبو حاتم: يرون هذا الرجل هو الخضر عليه السلام.

و روى أحمد و الطبرانى فى الأوسط و رجال أحمد رجال الصحيح عن جابر بن عبد الله قال: «أشرف رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم على فلق من أفلاق الحرة و نحن معه، فقال: نعم الأرض المدينة، إذا خرج الدجال، على كل نقب من أنقابها ملك لا يدخلها، فإذا كان ذلك رجفت المدينة بأهلها ثلاث رجفات لا يبقى منافق و لا منافقة إلا خرج إليه، و أكثرهم- يعنى من يخرج إليه- النساء، و ذلك يوم التخليص، ذلك يوم تنفى المدينة الخبث كما ينفى

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۵۶

الكير خبث الحديد، يكون معه سبعون ألفا من اليهود، على كل رجل منهم ساج و سيف محلى؛ فيضرب قبته بهذا المضرب الذى

بمجتمع السيول» الحديث بطوله، و لفظ الطبرانى «يا أهل المدينة، اذكروا يوم الخلاص، قالوا: و ما يوم الخلاص؟ قال: يقبل الدجال حتى ينزل بذباب، فلا يبقى فى المدينة مشرك و لا مشركة، و لا كافر و لا كافرة، و لا منافق و لا منافقة، و لا فاسق و لا فاسقة إلا خرج إليه، و يخلص المؤمنون، فذلك يوم الخلاص» و روى أحمد برجال الصحيح أن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يوم الخلاص، و ما يوم الخلاص؟

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى؛ ج ۱؛ ص ۵۶

ثا، فقيل له: و ما يوم الخلاص؟ قال: يجىء الدجال فيصعد أحدا فيقول لأصحابه:

أ ترون هذا القصر الأبيض؟ هذا مسجد أحمد، ثم يأتى المدينة فيجد بكل نقب منها ملكا مصلتا، فيأتى سبخة الجرف، فيضرب رواقه، ثم ترجف المدينة ثلاث رجفات، فلا يبقى منافق و لا منافقة و لا فاسق و لا فاسقة إلا خرج إليه، فذلك يوم الخلاص» و قال الحافظ ابن حجر: إن أحمد و الحاكم أخرجا من رواية محجن بن الأدرع رفعه «يجىء الدجال فيصعد أحدا فيطلع فينظر إلى المدينة فيقول لأصحابه: أ لا ترون إلى هذا القصر الأبيض؟ هذا مسجد أحمد، ثم يأتى المدينة فيجد فى كل نقب من أنقابها ملكا مصلتا سيفه» و بقيته بلفظ الحديث المذكور، إلا أنه قال فى آخره: «فتخلص المدينة، فذلك يوم الخلاص» و المراد بالرواق الفسطاط، و لابن ماجه من حديث أبى أمامة «ينزل عند الطريق الأحمر عند منقطع السبخة» و لأحمد من حديث ابن عمر «ينزل الدجال فى هذه السبخة بمرقناة» أى: ممرها، و فى عقيق المدينة للزبير بن بكار عن أبى هريرة «ركب رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم إلى مجتمع السيول، فقال: أ لا أخبركم بمنزل الدجال من المدينة؟ ثم قال: هذا منزله، يريد المدينة، لا يستطيعها، يجدها متمنطقة بالملائكة، على كل نقب من أنقابها ملك شاهر سلاحه، لا يدخلها الدجال و لا الطاعون، فيزلزل بالمدينة و بأصحاب الدجال زلزلة، لا يبقى منافق و لا منافقة إلا خرج إليه، و أكثر من يتبعه النساء، فلا يعجز الرجل أن يمسك سفيهته».

قلت: يستفاد منه أن المراد من قوله فى الأحاديث المتقدمة: فترجف المدينة يعنى بسبب الزلزلة، فلا يشكل بما تقدم من أنه لا يدخل المدينة رعب المسيخ الدجال فيستغنى عما جمع به بعضهم من أن الرعب المنفى هو أن لا يحصل لمن بها بسبب قربه منها خوف، أو هو عبارة عن غايته، و هو غلبته عليها، و المراد بالرجفة إشاعة مجيئه و أن لا طاقة لأحد به؛ فيتسارع حينئذ عليه من كان يتصف بالنفاق أو الفسق، قاله الحافظ ابن حجر، و ما قدمناه أولى.

و فى الأوسط للطبرانى حديث «ينزل الدجال حذو المدينة، فأول من يتبعه النساء و الإماء» و فى حديث رواه أحمد و الطبرانى و اللفظ له و رجاله ثقات فى وصف الدجال «ثم

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۵۷

يسير حتى يأتى المدينة، و لا يؤذن له فيها، فيقول: هذه قرية ذاك الرجل، ثم يسير حتى يأتى الشام فيهلكه الله عز و جل عند عقبة أفيق» و روى أبو يعلى حديث الجساسة المشهور فى الصحيح بإسنادين أحدهما رجاله رجال الصحيح و زاد فيه «هو المسيح تطوى له الأرض فى أربعين يوما، إلا ما كان من طيبة، قال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: و طيبة المدينة، ما باب من أبوابها إلا و ملك مصلت سيفه يمنعه، و بمكة مثل ذلك» و فى البخارى و الترمذى حديث «المدينة يأتيها الدجال فيجد الملائكة يحرسونها فلا يقربها الدجال و لا الطاعون إن شاء الله تعالى».

و روى أحمد و رجاله ثقات و ابن شبة برجال الصحيح حديث «المدينة و مكة محفوفتان بالملائكة، على كل نقب منها ملك لا يدخلها الدجال و لا الطاعون»، و روى أحمد مرسلا و ابنه متصلا و كذا الطبرانى و رجاله ثقات حديث «ذكر لرسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم رجل خرج من بعض الأرياف، حتى إذا كان قريبا من المدينة ببعض الطريق أصابه الوباء؛ ففزع الناس؛ فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: إنى لأرجو أن لا يطلع علينا نقابها» يعنى: المدينة؛ و نقابها و أنقابها:

طرقها و فجاجها؛ واحدها نقب، بكسر النون.

و قوله فى الرواية المتقدمة «فلا يقربها الدجال و لا الطاعون» فيقتضى جواز دخول الطاعون المدينة، و يرده الجزم فى سائر الأحاديث، و الصواب حفظها منه كما هو المشاهد.

و قد استشكل قرن الدجال بالطاعون مع أن الطاعون شهادة و رحمة فكيف يتمدح بعدمه؟

و الجواب من وجوه: أحدها: أن كونه كذلك ليس لذاته، و إنما المراد ترتب ذلك عليه، و قد ثبت تفسيره من رواية أحمد «بوخز أعدائكم من الجن»؛ فيكون الإشارة بذلك إلى أن كفار الجن و شياطينهم ممنوعون من الطعن، كما أن الدجال ممنوع منها، أ لا ترى أن قتل الكافر المسلم شهادة، و لو ثبت لمحل أن الكفار لا تسلط عليه لحاز بذلك غاية الشرف، ثانيها: أن أسباب الرحمة لم تنحصر فى الطاعون، و قد عوضهم صلّى اللّه عليه و سلّم عنه الحمى حيث اختارها عند ما عرضا عليه كما تقدم، و هى مطهرة للمؤمن و حظه من النار، و الطاعون يأتى فى بعض الأعوام، و الحمى تتكرر فى كل حين، فيتعادلان، و فيه نظر؛ لأن تكثير أسباب الرحمة مطلوب، و لأنه لا يدفع إشكال التمدح بعدمه، ثالثها: أنه و إن اشتمل

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۵۸

على الرحمة و الشهادة فقد ورد أن سببه أشياء تقع من الأمة كظهور بعض المعاصى، و قد روى أحمد بأسانيد حسان و صحاح عن شرحبيل بن حسنة و غيره «أنه- يعنى الطاعون- رحمة ربكم، و دعوة نبيكم، و موت الصالحين قبلكم» و روى أحمد أيضا تفسير كونه دعوة نبيكم عن أبى قلابة بأنه صلّى اللّه عليه و سلّم سأل ربه عز و جل أ لا يهلك أمته بسنة، فأعطيها، و سأله أ لا يسلط عليهم عدوّا من غيرهم، فأعطيها، و سأله أ لا يلبسهم شيعا و يذيق بعضهم بأس بعض، فمنعه، فقال صلّى اللّه عليه و سلّم فى دعائه: فحمى إذا أو طاعونا» كرره ثلاثا؛ فقد تضمن الطاعون نوعا من المؤاخذة؛ لأنه صلّى اللّه عليه و سلّم دعا به ليحصل كفاية إذاقة بعضهم بأس بعض، و يكون هلاكهم حينئذ بسبب لا يعصون به، بل يثابون؛ فحفظ اللّه تعالى بلد نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم من الطاعون المشتمل على الانتقام إكراما لنبيه صلّى اللّه عليه و سلّم و جعل لهم الحمى المضعفة للأبدان عن إذاقة بعضهم بأس بعض و المطهرة لهم؛ فقوله صلّى اللّه عليه و سلم «فحمى إذا» أى: للموضع الذى لا يدخله الطاعون، بل عصم منه و هو جواره الشريف، و قوله «أو طاعونا» أى للموضع الذى لم يعصم منه، و هو سائر البلاد، هذا ما ظهر لى فى فهم هذه الأحاديث، و هو يقتضى شرف الحمى الواقعة بالمدينة و فضلها؛ لأنها دعوة نبينا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و رحمة ربنا أيضا؛ لأنها من لازم دعوة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و لأنها جعلت فى مقابلة الطاعون الذى هو رحمة لغيرهم؛ فتكون الحمى رحمة لهم؛ فهى غير حمى الوباء الذاهبة من المدينة، رابعها- ذكره الحافظ ابن حجر نقلا عن القرطبى- و هو أن المعنى لا يدخل إلى المدينة من الطاعون مثل الذى وقع فى غيرها كطاعون عمواس، قال الحافظ ابن حجر: و هو يقتضى أن الطاعون يدخلها فى الجملة، و ليس كذلك؛ فقد جزم ابن قتيبة و تبعه جمع جم من آخرهم النووى بأن الطاعون لا يدخل المدينة أصلا، و لا مكة أيضا، لكن نقل جماعة أنه دخل مكة فى الطاعون العام سنة تسع و أربعين و سبعمائة، بخلاف المدينة فلم يذكر أحد قط أنه دخلها أصلا، ثم ذكر الحافظ ابن حجر الحديث المتقدم المشتمل على ذكر مكة أيضا، ثم قال: و على هذا فالذى نقل أنه وجد بمكة ليس كما ظن ناقله كونه طاعونا، بل وباء، و هو أعم من الطاعون، أو يجاب بجواب القرطبى المتقدم، قال: و لعله بنى جوابه على أن الطاعون ما ينشأ عن فساد الهوى فيقع به الموت الكثير، و ليس كذلك؛ ففى الصحيح قول أبى الأسود: قدمت المدينة و هم يموتون بها موتا ذريعا؛ فهذا وقع بالمدينة و هو وباء، و لكن الشأن فى تسميته طاعونا، قال: و الحق أن المراد بالطاعون فى هذه الأحاديث الذى ينشأ

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۵۹

عن طعن الجن فيهيج به الدم فى البدن فيقتل، فهذا لم يدخل المدينة قط. قلت: نقل الزركشى عن القرطبى أنه فسر الطاعون بالموت العام الفاشى، و هو صريح فى أنه أراد ما فهمه عنه الحافظ ابن حجر، و يرده قوله فى الحديث المتقدم «حتى إذا كان قريبا من المدينة ببعض الطريق أصابه الوباء فأفزع الناس» فإن المراد فيه بالوباء الطاعون المعروف بعلاماته عندهم، و إلا فموت الشخص الواحد لا يفزع

و لا يسمى موتا عاما، و يبعد جعل الموت العام بمجرده شهادة، و قد أخبر بعض الأولياء بمشاهدة الجن يقظة يطعنون الناس فى بعض سنى الطاعون، و رأيته أنا كذلك مناما، و رأيت أن بينى و بينهم حائلا، فحمانى الله منه فى تلك السنة، على أنه لو سلّم أن المراد ما ذكره القرطبى فالإشكال المتقدم باق؛ إذ يقال: لم لم يكثر بالمدينة و هو رحمة؟ فالحق ما قدمناه، و هذا- كما قال بعضهم- من المعجزات العظيمة المستمرة التى هى من أعلام نبوته صلّى اللّه عليه و سلّم لأن الأطباء بأجمعهم قد عجزوا عن دفع الطاعون عن بلد ما فى دهر من الدهور. و قد امتنع الطاعون عن المدينة هذه الدهور الطويلة، مع أنه يقع بالحجاز الشريف، و يدخل قرية الينبع و جدة و الفرع و الصفراء و الخيف و غير ذلك من الأماكن القريبة من المدينة، و لا يدخلها هى كما شاهدنا ذلك فى طاعون أواخر سنة إحدى و ثمانين و ثمانمائة مع أوائل التى بعدها؛ فإنه عم أكثر الأماكن القريبة من المدينة، و كثر بجدة، و اختلف فى دخوله مكة، و الذى تحققناه كثرة الموت بها فى ذلك الزمان، و كثرت الحمى بالمدينة، لكن لم يكثر بها موت، و بالجملة فهى محفوظة منه أتم الحفظ؛ فلله الحمد و المنة.

الفصل السادس فى الاستشفاء بترابها، و بتمرها

اشارة

، و ما جاء فيه

ما جاء فى أن ترابه شفاء

روينا فى كتاب ابن النجار و الوفاء لابن الجوزى حديث «غبار المدينة شفاء من الجذام» و فى جامع الأصول لابن الأثير و بيّضا لمخرجه عن سعد رضى الله عنه قال: «لما رجع رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم من تبوك تلقاه رجال من المخلّفين من المؤمنين، فأثاروا غبارا، فخمر- أو فغطى- بعض من كان مع رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم أنفه، فأزال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم اللثام عن وجهه، و قال: و الذى نفسى بيده إن فى غبارها شفاء من كل داء» قال: و أراه ذكر «و من الجذام و البرص» و قد أورده كذلك رزين العبدرى فى جامعه، و هو مستند ابن الأثير فى إيراده، قال الحافظ المنذرى: و لم أره فى الأصول.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۶۰

الاستشفاء بتراب صعيب

و روى ابن رزين أيضا عن ابن عمر نحوه، إلا أنه قال: «فمد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يده فأماطه عن وجهه، و قال: أ ما علمت أن عجوة المدينة شفاء من السقم، و غبارها شفاء من الجذام» و رواه ابن زبالة مختصرا عن صيفى بن أبى عامر، و لفظه «و الذى نفسى بيده إن تربتها لمؤمنة، و إنها شفاء من الجذام» و روى أيضا عن أبى سلمة: بلغنى أن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم قال:

«غبار المدينة يطفى الجذام». قلت: و قد رأينا من استشفى بغبارها من الجذام، و كان قد أضرّ به كثيرا؛ فصار يخرج إلى الكومة البيضاء ببطحان بطريق قباء و يتمرغ بها و يتخذ منها فى مرقده، فنفعه ذلك جدّا. و روى ابن زبالة و يحيى بن الحسن بن جعفر العلوى و ابن النجار كلاهما من طريقه «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أتى بلحارث، فإذا هم روبى، فقال: ما لكم يا بنى الحارث روبى؟ قالوا: أصابتنا يا رسول الله هذه الحمى، قال: فأين أنتم عن صعيب؟

قالوا: يا رسول الله ما نصنع به؟ قال: تأخذون من ترابه فتجعلونه فى ماء، ثم يتفل عليه أحدكم و يقول: بسم الله، تراب أرضنا، بريق بعضنا، شفاء لمريضنا، بإذن ربنا، ففعلوا، فتركتهم الحمى» قال ابن النجار عقبه: قال أبو القاسم طاهر بن يحيى العلوى: صعيب:

وادی بطحان دون الماجشونیة، و فیه حفرة مما یأخذ الناس منه، و هو الیوم إذا وبأ إنسان أخذ منه. قلت: قد رأیت ذلک فی نسخة کتاب یحیی التی رواها ابنه طاهر بن یحیی عنه، و الماجشونیة هی الحدیقة المعروفة الیوم بالمدشونیة، و قال ابن النجار عقبه: و قد رأیت أنا هذه الحفرة الیوم، و الناس یأخذون منها، و ذکروا أنهم قد جربوه فوجدوه صحیحا، قال:

و أخذت أنا منه أیضا. قلت: و هذه الحفرة موجودة الیوم، مشهورة سلفا عن خلف، یأخذ الناس منها و ینقلونه للتداوی، و قد بعثت منها لبعض الأصحاب أخذا مما ذکروه فی أخذ نبات الحرم للتداوی، ثم رأیت الزرکشی قد قال: ینبغی أن یستثنی من منع نقل تراب الحرم تربة حمزة رضی الله عنه؛ لإطباق السلف و الخلف علی نقلها للتداوی من الصداع، فقلت عند الوقوف علیه: أین هو من تراب صعیب لما قدمناه فیه؟ بخلاف ما ذکره إذ لا أصل له، و ذکر المجد أن جماعة من العلماء ذکروا أنهم جربوا تراب صعیب للحمی فوجدوه صحیحا، قال: و أنا بنفسی سقیته غلاما لی مریضا من نحو سنة تواظبه الحمی، فانقطعت عنه من یومه، و ذکر المجد أیضا فی موضع آخر کیفیة الاستشفاء به أنه یجعل فی الماء و یغتسل به، و کذا ذکره الجمال المطری عند ذکر صعیب فقال: و فیه حفرة یؤخذ من ترابها و یجعل فی الماء و یغتسل به من الحمی. قلت: فینبغی أن یجعل فی الماء ثم یتفل علیه، و تقال الرقیة الواردة، ثم یجمع بین الشرب و الغسل منه، و یستأنس للغسل بما رویناه عن جزء و أبی مسعود بن

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفی، ج ۱، ص: ۶۱

الفرات الرازی عن ثابت بن قیس «أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم عاده و هو مریض فقال: أذهب الباس ربّ الناس، عن ثابت بن قیس بن شماس، ثم أخذ کفا من بطحاء، فجعله فی قدح من ماء، ثم أمر فصب علیه» و فی الصحیحین حدیث «کان رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم إذا اشتکی الإنسان أو کانت به قرحة أو جرح قال بإصبعه هکذا، و وضع سفیان سبابته بالأرض ثم رفعها، و قال: بسم الله، تربة أرضنا، بریق بعضنا، یشفی سقیمنا، بإذن ربنا» و رواه أبو داود بنحوه، و فی روایة «یقول بریقه، ثم قال به فی التراب: تربة أرضنا» و روی ابن زبالة «أن رجلا أتی به رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم و برجله قرحة، فرفع رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم طرف الحصیر، ثم وضع أصبعه التی تلی الإبهام علی التراب بعد ما مسها بریقه، و قال: بسم الله، ریق بعضنا، بتربة أرضنا، لیشفی سقیمنا، بإذن ربنا، ثم وضع أصبعه علی القرحة، فکأنما حل من عقال» و روی أیضا حدیث «تراب أرضنا، شفاء لقرحنا، بإذن ربنا» و أن أم سلمة کانت تنعت من القرحة تراب الضبة.

ما جاء فی أن تمرها شفاء

و فی مسلم حدیث «من أکل سبع تمرات مما بین لابتیها حین یصبح لم یضره شیء حتی یمسی» و فی الصحیحین حدیث «من تصبّح بسبع تمرات عجوة لم یضره فی ذلک الیوم سم و لا سحر» و رواه أحمد برجال الصحیح بلفظ «من أکل سبع تمرات عجوة مما بین لابتی المدینة علی الریق لم یضره یومه ذلک شیء حتی یمسی» قال فلیح: و أظنه قال «و إن أکلها حین یمسی لم یضره شیء حتی یصبح» و رواه ابن زبالة بلفظ «من تصبح بسبع تمرات من العجوة» لا أعلمه إلا قال «من العالیة لم یضره یومئذ سم و لا سحر» و فی صحیح مسلم حدیث «إن فی عجوة العالیة شفاء، أو إنها تریاق أول البکرة» و روی أحمد برجال الصحیح حدیثا فیه «و اعلموا أن الکمأة دواء العین، و أن العجوة من فاکهة الجنة» و روی النسائی و أبو داود الطیالسی و الطبرانی فی الثلاثة بسند جید حدیث «الکمأة من المن، و ماؤها شفاء للعین، و العجوة من الجنة، و هی شفاء من السم» و قد صح فی سنن أبی داود عن سعد بن أبی وقاص قال «مرضت مرضا، فأتانی رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم یعودنی، فوضع یده بین ثدیی حتی وجدت بردها علی فؤادی، فقال: إنک رجل مفئود، ائت الحارث بن کلدة أخا ثقیف فإنه رجل یتطبب، فلیأخذ سبع تمرات من عجوة المدینة، فلیجأهن ثم لیلدّک بهن» و رواه الطبرانی لکن عن سعد بن أبی رافع.

قوله «فلیجأهن» أی فلیدقهن، قال عیاض: و قال ابن الأثیر فلیجأهن أی: فلیدقهن،

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۶۲

و به سميت الوجيئة، و هو تمر يبل بلبن ثم يدق حتى يلتئم، و منه الحديث «أنه دعا سعدا فوصف له الوجيئة» و قوله «ثم ليلدّك» أى: يسقيك، يقال: لدّه باللّدود، إذا سقاه الدواء فى أحد جانبى الفم.

و فى كامل ابن عدى حديث «ينفع من الدؤام أن يأخذ سبع تمرات من عجوة المدينة كل يوم يفعل ذلك سبعة أيام» و فى غريب الحديث للخطابى عن عائشة رضى الله عنهما «أنها كانت تأمر للدؤام و الدوار بسبع تمرات عجوة فى سبع غدوات على الريق» و الدؤام و الدوار: ما يأخذ الإنسان فى رأسه فيدومه، و منه تدويم الطائر، و هو: أن يستدير فى طيرانه، قال الخطابى: كون العجوة عوذة من السم و السحر إنما هو من طريق التبرك بدعوة رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم لا لأن طبعها يفعل شيئا، و قال النووى: فى تخصيصها دون غيرها و عدد السبع من الأمور التى علمها الشارع، و لا نعلم نحن حكمتها؛ فيجب الإيمان بها، و اعتقاد فضلها، و ما ذكره المازرى و القاضى فى هذا باطل، و قصدت بذلك التحذير من الاغترار به، انتهى. و أشار به لقول القاضى فى أثناء تعليل ذلك: إنه لتأثير فى الأرض أو الهواء، و لقول المازرى: لعل ذلك كان لأهل زمنه صلّى اللّه عليه و سلّم خاصة، أو لأكثرهم؛ إذ لم يثبت استمرار وقوع الشفاء فى زمننا غالبا، و إن وجد ذلك فى الأكثر حمل على أنه أراد وصف غالب الحال، انتهى.

و قد جعله ابن التين احتمالا و زاد عليه آخر أعجب منه، فقال: يحتمل أن يكون المراد نخلا خاصّا من المدينة لا يعرف الآن، و يحتمل: أن يكون ذلك خاصّا بزمانه صلّى اللّه عليه و سلّم انتهى.

و هو مردود؛ لأن سوق الأحاديث و إيراد العلماء لها و إطباق الناس على التبرك بعجوة المدينة و تمرها يرد التخصيص بزمنه صلّى اللّه عليه و سلّم مع أن الأصل عدمه، و لم تزل العجوة معروفة بالمدينة يأثرها الخلف عن السلف، يعلمها كبيرهم و صغيرهم علما لا يقبل التشكيك.

و قال الداودى: هى من أوسط التمر كما هو المشاهد اليوم. و قال غيره: هى من أجود تمر المدينة، و مراده أنها ليست من رديه. و قال ابن الأثير: العجوة ضرب من التمر أكبر من الصّيحانى يضرب إلى السواد، و هو مما غرسه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بيده بالمدينة.

و ذكر هذا الأخير البزار أيضا، فلعل الأوداء التى كاتب سلمان الفارسى أهله عليها و غرسها صلّى اللّه عليه و سلّم بيده الشريفة بالفقير أو غيره من العالية كانت عجوة، و العجوة توجد بالفقير

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۶۳

إلى يومنا هذا، و يبعد أن يكون المراد أن هذا النوع إنما حدث بغرسه صلّى اللّه عليه و سلّم و أن جميع ما يوجد منه من غرسه كما لا يخفى.

و روى ابن حبان عن ابن عباس ل «كان أحب التمر إلى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم العجوة» و فى حديث ضعيف «خير تمركم البرنى، يخرج الداء، و لا داء فيه» و رواه ابن شبة بنحوه خطابا لوفد عبد القيس فى ثمارهم، و كذا الحاكم فى مستدركه، و فى مسلم حديث «يا عائشة بيت لا تمر فيه جياع أهله» قالها مرتين أو ثلاثا، و فيه أيضا حديث «لا يجوع أهل بيت عندهم التمر» و فى الكبير و الصغير للطبرانى و رجال الصغير رجال الصحيح عن ابن عباس «كان رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم إذا أتى بالباكورة من الثمار وضعها على عينيه ثم قال: اللهم كما أطعمتنا أوله فأطعمنا آخره، ثم يأمر به للمولود من أهله» و لفظ الكبير «كان إذا أتى بالباكورة من التمر قبلها و جعلها على عينيه» الحديث، و فى نوادر الحكيم الترمذى عن أنس بن مالك قال «كان رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم إذا أتى بالباكورة من كل شىء قبلها و وضعها على عينه اليمنى ثلاثا، ثم على عينه اليسرى ثلاثا، ثم يقول: اللهم» الحديث بنحوه.

و روى البزار بسند فيه ضعيف حديث «يا عائشة إذا جاء الرطب فهنئنى» و رويناه فى الغيلانيات، و فيها أيضا حديث «كان رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يعجبه أن يفطر على الرطب فى أيام الرطب، و على التمر إذا لم يكن رطب، و يختم بهن، و يجعلهن وترا ثلاثا أو خمسا أو سبعا» و فيها حديث «كلوا التمر على الريق؛ فإنه يقتل الدود».

و أنواع تمر المدينة كثيرة، ذكرنا ما أمكن جمعه منها فى الأصل فبلغ مائة و بضعا و ثلاثين نوعا: منها النوع المسمى بالصّيحانى، و قد أسند الصدر إبراهيم بن محمد بن مؤيد الحموى فى كتابه فضل أهل البيت عن جابر رضى اللّه عنه قال «كنت مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يوما فى بعض حيطان المدينة، و يد على فى يده، قال: فمررنا بنخل، فصاح النخل: هذا محمد سيد الأنبياء، و هذا على سيد الأولياء أبو الأئمة الطاهرين، ثم مررنا بنخل فصاح النخل: هذا محمد رسول الله، و هذا على سيف الله، فالتفت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إلى على، فقال له: يا على سمّه الصيحانى، فسمى من ذلك اليوم الصيحانى» و هو حديث غريب؛ فكان هذا سبب تسمية ذلك النوع بهذا الاسم؛ لأن تلك النخلات كانت منه، و يحتمل أن يكون المراد تسمية ذلك الحائط بهذا الاسم، و بالمدينة اليوم موضع بجفاف يعرف بالصيحانى.

و روى بعضهم هذا الحديث عن على بألفاظ فيها نكارة، و فى آخره «يا على سمّ نخل المدينة صيحانيا لأنهن صحن بفضلى و فضلك».

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۶۴

الفصل السابع فى سرد خصائصها

اشارة

و هى كثيرة لا تكاد تنحصر، وها أنا ذاكر ما حضرنى منها الآن و إن شاركتها مكة فى بعضه، فأقول و بالله التوفيق:

الخاصة الأولى: ما تقدمت الإشارة إليه من كونه صلّى اللّه عليه و سلّم خلق من طينتها،

و كذا أبو بكر و عمر رضى الله عنهما و أكثر الصحابة و السلف ممن دفن بها و روى أن الله تعالى بعث جبريل و ميكائيل ليقبضا قبضة من الأرض بقدميه، فصار بعض الأرض بين قدميه و بعض الأرض موضع أقدامه، فخلقت النفس مما مس قدم إبليس؛ فصارت مأوى الشر، و من التربة التى لم يصل إليها قدم إبليس أصل الأنبياء و الأولياء.

قال فى العوارف: و كانت درة رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم موضع نظر الله تعالى من قبضة عزرائيل لم يمسها قدم إبليس.

و قيل: لما خاطب الله السموات و الأرض بقوله: ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً [فصلت:

۱۱] الآية أجاب من الأرض موضع الكعبة و من السماء ما يحاذيها.

و عن ابن عباس: أصل طينة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من سرة الأرض بمكة، يعنى الكعبة، و هو مشعر بأن ما أجاب من الأرض درته صلّى اللّه عليه و سلّم و من الكعبة دحيت الأرض؛ فصار صلّى اللّه عليه و سلّم هو الأصل فى التكوين.

قال فى العوارف عقبه: و تربة الشخص مدفنه، فكان مقتضى ذلك أن يكون مدفنه هناك، لكن قيل: لما تموج الماء رمى الزبد إلى النواحى، فوقعت جوهرة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إلى ما يحاذى تربته الشريفة بالمدينة، فكان مكيا مدنيا.

قلت: فلمكة الفضل بالبداية، و للمدينة بالاستقرار و النهاية.

الثانية: اشتمالها على البقعة التى انعقد الإجماع على تفضيلها على سائر البقاع،

كما تقدم تحقيقه.

الثالثة: دفن أفضل الأمة بها

و الكثير من الصحابة الذين هم خير القرون.

الرابعة: أنها محفوفة بأفضل الشهداء

الذين بذلوا نفوسهم فى ذات الله بين يدى نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم؛ فكان شهيدا عليهم.
و نقل عياض فى المدارك و ابن الجوزى فى منسكه أن مالكا كان يقول فى فضل المدينة: هى دار الهجرة و السنة، و هى محفوفة بالشهداء، و بها خيار الناس بعد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم.
وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۶۵

الخامسة: أن الله تعالى اختارها دارا و قرارا لأفضل خلقه

و أكرمهم عليه صلّى اللّه عليه و سلّم.

السادسة: أن الله تعالى اختار أهلها للنصرة و الإيواء.

السابعة: أن سائر البلاد افتتحت بالسيف، و افتتحت هى بالقرآن،

كما هو مروى عن مالك، و رفعه ابن زبالة من طريقه.

الثامنة: أن الله تعالى افتتح منها سائر بلاد الإسلام،

حتى مكة المشرفة، و جعلها مظهر دينه القويم.

التاسعة: ما ذكره عياض من الاتفاق على وجوب الهجرة إليها قبل فتح مكة،

و وجوب سكناها لنصرة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و مواساته بالأنفس، قال و من هاجر قبل الفتح فالجمهور على منعه من الإقامة بمكة بعد الفتح، و رخص له فى الإقامة ثلاثة أيام بعد قضاء نسكه.

العاشرة: أنه يبعث أشراف هذه الأمة يوم القيامة منها،

على ما نقله عياض فى المدارك عن مالك فى ضمن أشياء فى فضل المدينة، قال و هذا لا يقوله مالك من عند نفسه.

الحادية عشرة: ما تقدم فى الأسماء من تسميتها بالمؤمنة و المسلمة،

و إن ترتبتها لمؤمنة، و أنه لا مانع من أن الله خلق ذلك فيها.

الثانية عشرة: إضافتها إلى الله تعالى

فى قوله أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً [النساء ۹۷] على ما تقدم فى الأسماء، و قد جاءت الأرض غير مضافة إلى الله تعالى و المراد بها مكة، و ذلك فى قوله تعالى وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ [الأنفال ۲۶].

الثالثة عشرة: إضافة الله إياها إلى رسوله بلفظ البيت

فى قوله كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِ [الأنفال ۵] على ما تقدم فى الأسماء.

الرابعة عشرة: إقسام الله تعالى بها

فى قوله لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ [البلد ۱] على ما سبق فى الأسماء، أى نحلف لك بهذا البلد الذى شرفته بك، و «لا» زائدة للتأكيد، و يدل عليه قراءة الحسن و الأعمش «لأقسم».

الخامسة عشرة: أن الله بدأ بها

فى قوله وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ [الإسراء ۸۰] فمدخل صدق هى، و مخرجه مكة كما تقدم، مع أن القياس البداءة بالمخرج لموافقة الواقع. فإن قيل التقديم للاهتمام بأمر المدخل، قلنا فى الاهتمام به كفاية.

السادسة عشرة: تسميتها فى التوراة بالمرحومة و نحوه،

و مخاطبة الله إياها كما تقدم.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۶۶

السابعة عشرة دعاؤه صلّى اللّه عليه و سلّم بحبها كمكمة و أشد، و تسميتها بالحبيبة و غيره مما تقدم، و دعاؤه أن يجعل الله له بها قرارا و رزقا حسنا.

الثامنة عشرة: تحريكه صلّى اللّه عليه و سلّم دابته أو إيضاعها إذا أبصر جدرانها عند قدومها،

و أنه كان إذا أقبل من مكة فكان بالأثاية طرح رداءه عن منكبيه و قال «هذه أرواح طيبة» كما تقدم.

التاسعة عشرة: اهتمامه صلّى اللّه عليه و سلّم بأمر الدعاء لها

بالبركة و غير ذلك.

العشرون: تحريمها على لسان أفضل الأنبياء صلوات الله و سلامه عليه إكراما له،

و كونه لا جزاء فيها على القول به دليل عظيم حرمتها حيث لم يشرع فيها جابر.

الحادية و العشرون تأسيس مسجدها الشريف على يده صلّى اللّه عليه و سلّم و عمله فيه بنفسه،

و معه خير الأمة المهاجرون الأولون و الأنصار المقدمون.

الثانية و العشرون: اختصاصها بالمسجد

الذى أنزل الله فيه لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ [التوبة ۱۰۸].

الثالثة و العشرون: كون ما بين بيته و منبره روضة من رياض الجنة،

و فى رواية «ما بين منبرى و هذه الحجر» يعنى حجره صلّى اللّه عليه و سلّم و سيأتى بيان أن ذلك يعم مسجده صلّى اللّه عليه و سلّم على ما هو المشهور بين الناس فى تحديد المسجد الشريف؛ و لهذا قال بعضهم هذا المسجد هو المسجد الذى لا تعرف بقعة فى الأرض من الجنة غيره.

الرابعة و العشرون: كون منبره الشريف على ترعة من ترع الجنة،

و أن قوائمه رواتب فى الجنة، و فى رواية «و منبرى على حوضى».

الخامسة و العشرون: ما ورد فى مسجده الشريف من المضاعفة الآتى بيانها.

السادسة و العشرون: حديث «من صلّى فى مسجدى هذا أربعين صلاة كتب له براءة من النار، و براءة من العذاب، و برئ من النفاق»

رواه الطبرانى فى الأوسط.

السابعة و العشرون: ما سيأتى أن من خرج على طهر لا يريد إلا الصلاة فيه كان بمنزلة حجة،

و أن الخارج إليه من حين يخرج من منزله فرجل تكتب حسنة و رجل تحط خطيئة.

الثامنة و العشرون: أن إتيان مسجد قباء يعدل عمرة

كما سيأتى.

التاسعة و العشرون: حديث «صيام شهر رمضان فى المدينة كصيام ألف شهر فيما سواها، و صلاة الجمعة فى المدينة كألف صلاة فيما سواها»

فسائر أفعال البر كذلك كما قيل به فى مكة، و به صرح أبو سليمان داود الشاذلى فى الانتصار، ثم رأيته فى الإحياء، قال إن الأعمال فى المدينة تتضاعف، قال صلّى اللّه عليه و سلّم «صلاة فى مسجدى هذا» الحديث، ثم قال فكذلك كل عمل بالمدينة بألف انتهى، و قال ابن الرفعة فى المطلب و قد ذهب

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۶۷

بعض العلماء إلى أن الصيام بالمدينة أفضل من الصلاة، و الصلاة بمكة أفضل من الصيام، مراعاة لنزول فرضيتهما، انتهى.

قلت: و يؤخذ من هذه العلة أن كل عبادة شرعت بالمدينة فهى بها أفضل منها بمكة، و لك أن تعد هذا خاصة مستقلة.

الثلاثون: حديث «لا يسمع النداء فى مسجدى هذا ثم يخرج منه إلا لحاجة ثم لا يرجع إليه إلا منافق».

الحادية و الثلاثون: تأكد التعلم و التعليم بمسجدها

كما سيأتى.

الثانية و الثلاثون: اختصاصه بمزيد الأدب و خفض الصوت؛

لكونه بحضرة سيد المرسلين، و اختصاصه عند بعضهم بمنع أكل الثوم و نحوه من دخوله؛ لاختصاصه بملائكة الوحى.

الثالثة و الثلاثون: أنه لا يجتهد فى محرابه؛ لأنه صواب قطعا؛

فلا مجال للاجتهاد فيه حتى باليمنة و اليسرة، بخلاف محاريب المسلمين، و المراد مكان مصلاه صلّى اللّه عليه و سلّم قال الرافعى و فى معناه سائر البقاع التى صلّى فيها صلّى اللّه عليه و سلّم إذا ضبط المحراب، قلت و فى ضبطه بغيرها عسر أو تعذر.

الرابعة و الثلاثون: أن ما بين منبره صلّى اللّه عليه و سلّم و مسجد المصلى روضة من رياض الجنة؛

و هذا جانب كبير من هذه البلدة.

الخامسة و الثلاثون: حديث «أحد على ترعة من ترع الجنة»

و حديث «أحد جبل يحبنا و نحبه».

السادسة و الثلاثون: حديث «إن بطحان على ترعة من ترع الجنة».

السابعة و الثلاثون: وصف العقيق بالوادى المبارک،

و أنه صلّى اللّه عليه و سلّم يحبه، و فى رواية «يحبنا و نحبه».

الثامنة و الثلاثون: حثه صلّى اللّه عليه و سلّم على الإقامة بها.

التاسعة و الثلاثون: حثه على اتخاذ الأصل بها.

الأربعون: حثه على الموت بها،

و الوعد على ذلک بالشفاعة أو الشهادة أو هما.

الحادية و الأربعون: حرصه صلّى اللّه عليه و سلّم على موته بها.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۶۸

الثانية و الأربعون: كون أهلها أول من يشفع لهم،

و اختصاصهم بمزيد الشفاعة و الإكرام كما تقدم.

الثالثة و الأربعون: بعث الميت بها من الآمنين

على ما سيأتى.

الرابعة و الأربعون: أنه يبعث من بقيعها سبعون ألفا على صورة القمر يدخلون الجنة بغير حساب،

و مثله فى مقبرة بنى سلمة، و توكل ملائكة بمقبرة البقيع كلّما امتلأت أخذوا بأطرافها فكفئوها فى الجنة.

الخامسة و الأربعون: بعث أهلها من قبورهم قبل سائر الناس.

السادسة و الأربعون: شهادته- أو شفاعته- صلّى اللّه عليه و سلّم لمن صبر على لأوائها و شدتها.

السابعة و الأربعون: وجوب شفاعته صلّى اللّه عليه و سلّم لمن زاره بها.

الثامنة و الأربعون: استجابة الدعاء بها عند القبر الشريف،

و يقال إنه مستجاب عند الأسطوان المخلق، و عند المنبر، و فى زاوية دار عقيل بالبقيع، و بمسجد الفتح بعد صلاة الظهر يوم الأربعاء، و استجابة الدعاء بمسجد الإجابة و مسجد السقيا و بالمصلى عند القدوم، و عند بركة السوق فى يوم العيد، و عند أحجار الزيت و بالسوق، لما سيأتى عند ذكر هذه الأماكن من ورود ذلك عنه صلّى اللّه عليه و سلّم بها.

التاسعة و الأربعون: كونها تنفى خبثها.

الخمسون: كونها تنفى الذنوب كما تنفى النار خبث الفضة.

الحادية و الخمسون: الوعيد الشديد لمن ظلم أهلها أو أخافهم.

الثانية و الخمسون: من أرادها و أهلها بسوء أذابه اللّه كما يذوب الملح فى الماء،

و فى رواية أذابه الله فى النار، و يؤخذ من ترتيب الوعيد على الإرادة مساواة المدينة لحرم مكة فى هذا، و فيه قال تعالى وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ [الحج ۲۵] الآية، و يتمسك للمساواة أيضا بقوله صلّى اللّه عليه و سلّم «كما حرم إبراهيم مكة» فقول ابن مسعود ما من بلدة يؤاخذ العبد فيها بالهم قبل الفعل إلا مكة و تلا الآية مشكل، و أيضا فالهم العارض الوارد من غير عزم لا مؤاخذة به مطلقا بالاتفاق، و أما الثابت الذى يصحبه التصميم فالعبد مؤاخذ به بمكة و بغيرها، و إنما خصوصية الحرم تعظيم العذاب لمن همّ فيه لجرأته؛ و لذا روى أحمد فى معنى الآية بإسناد صحيح مرفوعا «لو أن رجلا همّ فيه بإلحاد و هو بعدن أبين لأذاقه الله عذابا أليما».

الثالثة و الخمسون: الوعيد الشديد لمن أحدث بها حدثا أو آوى محدثا،

و تقدم تفسير الحديث بالإثم مطلقا، و أنه دال على أن الصغيرة بها كبيرة؛ و للوعيد الشديد فى ذلك؛

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۶۹

لأنها حضرة أشرف المرسلين صلّى اللّه عليه و سلّم و سوء الأدب على بساط الملك ليس كالإساءة فى أطراف المملكة.

قال بعض السلف: إياك و المعصية فإن عصيت و لا بد فليكن فى مواضع الفجور، لا فى مواضع الأجور؛ لئلا يتضاعف عليك الوزر، أو تعجل لك العقوبة.

فإن قيل هذا قول بتضعيف السيئات فى الحرم، و الراجح خلافه؛ لقوله تعالى:

وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها [الأنعام: ۱۶۰].

قلنا: تحرير النزاع أن القائل بالمضاعفة أراد مضاعفة مقدارها: أى: عظمها، لا العدد، فإن السيئة جزاؤها سيئة، لكن السيئات قد تتفاوت عقوبتها باختلاف الأشخاص و الأماكن، كما أن تقدير كل أحد بما يليق به فى الزجر، فجزء السيئة مثلها، و من المماثلة رعاية ما اقترن بها مما دل على جرأة مرتكبها، و لا تكتب إلا واحدة، و الله أعلم.

الرابعة و الخمسون: الوعيد لمن لم يكرم أهلها و أن إكرامهم و حفظهم حق على الأمة،

و أنه صلّى اللّه عليه و سلّم شفيع- أو شهيد- لمن حفظهم فيه.

الخامسة و الخمسون: حديث «من أخاف أهل المدينة فقد أخاف ما بين جنبيّ».

السادسة و الخمسون: حديث «من غاب عن المدينة ثلاثة أيام جاءها و قلبه مشرب جفوة»

و إنه «لا يخرج أحد منها رغبة عنها إلا أخلف الله تعالى فيها خيرا منه» كما فى حديث مسلم، قال المحب الطبرى: فيه إشعار بذم الخروج منها، و ذهب بعضهم إلى أنه مخصوص بمدة حياته صلّى اللّه عليه و سلّم فأما بعد وفاته فقد خرج نفر كثير من كبار الصحابة، و ذهب آخرون إلى أنه عام أبدا، قال الطبرى: و هو ظاهر اللفظ، نعم هو مخصوص بالمستوطن، لا من نوى الإقامة بها مدة ثم ينقلب إلى وطنه.

السابعة و الخمسون: إكرام الله لها بنقل وبائها و تحويل حماها.

الثامنة و الخمسون: الاستشفاء بترابها،

و ما تقدم فى ثمارها.

التاسعة و الخمسون: عصمتها من الطاعون.

الستون: عصمتها من الدجال،

و خروج الرجل الذى هو خير الناس- أو من خير الناس- إليه منها، و قوله له: أشهد أنك الدجال، و أنه لا يسلّط عليه بآخرة الأمر، و بهذا تتميز على مكة، و السر فيه أن سيد المرسلين- و هو حجة الله على العباد- بالمدينة.

الحادية و الستون: ما فى حديث الطبرانى من قوله صلّى اللّه عليه و سلّم «و حق على كل مسلم زيارتها».

الثانية و الستون: سماعه صلّى اللّه عليه و سلّم سلام من سلّم و صلاة من صلّى عليه عند قبره الشريف،

و رده عليه.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۷۰

الثالثة و الستون: اختصاصها بملك الإيمان و الحياء،

كما تقدم فى الأسماء.

الرابعة و الستون: كون الإيمان يأزر إليها.

الخامسة و الستون: اشتباكها بالملائكة و حراستهم لها.

السادسة و الستون: كونها أول أرض اتخذ بها مسجد لعامة المسلمين فى هذه الأمة.

السابعة و الستون: كون مسجدها آخر مساجد الأنبياء،

و آخر المساجد التى تشد إليها الرحال، و كونه أحق المساجد أن يزار كما سيأتى.

الثامنة و الستون: كثرة المساجد و المشاهد و الآثار بها،

بل البركة عامة منبثة بها، و لهذا قيل لمالك: أيما أحب إليك المقام هنا يعنى المدينة أو بمكة؟ فقال: هاهنا، و كيف لا أختار المدينة و ما بها طريق إلا سلك عليها رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و جبريل عليه السلام ينزل عليه من عند رب العالمين فى أقل من ساعة؟

التاسعة و الستون: ما يوجد بها من رائحة الطيب الزكية،

على ما تقدم فى الأسماء.

السبعون: طيب العيش بها،

على ما تقدم هناك أيضا.

الحادية و السبعون: استحقاق من عاب تربتها للتعزير؛

فقد أفتى مالك فيمن قال «تربة المدينة رديئة» بأن يضرب ثلاثين درة، و أمر بحبسه، و كان له قدر، و قال: ما أحوجه إلى ضرب عنقه، تربة دفن فيها النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يزعم أنها غير طيبة؟

الثانية و السبعون: الوعيد الشديد لمن حلف يمينا فاجرة عند منبرها.

الثالثة و السبعون: استحباب الدخول لها من طريق و الرجوع فى أخرى،

لما سيأتى فى مسجد المعرّس.

الرابعة و السبعون: استحباب الاغتسال لدخولها.

الخامسة و السبعون: استحباب الدعاء و الطلب من اللّه الموت بها.

السادسة و السبعون: أنها دار إسلام أبدا؛

لحديث «إن الشياطين قد يئست أن تعبد ببلدى هذا».

السابعة و السبعون: أنها آخر قرى الإسلام خرابا،

رواه الترمذى و قال: حسن غريب، و رواه ابن حبان بلفظ «آخر قرية فى الإسلام خرابا المدينة».

الثامنة و السبعون: تخصيص أهلها بأبعد المواقيت و أفضلها؛

تعظيما لأجورهم.

التاسعة و السبعون: ذهب بعض السلف إلى تفضيل البداءة بالمدينة قبل مكة،

و هى مسألة عزيزة، و ممن نص عليها ابن أبى شيبة فى مصنفه فروى عن علقمة و الأسود و عمرو بن ميمون أنهم بدءوا بالمدينة قبل مكة، و أن نفرا من أصحاب رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم كانوا

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۷۱

يبدؤون بالمدينة، و فى المناسك الكبير للإمام أحمد رواية ابنه عنه: سئل عمن يبدأ بالمدينة قبل مكة، فذكر بإسناده عن عبد الرحمن بن يزيد و عطاء و مجاهد قالوا: إذا أردت مكة فلا تبدأ بالمدينة و ابدأ بمكة، فإذا قضيت حجك فامرر بالمدينة إن شئت، و عن إبراهيم النخعى و مجاهد: إذا أردت مكة للحج و العمرة فاجعل كل شىء لها تبعا، ثم روى أن نفرا من أصحاب رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم كانوا يبدؤون بالمدينة إذا حجوا، يقولون: نبدأ من حيث أحرم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم. قلت: و هذا أرجح؛ لتفضيل ميقات المدينة، و إتيان المدينة أولا وصلة إليه، مع ما فيه من البداءة بزيارة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و إيثارها، و لعله السبب عند من بدأ بالمدينة ممن تقدم ذكره من التابعين كما قال السبكى. و نقل الزركشى عن العبدى شارح الرسالة من المالكية أنه قال: المشى إلى المدينة لزيارة قبر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أفضل من الكعبة و من بيت المقدس، انتهى. و الخلاف فيما إذا لم تكن المدينة على طريقه؛ لأن مأخذ من رجّح البداءة بمكة المبادرة إلى قضاء الفرض، و لهذا قال الموفق ابن قدامة: قال أحمد: و إذا حج الذى لم يحج قط- يعنى من غير طريق الشام- لا يأخذ على طريق المدينة؛ لأنى أخاف أن يحدث به حدث، فينبغى أن يقصد مكة من أقصر الطرق و لا يتشاغل بغيره، قال السبكى: و هو فى العمرة متجه؛ لإمكان فعلها متى وصل، و أما الحج فله وقت مخصوص فإذا كان متسعا لم يفت بمروره بالمدينة شىء. قلت: و مع ذلك فهو فى الفرض، و لهذا قال فى الفصول: نقل صالح و أبو طالب: إذا حج للفرض لم يمر بالمدينة؛ لأنه إن حدث به حدث الموت كان فى سبيل الحج، و إن كان تطوعا بدأ بالمدينة، انتهى. و ممن نص على المسألة أيضا الإمام أبو حنيفة على ما نقله أبو الليث السمرقندى، و قال: إن الأحسن البداءة بمكة.

الثمانون: اختصاص أهلها فى قيام رمضان بستّ و ثلاثين ركعة،

على المشهور عند الشافعية، قال الرافعى و النووى: قال الشافعى: رأيت أهل المدينة يقومون بتسع و ثلاثين ركعة، منها ثلاث للوتر، قال أصحابنا: و ليس لغير أهل المدينة ذلك؛ لشرفهم بمهاجر رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و قبره، ثم قال الرافعى: و سبب فعل أهل المدينة ذلك أن الركعات العشرين خمس ترويحات، و كان أهل مكة يطوفون بين كل ترويحتين أسبوعا، و يصلون ركعتى الطواف أفرادا، و كانوا لا يفعلون ذلك بين الفريضة و التراويح و لا بين التراويح و الوتر، فأراد أهل المدينة أن يساووهم فى الفضيلة، فجعلوا مكان كل أسبوع- أى: مع كل ركعتيه- ترويحة؛ فحصل أربع ترويحات هى ستة عشر ركعة، انتهى.

و نقل الرويانى فى البحر هذا السبب عن الشافعى. و قال القاضى أبو الطيب الطبرى:

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۷۲

قال الشافعى: لا يجوز لغير أهل المدينة أن يماروا أهل مكة و لا ينافسوهم لأن الله فضّلهم على سائر البلاد، انتهى. و حاصل التوجيه أن الحسد فى الخير مطلوب، و هو فى الحقيقة غبطة كما حسد المهاجرون- لما لم يكن لهم ما يتصدقون به- الأنصار فقالوا: ذهب أهل الدثور بالأجور، فأثبت أهل المدينة هذا العدد بضرب من الاجتهاد ليلحقوا بأهل مكة، و قد تشارك البلدان فى الفضائل حتى اختلف فى تفضيل كل منهما على الأخرى، و جعل لأهل المدينة ما يحصل به ثواب الاعتمار و الحج، و امتازت المدينة بالمهاجر و القبر، فجعل لأهلها طريق إلى تحصيل تلك الفضيلة السابقة مع إقامتهم بها، و لعله لو لم يشرع لهم ذلك لحملتهم الرغبة فى الخير على الانتقال إلى مكة، و سكنى المدينة مطلوب، و أما غيرهم فليس له شىء من هذا الفضل، فكيف يتأتى له مساواة أهل مكة؟ فلم يشرع

لهم ذلك، هذا و إجماع أهل المدينة حجة عند مالك، و القيام بهذا العدد بالمدينة باق إلى اليوم إلا أنهم يقومون بعشرين ركعة عقب العشاء، ثم يأتون آخر الليل فيقومون بستة عشر ركعة، فوقع لهم خلل فى أمر الوتر نبهنا عليه فى كتاب «مصابيح القيام، فى شهر الصيام» و كنت قد ذكرت لهم ما يحصل به إزالة ذلك، ففعلوه مدة، ثم غلبت الحظوظ النفسية على بعضهم فعاد الأمر كما كان.

الحادية و الثمانون: زيادة البركة بها، على مكة المشرفة،

و قد قدمنا حديثا يشير إلى أن المدعو به لها ستة أضعاف ما بمكة من البركة، و المصرح به فى الأحاديث «ضعفى ما جعلت بمكة من البركة» و فى بعضها «مثل ما جعلت بمكة من البركة و مع البركة بركتين».

الثانية و الثمانون: نقل عن مالك أن خبر الواحد إذا عارضه إجماع أهل المدينة قدم إجماعهم،

و لهذا روى حديث خيار المجلس ثم قال: و ليس لهذا عندنا حد معلوم و لا أمر معمول به؛ لما اختص به أهل المدينة من سكناهم مهبط الوحى و معرفتهم بالناسخ و المنسوخ، فمخالفتهم تقتضى علمهم بما أوجب ترك العمل من ناسخ أو دليل راجح، و المحققون على أن البقاع لا أثر لها فى ذلك، و قد بلغ ابن أبى ذئب- و هو من أقران مالك- مخالفته للحديث فأغلظ فى ذلك لأن العصمة إنما تثبت فى إجماع جميع الأمة، و يؤخذ من كلام مالك اختصاص ذلك بعمل أهل ذلك العصر من أهل المدينة.
وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۷۳

الثالثة و الثمانون: حديث النسائى و البزار و الحاكم و اللفظ له «يوشك الناس أن يضربوا أكباد الإبل فلا يجدوا عالما أعلم من عالم المدينة»

و قال: صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه، و قد كان ابن عيينة يقول: نرى هذا العالم مالك بن أنس، انتهى. قال الزركشى:
و فيما حكاه عن سفيان نظر؛ لما فى صحيح ابن حبان أن إسحاق بن موسى قال: بلغنى عن ابن جريج أنه كان يقول: نرى أنه مالك بن أنس، فذكرت ذلك لسفيان بن عيينة فقال:
إنما العالم من يخشى الله، و لا نعلم أحدا كان أخشى لله من العمرى، قال التوربشتى فى شرح المصابيح: يعنى عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب، كان من عباد الله الصالحين المشائين فى بلاده و عباده بالنصيحة. بلغنا أنه كان يخرج إلى البادية ليتفقد أهلها شفقة عليهم و أداء الحق النصيحة فيهم، و قد أخرج الترمذى الحديث و حسّنه، و تكلم ابن حزم فيه، ثم قال: و لم يتعين هذا فى مالك؛ لأنه كان فى عصره جماعة لا يفضل على واحد منهم، و كان بالمدينة من هو أجل منه كسعيد بن المسيب؛ فهذا الحديث أولى به. و قال ابن عيينة: و لو سئل أىّ الناس أعلم؟ لقالوا: سفيان الثورى، قال ابن حزم: و إن صح هذا الحديث فإنما إذا قرب قيام الساعة و أرز الإيمان إلى المدينة و غلب الدجال على الأرض خلا مكة و المدينة، و أما حتى الآن فلم يأت صفة ذلك الحديث؛ لأن الفقه انقطع من المدينة جملة، و استقر فى الآفاق، انتهى. و لا يخلو عن نزاع.

الرابعة و الثمانون: تحريم نقل أحجار حرمها و ترابه

كما سيأتى بيانه.

الخامسة و الثمانون: لو نذر تطييب مسجد المدينة و كذا الأقصى ففيه تردد لإمام الحرمين؛

لأنا إن نظرنا إلى التعظيم ألحقناهما بالكعبة، أو إلى امتياز الكعبة بالفضل فلا، و كلام الغزالى فى آخر باب النذر يقتضى اختصاصه بالمسجدين كما فرضناه، لا فى غيرهما من المساجد، و الإمام طرده فى الكل، و حيث كان الملحظ ما ذكر فينبغى أن لا يتوقف فيما لو

نذر تطييب القبر الشريف.

السادسة و الثمانون: إذا نذر زيارة قبر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لزمه الوفاء بذلك وجها واحدا،

و فى وجوب الوفاء فى زيارة قبر غيره وجهان، قاله ابن كجّ، و أقره عليه الرافعى و النووى و غيرهما.

السابعة و الثمانون: قيام مسجدها مقام المسجد الأقصى كالمسجد الحرام

فيما لو نذر الصلاة أو الاعتكاف فى الأقصى؛ فإن الأصح لزومه به، و أجزأ مسجد المدينة لزيادة فضله، و لو نذرهما بمسجد المدينة لم يجزه فعل ذلك بالأقصى و يجزيه بالمسجد الحرام.

الثامنة و الثمانون: الاكتفاء بزيارة قبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لمن نذر إتيان مسجد المدينة،

كما قال الشيخ أبو على تفريعا على القول بلزوم إتيانه كما قاله الشافعى و البويطى و على أنه لا بد من ضم قربة إلى الإتيان كما هو الأصح تفريعا على اللزوم، و علله الشيخ أبو على

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۷۴

بأن زيارته صلّى اللّه عليه و سلّم من أعظم القربات، و توقف فى ذلك الإمام من جهة أنها لا تتعلق بالمسجد و تعظيمه، قال: و قياسه أنه لو تصدق فى المسجد أو صام يوما كفاه، و فيه نظر، على أن الصحيح ما نص عليه فى المختصر من عدم لزوم الإتيان، و إن كان اللزوم أرجح دليلا، و رجح الرافعى تفريعا على اللزوم ضم صلاة أو اعتكاف، و كذا إذا نذر إتيان الأقصى، فإن نفس المرور لما لم يكن فى نفسه مزية انصرف النذر إلى ما يقصد فيه من القرب و بهذا يترجح ما قاله الشيخ أبو على، لأن إتيان مسجد المدينة يقصد للصلاة و الاعتكاف و الزيارة بخلاف غيره.

التاسعة و الثمانون: قال ابن المنذر: إذا نذر أن يمشى إلى مسجد الرسول و المسجد الحرام لزمه الوفاء به لأنه طاعة؛

و من نذر أن يمشى إلى بيت المقدس كان بالخيار: إن شاء مشى إلى المسجد الأقصى، و إن شاء مشى إلى المسجد الحرام؛ لحديث أن رجلا قال للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم: إنى نذرت إن فتح الله عليك مكة أن أصلى فى مسجد بيت المقدس، قال صلى اللّه عليه و سلم: «صلّ هنا، ثلاثا» انتهى. و يعلم مما تقرر فى إجزاء مسجد المدينة عن الأقصى فى الإتيان و الصلاة إجزاؤه هنا كالمسجد الحرام، و الذى اقتضاه كلام البغوى تصحيح عدم لزوم المشى فى مسجد المدينة و الأقصى، و هو الذى رجحوه.

التسعون: قوله صلّى اللّه عليه و سلّم فى أحاديث تحريمها «و لا يحمل فيها سلاح لقتال».

الحادية و التسعون: قوله فيها أيضا: «و لا تلتقط لقطته إلا لمن أشاد بها».

الثانية و التسعون: إذا قلنا بضمان صيدها و قطع شجرها فالصحيح أنه يسلب الصائد كما يسلب قتيل الكفار،

و هذا أبلغ فى الزجر من الجزاء.

الثالثة و التسعون: جواز نقل ترابها للتداوى.

الرابعة و التسعون: ظهور نار الحجاز التى أخبر بها صلّى اللّه عليه و سلّم مما حولها؛

لأنها للإنذار، فاختصت ببلد النذير، ثم لما بلغت الحرم و كان محرّمه المبعوث بالرحمة خمدت و طفئت، على ما سيأتى.

الخامسة و التسعون: دعاؤه صلّى اللّه عليه و سلّم بالبركة فى سوقها.

السادسة و التسعون: ما سيأتى فى سوقها من أن الجالب إليه كالمجاهد فى سبيل اللّه.

السابعة و التسعون: أن المحتكر فيه كالملحد فى كتاب اللّه.

الثامنة و التسعون: ما سيأتى فى بئر غرس من أنه صلّى اللّه عليه و سلّم «رأى أنه أصبح على بئر من آبار الجنة، فأصبح على بئر غرس»

و رؤيا الأنبياء حق، عليهم الصلاة و السلام!

التاسعة و التسعون: ما سبق فى ثمارها من أن العجوة من الجنة؛

فقد اشتملت المدينة على شيء من أرض الجنة و مياهها و ثمارها، و اللّه أعلم.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۷۵

الفصل الثامن فى الأحاديث الواردة فى تحريمها، و هى كثيرة

روينا فى الصحيحين منها حديث عبد اللّه بن زيد «إن إبراهيم حرم مكة و دعا لها»، و فى لفظ «و دعا لأهلها، و إنى حرمت المدينة كما حرّم إبراهيم مكة» الحديث.

و فى البخارى حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه «حرم ما بين لابتى المدينة على لسانى» قال: و أتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بنى حارثة فقال: «أراكم يا بنى حارثة قد خرجتم من الحرم، ثم التفت فقال: بل أنتم فيه» و سيأتى بيان منازلهم، و فيه أيضا عنه: لو رأيت الظباء بالمدينة ترتع ما ذعرتها، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما بين لابتيها حرام» و هو فى مسلم بزيادة، و لفظه «حرم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ما بين لابتى المدينة» قال أبو هريرة: فلو وجدت الظباء ما بين لابتيها ما ذعرتها، و جعل اثنى عشر ميلا حول المدينة حمى.

و فى مسلم أيضا عن عاصم الأحول: «سألت أنسا أحرم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة؟

قال: نعم، هى حرام: لا يختلى خلاها، فمن فعل ذلك فعليه لعنة اللّه و الملائكة و الناس أجمعين».

و فيه أيضا حديث رافع بن خديج رضى اللّه عنه «إن إبراهيم حرم مكة، و إنى أحرم ما بين لابتيها» يريد المدينة.

و فيه أيضا حديث جابر «إن إبراهيم حرم مكة، و إنى حرمت المدينة ما بين لابتيها: لا تقطع عضاهها، و لا يصاد صيدها».

و فيه أيضا من حديث أبى سعيد الخدرى «اللهم إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حراما، و إنى حرمت المدينة حراما ما بين مأزميها، أن لا يهراق فيها دم، و لا يحمل فيها سلاح لقتال، و لا يخبط فيها شجرة إلا لعلف» الحديث.

و فيه أيضا من حديث أنس «اللهم إنى أحرم ما بين جبليها مثل ما حرم إبراهيم عليه السلام مكة».

قلت: المراد بجبليها عير و ثور، و هما المعبر عنهما فى الحديث قبله بمأزميها على ما صوبه النووى، و نسبة تحريم مكة لإبراهيم عليه السلام دليل لما ذهب إليه جماعة من أنها لم تزل حلالا كغيرها إلى زمن إبراهيم عليه السلام، فحرمت، و الثانى- و صححه النووى، و نقل عن الأكثرين- أنها لم تزل حراما منذ خلق اللّه السموات و الأرض، ثم أظهر اللّه

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۷۶

تعالى ذلك على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام. قال الزركشى: و فيه جمع بنى الأحاديث.

قلت: الأحكام قديمة؛ لأنها خطاباته تعالى، و الحادث إنما هو تعلقاتها بالمكلفين، فإذا كان ظهور تحريمها على لسان إبراهيم عليه السلام فذلك أول تعلق الحكم التكليفى، فما معنى ما يقوله الثانى من تحريمها يوم خلق الله السموات و الأرض مع انتفاء التعلق التكليفى حينئذ؟ و يجوز أن يكون بمعنى أن الله تعالى أظهر ذلك لملائكته يوم خلق السموات و الأرض و عرفهم به، و تأخر تعلق التكليف به حتى ظهر على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام و هذا لا يأباه القول الأول، بل يسلمه، و هو حسن، و به يجتمع معنى الأحاديث، و لا يخفى أن خطاب الله تعالى بتحريم المدينة قديم أيضا، و تأخره من حيث التكليف إلى أن أظهره النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ليس فيه حط لرتبتها، بل دليل كمالها حيث ادخر الله ذلك حتى جعله على لسان أشرف المرسلين صلوات الله و سلامه عليه، مع أنهم ذكروا فى معنى تحريم إبراهيم لها احتمالين: أحدهما: أنه بأمر الله تعالى له، و الثانى: أنه دعا لها فحرمها الله بدعوته، و يقال مثله فى تحريمه صلّى اللّه عليه و سلّم للمدينة.

و قوله: «ما بين لابتيها» أى: حرّتيها الشرقية و الغربية و المدينة بينهما، و لها أيضا حرة بالقبلة و حرة بالشام، لكنهما يرجعان إلى الشرقية و الغربية لاتصالهما بهما، و لهذا جمعها صلّى اللّه عليه و سلّم كلها فى اللابتين كما نبه عليه الطبرى.

قال النووى: و هو حد الحرم من جهة المشرق و المغرب، و ما بين جبليها بيان لحده من جهة الجنوب و الشمال، قال: و معنى قوله «ما بين لابتيها» اللابتان و ما بينهما، و المراد تحريم المدينة و لابتيها.

قلت: و يؤيده أن اللابتين شرقا و غربا فى محاذاة أحد الجبلين الآتى بيانهما، و أن منازل بنى حارثة فى محاذاة اللابة الغربية على ما اقتضاه كلاه المطرى فيما قدمناه عنه من الباب الأول فى ترجمة أثرب، و الذى ترجح عندى أن منازلهم كانت باللابة الشرقية مما يلى العريض و ما قارب ذلك؛ لأن الإسماعيلى روى الحديث المتقدم بلفظ: «ثم جاء بنى حارثة و هم فى سند الحرة» أى: الجانب المرتفع منها، و سيأتى فى منازلهم ما يبين أن المراد الحرة الشرقية، و ليس الموضع الذى ذكره المطرى فى سند واحدة من الحرتين، و الله أعلم. و يؤيد أيضا ما قاله النووى أن البيهقى روى فى المعرفة حديث الصحيفة عن على بلفظ: «إن إبراهيم حرم مكة، و إنى أحرم المدينة ما بين حرتيها و جمامها: لا يختلى خلاها، و لا ينفر صيدها، و لا يلتقط لقطتها إلا لمن أشاد بها» يعنى: أنشد «و لا

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۷۷

يقطع شجرها إلا أن يعلف رجل بعيرا، و لا يحمل فيها سلاح لقتال» الحديث، و رواه أحمد كذلك أيضا، و هو حديث صحيح، و جمام المدينة ثلاثة كما سيأتى، و هى مما يلى حرتها الغربية من جهة المغرب و الحرة بين الجمام و المدينة.

و روى مسلم حديث الصحيفة بلفظ: «المدينة حرم ما بين عير إلى ثور» و البخارى بلفظ: «المدينة حرم ما بين عاير إلى كذا» و أبو داود بلفظ: «المدينة حرام ما بين عاير إلى ثور» ثم زاد فيه و قال: إن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لا يختلى خلاها، و لا ينفر صيدها، و لا يلقط لقطتها إلا من أشاد بها، و لا يصلح لرجل أن يحمل فيها السلاح لقتال، و لا أن يقطع منها شجرة إلا أن يعلف رجل بعيره» و رواه الطبرانى برجال موثّقين مختصرا، و لفظه عن أبى جحيفة أنه دخل على على رضى الله عنه فدعا بسيفه، فأخرج من بطن السيف أدما عربيا، فقال: ما ترك رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم شيئا غير كتاب الله الذى أنزل إليه و قد بلغته غير هذا، فإذا: بسم الله الرحمن الرحيم، محمد رسول الله قال: «لكل نبى حرم و حرمى المدينة».

الفصل التاسع فى بيان عير و ثور

اشارة

و هما المراد بجبليها كما تقدم.

موقع جبل عير

أما عير- بفتح العين المهملة و سكون الياء آخر الحروف بلفظ العير مرادف الحمار، و يقال: عاير- فجبل كبير مشهور فى قبلة المدينة بقرب ذى الحليفة ميقات المدينة.

موقع جبل ثور

و أما ثور- بالمثلاثة بلفظ الثور فحل البقر- فجبل صغير خلف أحدكما سنحققه، فإنه خفى على جماعة من فحول العلماء فاستشكلوا الحديث، و قالوا: ليس بالمدينة ثور، إنما هو بمكة، و لهذا فى أكثر روايات البخارى من عاير إلى كذا، و فى بعضها من عير إلى كذا، و لم يبين النهاية، فكأنه يرى أن ذكر ثور و هم فأسقطه، و ترك بعض الرواة موضع ثور بياضا ليتبين الوهم، و ضرب آخرون عليه.

الاختلاف فى وجود جبل ثور بالمدينة

و قال المازرى: نقل بعض أهل العلم أن ذكر ثور هنا و هم من الراوى؛ لأن ثورا بمكة، و الصحيح «إلى أحد».

و قال أبو عبيد القاسم بن سلام: عير و ثور جبلان بالمدينة، و أهل المدينة لا يعرفون

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۷۸

بها جبلا يقال له ثور، و إنما ثور بمكة، قال: فإذا نرى أن الحديث أصله «ما بين عير إلى أحد».

قلت: و كذا رواه الطبرانى برجال ثقات، بلفظ: «ما بين عير و أحد حرام، حرّمه رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم» و هو كذلك فى رواية لابن زبالة.

و قال الحازمى: الرواية الصحيحة «ما بين عير إلى أحد» و قيل: «إلى ثور» و ليس له معنى، و تكلف بعضهم فقال: إلى بمعنى مع، كأنه جعل المدينة مضافة إلى مكة فى التحريم لأن ثورا بها.

و قال الموفق بن قدامة: يحتمل أن المراد تحريم قدر ما بين ثور و عير اللذين بمكة، أو سمى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم الجبلين اللذين بطرفى المدينة عيرا و ثورا ارتجالا، انتهى. و هو يقتضى إنكار وجود عير بالمدينة أيضا.

و قد قال الزركشى: نقل عياض عن بعضهم أنه ليس بالمدينة و لا ما يقرب منها جبل يعرف بأحد هذين الاسمين، أعنى عيرا و ثورا. قال ياقوت فى معجمه: و هذا وهم، فإن عيرا جبل مشهور بالمدينة، و قال ابن السيد: عير جبل بقرب المدينة، و عبارة عياض فى المشارق: عير و عاير المذكوران فى حرم المدينة فى أكثر الروايات عير، و فى حديث على عاير، قال الزبير بن بكار: هو جبل بالمدينة، و قال عمه مصعب: لا يعرف بالمدينة عير و لا ثور، انتهى.

و قال فى المطالع: أكثر رواة البخارى ذكروا عيرا، و أما ثور فمنهم من كنى عنه بكذا، و منهم من ترك مكانه بياضا، و الأصل فى هذا التوقف قول مصعب الزبيرى: ليس بالمدينة عير و لا ثور، و أثبت غيره عيرا، و وافقه على إنكار ثور.

قلت: سيأتى فى ترجمة عير من فصل البقاع عن مصعب الزبيرى ما يقتضى إثباته له، و شهرة عير غير خافية بين العلماء، إنما الغرابة فى ثور.

و قال النووى عقب نقل الحازمى المتقدم: و يحتمل: أن ثورا كان اسما لجبل هناك:

إما أحد، و إما غيره، فخفى اسمه.

و قال صاحب البيان و الانتصار: قد صحت الرواية بلفظ ثور؛ فلا ينبغى الإقدام على توهيم الرواة بمجرد عدم العرفان، فإن أسماء الأماكن قد تتغير، أو تنسى و لا يعلمها كثير من الناس، قال: و قد سألت بمكة عن وادى محسّر و غيره من أماكن تتعلق بالنسك، فلم

أخبر عنها مع تكرر مجيء الناس إليها، فما ظنك بغيرها؟ و أيضا فقد يكون للشيء اسمان فيعرف أحدهما دون الآخر.

و قال المجد: لا أدرى كيف وقعت المسارعة من هؤلاء الأعلام إلى إثبات و هم فى

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۷۹

الحديث المتفق على صحته، بمجرد ادعاء أن أهل المدينة لا- يعرفون جبلا- يسمى ثورا، و ذكر احتمال طرق التغيير فى الأسماء و النسيان لبعضها، قال: حتى إنى سألت جماعة من فقهاء المدينة و أمرائها و غيرهم من الأشراف عن فدك و مكانها فكلهم أجابوا بعدم معرفة موضع يسمى بذلك فى بلادهم، مع أن هذه القرية لم تبرح فى أيدى الأشراف و الخلفاء يتداولونها إلى أواخر الدولة العباسية، فكيف بجبل صغير لا يتعلق به كبير أمر، مع أنه معروف بين أهل العلم بالمدينة، و نقل بعض الحفاظ وصفه بذلك خلفا عن سلف؟ اه.

قلت: قد حكى البيهقى فى المعرفة قول أبى عبيد: أهل المدينة لا يعرفون جبلا يقال له ثور، ثم قال البيهقى: و بلغنى عن أبى عبيدة أنه قال فى كتاب الجبال: بلغنى أن بالمدينة جبلا يقال له ثور، انتهى.

و نقل المجد فى ترجمة عير عن نصر أنه قال: عير جبل يقابل الثنية المعروفة بشعب الجوز، و ثور جبل عند أحد، انتهى. فدل على أن ما اشتهر فى زماننا و قبله من وجود ثور بالمدينة له أصل فى الزمن القديم، و إن خفى على بعضهم، و قد أخبرنى بوجوده جماعة كثيرة من الخواص، و أرونى إياه خلف أحد، و نقل جماعة عن المحدث أبى محمد عفيف الدين عبد السلام بن مزروع البصرى نزيل المدينة المشرفة أنه رآه غير مرة، و أنه لما خرج رسولا من صاحب المدينة إلى العراق كان معه دليل يذكر له الأماكن و الأجبل، فلما وصلا إلى أحد إذا بقربه جبل صغير، فسأله: ما اسم هذا الجبل؟ فقال له: يسمى ثورا، و قد حكى عنه نحو هذا القطب الحلبى فى شرح البخارى، و قال المحب الطبرى: أخبرنى الثقة الصدوق الحافظ العالم المجاور بحرم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم عبد السلام البصرى أن حذاء أحد عن يساره جانحا إلى ورائه جبل صغير يقال له ثور، و أخبر أنه تكرر سؤاله عنه لطوائف من العرب العارفين بتلك الأرض و ما فيها من الجبال، فكل أخبر أن ذلك الجبل اسمه ثور، قال الطبرى: فعلمنا بذلك أن ما تضمنه الحديث صحيح، و عدم علم أكابر العلماء به لعدم شهرته و عدم بحثهم عنه، انتهى.

و قد رد الجمال المطرى فى تاريخه على من أنكر وجود ثور، و قال: إنه خلف أحد من شماليه، صغير مدور، يعرفه أهل المدينة خلف عن سلف.

و قال الأقشهرى: و قد استقصينا من أهل المدينة تحقيق خبر جبل يقال له ثور عندهم، فوجدنا ذلك اسم جبل صغير خلف جبل أحد يعرفه القدماء دون المحدثين من أهل المدينة، و الذى يعلم حجة على من لا يعلم، اه.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۸۰

و قال العلامة أبو العباس بن تيمية: عير جبل عند الميقات يشبه العير، و هو الحمار، و ثور جبل فى ناحية أحد، و هو غير جبل ثور الذى بمكة.

و روى بعض شراح المصابيح أن الله تعالى لما كلم موسى عليه السلام على الجبل تقطع ست قطع، فصارت ثلاث بمكة: حراء، و ثبير، و ثور، و ثلاث بالمدينة: عير، و ثور، و رضوى، و كأن ثورا سمى باسم فحل البقر لشبهه به، و هو إلى الحمرة أقرب، و قد صح بما قدمناه أن أحدا من الحرم؛ لأن ثورا حده من جهة الشام كما أن عيرا حده من جهة القبلة، و يقوم ذلك على الرواية التى فيها ذكر أحد بدل ثور، لما فى ذلك من الزيادة عليها، و أنها من باب ذكر فرد مما شمله ذلك العموم بحكم العموم فلا تخصص، مع إفادتها لإدخال ما حاذى أطراف أحد شرقا و غربا، و ما وقع فى الشرحين و الروضة و غيرهما من التحديد بما بين اللابتين و بما بين عير و أحد مبنى على ما تقدم من أن الرواية الصحيحة «أحد» لعدم وجود ثور؛ فقد اتضح الحال، و لله الحمد.

الفصل العاشر فى أحاديث تقتضى زيادة الحرم على ذلك التحديد، و أنه مقدر ببريد

أعلم أن قوله فى حديث مسلم «و جعل اثنى عشر ميلا حول المدينة حمى» ظاهر فى التحريم لذلك القدر؛ إذ حول المدينة إنما هو حرمها، و حمى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم الذى ليس بحرم لم يكن حول المدينة على ما سيأتى بيانه، و لأن التقى السبكى قال: إن فى سنن أبى داود تحديد حرم المدينة ببريد من كل ناحية، قال: و إسناده ليس بالقوى، و الذى رأيته فى أبى داود عن عدى بن يزيد «حمى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كل ناحية من المدينة بريدا بريدا، لا يخبط شجره، و لا يعضد إلا ما يساق به الجمل» رواه البزار بنحوه، و رواه ابن زبالة بلفظ «حرم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم شجر المدينة بريدا فى بريد منها، و أذن فى المسد و المنجدة و متاع الناضح أن يقطع منه» و المنجدة: عصا الناضح.

و روى المفضل الجندى عن سعد بن أبى وقاص رضى اللّه عنه أنه قال: فى قصة العبد الذى وجده يعضد- أو يخبط- عضاها بالعقيق: «سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: من وجد من يعضد أو يخبط شيئا من عضاه المدينة بريدا فى فى بريد فله سلبه، فلم أكن لأرد شيئا أعطانيه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم».

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۸۱

و روى البزار عن جابر قال: «حرم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة بريدا من نواحيها».

و فى الأوسط للطبرانى- و فيه ضعيف- عن كعب بن مالك قال: «حرّم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الشجر بالمدينة بريدا فى بريد، و أرسلنى فأعلمت على الحرم: على شرف ذات الحبيش، و على شريب، و على أشراف مخيض».

و رواه ابن النجار بلفظ: «حرّم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة بريدا فى بريد، و أرسلنى فأعلمت على الحرم: على شرف ذات الجليس، و على مشيرب، و على أشراف المجتهر، و على تيم» و رواه ابن زبالة بهذا اللفظ، إلا أنه أسقط أشراف المجتهر، و أبدل تيم بثيب، و زاد «و على الحفياء و على ذى العشيرة».

و روى أيضا عن كعب بن مالك أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم «حمى الشجر ما بين المدينة إلى وعيرة، و إلى ثنية المحدث، و إلى أشراف مخيض، و إلى ثنية الحفياء، و إلى مضرب القبة، و إلى ذات الجيش: من الشجر أن يقطع، و أذن لهم فى متاع الناضح أن يقطع من حمى المدينة».

و روى أيضا عن سلمان بن كعب الديا نارى أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم «نزل بمضرب القبة و قال: ما بينى و بين المدينة حمى لا يعضد، فقالوا: إلا المسد، فأذن لهم فى المسد».

و روى أيضا من طريق مالك بن أنس عن أبى بكر بن حزم أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال فى الحمى: «إلى مضرب القبة» قال مالك: و ذلك نحو من بريد.

و روى أيضا عن جابر مرفوعا «كل دافعة دفعت علينا من هذه الشعاب فهى حرام أن تعضد- أو تخبط، أو تقطع- إلا لعصفور قتب أو مسد محالة أو عصا حديدة».

و فى الأوسط للطبرانى بإسناد حسن عن الحسن بن رافع أنه سأل جابر بن عبد اللّه فقال: لنا غنم و غلمان، و نحن و هم بثرير، فهم يخبطون على غنمهم هذه الثمرة، يعنى الحبلة- قال خارجة: و هى ثمر السّمر- قال جابر: لا يخبط و لا يعضد حمى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لكن هشوا هشا، ثم قال جابر: إن كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ليمنع أن يقطع المسد، قال خارجة: و المسد مرود البكرة.

و روى ابن زبالة عن أبى سعيد الخدرى قال: بعثتنى عمتى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تستأذنه فى مسد، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «اقرأ عمتك السلام، و قل لها: لو أذنت لكم فى مسد طلبتم ميزابا، و لو أذنت لكم فى ميزاب طلبتم خشبة، ثم قال: حماى من حيث استاقت بنو فزارة لقاحى».

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۸۲

الفصل الحادى عشر فى بيان ما فى هذه الأحاديث من الألفاظ المتعلقة بالتحديد

اشارة

، و من ذهب إلى مقتضاها.

ذات الجيش

قوله: «شرف ذات الجيش» قال ابن زبالة: ذات الجيش: لقب ثنية الحفيرة من طريق مكة و المدينة، و قال المطرى: هى وسط البيداء، و البيداء هى التى إذا رحل الحجاج من ذى الحليفة استقبلوها مصعدين إلى جهة الغرب، و هى على جادة الطريق.

قلت: و يؤيده قول ياقوت: ذات الجيش موضع بعقيق المدينة، أراد بقربه، أو لأن سيلها يدفع فيه كما سيأتى، و قد رأيته يطلق ذلك على ما يدفع فى العقيق و إن بعد عنه.

و قال أبو عبد الله محمد بن أحمد الأسدى فى وصف الطريق بين مكة و المدينة: إن من ذى الحليفة إلى الحفيرة ستة أميال، قال: و هى متعشّى، و بها بئر طيبة و حوض، و عمر بن عبد العزيز هو الذى حفر البئر، و بها أبيات و مسجد، اه. و مقتضاه أن يكون ثنية الحفيرة بعد البئر، فلعلها ثنية الجبل المسمى اليوم بمفرح، و هناك واد قبل وادى تربان يسمونه سهمان ينطبق عليه الوصف المذكور، و هو موافق لقول من قال: ذات الجيش واد بين ذى الحليفة و تربان. فأطلق اسمها على الوادى التى هى فيه، و لقول عياض: ذات الجيش على بريد من المدينة، و هو ظاهر رواية الطبرانى المتقدمة، لكنه مخالف لما سيأتى فى معنى التحديد بالبريد، و هناك حبس النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى ابتغاء عقد عائشة رضى الله عنها، و نزلت آية التيمم، و الترديد فى حديث عائشة: «حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش» كأن سببه قرب الموضعين، و هو ظاهر فى المغايرة بينهما. و قال أبو على الهجرى: ذات الجيش: شعبة على يمين الخارج إلى مكة بحذاء الحفيرة، قال: و صدر الحفيرة و ما قبل من الصلصلين يدفع فى بئر أبى عاصية، ثم يدفع فى ذات الجيش، و ما دبر منها يدفع فى البطحاء، ثم تدفع البطحاء من بين الجبلين فى وادى العقيق، و ذات الجيش تدفع فى وادى أبى كبير، و هو فوق مسجد الحرم و المعرس، و طرف أعظم الغربى يدفع فى ذات الجيش، و طرفه الثانى يدفع فى البطحاء.

قلت: و أعظم- و يقال عظم كما سيأتى- جبل معروف اليوم على جادة مكة، قال المطرى: و هو فى شامى ذات الجيش، و يشهد له ما سبق عن الهجرى.

شريب

قوله «شريب» الظاهر أنه مشيرب تصغير مشرب كما فى الرواية الأخرى، و هو

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۸۳

ما بين جبال فى شامى ذات الجيش، بينها و بين خلائق الضبوعة، و الضبوعة منزل عند يليل.

أشراف مخيض

قوله: «أشراف مخيض» بلفظ المخيض من اللبن- هى جبال مخيض من طريق الشام، قاله ابن زبالة، و قال الهجرى: مخيض واد يصب فى أضم على طريق الشام من المدينة، انتهى؛ فكأنه يطلق على الجبال و واديها، و قال المطرى: جبل مخيض هو الذى على يمين القادم

من طريق الشام، حين يفضى من الجبال إلى البركة التى هى مورد الحجاج من الشام، و يسمونها عيون حمزة.

أشراف المجتهر

قوله: «أشراف المجتهر» كذا رواه ابن النجار، و تبعه المطرى، و لم يبيناه، و قال المجد: هكذا وقع بالجيم و الهاء المفتوحة، فإن صح فهو اسم موضع بالمدينة، و إلا فيحتمل أن يكون تصحيف «المحيصر» بالحاء و الصاد المهملتين تصغير «المحصر» موضع قريب من المدينة. قلت: الأقرب أنه تصحيف المخيض؛ لمجيئه بدله فى بقية الروايات.

الحفياء

قوله «الحفياء» قال ابن زبالة: هى بالغابة فى شامى المدينة، و قال الهجرى: وراء الغابة بقليل، و سيأتى فى ترجمتها أن بينها و بين المدينة نحو ستة أميال.

ذو العشيرة

قوله: «ذى العشيرة» تصغير عشرة من العدد، قال ابن زبالة: شرقى الحفياء، و قال المطرى: نقب فى الحفياء.

ثيب

قوله: «ثيب» بفتح المثلاثة ثم مثناة تحتية ساكنة ثم موحدة- كذا فى النسخة التى وقعت عليها من ابن زبالة، و قال: إنه جبل فى شرقى المدينة، و كذا هو فى العقيق للزبير بن بكار، و كذا رأيته مضبوطا بالقلم فى أصل معتمد من تهذيب ابن هشام؛ فإنه قال فى غزوة السويق: فخرج أبو سفيان حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له ثيب من المدينة على بريد أو نحوه، و كذا هو فى العقيق لأبى على الهجرى، إلا أنه قال عقبه: ثيئب كتيعب، فاقتضى أن الياء الساكنة بعدها همزة، و يشهد لذلك ما سيأتى فى أسماء البقاع فى
وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۸۴
ترجمة الشظاة من شعر عباس بن مرداس، و فى كتاب ابن شبة فى حديث سلمة الآتى أول الباب السابع: فقلت يا رسول الله، تباعد الصيد، فأنا أصيد بصدور قناة نحو تيب، كذا رأيته مضبوطا بالقلم من غير همزة، لكنه بالمثناة من فوق، و وقع فى كتاب ابن النجار و تبعه المطرى تيم بفتح المثناة الفوقية و التحتية و بالميم. قلت: و فى شرقى المدينة جبل يعرف اليوم بهذا الاسم، و قال المجد: إنه تصحيف، و الصواب يتيب، بلفظ مضارع تاب إذا رجع، فهو بالتاء المثناة من فوق، و لذا ذكره فى مادتها من القاموس، و قال فى مادتها أيضا تيأب كفعلل موضع، و لم يتعرض لذلك فى الثاء المثلاثة.

وعيرة

قوله: «وعيرة» - بفتح أوله من الوعورة، و هو خشونة الأرض- جبل شرقى ثور، و هو أكبر من ثور و أصغر من أحد.

ثنية المحدث

و قوله: «ثنية المحدث» لم أر من تكلم عليه من مؤرخى المدينة و غيرهم، و العجب من المجد كيف أهمله مع إيراده الحديث فى كتابه.

مضرب القبة

قوله: «مضرب القبة» قال المجد كالمطرى: ليس اليوم معروفا، و لا تعلم جهته، قال: و الذى يظهر أنه ما بين ذات الجيش من غربى المدينة إلى مخيض.

قلت: قال أبو على الهجرى: مضرب القبة بين أعظم و بين الشام نحو ستة أميال، أى من المدينة، و قد تقدم قول مالك عقب التحديد به: و ذلك نحو من بريد، و لعله يريد مجموع الحرم.

ثرير

قوله: «بثرير» لم أر من تكلم عليه حتى المجد.

غزوة ذى قرد

قوله: «من حيث استاقت بنو فزارة لقاحى» كانت لقاحه صلّى اللّه عليه و سلّم ترعى بالغابة و ما حولها، فأغار عليها عيينة بن حصن الفزارى يوم ذى قرد، و اتفق لسلمة بن الأكوع ما اتفق من استنقاذ اللقاح و وصول الفرسان إليه و هو يقاتلهم و يرميهم بالنبل، و سميت غزوة ذى قرد بالموضع الذى كان فيه القتال.

و التحديد بهذه الأماكن مؤيد لكون مجموع الحرم بريدا، و لذلك قال ابن زبالة عقب ما تقدم عنه: و ذلك كله يشبه أن يكون بريدا فى بريد، انتهى. و يحمل عليه قول أبى هريرة

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۸۵

فى حديث مسلم: «و جعل اثنى عشر ميلا حول المدينة حمى» لأن ذلك هو البريد أى:

ستة أميال من جهة قبلتها، و ستة أميال من جهة شاميها، و كذلك فى المشرق و المغرب، و مثله حديث «حمى كل ناحية من المدينة بريدا» أى من القبلة إلى الشمال بريدا، و من المشرق إلى المغرب بريدا، و قد أخذ بذلك مالك رحمه الله، لكن فرّق بين حرم الشجر و حرم الصيد، و جعل البريد حرم الشجر، و ما بين اللابتين حرم الصيد.

قال عياض فى الإكمال: قال ابن حبيب: تحريم ما بين اللابتين مخصوص بالصيد، قال: و أما قطع الشجر فبريد فى دور المدينة كلها، بذلك أخبرنى مطرف عن مالك، و هو قول عمر بن عبد العزيز و ابن وهب، انتهى. و حكى الباجى فى المنتقى مثله عن ابن نافع، و نقل ابن زبالة عن مالك أنه قال: الحرم حرمان؛ فحرم الطير و الوحش من حرة واقم- أى: و هى الحرة الشرقية- إلى حرة العقيق- أى و هى الغربية- و حرم الشجر بريد فى بريد، و قال البرهان بن فرحون: حرم الصيد ما بين حرارها الأربع، و سماهما أربعا لوجود الحرتين المذكورتين فى الجهات الأربع؛ لانعطاف بعض الشرقية و الغربية من جهة الشمال و القبلة، و لم يعول أصحابنا فى تحديد الحرم على البريد مع ما فيه من الزيادة؛ لأن أدلته ليست بالقوية، فعولوا على ما اشتملت عليه الأحاديث الصحيحة من الجبلين و اللابتين، على أن إطلاق أحاديث التحريم مقتض لعدم الفرق بين حرم الشجر و حرم الصيد، سواء كان الحرم بريدا أو دونه، غير أن فى أحاديث البريد ما يشعر بأنه للشجر، مع أن ابن زبالة- و محله من الضعف معلوم- روى عن ابن بشير المازنى أنه سمع رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يحرّم ما بين لابتيها- يعنى: المدينة- من الصيد، و عن أبى هريرة و غيره نحوه، و فى رواية له «من الطير أن يصاد بها» و قد يقال: هو من باب إفراد فرد مما حرم بالذكر.

فإن قيل: قوله فى حديث مسلم: «حرم ما بين لابتيها، و جعل اثنى عشر ميلا حول المدينة حمى» دال على الفرق المذكور.

قلنا: ممنوع؛ لأن غايته أن يراد بالحمى الحرم، فكأنه قال: و جعل اثنى عشر ميلا حولها حرما؛ إذ ليس فيه أنه جعله حمى الشجر.

مقدار البريد و الفرسخ و الميل

تتمة: البريد أربع فراسخ، و الفرسخ ثلاثة أميال، و الميل ثلاثة آلاف ذراع و خمسمائة ذراع بذراع اليد على الأصح، كما صححه ابن عبد البر و غيره، و هو الموافق لاختيار ما ذكره من المسافات فى الحرم المكى و غيره، و ذراع اليد- على ما ذكره المحب الطبرانى و النووى و غيرهما- أربعة و عشرون أصبعا، كل أصبع ست شعيرات مضمومة بعضها إلى بعض، و غلط النووى القلعى فى قوله «ثلاث شعيرات» و مقدار الذراع المذكور من ذراع

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۸۶

الحديد المستعمل فى القماش بمصر الآن ذراع إلا ثمن ذراع، كما اعتبرته أنا و غيرى، و مشى عليه التقى الفاسى فى تاريخ مكة المشرفة، و ليكن ذلك على ذكر منك إذا مررت بشىء مما ضبطناه فى المسافات فى كتابنا هذا، و قيل: الميل ستة آلاف ذراع، و مشى عليه النووى، و هو بعيد، و لعل قائله هو الذى يجعل الإصبع فى الذراع ثلاث شعيرات فقط، و قيل: الميل ألفا ذراع، و الصواب ما قدمناه، و الله أعلم.

الفصل الثانى عشر فى حكمة تخصيص هذا المقدار المعين بالتحريم

حكمة التخصيص

اعلم أن المفهوم من تحريم ذلك تشريف المدينة الشريفة و تعظيمها به لحلول أشرف المخلوقين صلوات الله و سلامه عليه، و انتشار أنواره و بركاته بأرضها، و كما أن الله تعالى جعل لبيته حرما تعظيما له جعل لحبيبه و أكرم الخلق عليه ما أحاط بمحله حرما تلتزم أحكامه، و تنال بركاته، و يوجد فيه من الخير و البركة و الأنوار المنتشرة و السلامة العاجلة و الآجلة ما لا يوجد فى غيره، و لهذا حث النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بنى حارثة على الكون به، كما أشار إليه بقوله: «أراكم يا بنى حارثة قد خرجتم من الحرم» ثم التفت فقال: «بل أنتم فيه» و ذلك لخصوصية الكون فيه على الكون خارجه، و تخصيص ذلك المقدار إما أن يكون لما شاهده صلّى اللّه عليه و سلّم فيه من أمر ربانى، و سر روحانى بثه الله فيه إلى تلك الحدود المتقدمة، و قد ذكر أهل الشهود أنهم يشاهدون الأنوار منبثة فى الحرم و أهله إلى حدوده، و لها منابع تفيض عنها، و ذلك فى الحرمين جميعا، فترتبت الأحكام الظاهرة على تلك الحقائق الباطنة، و لهذا لما بلغت النار الآتى ذكرها طرف هذا الحرم الشريف طفئت كما سيأتى، و إما أن يكون بمقتضى أمر إلهى، و وحى ربانى لا ندركه نحن؛ إذ العقول البشرية قاصرة عن إدراك معانى الأحكام المتلقاة عن النبوة، و إنما يظهر لها لايحه من شوارق مطالعها عند التأييد و التسديد، هدانا الله لإدراكها بمنه و كرمه.

وجوه تذكر فى حكمة التحديد

و قد قيل فى حكمة تحديد الحرم المكى أشياء يمكن مثلها هنا؛ فقيل: لما أهبط آدم إلى الأرض أرسل الله ملائكة حفوا بمكة من كل جانب و وقفوا فى موضع أنصاب الحرم يحرسون آدم عليه السلام، فصار ذلك حرما. و قيل: لما وضع الخليل عليه السلام الحجر الأسود فى الكعبة حين بناها- و هو من أحجار الجنة- أضاء الحجر من الجهات الأربع، فحرم الله تعالى الحرم من حيث انتهى النور. و قيل: إن الله تعالى أمر جبريل عليه السلام

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۸۷

أن ينزل بياقوتة من الجنة، فنزل بها، فمسح بها رأس آدم، فتناثر الشعر منه، فحيث بلغ نورها صار حرما، و هو من جنس ما قبله. و قيل غير ذلك؛ و حينئذ فيحتمل: أن تكون الملائكة الموكلة بحراسته صلّى اللّه عليه و سلّم و حراسة بلده الشريف قائمة بتلك الحدود،

فانتهى الحرم إليها، و يحتمل: أن درته الشريفة التى خلق منها لما كان مأخذها موضع قبره الشريف، و هو أعظم رياض الجنة، و اشتمل مسجده أيضا على روضة من رياض الجنة، انبثت الأنوار من ذلك إلى ما لا يعلم غايته إلا الله، و لكن أبصار الناظرين لها غايات؛ فقد يكون انتهاؤها إلى تلك الحدود فانتهى الحرم إليها، و يحتمل أنه صلّى اللّه عليه و سلّم يوم قدومه إلى المدينة انتشرت الإضاءة، و شوهد وصولها إلى تلك الحدود، و سيأتى قول أنس بن مالك فى وصف يوم قدومه صلّى اللّه عليه و سلّم: ما رأيت مثل ذلك اليوم قط، و الله لقد أضاء منها كل شىء، يعنى: المدينة، و الله أعلم.

الفصل الثالث عشر فى أحكام هذا الحرم الشريف، و فيه مسائل

الأولى: القول فى تحريم الصيد و قطع الشجر

اتفق الشافعى و مالك و أحمد على تحريم صيد حرم المدينة، و اصطياده، و قطع شجره. و قال أبو حنيفة: لا يحرم شىء من ذلك، و الأحاديث الصحيحة الصريحة حجة عليه، و قد قدمنا جملة منها، و لو لم يكن إلا قوله صلّى اللّه عليه و سلّم «كما حرم إبراهيم مكة» لكان كفاية؛ فإنه يتمسك به فى كل ما لم يقم دليل على افتراق الحرمين فيه. و روى أبو داود- و سكت عليه، قال النووى: و هو صحيح أو حسن، أى: كما هو قاعدته فيما يسكت عليه- أن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أخذ رجلا يصيد فى حرم المدينة الذى حرم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فسلبه ثيابه، فجاء مواليه فكلموه فيه، فقال: إن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم «حرم هذا الحرم، و قال: من أخذ أحدا يصيد فيه فليسلبه فلا أرد عليكم طعمة أطعمنيها رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و لكن إن شئتم دفعت إليكم ثمنه» و سيأتى عنه نحوه فى قطع الشجر، و فى الموطأ عن أبى أيوب الأنصارى أنه وجد غلمانا قد ألجؤوا ثعلبا إلى زاوية، فطردهم عنه، قال مالك:

لا أعلم إلا أنه قال: أ فى حرم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يصنع هذا؟ و روى الطبرانى برجال الصحيح مثله عن زيد بن ثابت بدل أبى أيوب، و فى الموطأ أيضا أن رجلا قال: دخل على زيد بن ثابت و أنا بالأسواف، و قد اصطدت نهسا فأخذه من يدى، فأرسله. و رواه

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۸۸

الطبرانى أيضا مع تسمية المبهم، و لفظه: عن شرحبيل بن سعيد قال: أخذت نهسا- يعنى طائرا- بالأسواف، فأخذه منى زيد بن ثابت فأرسله، و قال: أ ما علمت أن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم حرم ما بين لابتيها. و فى رواية له «أتانا زيد بن ثابت و نحن فى حائط لنا، و معنا فخاخ ننصب بها، فصاح و طردنا، و قال: أ لم تعلموا أن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم حرم صيدها. و رواه أحمد أيضا- و كذا الشافعى فى حرملة- عن شرحبيل بن سعد، و قد وثّقه ابن حبان و ضعفه غيره، و لفظه: دخل علينا زيد بن ثابت حائطا و نحن غلمان ننصب فخاخا للطير، فطردنا و قال: إن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم حرم صيدها». و رواه ابن زبالة بلفظ: كنت مع بنى زيد بن ثابت بالأسواف، فأخذوا نهسا، فاستفتح زيد بن ثابت و هو فى أيديهم، فدفعوه فى يدى و فروا، فدخل زيد، فأخذه من يدى فأرسله، ثم لطم فى قفاى و قال: لا أم لك، أ لم تعلم، و ذكر الحديث المتقدم. و روى الطبرانى عن حاجب مولى زيد بن ثابت قال: دخل على زيد بن ثابت و أنا بالأسواف قد اصطدت نهسا، فأخذ بأذنى من قفاى و قال: تصيد هاهنا و قد حرم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم ما بين لابتيها؟

و النّهس، كصرد: طائر يشبهه و ليس بالصرد، و قيل: إنه اليمام.

و فى الكبير للطبرانى برجال ثقات عن عبد الله بن عباد الزرقى- قال الهيثمى: و لم أجد من ترجمه- قال: كنت أصيد العصافير فى بئر أهاب، و كانت لهم، قال: فرآنى عبادة بن الصامت و قد أخذت العصفور، فينزعه منى فيرسله، و يقول: أى بنى، إن رسول الله صلّى اللّه

علیه و سلّم حرم ما بین لابتیها کما حرم إبراهیم مکة.

و روی ابن زبالة و من طریقه البزار عن إبراهیم بن عبد الرحمن بن عوف قال:

اصطدت طیرا بالقنبلة، فلقینی أبی عبد الرحمن، فعرک أذنی، ثم أخذه منی فأرسله، و قال: إن رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم حرم صید ما بین لابتیها.

و فی أبی داود عن مولی لسعد، أن سعدا وجد عبیدا من عبید المدینة یقطعون شجرا من شجر المدینة، قال: فأخذ متاعهم، و قال یعنی لمواليهم: سمعت رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم «ینهی أن یقطع من شجر المدینة شیء، و قال: من قطع شیئا فلمن أخذه سلبه» و رواه مسلم عن إسماعیل بن محمد بن عامر بن سعد، و لفظه: أن سعدا رکب إلی قصره بالعقیق، فوجد عبدا یقطع شجرا، أو یخبطه، فسلبه، فلما رجع سعد جاءه أهل العبد فکلموه أن یرد علی غلامهم- أو علیهم- ما أخذ من غلامهم، فقال: «معاذ الله أن أرد شیئا نفلنیه رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم» و رواه المفضل الجندی عنه، و لفظه: أن سعدا رکب إلی قصر له بالعقیق، فوجد عبدا یقطع شجرة، فأخذ سلبه، و ذکره بنحوه. و رواه أیضا عن عبد الله بن عمر، و لفظه: أن

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفی، ج ۱، ص: ۸۹

سعدا وجد إنسانا یعضد، أو یخبط، عضاها بالعقیق، فأخذ فأسه و نطعه و شیئا سوی ذلک، فاطلع العبد إلی ساداته فأخبرهم الخبر، فرکبوا إلی سعد فقالوا: الغلام غلامنا، فاردد إلیه ما أخذت منه، قال: سمعت رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم و ذکر ما قدمناه عنه فی الفصل العاشر، و قال فی آخره: «فلم أکن لأرد شیئا أعطانیه رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم» و رواه ابن زبالة من طرق بنحوه.

و فی بعضها أن سعد بن أبی وقاص وجد جاریة لعاصیة السلمیة تقطع الحمی فضربها و سلبها شملة لها و فأسا کانت معها، فدخلت عاصیة السلمیة إلی عمر بن الخطاب رضی الله عنه فاستعدت علی سعد، فقال: اردد إلیها یا أبا إسحاق شملتها و فأسها، فقال:

«لا، و الله لا أرد إلیها غنیمة غنمنیها رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم سمعته یقول: من وجدتموه یقطع الحمی فاضربوه و اسلبوه» و اتخذ من فأسها مسحاة فما زال یعمل بها حتی لقی الله. و فی بعضها: أخذ سعد بن أبی وقاص جاریة لعاصیة السلمیة تقطع شجرا بالعقیق، فنزع سلبها، و ذکر نحوه. و روی أیضا عن سعد قال: غنّمنا رسول الله صلی اللّه علیه و سلّم من وجدناه یقطع من شجر حرم المدینة الرطب منه. و عن زید بن أسلم نحوه. و روی الجندی عن عبد الکریم بن أبی المخارق قال: أتی عمر بن الخطاب ناحیة من المدینة فوجد غلاما لبعضهم فی حائط، فقال: هل یأتیک هاهنا أحد یحتطب؟ قال: نعم، فقال له عمر: إن رأیت منهم أحدا فخذ فأسه و حبله، قال: و ثوبه؟ قال: فأبی، و فس نسخة فأفتی، و فی روایة عنه: أن عمر قال لغلام قدامة بن مظعون: أنت علی هؤلاء الحطابین، فمن وجدته احتطب فیما بین لابتی المدینة فلک فأسه و حبله، قال: و ثوباه؟ قال عمر: ذلک کثیر.

و قد اختلف القائلون بالتحریم فی حرم المدینة بالنسبة إلی الضمان بالجزاء، فعن أحمد روایتان، و للشافعی أیضا قولان کالروایتین: الجدید منهما عدم الضمان و هو قول مالک؛ لأنه لیس بمحل نسک، فأشبه مواضع الحمی و وج الطائف، و القدیم الضمان، و هو المختار کما قاله النووی و غیره، لحدیث سعد المتقدم، و الجواب عنه مشکل، و علی هذا فالأصح أنه یسلب الصائد و قاطع الشجر و الکلأ کما یسلب القتیل من الکفار حتی یؤخذ فرسه و سلاحه، و قیل: الثیاب فقط، و یکون ذلک للسالب علی الأصح، و قیل:

لفقراء المدینة کما أن جزاء صید مکة لفقرائها، و قیل: یوضع فی بیت المال و سبیله سبیل السهم المرصد للمصالح. قال الشیخ أبو محمد: و یعطی المسلوب إزارا یستر به عورته، فإذا قدر علی ما یستر به عورته أخذه منه، و اختار الرویانی أنه یترک له، و صوبه النووی.

قال الرافعی: و الذی یسبق إلی الفهم من الحدیث و کلام الأئمة أنه یسلب إذا اصطاد، و لا یشترط الإثلاف، و لفظ الغزالی فی الوسیط: لا یسلب حتی یصطاد أو یرسل الکلب،

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفی، ج ۱، ص: ۹۰

و يحتمل التأخير إلى الإتلاف، انتهى. و لا فرق فى هذا بين صيد و صيد، و لا بين شجرة و شجرة، و كأن السلب فى معنى العقوبة لمتعاطى ذلك. قال السراج البلقينى: و لو كان الصائد أو قاطع الشجر فى حرم المدينة عبدا هل يسلب ثيابه كما اتفق لسعد بن أبى وقاص؟ قال: و الذى يقتضيه النظر أنه لا يسلب العبد؛ فإنه لا ملك له، و كذلك لو كان على الصائد ثوب مستأجر أو مستعار فإنه لا يسلب، و لم أر من تعرض له، انتهى. قلت:

التحقيق التفصيل بين ما إذا أمره السيد أو من فى معناه بذلك و بين ما إذا لم يأمره، و يحمل ما اتفق لسعد على الأول، و لو كان على الصائد و المحتطب ثياب مغصوبة لم تسلب بلا خلاف، كما نقله فى شرح المهذب، و نقله فى المطلب عن البحر، ثم قال: و ينبغى أن تكون المستعارة كذلك، و لو لم يشاهده أحد يصطاد فالظاهر أنه يجب عليه حمل السلب إلى نائب الإمام، و لو تحدث بحضرة أحد فسمعه فهل يجوز له أن يسلبه؟ الظاهر عندى لا، انتهى. و لو أدخل إلى حرم المدينة صيدا لم يلزمه إرساله، و له ذبحه به اتفاقا، و كذا حرم مكة عندنا. و قد روى البيهقى أن أصحاب رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم كانوا يقدمون مكة فيرون بها فى الأقفاص القمارى و اليعاقيب، و هذا محمل حديث «يا أبا عمير، ما فعل النغير» أو أنه كان قبل تحريم المدينة؛ لأنه فى أول الهجرة، و تحريم المدينة كان بعد رجوعه صلّى اللّه عليه و سلّم من خيبر، كما أوضح ذلك الحافظ ابن حجر. و قد تمسك أبو حنيفة بقصة أبى عمير فيما ذهب إليه من عدم تحريم صيد المدينة؛ لذهابه فى حرم مكة إلى وجوب الإرسال على من أدخل إليه صيدا من خارجه، قال: فلو حرم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم صيد المدينة لما أقر النغير فى يد أبى عمير. و جوابه ما تقدم، قال البيهقى: و الذاهب إلى عدم تحريم الصيد و غيره بالمدينة زعم أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إنما أراد بقاء رينة المدينة و بهجتها لتستوطن كما منع من هدم آطام المدينة لذلك، قال أبو هريرة رضى الله عنه: نهى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم عن هدم آطام المدينة، و قال: إنها زينة المدينة، أى فالنهى للتنزيه. قال البيهقى: و النهى عندنا على التحريم حتى تقوم دلالة على التنزيه، قال: و استدل المخالف بحديث سلمة «أما إنك لو كنت تصيد بالعقيق لشيّعتك إذا ذهبت و تلقيتك إذا جئت، فإنى أحب العقيق» قال البيهقى: و هو حديث ضعيف، و من يدعى العلم بالآثار لا ينبغى له أن يعارض الأحاديث الثابتة فى حرم المدينة لهذا الحديث الضعيف، و قد يجوز أن يكون الموضع الذى كان سلمة يصيد فيه خارجا من حرم المدينة، و الموضع الذى رأى فيه سعد بن أبى وقاص غلاما يقطع شجرا من حرم المدينة داخله، حتى لا يتنافيان، و لو اختلفا كان الحكم لرواية

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۹۱

سعد لصحة حديثه و ثقة رجاله، دون حديث سلمة. قلت: مع أن الذى فى الصحيح من حديث سعد لا تعرض فيه لأن القطع كان بالعقيق، و ركوبه إلى قصره بالعقيق لا يقتضى أن القطع كان به، بل يقتضى أن القطع فى موضع من الحرم خارج، على أن ما يلى ذا الحليفة من العقيق ليس من الحرم عندنا لخروجه عما بين اللابتين، و المالكية و إن اعتبروا البريد فحرم الصيد عندهم ما بين اللابتين كما تقدم، مع امتداد العقيق إلى النقيع؛ فبعضه خارج عن الحرم بكل حال، فصح ما قاله البيهقى، و قصر سعد مع قصور العقيق فى الطرف الداخل منه فى الحرم عندنا؛ لكونه بالحرة الغربية. هذا، مع احتمال حديث سلمة لكونه كان قبل تحريم المدينة، و الله أعلم.

الثانية: ما يستثنى مما يحرم

استثنى المطرى تبعا لابن النجار جواز أخذ ما تدعو الحاجة إليه للرحل- بالحاء المهملة- و الوسائد، من شجر حرم المدينة، و ما تدعو الحاجة إليه من حشيشه للعلف، بخلاف مكة، هكذا قالاه، و سبقهما إليه ابن الجوزى من الحنابلة فقال فى منسكه: إن المدينة تفارق مكة فى أنه يجوز أن يؤخذ من شجر المدينة ما تدعو الضرورة إليه للرحل و شبهه، انتهى، و مأخذهم فى ذلك ما تقدم فى الفصل العاشر فى بعض تلك الأحاديث المشتملة على الترخيص فى ذلك و نحوه، مع ما رواه ابن زبالة من حديث: يا رسول الله، إنا أصحاب عمل و نضح، و إنا لا نستطيع أن ننتاب أرضا، فرخص لهم فى القائمتين و الوسادة و العارضة و الأسنان، فأما غير ذلك فلا يعضد و لا

يخبط، و الكلام أولا فى توجه الاستدلال بذلك من حيث الإسناد، مع أنا قدمنا فى غضون تلك الأحاديث ما يقتضى المنع، سيما حديث الطبرانى بإسناد حسن إذ فيه قول جابر: لا يخبط و لا يعضد حمى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و لكن هشوا هشا، ثم قال جابر: إن كان رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم ليمنع أن يقطع المسد. قال خارجة: و المسد مرود البكرة، و من تأمل كلام أصحابنا الشافعية لا يفهم منه سوى استواء الحرمين فى ذلك؛ لقولهم: إنه يجوز أخذ حشيش حرم مكة لعلف الدواب على الأصح. و قد قال النووى فى الكلام على قوله صلّى اللّه عليه و سلّم فى حديث مسلم المتقدم «و لا يخبط شجره إلا لعلف»: إن فيه جواز أخذ أوراق الشجر للعلف، بخلاف خبط الأغصان و قطعها فإنه حرام، انتهى. و قد قال هو و غيره فى شجر مكة: إنه يجوز أخذ أوراقها لكنها لا تهش حذرا من أن يصيب لحاها. و فى شرح المهذب: يجوز أخذ ورقها و الأغصان الصغيرة للسواك و نحوه، انتهى؛ فقد استوى الحرمان فى ذلك. و قد قال

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۹۲

الغزالى فى البسيط و الوسيط فى حرم مكة: إنه لو قطع منه للحاجة التى يقطع لها الإذخر كتسقيف البيوت و نحوه ففيه الخلاف فى قطعه للدواء: أى: و الأصح جوازه، و تبعه على ذلك صاحب الحاوى الصغير؛ فجوز القطع للحاجة مطلقا، و لم يخص الدواء، و قل من تعرض للمسألة، و منه يؤخذ جواز ما استثناه المطرى، لكن مع استواء الحرمين فى ذلك. و قال القاضى عياض: قال المهلب: قطع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم النخل من المدينة حين بنى مسجده، و ذلك يدل على أن النهى لا يتوجه لقطع شجرها للعمارة وجهة الإصلاح، و أن يقطع شجرها ليتخذ موضعه جنانا و عمارة، و أن توجه النهى إنما هو لقطع الإفساد و استبقاء بهجة المدينة و خضرتها فى عين الوارد إليها، انتهى. و نحوه ما روى ابن زبالة أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال لبنى حارثة فى طرف من الحمى «أعطيكم على أنه من قطع شجرة غرس مكانها نخلة» و محل ابن زبالة من الضعف معروف، و النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إنما قطع النخل و هو شجر يستنبته الآدميون، و فيه خلاف؛ فالذى ذهب إليه المالكية و الحنفية جواز قطعه فى حرم مكة فضلا عن المدينة، و هو أحد القولين عندنا، لكن الأصح إلحاقه بالذى ينبت بنفسه، و الجواب عنه باحتمال كونه قبل تحريم المدينة، أو أنه قطعه لحاجة العمارة؛ فإن المتجه جوازه كما تقدم عن الغزالى، و لم يزل أهل المدينة يسقفون بيوتهم بما يقطعون من نخلها. و قد نقل الواقدى فى الحرم المكى عن ابن الزبير الترخيص فى قطع شجر الحرم المكى للعمارة لكن مع الفداء، على أن الماوردى قال فيما يستنبته الآدميون: محل الخلاف فيما أنبت فى موات الحرم، فإن أنبته فى أملاكه لم يحرم بلا خلاف، انتهى. و أما ما يستنبت من غير الشجر كالحنطة و الخضروات فيجوز قطعه بلا خلاف، و كذا ما يتغذى به مما ينبت بنفسه كالرجلة المسماة بالبقلة الحمقاء و نحو ذلك؛ لأنه فى معنى الزرع، صرح باستثنائه المحب الطبرى فى شرح التنبيه، و هو ظاهر؛ لأنه إذا جاز الأخذ لإطعام البهائم فالآدمى أولى.

الثالثة: ما ذكروه فى الأخذ للدواء و نحوه

يتناول تحصيله و ادخاره لذلك الغرض، و إن لم يكن السبب قائما، إلا أن عبارة الروضة: و لو احتيج إلى شىء من نبات الحرم للدواء. و فى شرح المهذب أنه يجوز أخذ النبات للعلف، و لو أخذه ليبيعه ممن يعلف به لم يجز، و مقتضاه أن الدواء كذلك، و ظاهر إطلاق الماوردى الجواز مطلقا، و هو ظاهر استناد بعضهم إلى نقل السنا المكى من غير نكير.

الرابعة: دية القتل الخطأ فى المدينة مغلظة

تغلّظ الدية فى الخطأ على القاتل فى حرم المدينة كمكة فى وجه الصحيح خلافه، و مأخذه عموم قوله «كما حرم إبراهيم مكة».

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۹۳

و قد اختار السراج البلقينى هذا الوجه، قال: لأن الخلاف فى ذلك مبنى على الخلاف فى ضمان صيدها، و المختار عند النووى ضمان

صيدها بسلب الصائد. قلت: و ما قاله متّجه؛ لعموم قوله «كما حرم إبراهيم مكة» و إنما اختصت مكة بمنع الكافر من دخولها مطلقا، بخلاف المدينة فيجوز أن يدخلها بإذن الإمام أو نائبه للمصلحة؛ لأن المشركين أخرجوا منها رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فعاقبهم الله بالمنع من دخولها بكل حال تعظيما لرسوله صلّى اللّه عليه و سلّم و استحسن الرويانى فى البحر التسوية بين مكة و المدينة فى أن من مات من الكفار بهما يخرج و يدفن خارجهما، و على القول باختصاصه بمكة موجبه ما قدمناه.

الخامسة: حكم لقطة حرم المدينة

سوّى صاحب الانتصار من أصحابنا بين حرم مكة و المدينة فى أن لقطتهما لا تحل للتملك، بل للحفظ أبدا، و قال الدارمى: لا تلحق لقطة حرم المدينة بحرم مكة فى ذلك. قلت: و الذى يقتضيه الدليل ترجيح الأول؛ للنص على ذلك فى الأحاديث المتقدمة فى الفصل الثامن، و إن كان الأصحاب خصوا مكة بالذكر.

السادسة: حكم المقاتلة فى حرم المدينة

مقتضى قوله صلّى اللّه عليه و سلّم فى الأحاديث المتقدمة أيضا «و لا يحمل فيها سلاح لقتال» أن يأتى فيها ما نقل من الخلاف فى حرم مكة من أن المقاتلة الجائزة فى غيره تحرم فيه كقتال البغاة به، بل يضيق عليهم إلى أن يخرجوا أو يفيئوا كما ذهب إليه جماعة.
و قال الجمهور: يقاتلون؛ لأن هذا القتال من حقوق الله، و حفظها فى الحرم أولى، و الحرم لا يعيذ عاصيا. و ذهب الحسن البصرى إلى أنه لا يحل لأحد أن يحمل السلاح بمكة؛ للنهى عن القتال فيه، فلا يحمل ما هو من أسبابه، و لقوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا يحل لأحد أن يحمل السلاح بمكة» رواه مسلم.

السابعة: حكم الاستنجاء بحجارة الحرم

حكى الماوردى وجهين فى جواز الاستنجاء بحجارة الحرم، قال ظاهر المذهب سقوط الفرض بذلك مع تأثيمه. قلت: ينبغى حمله على من نقله من الحرم ليستنجى به فى الحل مثلا- و إلا- فهو مشكل؛ إذ لا- خلاف فى إباحة البول فى الحرم، فالاستنجاء بالحجارة كذلك، و عبارة شرح المهذب فى النقل عن الماوردى بعد حكاية الوجهين فى سقوط فرض الاستنجاء بالذهب و الديباج: و طردهما الماوردى فى الاستنجاء
وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۹۴
بحجارة الحرم، انتهى. و هى محتملة لما قررناه، و قد نقل النووى عدم جواز الأكل فى الأوانى المعمولة من تراب الحرم، على ما قاله الدميرى، و لا شك أنه إنما عنى به المنع منه لمن أخرجها من الحرم كما لا يخفى.

الثامنة: حكم نقل تراب الحرم المدنى

جزم النووى بتحريم نقل تراب الحرم المدنى و أحجاره، اكتفاء بما ذكره من الخلاف فى الحرم المكى، و صحح فيه التحريم، و الرافعى الكراهة، و نقلها النووى عن كثيرين أو الأكثرين، و نقلها القاضى أبو الطيب عن نص الشافعى فى القديم، و نقل التحريم عن نصه فى الجامع الكبير؛ و قال فى الأم فى حجارة الحرم و ترابه: لا- خير فى أن يخرج منها شىء إلى الحل، لأن له حرمة باين بها ما سواها من البلدان، فلا أرى- و الله أعلم- أن جائزا لأحد أن يزيله من الموضع الذى باين به البلدان؛ إذ يصير كغيره.
و روى الشافعى عن ابن عباس و ابن عمر رضى الله عنهما كراهة ذلك. قال الشافعى:
و قال غير واحد من أهل العلم: لا ينبغى أن يخرج من الحرم شىء إلى غيره. و حكى الشافعى عن أبى يوسف أنه قال: سألت أبا حنيفة

عن ذلك فقال: لا بأس به. قال أبو يوسف: و حدثنا شيخ عن رزين مولى على بن عبد الله بن عباس أن عليا كتب إليه أن يبعث إليه بقطعة من المروة فيتخذه مصلى يسجد عليه، و نقل القاضى أبو الطيب عن الشافعى أنه قال: رخص بعض الناس فى ذلك، و احتج بشراء البرام من مكة، و هو غلط؛ فإن البرام ليست من حجارة الحرم، بل تحمل من مسيرة يومين و ثلاثة من الحرم، و حكى فى شرح المهذب اتفاق الأصحاب على أن الأولى أن لا يحمل تراب الحل و أحجاره إلى الحرم؛ لئلا يحدث لها حرمة لم تكن، قال: و لا يقال «إنه مكروه» مع إطلاقه فى الروضة و المناسك كراهته، فكأنه أراد بها معنى خلاف الأولى. و قول صاحب البيان «قال الشيخ أبو إسحاق: لا يجوز إدخال شىء من تراب الحل و أحجاره إلى الحرم» محمول على نفى الإباحة بمعنى استواء الطرفين، كما وقع مثله فى مواضع، و بناء آدم البيت من أجبل ليست من الحرم كلبنان و طور سيناء: إما لأن تحريم الحرم إنما تعلق حكمه و ظهر على لسان إبراهيم عليه السلام، و إما لأن شرعه اقتضى ذلك، مع أن الظاهر استثناء نقل حجارة الحل لمصلحة يقتضيها الحال، و ما نقله أهل السير من أنهم كانوا يأخذون من تراب قبر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فأمرت عائشة رضى الله عنها بجدار فضرب عليهم، لا متمسك فيه؛ إذ لم يعرف الفاعل، بل الظاهر أنه ممن لا يحتج بفعله، و أمر عائشة بضرب الجدار يقتضى المنع من

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۹۵

ذلك، على أنه ليس فيه أنه كان يؤخذ للنقل من الحرم، و قد نقل أبو المعلى السبتى- و كذا خليل و التادلى المالكيون- كلام النووى فى المنع من نقل تراب الحرم و أقروه؛ فالظاهر أنه جار على قواعدهم؛ إذ منها سد الذرائع. و قد قيل فى سبب عبادة الأصنام: إن بعضهم كان يصحب معه الحجر من الحرم ليتبرك به، و استشكله البرهان بن فرحون بأمور: منها ما تقدمت الإشارة إلى جوابه، و منها الإجماع على نقل ماء زمزم و استهداء النبى صلّى اللّه عليه و سلّم له من سهيل بن عمرو فبعث إليه منه، و جوابه أن ماء زمزم طعام طعم و شفاء سقم، مع أنه يخلف؛ فأشبه الحشيش الذى يخلف، و لهذا قال الشافعى: فأما ماء زمزم فلا أكره الخروج به، و الماء ليس بشىء يزول و لا يعود، انتهى. مع أن المحذور المتقدم فى الأحجار لا يتوقع مثله فى الماء؛ إذ المقصود من نقله شربه و هو ظاهر، بخلاف الحجر و شبهه؛ فإن القصد التبرك به، و هو شىء لم يأذن به الله تعالى و لا رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم و لذا أقول: إن من نقل من فخار الحرم كالكراريز لحاجة استعمالها جاز له، و يحمل كلام من أطلق المنع على ما يراد للتبرك أو مع عدم الحاجة إليه، و إذا جاز أخذ حشيش الحرم للتداوى فهذا أولى، و إذا كان الاحتياج إلى آنية الذهب و الفضة يجوّز استعمالها فهذا أولى، فإن أريد نقل ذلك لحاجة متوقعة فى المستقبل فينبغى تخريجه على ما تقدم فى أخذ نبات الحرم للدواء و نحوه، و قد قدمنا فيما جاء فى ترابه استثناء تربة صعيب لما جاء فيها من التداوى، و أن الزركشى استثنى تربة حمزة رضى الله عنه لإطباق الناس على نقلها للتداوى بها من الصداع، و حكى البرهان ابن فرحون عن الإمام العالم أبى محمد عبد السلام بن إبراهيم بن و مصال الحاحانى، قال: نقلت من كتاب الشيخ العالم أبى محمد صالح الهزميرى قال:

قال صالح بن عبد الحليم: سمعت أبا محمد عبد السلام بن يزيد الصنهاجى يقول: سألت أحمد بن يكوت عن تراب المقابر الذى كان الناس يحملونه للتبرك هل يجوز أو يمنع؟

فقال: هو جائز، و ما زال الناس يتبركون بقبور العلماء و الشهداء و الصالحين، و كان الناس يحملون تراب قبر سيدنا حمزة بن عبد المطلب فى القديم من الزمان. قال ابن فرحون عقبه: و الناس اليوم يأخذون من تربة قريبة من مشهد سيدنا حمزة، و يعملون منها خرزا يشبه السبح، و استدل ابن فرحون بذلك على جواز نقل تراب المدينة، و قد علمت مما تقدم أن نقل تربة حمزة رضى الله عنه إنما هو للتداوى؛ و لهذا لا يأخذونها من نفس القبر، بل من المسيل الذى عنده المسجد، و لئن صح مشروعية التبرك بتراب قبور

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۹۶

الصالحين فهو أمر خاص بها لا دلالة فيه على جواز نقل مطلق تراب الحرم، و هو أمر لم يأذن به الله تعالى و لا رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم و الخير كله فى الاتباع، و قد قالت الحنابلة أيضا: يكره نقل حصى الحرم و ترابه إلى غيره، و لا يدخل غيره إليه، و نقلوا عن

أحمد أنه قال:

الإخراج أشد، انتهى. و يجب على من أخرج شيئا من تراب الحرم أو حجره أن يرده إليه، و لا ضمان عليه فى ترك الرد، قال الكمال الدميرى: و إذا نقل تراب أحد الحرمين إلى الآخر هل يزول التحريم- أى فينقطع وجوب الرد- أو يفرق بين نقله للأشرف و عكسه؟ فيه نظر، و الله أعلم.

الفصل الرابع عشر فى ذكر بدء شأنها، و ما يؤول إليه أمرها

روى ابن لهيعة بسنده إلى عائشة مرفوعا: «إن مكة بلد عظّمه الله، و عظّم حرمته، خلق مكة و حفها بالملائكة قبل أن يخلق شيئا من الأرض كلها بألف عام، و وصلها بالمدينة، و وصل المدينة ببيت المقدس، ثم خلق الأرض كلها بعد ألف عام خلقا واحدا» قال العلامة المقدسى فى بعض تأليفاته: هذا حديث غريب جدّا، بل منكر.

و عن سليمان عن أبى عمرو الشيبانى عن على رضى الله عنه: كانت الأرض ماء، فبعث الله ريحا فمسحت الأرض مسحا، فظهرت على الأرض زبدة، فقسمها أربع قطع، خلق من قطعة مكة، و الثانية المدينة، و الثالثة بيت المقدس، و الرابعة الكوفة. و هو أثر واه.

و روينا فى الكبير للطبرانى أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إن الله عز و جل اطلع إلى أهل المدينة و هى بطحاء قبل أن تعمر ليس فيها مدر و لا بشر، فقال: يا أهل يثرب، إنى مشترط عليكم ثلاثا و سائق إليكم من كل الثمرات: لا تعصى، و لا تعلى، و لا تكبرى، فإن فعلت شيئا من ذلك تركتك كالجزور لا يمنع من أكله.

و أخرج النسائى من رواية يزيد بن أبى مالك عن أنس فى حديث الإسراء قال: قال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: «أتيت بدابة فوق الحمار و دون البغل» الحديث، و فيه: «فركبت و معى جبريل، فسرت فقال: انزل فصلّ، ففعلت، فقال: أ تدرى أين صليت؟ صليت بطيبة و إليها المهاجر» يعنى بفتح الجيم.

و وقع فى حديث شداد بن أوس عند البزار و الطبرانى أنه قال: «أول ما أسرى به صلّى اللّه عليه و سلّم مر بأرض ذات نخل، فقال له جبريل: انزل فصل، فنزل فصلى، فقال: صليت بيثرب» الحديث.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۹۷

و روى رزين عن أنس يرفعه «لما تجلى الله لجبل طور سيناء تشظى ستة أشظاظ» و فى رواية غير رزين «شظايا، فنزلت بمكة ثلاثة: حراء، و ثبير، و ثور، و فى المدينة:

أحد، و عير، و ورقان» و فى رواية «و رضوى» بدل عير، و لا يشكل ذلك بكون رضوى بينبع؛ لأن الينبع من توابع المدينة و مضافاتها كما سيأتى، و رواه بعض شراح المصابيح بلفظ «عير، و ثور، و رضوى» و منه يؤخذ حكمة أخرى فى تحديد الحرم بعير و ثور، و سيأتى بيان أول من سكنها بعد الطوفان فى أخبار سكانها.

و روينا فى الإمام للشافعى حديث «أسكنت أقل الأرض مطرا، و هى بين عينى السماء عين الشام و عين اليمن» و رواه ابن زبالة بزيادة «فاتخذوا الغنم على خمس ليال من المدينة».

و روى أيضا حديث «يا معشر المهاجرين إنكم بأقل الأرض مطرا، فأقلوا من الماشية، و عليكم بالزرع، و أكثروا فيه من الجماجم».

و روى الشافعى أيضا حديث «توشك المدينة أن تمطر مطرا لا يكن أهلها البيوت، و لا يكنهم إلا مظال الشعر».

و روى أيضا: «توشك المدينة أن يصيبها مطر أربعين ليلة لا يكن أهلها بيت من مدر».

و روى ابن زبالة حديث «كيف بك يا عائشة إذا رجع الناس بالمدينة و كانت كالرمانة المحشوة؟ قالت: فمن أين يأكلون يا نبى الله؟ قال: يطعمهم الله من فوقهم و من تحت أرجلهم و من جنات عدن».

و أورد المرجانى فى كتابه أخبار المدينة عن جابر مرفوعا «ليعودن هذا الأمر إلى المدينة كما بدأ منها، حتى لا يكون إيمان إلا بها»

الحديث.

و روى أحمد برجال ثقات «يوشك أن يرجع الناس إلى المدينة حتى يصير مسالحهم بسلاح» و مسالحهم: جمع مسلح، و هم القوم الذين يحفظون الثغور، و سلاح- كقطام- موضع بقرب خيبر.

و فى مسلم حديث: «تبلغ المساكن أهاب أو يهاب» بكسر المثناة التحتية.

و روى أحمد فى حديث طويل أنه صلّى اللّه عليه و سلّم «خرج حتى أتى بئر الأهاب، قال: يوشك البنيان أن يأتى هذا المكان» و بئر أهاب: سيأتى أنها بالحرة الغربية.

و روى أبو يعلى عن زيد بن وهب قال: حدثنى أبو ذر رضى الله عنه قال: قال لى

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۹۸

رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا بلغ البناء- أى: بالمدينة- سلعا فارتحل إلى الشام» فلما بلغ البناء سلعا قدمت الشام.

و روى ابن زبالة حديث «ليوشكن الدين أن ينزوى إلى هذين المسجدين، و يوشكن أن يتشاحوا على موضع الوتد بالحمى كشح أحدكم أن ينقص من داره إلى جانب المسجد، و ليوشكن أن يبلغ بنيانهم يهيقا» قالوا: يا رسول الله، فمن أين يأكلون؟ قال: «من هنا و هاهنا» يشير إلى السماء و الأرض.

و يهيقا أوله آخر الحروف: موضع بقرب المدينة على ما سيأتى عن المجد آخر الباب السابع.

و ذكر ابن زبالة الشجرة التى يضاف إليها مسجد ذى الحليفة، ثم روى عن أبى هريرة رضى الله عنه: «لا تقوم الساعة حتى يبلغ البناء الشجرة».

و روى أيضا عنه: «أريتك شرف السيالة و شرف الروحاء؛ فإنه منازل أهل الأردن إذا أجيز الناس إلى المدينة».

و فى الكبير للطبرانى فى حديث: «سيبلغ البناء سلعا، ثم يأتى على المدينة زمان يمر السفر على بعض أقطارها فيقول: قد كانت هذه مدة عامرة من طول الزمان و عفو الأثر».

و روى النسائى عن أبى هريرة حديث: «آخر قرية من قرى الإسلام خرابا المدينة» و رواه الترمذى بنحوه، و قال: حسن غريب، و رواه ابن حبان بلفظ: «آخر قرية فى الإسلام خرابا المدينة».

و روى أبو داود عن معاذ مرفوعا: «عمران بيت المقدس خراب يثرب، و خراب يثرب خروج الملحمة، و خروج الملحمة فتح القسطنطينية، و فتح القسطنطينية و خروج الدجال» و روى أبو داود أيضا مرفوعا «الملحمة الكبرى و فتح القسطنطينية و خروج الدجال فى سبعة أشهر».

و فى ابن شبة عن أبى هريرة: «ليخرجن أهل المدينة من المدينة خير ما كانت، نصفا زهوا، و نصفا رطبا، قيل: من يخرجهم منها يا أبا هريرة؟ قال: أمراء السوء».

و فيه أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا نحوه، و أن عبد الله بن عمر كان يردّ عليه، فقال له أبو هريرة: لم تردّ على؟ فوالله لقد كنت أنا و أنت فى بيت حين قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «يخرج منها أهلها خير ما كانت» فقال ابن عمر: أجل، قد كنت أنا و أنت فى بيت، و لكن لم يقله، إنما قال: «أعمر ما كانت» و لو قال: «خير ما كانت» لكان ذلك و هو حى و أصحابه، فقال أبو هريرة: صدقت و الذى نفسى بيده، و فيه عنه أيضا: «ليجيئن الثعلب حتى يقيل فى ظل المنبر، ثم يروح لا ينهنهه أحد».

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۹۹

و فى رواية عنه: «لا تقوم الساعة حتى يجىء الثعلب فيربض على منبر رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم لا ينهنهه أحد» و فيه أيضا عن شريح بن عبيد أنه قرأ كتابا لكعب: «ليغشين أهل المدينة أمر يفزعهم حتى يتركوها و هى مذللة، و حتى يبول السنانير على قطايف الخز ما يروعها شىء، و حتى يخرق الثعالب فى أسواقها ما يروعها شىء».

و فى الصحيحين حديث «لتتركون المدينة» و لفظ مسلم: «لتتركن المدينة على خير ما كانت مذللة ثمارها لا يغشاها إلا العوافى» يريد عوافى الطير و السباع «و آخر من يحشر منها راعيان من مزينة يريدان المدينة ينعقان بغنمهما فيجدانها وحوشا» و لفظ مسلم «حتى إذا بلغا ثنية الوداع خرّا على وجوههما» و هو فى الموطأ بلفظ: «لتتركن المدينة على أحسن ما كانت حتى يدخل الكلب أو الذئب فيغذى على بعض سوارى المسجد».

و رواه ابن شبة و لفظة: «فيغذى على سوارى المسجد أو المنبر».

و يغدى- بالغين و الذال المعجمتين- أى يبول عليها دفعة دفعة، يقال: غذت المرأة ولدها بالتشديد، إذا أبالته، و بالتخفيف إذا أطعمته.

و فى ابن زبالة- و تبعه ابن النجار- حديث «لا تقوم الساعة حتى يغلب على مسجدى هذا الكلاب و الذئاب و الضباع فيمر الرجل ببابه فيريد أن يصلى فيه فما يقدر عليه».

و فى ابن شبة بسند صحيح حديث: «أما و الله لتدعنها مذللة أربعين عاما للعوافى، أ تدرون ما العوافى؟ الطير و السباع» و رواه ابن زبالة بنحوه.

و روى أحمد برجال الصحيح أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «صعد أحدا، فأقبل على المدينة و قال:

ويل أمها قرية، يدعها أهلها كأينع ما تكون» الحديث، و فى رواية له: «ويل أمك قرية، يدعك أهلك و أنت خير ما تكونين».

و روى أيضا بإسناد حسن حديث للبشير بن راكب فى حب وادى المدينة: «فليقولن لقد كان فى هذه مرة حاضرة من المؤمنين».

و روى أيضا برجال ثقات حديث: «المدينة يتركها أهلها و هى مرطبة، قالوا: فمن يأكلها؟ قال: السباع و العائف».

الفصل الخامس عشر فيما ذكر من وقوع ما أخبر به صلّى اللّه عليه و سلّم من خروج أهلها و تركها، و ذكر كائنة الحرة المقتضية لذلك

اشارة

قد اختلف الناس: متى يكون هذا الترك؟ فقال القاضى عياض: إن هذا جرى فى

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۰۰

العصر الأول، و إنه من المعجزات، فقد تركت المدينة على أحسن ما كانت حين انتقلت الخلافة إلى الشام و العراق، و ذلك أحسن ما كانت من حيث الدين و الدنيا: أما الدين فلكثرة العلماء بها، و أما الدنيا فلعمارتها و اتساع حال أهلها، قال: و ذكر الأخباريون فى بعض الفتن التى جرت بالمدينة و خاف أهلها أنه رحل عنها أكثر الناس، و بقيت ثمارها للعوافى، و خلت مدة، ثم تراجع الناس إليها.

و حكى البدر ابن فرحون فى شرح الموطأ، و من خطه نقلت، عن القاضى أيضا أنه قال: و قد حكى قوم كثيرون أنهم رأوا ما أنذر به النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من تغذية الكلاب على سوارى مسجدها، انتهى.

و قال النووى: الظاهر المختار أن الترك للمدينة يكون آخر الزمان عند قيام الساعة، و يوضحه قصة الراعيين من مزينة، فإنهما يخران على وجوههما حين تدركهما الساعة، و لفظ مسلم واضح فى ذلك؛ فإنه قال «ثم يحشر راعيان» و يؤيده كونها آخر قرى الإسلام خرابا.

قلت: و يؤيده رواية ابن شبة المتقدمة «ليدعنها مذللة أربعين عاما للعوافى» و هذا لم يقع اتفاقا، على أنه ورد ما يقتضى أن الترك للمدينة يكون متعددا، فلعل ما ذكره القاضى هو المرة الأولى، و بقى الترك الذى يكون آخر الزمان؛ لأن ابن شبة روى حديث «ليخرجن أهل المدينة من المدينة، ثم ليعودن إليها، ثم ليخرجن منها، ثم لا يعودون إليهما، و ليدعنها و هى خير ما يكون مونعة».

و روى أيضا عن عمر مرفوعا «يخرج أهل المدينة منها ثم يعودون إلها فيعمرونها حتى تمتلئ و تبنى، ثم يخرجون منها فلا يعودون إليها أبدا».

و روى ابن شبة عن أبى هريرة قال: «آخر من يحشر رجلان رجل من جهينة و آخر من مزينة فيقولان: أين الناس؟ فيأتيان المدينة فلا يريان إلا الثعلب، فينزل إليهما ملكان فيسحبانهما على وجوههما حتى يلحقاهما بالناس».

و روى أيضا عن حذيفة بن أسيد قال: «آخر الناس محضرا رجلان من مزينة يفقدان الناس، فيقول أحدهما لصاحبه: قد فقدنا الناس منذ حين، انطلق بنا إلى شخص من بنى فلان، فينطلقان فلا يجدان بها أحدا، ثم يقول: انطلق بنا إلى المدينة، فينطلقان فلا يجدان بها أحدا، ثم يقول: انطلق بنا إلى منزل قريش ببقيع الغرقد، فينطلقان فلا يريان إلا السباع و الثعالب، فيوجهان نحو البيت الحرام».

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۰۱

قلت: و كأنهما إذا توجها نحو البيت الحرام ينزل إليهما الملكان قبل ذهابهما؛ فلا يخالف ما تقدم، فالظاهر أن ما ذكره القاضى هو الترك الأول، و سببه فيما يظهر كائنة الحرة، و قد تقدم من حديث أبى هريرة أنه قيل له: من يخرجهم منها يا أبا هريرة؟ قال: أمراء السوء، و روى الشيخان- و اللفظ لمسلم- عن أبى هريرة مرفوعا «يهلك أمتى هذا الحى من قريش، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: لو أن الناس اعتزلوهم».

و روى مسلم عن حذيفة رضى الله عنه قال: «قام فينا رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم مقاما ما ترك شيئا يكون فى مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به، حفظه من حفظه و نسيه من نسيه» الحديث، و فى رواية عنه: أخبرنى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بما هو كائن إلى أن تقوم القيامة، فما من شىء إلا قد سألته، إلا أنى لم أسأله ما يخرج أهل المدينة من المدينة، و روى الترمذى حديثا «إذا مشت أمتى المطيطا، و خدمتهم بنات فارس و الروم، رد الله بأسهم بينهم، و سلط شرارهم على خيارهم». و روى ابن شبة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «و الذى نفسى بيده ليكونن بالمدينة ملحمة يقال لها الحالقة، لا أقول حالقة الشعر، و لكن حالقة الدين، فاخرجوا من المدينة و لو على قدر بريد».

و روى ابن أبى شيبة عنه أنه قال: اللهم لا تدركنى سنة ستين، و لا إمرة الصبيان، يشير إلى أن أول الأغيلمة كان فى سنة ستين، و هو كذلك، كما قاله الحافظ ابن حجر، فإن يزيد بن معاوية استخلف فيها، فأشار إلى دولة يزيد و فيها كانت وقعت الحرة، و تسمى حرة واقم، و حرة زهرة.

و روى الواقدى فى كتاب الحرة عن أيوب بن بشير المعادى أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم «خرج سفرا من أسفاره، فلما مر بحرة زهرة وقف و استرجع، فسىء بذلك من معه، فظنوا أن ذلك من أمر بسفرهم، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، ما الذى رأيت؟ فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: أما إن ذلك ليس من سفركم هذا، قالوا: فما هو يا رسول الله قال؟ يقتل فى هذه الحرة خيار أمتى بعد أصحابى».

و روى أيضا عن سفيان بن أبى أحمد قال: كان رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم إذا أشرف على بنى عبد الأشهل أشار بيده، فقال: «يقتل بهذه الحرة خيار أمتى» و روى أيضا عن كعب قال:

نجد فى التوراة أن فى حرة شرقى المدينة مقتلة تضىء وجوههم يوم القيامة صنعا» و روى أيضا أنه ذكر عند ابن عباس قتلى الحرة، فقال ابن عباس: يرحمهم الله، قال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم «يقتل بحرة زهرة خيار أمتى».

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۰۲

و روى البيهقى فى الدلائل خبر أيوب بن بشير المتقدم، ثم قال: هذا مرسل و قد روى عن ابن عباس فى تأويل قوله تعالى: وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها [الأحزاب: ۱۴] قال: لأعطوها، يعنى إدخال بنى حارثة أهل الشام على أهل المدينة.

و رواه بالسند إلى ابن عباس و قال: إنه مؤكد لمرسل ابن بشير، و سيأتى فى حرة واقم ما رواه ابن زبالة من أن السماء مطرت على عهد عمر رضى الله عنه، فخرج مع أصحابه حتى أتوا حرة واقم و شراجها تطرد، فقال كعب: أما و الله يا أمير المؤمنين لتسيلن هذه الشراج بدماء الناس كما تسيل بهذا الماء، فدنا منه ابن الزبير فقال: يا أبا إسحاق و متى ذلك؟ فقال: إياك أن تكون على رجلك أو يدك!

و روى ابن زبالة عن كعب أيضا: إنا نجد فى كتاب الله: حرة شرقى المدينة يقتل بها مقتله تضىء وجوههم يوم القيامة كما يضىء القمر ليلة البدر.

وقعة الحرة

قلت: و سياق كلام القرطبى يقتضى أنها هى السبب فى خروج أهل المدينة المذكور فى كلام عياض؛ فإنه ذكر نحو كلام عياض، و قال: فلما انتهى حالها- يعنى المدينة- كمالا و حسنا تناقص أمرها إلى أن أقفرت جهاتها، و توالت الفتن فيها؛ فخاف أهلها، فارتحلوا عنها، و وجّه يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة المرى فى جيش عظيم من أهل الشام، فنزل بالمدينة، فقاتل أهلها، فهزمهم و قتلهم بحرة المدينة قتلا ذريعا، و استباح المدينة ثلاثة أيام، فسميت وقعة الحرة لذلك، و يقال لها: حرة زهرة، و كانت الوقعة بموضع يعرف بواقم على ميل من المسجد النبوى، فقتل بقايا المهاجرين و الأنصار و خيار التابعين، و هم ألف و سبعمائة، و قتل من أخلاط الناس عشرة آلاف سوى النساء و الصبيان، و قتل بها من حملة القرآن سبعمائة رجل، و من قريش سبعة و تسعون قتلوا ظلما فى الحرب صبرا، قال: و قال الإمام الحافظ ابن حزم فى المرتبة الرابعة: و جالت الخيل فى مسجد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و بالت، و راثت بين القبر و المنبر أدام الله تشريفها و أكرهوا الناس أن يبايعوا ليزيد على أنهم عبيد له إن شاء باع و إن شاء أعتق، و ذكر له يزيد بن عبد الله بن زمعة البيعة على حكم القرآن و السنة، فأمر بقتله، فضربت عنقه صبرا، و ذكر الأخباريون أنها خلت من أهلها، و بقيت ثمارها للعوافى كما قال صلّى اللّه عليه و سلّم و فى حال خلائها غذت الكلاب على سوارى المسجد، انتهى كلام القرطبى.

سبب نقمة يزيد بن معاوية على أهل المدينة

و روى الطبرانى فى خبر طويل عن عروة بن الزبير قال: لما مات معاوية رضى الله عنه تثاقل عبد الله بن الزبير عن طاعة ابنه يزيد، و أظهر شتمه، فبلغ ذلك يزيد، فأقسم لا

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۰۳

يؤتى به إلا- مغلولا- و إلا أرسل إليه، فقيل لابن الزبير: أ لا نصنع لك أغلالا من فضة تلبس عليها الثوب و تبر قسمه فالصلح أجمل بك؟ قال: فلا أبرّ الله قسمه، ثم قال:

و لا ألين لغير الحق أسأله حتى يلين لضرس الماضغ الحجر

ثم دعا إلى نفسه، فوجه إليه يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة المرى فى جيش أهل الشام، و أمرهم بقتال أهل المدينة، فإذا فرغ من ذلك صار إلى مكة، قال: فدخل مسلم بن عقبة المدينة، و هرب منه يومئذ بقايا أصحاب رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و عاث فيها، و أسرف فى القتل، ثم خرج منها، فلما كان فى بعض الطريق مات و استخلف حصين بن نمير الكندى، ثم ذكر حصاره ابن الزبير، و رميه بالمنجنيق، و احتراق الكعبة، قال: و بلغ حصين بن نمير موت يزيد بن معاوية فهرب.

قلت: و سبب أمر يزيد بقتال أهل المدينة ما ذكره الإمام ابن الجوزى قال: لما دخلت سنة اثنين و ستين ولّى يزيد عثمان بن محمد بن أبى سفيان المدينة، فبعث إلى يزيد وفدا من المدينة، فلما رجع الوفد أظهروا شتم يزيد، و قالوا: قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، و يعزف بالطنابير، و يلعب بالكلاب؛ و إنا نشهدكم أنا قد خلعناه. و قال المنذر: أما و إله لقد أجازنى مائة ألف درهم، و لا يمنعنى ما صنع أن أصدقكم عنه؛ و الله إنه يشرب الخمر، و إنه ليسكر حتى يدع الصلاة؛ ثم بايعوا لعبد الله بن حنظلة الغسيل؛ و أخرجوا عثمان بن محمد عامل يزيد؛ و كان ابن حنظلة يقول: يا قوم؛ ما خرجنا على يزيد حتى خفت أن نرمى بالحجارة من السماء؛ و الله لو لم يكن معى أحد من الناس لأبليت الله فيه بلاء حسنا؛ و كانت قصة الحرة سنة ثلاث و ستين؛ و فى هذه السنة أخرج أهل المدينة عامل يزيد المتقدم ذكره.

قلت: و فی کتاب الحرة للواقدی ما ملخصه: أن أول ما هاج أمر الحرة أن ابن میناء کان عاملا- علی صوافی المدینة- و بها یومئذ صواف کثیرة- حتی کان معاویة یجد بالمدینة و أعراضها مائة ألف و سق و خمسین ألف وسق، و یحصد مائة ألف و سق حنطة، و استعمل یزید علی المدینة عثمان بن محمد بن أبی سفیان؛ و أن ابن میناء أقبل بشرج له من الحرة یرید الأموال التی کانت لمعاویة؛ فلم یزل یسوقه و لا- یصده عنه أحد حتی انتهی إلی بلحارث بن الخزرج، فنقب النقیب فیهم، فقالوا: لیس ذلک لک، هذا حدث و ضرر علینا، فأعلم الأمیر عثمان بن محمد بذلک، فأرسل إلی ثلاثة من بلحارث، فأجابوه إلی أن یمر به، فأعلم ابن میناء فغدا بأصحابه فذبّوهم، فرجع إلی الأمیر فقال: اجمع لهم

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفی، ج ۱، ص: ۱۰۴

من قدرت، و بعث معه بعض جند، و قال: مر به و لو علی بطونهم، فغدا ابن میناء متطاولا- علیهم، و عدا من یذبهم من الأنصار، و رفدتهم قریش فذبوهم حتی تفاقم الأمر؛ فرجع و لم یعمل شیئا. و کتب عثمان بن محمد إلی یزید یخبره بذلک، و یحرضه علی أهل المدینة جمیعا؛ فاستشاط غضبا؛ و قال: و الله لأبعثن إلیهم الجیوش، و لأوطئنها الخیل. انتهی.

و قال ابن الجوزی: قال أبو الحسن المدائنی- و کان من الثقات-: أتی أهل المدینة المنبر فخلعوا یزید، فقال عبد الله بن أبی عمرو بن حفص المخزومی: قد خلعت یزید کما خلعت عمامتی، و نزعها عن رأسه، إنی لأقول هذا و قد وصلنی و أحسن جائزتی، و لکن عدو اللّه سکر. و قال آخر: قد خلعته کما خلعت نعلی؛ حتی کثرت العمائم و النعال.

ثم ولوا علی قریش عبد الله بن مطیع؛ و علی الأنصار عبد الله بن حنظلة. ثم حاصر القوم من کان بالمدینة من بنی أمیة فی دار مروان. فکتب مروان و من معه إلی یزید: إنا قد حصرنا و منعنا العذب، فیا غوثاه. فوصل الکتاب إلیه. فبعث إلی مسلم بن عقبة- و هو شیخ کبیر- فجاء حتی دخل علیه، و قال له: اخرج و سر بالناس، فخرج منادیه، فنادی:

أن تسیروا إلی الحجاز علی أخذ أعطیاتکم کملا و معونة مائة دینار توضع فی ید الرجل من ساعته. فانتدب لذلک اثنا عشر ألف رجل. و کتب یزید إلی ابن مرجانة أن اغز ابن الزبیر، فقال: لا و الله لا أجمعها للفاسق أبدا قتل ابن رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم و إغزاء البیت و قال یزید لمسلم: إن حدث بک حادث فاستخلف حصین بن نمیر السکونی. و قال له: ادع القوم ثلاثا، فإن هم أجابوک و إلا- فقاتلهم، و إذا ظهرت علیهم فأبحها ثلاثا بما فیها من مال أو سلاح أو طعام فهو للجند، فإذا مضت الثلاث فاکفف عنهم، و انظر علی بن الحسین فاستوص به، فإنه لم یدخل فی شیء مما دخلوا فیه، فلما بلغ أهل المدینة إقبال الحصین وثبوا علی من کان محصورا من بنی أمیة، و قالوا: لا نکف عنکم حتی نضرب أعناقکم أو تعطونا عهد الله و میثاقه ألا تبغوا غائلة، و لا تدلوا لنا علی عورة، و لا تظاهروا علینا عدوا، فاعطوهم العهد علی ذلک، فأخرجوهم من المدینة، فخرجوا حتی لقوا مسلم بن عقبة، و أرسل إلیه مروان ابنه عبد الملک فأشار علیه أن یأتیهم من ناحیة الحرة، و أن ینتظرهم ثلاثا ففعل، فلما مضت الثلاث قال: یا أهل المدینة، ما تصنعون؟ قالوا:

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفی، ج ۱، ص: ۱۰۵

نحارب، قال: لا تفعلوا و ادخلوا فی الطاعة، قالوا: لا نفعل، و کانوا قد اتخذوا خندقا، فنزل منهم جماعة، و حمل ابن الغسل علی الخیل حتی کشفها، و قاتلوا قتالا- شدیدا، و جعل مسلم یحرض أصحابه، و کان به مرض؛ فنصب له سریر بین الصفین و قال: قاتلوا عن أمیرکم؛ و أباح مسلم المدینة ثلاثا یقتلون الناس و یأخذون الأموال، و رفعوا علی النساء؛ و قاتل عبد الله بن مطیع حتی قتل هو و بنون له سبعة؛ و بعث برأسه إلی یزید؛ فأفزع ما جری من بالمدینة من أصحاب رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم.

و نقل الواقدی أن القوم لما قربوا تشاور أهل المدینة فی الخندق خندق رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم؛ و شکوا المدینة بالبنیان من کل ناحیة؛ و عملوا فی الخندق خمسة عشر یوما، و کان لقریش ما بین راتج إلی مسجد الأحزاب، و الأنصار ما بین مسجد الأحزاب إلی بنی سلمة، و للموالی ما بین راتج إلی بنی عبد الأشهل، فلما وصل القوم عسکروا بالجرف، و بعثوا رجالا من رجالهم، فأحدقوا بالمدینة من کل ناحیة، فما یجدون مدخلا، و الناس متلبسون السلاح قد قاموا علی أفواه الخنادق یرمون بالنبل و الحجارة، و جلس

مسلم بناحية واقم، فرأى أمرا هائلا فاستعان بمروان و كان وعده بوجه فى ذلك لما لقيه بوادى القرى؛ فخرج مروان حتى جاء بنى حارثة، فكلم رجلا منهم و رغبه فى الصنيعة، و قال: تفتح لنا طريقا فاكتب بذلك إلى يزيد فيصل أرحامكم، ففتح لهم طريقا من قبلهم حتى أدخل له الرجال من بنى حارثة إلى بنى عبد الأشهل، و جاء الخبر عبد الله بن حنظلة و كان بناحية الصورين فى أصحابه، و أقبل عبد الله بن مطيع و كان من ناحية ذباب، و أقبل ابن هريرة فى الموالى يطوف بهم على الخنادق، و أقبل ابن ربيعة و كان من ناحية بطحان، فاجتمعوا جميعا من حيث يدخل أهل الشام، قال محمود بن لبيد: قد حضرت يومئذ، فإنما أتينا من قومنا بنى حارثة، و كان مروان حين أخرج عمل به عمل قبيح، فكلم رجلا فأدخله و معه فارس ثم جعلت الخيل تتحدر على أثره، و قد وقفنا بنى عبد الأشهل فقاتلنا ما وجدنا حتى عاينا الموت و كثرت القوم و تفرق الناس فقتلوا فى كل وجه.

و روى الواقدى أيضا أن قصر بنى حارثة كان أمانا لمن أراد أهل الشام أن يؤمنوه، و كانت بنو حارثة آمنين، و أول دار انتهبت و الحرب بعد لم ينقطع دار بنى عبد الله الأشهل، انتهى.

و أخرج ابن أبى خيثمة بسند صحيح إلى جويرية بن أسماء: سمعت أشياخ أهل

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۰۶

المدينة يتحدثون أن معاوية رضى الله عنه لما احتضر دعا يزيد فقال له: إن لك من أهل المدينة يوما، فإن فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبة فإنى عرفت نصيحته، فلما ولى يزيد وفد عليه عبد الله بن حنظلة و جماعة، فأكرمهم و أجازهم، فرجع فحرض الناس على يزيد، و عابه، و دعاهم إلى خلع يزيد، فأجابوه، فبلغ ذلك يزيد، فجهز إليهم مسلم بن عقبة، فاستقبلهم أهل المدينة بجموع كثيرة، فهابهم أهل الشام و كرهوا قتالهم، فلما نشب القتال سمعوا فى جوف المدينة التكبير؛ و ذلك أن بنى حارثة أدخلوا قوما من الشاميين من جانب المدينة، فترك أهل المدينة القتال، و دخلوا المدينة خوفا على أهليهم، فكانت الهزيمة، و قتل من قتل، و بايع مسلم الناس على أنهم خول ليزيد يحكم فى دمائهم و أموالهم و أهليهم بما شاء، انتهى.

و أخرج يعقوب بن سفيان فى تاريخه بسند صحيح عن ابن عباس قال: جاء تأويل هذه الآية على رأس ستين سنة وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها [الأحزاب: ۱۴] يعنى إدخال بنى حارثة أهل الشام على أهل المدينة فى وقعة الحرة، قال يعقوب: و كانت وقعة الحرة سنة ثلاث و ستين، اه.

قالوا: و كلمات امرأة مسلم بن عقبة فى ولدها، و قالت: أنا مولاتك، و ابنى فى الأسر؛ فقال: عجلوه لها؛ فضربت عنقه و قال: أعطوها رأسه، أ ما ترضين ألّا تقتلى حتى تكلمى فى ابنك؟!

قلت: و سموه مسرفا لإسرافه فى القتل.

و نقل الواقدى فى كتاب الحرة أن يزيد دخل على مسرف و كان قد جعله فى علية لمرضه؛ فقال له: لو لا مرضك لكنت أنت صاحب هذا الأمر، لما أعرف نصيحتك، قال مسرف: أنشدك الله يا أمير المؤمنين أ لا تولى أمرهم غيرى؛ فإنى و الله أنا صاحبهم، رأيت فى النوم شجرة غرقد تصيح بأغصانها: يا ثارات عثمان، فأقبلت و جعلت الشجرة تقول: على يدى مسلم بن عقبة، حتى جئتها فأخذتها، فعبرت ذلك أنى أكون القائم بأمر عثمان؛ فهم قتلته، قال يزيد: فسر إليهم على بركة الله، فأنت صاحبهم، و انظر إذا قدمت المدينة، فمن عاقك عن دخولها أو نصب لك حربا فالسيف السيف، لا تبق فيهم، و أنهبها ثلاثا، و أجهز على جريحهم، و اقتل مدبرهم، و إياك أن تبقى عليهم، و إن لم يعرضوا لك فامض إلى ابن الزبير.

و روى ابن الجوزى من طريق المدائنى عن جويرية أن مسلما نظر إلى قتلى الحرة فقال: لئن دخلت النار بعدها إنى لشقى، و أسر أسرى فحبسهم ثلاثة أيام لم يطعموا،

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۰۷

و جاءوا بسعيد بن المسيب فقالوا: بايع، فقال: أبايع على سيرة أبى بكر و عمر، فأمر بضرب عنقه، فشهد رجل أنه مجنون، فخلى عنه.

عدد القتلى فى وقعة الحرة

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى؛ ج۱؛ ص۱۰۷

عن المدائنى أيضا عن شيخ من أهل المدينة قال: سألت الزهرى: كم كانت القتلى يوم الحرة؟ قال: سبعمائة من وجوه الناس قريش و الأنصار و المهاجرين، و من وجوه الموالى و ممن لا يعرف من عبد و حر و امرأة عشرة آلاف، و كانت الوقعة لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ثلاث و ستين.

و فى كتاب الحرة للواقدى قال: حدثنى عبد الله بن جعفر قال: سألت الزهرى: كم قتل من الناس يومئذ؟ قال: أما من وجوه الناس فأكثر من سبعمائة من قريش و الأنصار و وجوه الموالى، ثم عدّد على من قتل حتى ما كنت أرى أنه بقى أحد إلا قتل يومئذ، ثم قال الزهرى: و لقد قتل ممن لا يعرف من الموالى و العبيد و الصبيان و النساء أكثر من عشرة آلاف، و دخلوها لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ثلاث و ستين.

قلت: و قال القرطبى لليلتين بقيتا من ذى الحجة، و عن الأقشهرى عن أبى معشر و الواقدى أنها يوم الأربع لليلتين خلتا من ذى الحجة، قلت: و لم أره فى كتاب الواقدى، و لعله سبق قلم، و الله أعلم.

و ذكر المجد أنهم سبوا الذرية، و استباحوا الفروج، و أنه كان يقال لأولئك الأولاد من النساء اللاتى حملن: أولاد الحرة، قال: ثم أحضر الأعيان لمبايعة يزيد، فلم يرض إلا أن يبايعوه على أنهم عبيد يزيد، فمن تلكأ أمر بضرب عنقه، و جاءوا بعلى بن عبد الله بن عباس، فقال الحصين بن نمير: يا معشر اليمن عليكم ابن أختكم، فقام معه أربعة آلاف رجل، فقال لهم مسلم: أ خلعتم أيديكم من الطاعة؟ فقالوا: أما فيه فنعم، فبايعه على أن ابن عم يزيد، انتهى.

و عن المدائنى أيضا عن محمد بن عمر قال: قال ذكوان مولى مروان: شرب مسلم بن عقبة دواء بعد ما أنهب المدينة، و دعا بالغداء، فقال له الطبيب: لا تعجل فإنى أخاف عليك إن أكلت قبل أن تكمل الدواء، قال: و يحك! إنما كنت أحب البقاء حتى أشفى نفسى من قتلة عثمان، فقد أدركت ما أردت، فليس شيء أحب إلى من الموت على طهارتى؛ فإنى لا أشك أن الله قد طهّرنى من ذنوبى بقتل هؤلاء الأرجاس.

قلت: هذا من عظيم حمقه، قاتله الله و أشقاه! فإن هذا مما يزيد فى عظيم جرمه.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۰۸

من قتل من الصحابة يوم الحرة

و ممن قتل صبرا يومئذ من الصحابة: عبد الله بن حنظلة الغسيل- قال ابن حزم: قتل مع ثمانية من بنيه- و عبد الله بن زيد حاكى وضوء النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و معقل بن سنان الأشجعى- و كان شهد فتح مكة، و كان معه راية قومه يومئذ- و فيه يقول الشاعر:

ألا تلكم الأنصار تبكى سراتها و أشجع تبكى معقل بن سنان

و محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى، و قد ذكر ابن جرير الطبرى الإمام أن عبد الله بن الغسيل كان يقول:

بعدا لمن رام الفساد و طغى و جانب القصد و أسباب الهدى

لا يبعد الرحمن إلا من عصى

ثم تقدم فقاتل حتى قتل، و قتل معه أخوه لأمه محمد بن ثابت بن قيس بن شماس الأنصارى، و أبوه كان خطيب رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم حين ورد وفد تميم، و جعل مسلم بن عقبة يطوف على القتلى و معه مروان بن الحكم، حتى مر على عبد الله بن الغسيل و هو ماد أصبعه السبابة، فقال مروان: أما و الله لئن نصبتها ميتا لطالما نصبتها حيا.

و روى عن محمد بن كعب القرظى قال: قال مروان لعبد الله بن حنظلة الغسيل و قد رآه مشيرا بإصبعه و قد يبست: لئن أشرت بها ميتا لطالما دعوت و تضرعت بها إلى الله تعالى، فقال رجل من أهل الشام: إن كان هو كما تقول فما دعوتنا إلا لقتل أهل الجنة، فقال مروان: خالفوا و نكثوا.

و فى الذيل على ابن النجار للعراقى: ذكر محمد بن سعد فى الطبقات أن مروان بن الحكم كان يحرض مسلم بن عقبة على أهل المدينة، و جاء معه معينا له حتى ظفر بهم، و انتهبت المدينة، فلما قدم مروان على يزيد شكر له ذلك و أدناه.

و روى ابن الجوزى بسنده إلى سعيد بن المسيب قال: ما أصلى لله تعالى صلاة إلا دعوت على بنى مروان.

و بسنده أيضا إليه قال: لقد رابنى ليالى الحرة ما فى المسجد أحد من خلق الله غيرى، و إن أهل الشام ليدخلون زمرا يقولون: انظروا إلى هذا الشيخ المجنون، و لا يأتى وقت صلاة إلا سمعت أذانا من القبر، ثم أقيمت الصلاة فتقدمت فصليت و ما فى المسجد أحد غيرى.

و بسنده أيضا إلى المدائنى عن أبى قرة قال: قال هشام بن حسان: ولدت بعد الحرة ألف امرأة من غير زوج.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۰۹

و عن المدائنى أيضا عن أبى عبد الرحمن القرشى عن خالد الكندى عن عمته أم الهيثم بنت يزيد قالت: رأيت امرأة من قريش تطوف، فعرض لها أسود فعانقته و قبلته، فقلت: يا أمة الله، أ تفعلين هذا بهذا الأسود؟ فقالت: هو ابنى، وقع على أبوه يوم الحرة.

و نقل العراقى فى ذيله عن شيخه أبى المظفر السمعانى أنه روى بسنده إلى أبى غزية الأنصارى قال: كان قوم من أهل المدينة يجتمعون فى مجلس لهم بالليل يسهرون فيه، فلما قتل الناس قتلوا و نجا منهم رجل فجاء إلى مجلسه فلم يحس منهم أحدا، ثم جاء الليلة الثانية فكذلك، ثم جاء الثالثة فكذلك، فتمثل بهذا البيت:

ألا ذهب الكماة و خلّفونى كفى حزنا بذكرى للكماة

قال: فنودى من المجلس:

فدع عنك الكماة فقد تولّت و نفسك فابكها قبل الممات

فكلّ جماعة لا بدّ يوما يفرّق بينها شعب الشّتات

و روى الطبرانى عن أبى هارون العبدى قال: رأيت أبا سعيد الخدرى رضى الله عنه ممعط اللحية، فقلت: تعبث بلحيتك؟ قال: لا، هذا ما لقيت من ظلمة أهل الشام، دخلوا زمن الحرة، فأخذوا ما كان فى البيت من متاع أو خرثى، ثم دخلت طائفة أخرى فلم يجدوا فى البيت شيئا فأسفوا أن يخرجوا بغير شىء، فقالوا: أضجعوا الشيخ، فجعل كل يأخذ من لحيتى خصلة.

حرق مسلم بن عقبة و الخلاف فيه

و روى أيضا عن محمد بن سعيد خبرا قال فيه: فلما جاء يزيد خلاف ابن الزبير و دعاؤه إلى نفسه دعا مسلم بن عقبة المرى و قد أصابه الفالج و قال: إن أمير المؤمنين- يعنى أباه- عهد إلى فى مرضه إن رابنى من أهل الحجاز ريب أن أوجهك إليهم، و قد رابنى، فقال: إنى كما ظن أمير المؤمنين، اعقد لى و عبّ الجيوش، قال: فورد المدينة فأباحها ثلاثا، ثم دعا إلى بيعة يزيد على أنهم أعبد له قن فى طاعة الله و معصيته، فأجابوه إلى ذلك، إلا رجلا واحدا من قريش أمه أم ولد، فقال له: بايع ليزيد على أنك عبد فى طاعة الله و معصيته، قال: بل فى طاعة الله، فأبى أن يقبل ذلك منه، فقتله، فأقسمت أمه قسما لئن أمكنها من مسلم حيا أو ميتا أن تحرقه بالنار، فلما خرج مسلم بن عقبة من المدينة اشتدت علته فمات، فخرجت أم القرشى بأعبد لها إلى قبر مسلم، فأمرت به أن ينبش من عند رأسه فلما وصلوا إليه إذا بثعبان قد التوى على عنقه قابضا بأرنبة أنفه

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۱۰

يمصها، قال: فكاع القوم عنه، و قالوا: يا مولاتنا انصرفى فقد كفاك الله شره، و أخبروها، فقالت: لأوفين الله بما وعدته، ثم قالت: انبشوه من عند الرجلين، فنبشوا، فإذا بالثعبان لاو ذنبه برجليه، قال: فتحت وصلت ركعتين، ثم قالت: اللهم إنك تعلم أنى إنما غضبت على مسلم بن عقبة اليوم لك فخل بينى و بينه، ثم تناولت عودا فمضت إلى ذنب الثعبان فانسل من مؤخر رأسه فخرج من القبر، ثم أمرت به؛ فأخرج من القبر ثم أحرق بالنار.

قلت: و فى كتاب الحرة للواقدى أن الثابت بالبلد عندنا أن مسرفا لما دفن بثنية المشلل و كانت أم ولد ليزيد بن عبد الله بن ربيعة تسير وراء العسكر بيومين أو ثلاثة حتى جاءها الخبر بذلك، فانتهت إليه، فنبشته ثم صلبته على المشلل، قال الضحاك:

فحدثنى من رآه مصلوبا يرمى كما يرمى قبر أبى رغال.

و حدثنى عبد الرحمن بن أبى الزناد عن عبد الرحمن بن الحارث قال: و الله ما خلصت إليه، و لقد نبشت عنه و لكنها لما انتهت إلى لحده وجدت أسود من الأساود منطويا على رقبته فاتحا فاه، فانصرفت عنه.

و قال ابن الجوزى: لما دخلت سنة أربع و ستين- و قد فرغ مسلم من قتال أهل المدينة- سار متوجها إلى مكة، و استخلف على المدينة روح بن زنباع، و سار إلى ابن الزبير؛ فمات فى الطريق.

قلت: و ذلك مصداق ما جاء فى من يقصد أهل المدينة بسوء؛ فأهلكه الله سريعا.

قال القرطبى: أهلكه الله منصرفه عن المدينة، ابتلاه الله بالماء الأصفر فى بطنه؛ فمات بقديد بعد الوقعة بثلاث ليال.

و قال الطبرى: مات بهرشى بعد الوقعة بثلاث ليال، و كان لحماقته الموفرة يقول عند موته: اللهم إنى لم أعمل عملا قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله أحب إلى من قتال أهل المدينة، و لئن دخلت النار بعدها إنى لشقى، ثم دعا حصين بن نمير السكونى و قال له:

أمير المؤمنين و لاك بعدى. فأسرع السير، و لا تؤخر ابن الزبير، و أمره أن ينصب المجانيق على مكة، و قال: إن تعوذوا بالبيت فارمه، و حاصر مكة أربعة و ستين يوما جرى فيها قتال

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۱۱

شديد، و قذفت الكعبة بالمجانيق يوم السبت ثالث ربيع الأول، و أخذ رجل قبسا فى رأس رمح فطارت به الريح فاحترق البيت، فجاءهم نعى يزيد بن معاوية إهلال ربيع الآخر، و كان بين الحرة و بين موته ثلاثة أشهر، و قال القرطبى: دون ثلاثة أشهر؛ لأنه توفى بالذبحة و ذات الجنب فى نصف ربيع الأول، فلقد ذاب ذوب الرصاص، و اجترأ أهل المدينة و أهل الحجاز على أهل الشام، فذلوا حتى كان لا ينفرد منهم رجل إلا أخذ بلجام دابته فنكس عنها، فقال لهم بنو أمية: لا تبرحوا حتى تحملونا معكم إلى الشام، ففعلوا، و مضى ذلك الجيش حتى دخلوا الشام.

و كانت وقعة الحرة، و قتل الحسين، و رمى الكعبة بالمنجنيق من أشنع شىء جرى فى أيام يزيد.

و قال عبد الرحمن بن سعيد بن زيد أحد العشرة رضى الله عنهم:

فإن تقتلونا يوم حرّة واقم فنحن على الإسلام أول من قتل

و نحن قتلناكم ببدر أذلة و أبنا بأسلاب لنا منكم نفل

فإن ينج منها عائذ البيت سالما فكلّ الذى قد نابنا منكم جلل

يعنى بعائذ البيت عبد الله بن الزبير.

و هذه الكائنة غير الإغزاء المذكور فى حديث البيداء؛ و لهذا روى ابن شبة عن أبى المهزم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: يجىء جيش من قبل الشام حتى يدخل المدينة، فيقتلون المقاتلة، و يبقرون بطون النساء، و يقولون: الحبلى فى البطن: اقتلوا صبابة الشر، فإذا علوا البيداء من ذى الحليفة خسف بهم فلا يدرك أسفلهم أعلاهم و لا أعلاهم أسفلهم، قال أبو المهزم: فلما جاء جيش ابن ذبحة قلنا: هم، فلم يكونوا هم.

قلت: و قد جاء فی بعض الأخبار بیان أن ذلک الجیش جیش السفیانی، یبعثه لقتال المهدی.

و قال یحیی بن سعید: لم تترک الصلاة فی هذا المسجد منذ کان رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم إلا ثلاثة أیام: یوم قتل عثمان، و یوم الحرة، قال مالک: و نسیت الثالث، و فی العتبیة عن مالک أنه بلغه ذلک عن سعید بن المسیب بمعناه، قال ابن رشد: و الیوم الثالث الذی ذکر مالک أنه نسیه، قال محمد بن عبد الحکم: هو یوم خرج به أبو حمزة الخارجی، و کان خروجه- فیما ذکروا- فی دولة مروان بن محمد بن مروان بن الحکم آخر خلفاء بنی أمیة.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفی، ج۱، ص: ۱۱۲

مسیر أبی حمزة إلی المدینة

قال خلیفة بن خیاط: سار أبو حمزة فی أول سنة ثلاثین و مائة، یرید المدینة، و استخلف علی مکة إبراهیم بن الصباح الحمیری، و جعل علی مقدمته فلح بن عقبة السعدی، و خرج أهل المدینة و التقوا بقدید یوم الخمیس لتسع خلون من صفر سنة ثلاثین و مائة، و فلح فی ثلاثین ألف فارس، فقال لهم: خلوا طریقنا فنأتی هؤلاء الذین بغوا علینا و جاروا فی الحکم فإنا لا نرید قتالکم، فأبوا؛ فقاتلوهم فانهزم أهل المدینة، و جاءهم أبو حمزة فقال له علی بن الحصین: اتبع هؤلاء القوم، و أثخن علی جریحهم، فإن لکل زمان حکما، و الإثخان فی مثل هؤلاء أمثل، قال: ما أری ذلک، و مضی أبو حمزة إلی المدینة فدخلها یوم الإثنین لثلاث عشر خلت من صفر، ففی یوم دخوله إیاها- و الله أعلم- خلی مسجد النبی صلّی اللّه علیه و سلّم من أن یجمع فیه، و أصیب من قریش یومئذ ثلاثمائة رجل، و من آل الزبیر اثنا عشر رجلا، فما سمع الناس بواکی أوجع للقلوب من بواکی قدید، ما بقی بالمدینة أهل بیت إلا فیهم بکاء، و قالت نائحة تبکیهم:

ما للزمان و ما لیه أفنی قدید رجالیه

فلأبکینّ سریرة و لأبکین علانیه

قلت: و ذکر الذهبی عن خلیفة بن خیاط فی خبر أبی حمزة هذا ما ملخصه: أن عبد الله بن یحیی الأعور الکندی المسمی طالب الحق- بعد أن ملک حضرموت و صنعاء- بعث إلی مکة أبا حمزة الخارجی الأباضی المذکور، فخاف عبد الواحد بن سلیمان بن عبد الملک- و کان والیا علی مکة و المدینة- و خذله أهل مکة، ففارقها فی النفر الأول، و قصد المدینة، فغلب أبو حمزة علی مکة، ثم سار منها بعد أن استخلف علیها، فلقی بقدید الجیش الذی أرسله عبد الواحد بن سلیمان لقتاله، فظفر أبو حمزة، و سار إلی المدینة فدخلها، و قتل فیها جماعة منهم أربعون رجلا من بنی عبد العزی، و جهز إلیه مروان عسکرا، فلقی بوادی القری فلحا، و هو علی مقدمة أبی حمزة، فاقتتلوا، فقتل فلح و عامة أصحابه، ثم أدرکوا أبا حمزة بمکة، فقتلوه فی خلق من أصحابه، ثم ساروا لطالب الحق فقتلوه، انتهی ملخصا.

قلت: و لا یحتمل أن ما نقل عن الأخباریین فی الخروج من المدینة إنما کان فی هذه الکائنة أو قبل ذلک کله فی کائنة بسر بن أرطأة، فإن القرطبی قال: و ذکر أبو عمرو الشیبانی قال: لما وجه معاویة رضی الله عنه بسر بن أرطأة لقتل شیعة علی رضی الله عنه

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفی، ج۱، ص: ۱۱۳

سار إلی أن أتی المدینة، فقتل ابنی عبید الله بن العباس رضی الله عنهما، و فر أهل المدینة حتی دخلوا الحرة حرة بنی سلیم، و لکنه بعید، و الأقرب ما قدمناه، و الله أعلم.

الفصل السادس عشر فی ظهور نار الحجاز التی أنذر بها النبی صلّی اللّه علیه و سلّم

اشارة

فظهرت بأرض المدينة و أطفأها الله تعالى عند وصولها إلى حرمها، كما سنوضحه.

الأحاديث الواردة فى هذه النار

روينا فى مسند أحمد برجال ثقات عن أبى ذر قال: أقبلنا مع رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فرأينا ذا الحليفة، فتعجل رجال إلى المدينة، و بات رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و بتنا معه، فلما أصبح سأل عنهم، فقيل: تعجلوا إلى المدينة، فقال: «تعجلوا إلى المدينة و النساء، أما إنهم سيدعونها أحسن ما كانت» ثم قال: «ليت شعرى متى تخرج نار بأرض اليمن من جبل الوراق تضىء منها أعناق الإبل ببصرى بروكا كضوء النهار» و رواه ابن شبة من غير ذكر «بأرض اليمن» و لفظه «ليتركنها أحسن ما كانت، ليت شعرى متى تخرج نار من جبل الوراق تضىء لها أعناق الإبل ببصرى بروكا كضوء النهار».

و أخرج الطبرانى فى آخر حديث لحذيفة بن أسد: و سمعت رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يقول:

«لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من رومان- أو ركوبة- تضىء منها أعناق الإبل ببصرى».

قلت: و ركوبة كما سيأتى: ثنية قريبة من ورقان، و لعله المراد بجبل الوراق، قال الحافظ ابن حجر: و رومان لم يذكره البكرى. و لعل المراد رومة البئر المعروفة بالمدينة، ثم نقل عن البكرى أن ركوبة بنى المدينة و الشام، و سيأتى رده.

و هذه النار مذكورة فى الصحيحين فى حديث «لا تقوم الساعة حتى تظهر نار بالحجاز»، و لفظ البخارى: «تخرج نار من أرض الحجاز تضىء أعناق الإبل ببصرى».

و روى الطبرانى بسند فيه ضعيف عن عاصم بن عدى الأنصارى قال: سألنا رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم حدثنا ما قدم، فقال: «أين حبس سيل؟» قلنا: لا ندرى، فمر بى رجل من بنى سليم، فقلت: من أين جئت؟ فقال: من حبس سيل، فدعوت بنعلى، فانحدرت إلى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فقلت: يا رسول الله، سألتنا عن حبس سيل، فقلنا: لا علم لنا به، و إنه مر بى هذا الرجل فسألته فزعم أن به أهله، فسأله رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «أين أهلك؟»

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۱۴

فقال: بحبس سيل، فقال: «أخرج أهلك منها؛ فإنه يوشك أن تخرج منه نار تضىء أعناق الإبل ببصرى».

و حديث: «يوشك نار تخرج من حبس سيل تسير سير بطيئة الإبل، تسير النهار و تقيم الليل» الحديث أخرجه أحمد و أبو يعلى من رواية رافع بن بشير السلمى عن أبيه. قال الحافظ الهيثمى: رواه أحمد و الطبرانى، و رجال أحمد رجال الصحيح، غير رافع، و هو ثقة، انتهى.

و فى مسند الفردوس عن عمر حديث: «لا تقوم الساعة حتى يسيل واد من أودية الحجاز بالنار يضىء له أعناق الإبل ببصرى» و أخرجه ابن عدى فى كامله من طريق عمر بن سعيد التنوخى عن ابن شهاب عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رفعه، و عمر بن سعيد ذكره ابن حبان فى الثقات، و كتبه ابن عدى و الدارقطنى.

بيان أن المدينة يمانية كما أنها حجازية

و قد ظهرت هذه النار بالمدينة الشريفة كما سنبينه، و لا إشكال فى كون المدينة حجازية، و أما كونها يمانية فقد نص عليه الشافعى. قال البيهقى فى المعرفة: قال الشافعى: و مكة و المدينة يمانيتان. قلت: و قد ذكر الشافعى فى الأم حديث: «أتاكم أهل اليمن هم ألين قلوبا» الحديث، ثم روى «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم وقف على ثنية تبوك فقال: ما هاهنا شام، و أشار بيده إلى جهة الشام، و ما هاهنا يمن، و أشار بيده إلى جهة المدينة» هكذا نقلته من الأم بهذا اللفظ، و هو فى مسند الشافعى بلفظ «ما هاهنا شام، و أشار بيده إلى الشام، و من هاهنا يمن، و أشار بيده إلى جهة المدينة» قال ابن الأثير فى شرحه: الغرض منه بيان حد الشام و اليمن، و قد جعل المدينة

من اليمن، اه. و العجب أن النووى قال فى فتاويه: مدينة الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم ليست يمانية و لا شامية، بل هى حجازية، قال: و هذا لا خلاف فيه بين العلماء، و كأنه لم يقف على هذا.

و أما حبس سيل فقد قيل: إن حبس- بالضم ثم السكون- بين حرة بنى سليم و السوارقية، و قد كان إقبال هذه النار من المشرق فى جهة طريق السوارقية كما سيأتى، و قال نصر: حبس سيل- بالفتح- إحدى حرتى بنى سليم. قلت: و أهل المدينة اليوم

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۱۵

يسمون السد الآتى وصفه فيما أحدثته هذه النار بالحبس. و فى كلام ياقوت ما يقتضى أنه كان يسمى بالسد قبل هذه النار؛ فإنه لم يدركها، و مع ذلك قال: إن أعلى وادى قناة عند السد يسمى بالشظاة، اه.

و ظهور النار المذكورة بالمدينة الشريفة قد اشتهر اشتهارا بلغ حد التواتر عند أهل الأخبار، و كان ظهورها لإنذار العباد بما حدث بعدها؛ فلهذا ظهرت على قرب مرحلة من بلد النذير صلوات الله و سلامه عليه، و تقدمها زلازل مهولة، و قد قال تعالى: وَ ما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلَّا تَخْوِيفاً [الإسراء: ۵۹] و قال تعالى: ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ [الإسراء: ۱۶] و لما ظهرت النار العظيمة الآتى وصفها، و أشفق منها أهل المدينة غاية الإشفاق، و التجئوا إلى نبيهم المبعوث بالرحمة، صرفت عنهم ذات الشمال، و زاحت عنهم الأوجال، و ظهرت بركة تربته صلّى اللّه عليه و سلّم فى أمته، و لعل الحكمة فى تخصيصها بهذا المحل- مع ما قدمناه من كونه حضرة النذير- الرحمة لهذه الأمة فإنها لو ظهرت بغيره و سلطان القهر و العظمة التى هى من آثاره قائم لربما استولت على ذلك القطر و لم تجد صارفا؛ فيعظم ضررها على الأمة، فظهرت بهذا المحل الشريف لحكمة الإنذار، فإذا تمت قابلتها الرحمة فجعلتها بردا و سلاما، إلى غير ذلك من الأسرار.

ابتداء الزلزلة التى حدثت بالمدينة

و كان ابتداء الزلزلة بالمدينة الشريفة مستهلّ جمادى الآخرة أو آخر جمادى الأولى سنة أربع و خمسين و ستمائة، لكنها كانت خفيفة لم يدركها بعضهم مع تكررها بعد ذلك، و اشتدت فى يوم الثلاثاء على ما حكاه القطب القسطلانى، و ظهرت ظهورا عظيما اشترك فى إدراكه العام و الخاص، ثم لما كان ليلة الأربعاء ثالث الشهر أو رابعه فى الثلث الأخير من الليل حدث بالمدينة زلزلة عظيمة أشفق الناس منها، و انزعجت القلوب لهيبتها، و استمرت تزلزل بقية الليل، و استمرت إلى يوم الجمعة و لها دوى أعظم من الرعد، فتموج الأرض، و تتحرك الجدارات، حتى وقع فى يوم واحد دون ليله ثمانية عشر حركة على ما حكاه القسطلانى.

و قال القرطبى: قد خرجت نار بالحجاز بالمدينة، و كان بدؤها زلزلة عظيمة فى ليلة الأربعاء بعد العتمة الثالث من جمادى الآخرة سنة أربع و خمسين و ستمائة، و استمرت إلى ضحى النهار يوم الجمعة فسكنت، و ظهرت بقريظة بطرف الحرة، ترى فى صفة البلد العظيم، عليها سور محيط عليه شراريف و أبراج و موادن، و ترى رجال يقودونها، لا تمر على جبل إلا دكته و أذابته، و يخرج من مجموع ذلك مثل النهر أحمر و أزرق له دوى كدوى الرعد، يأخذ الصخور بين يديه، و ينتهى إلى محط الركب العراقى، و اجتمع من

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۱۶

ذلك ردم صار كالجبل العظيم، فانتهت النار إلى قرب المدينة، و مع ذلك فكان يأتى المدينة نسيم بارد، و شوهد لهذه النار غليان كغليان البحر، و قال لى بعض أصحابنا:

رأيتها صاعدة فى الهواء من نحو خمسة أيام، و سمعت أنها رئيت من مكة و من جبال بصرى، اه.

و قال النووى: تواتر العلم بخروج هذه النار عند جميع أهل الشام.

و نقل أبو شامة عن مشاهدة كتاب الشريف سنان قاضى المدينة الشريفة و غيره أن فى ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة حدث بالمدينة فى الثلث الأخير من الليل زلزلة عظيمة أشفقنا منها و باتت فى تلك الليلة تزلزل، ثم استمرت تزلزل كل يوم و ليلة مقدار عشر

مرات- و فی کتاب بعضهم أربع عشرة مرة- قال: و الله لقد زلزلت مرة و نحن حول الحجرة فاضطرب لها المنبر إلی أن سمعنا منه صوتا للحدید الذی فیه، و اضطربت قنادیل الحرم الشریف، زاد القاشانی: ثم فی الیوم الثالث- و هو یوم الجمعة- زلزلت الأرض زلزلة عظیمة، إلی أن اضطربت منام المسجد، و سمع لسقف المسجد صریر عظیم، قال القطب: فلما کان یوم الجمعة نصف النهار ظهرت تلک النار، فثار من محل ظهورها فی الجو دخان متراکم غشی الأفق سواده، فلما تراکمت الظلمات و أقبل اللیل سطع شعاع النار، فظهرت مثل المدینة العظیمة فی جهة المشرق، و الحکمة فی ظهورها فی یوم الجمعة غیر خافیة، ففی الحدیث «من أفضل أیامکم یوم الجمعة: فیه خلق آدم، و فیه قبض، و فیه النفخة، و فیه الصعقة، فأکثروا علیّ من الصلاة فیه فإن صلاتکم معروضة علیّ» الحدیث، و فی الحدیث أیضا: «خیر یوم طلعت علیه الشمس یوم الجمعة: فیه خلق آدم، و فهی أهبط، و فیه تیب علیه، و فیه مات، و فیه تقوم الساعة، و ما من دابة إلا و هی مصیخة حین تصبح حتی تطلع الشمس شفقا من الساعة، إلا الجن و الإنس، و فیه ساعة لا یصادفها عبد مسلم و هو یصلی یسأل الله شیئا إلا أعطاه إیاه» رواه أبو داود، و هو الیوم الذی ادخره الله لهذه الأمة، و أکمل فیه دینهم؛ فأراد الله أن یخوف عباده فیه بذلک لیردهم إلیه، فتلک النار نعمة فی صورة نقمة، و لهذا وجلت منها القلوب و أشفقت، و أیقن الناس أن العذاب قد أحاط بهم. قال القاضی سنان: و طلعت إلی الأمیر- و کان عز الدین منیف بن شیحة- و قلت له: قد أحاط بنا العذاب، ارجع إلی الله، فأعتق کل ممالیکه، و رد علی الناس مظالمهم- زاد القاشانی: و أبطل المکس- ثم هبط الأمیر للنبی صلّی اللّه علیه و سلّم و بات فی المسجد لیلة الجمعة و لیلة السبت، و معه جمیع أهل المدینة حتی النساء و الصغار، و لم یبق أحد فی النخل إلا- جاء إلی الحرم الشریف، و بات الناس یتضرعون

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفی، ج۱، ص: ۱۱۷

و یبکون، و أحاطوا بالحجرة الشریفة کاشفین رءوسهم مقرّین بذنوبهم مبتهلین مستجیرین بنبیهم صلّی اللّه علیه و سلّم. قال القطب: و لما عاین أمیر المدینة ذلک أقلع عن المخالفة، و اعتبر، و رجع عما کان علیه من المظالم و انزجر، و أظهر التوبة و الإنابة، و أعتق جمیع ممالیکه، و شرع فی رد المظالم، و عزم أهل المدینة علی الإقلاع عن الإصرار و ارتکاب الأوزار، و فزعوا إلی التضرع و الاستغفار، و هبط أمیرهم من القلعة مع قاضیهم الشریف سنان و أعیان البلد، و التجئوا إلی الحجرة الشریفة، و باتوا بالمسجد الشریف بأجمعهم حتی النساء و الأطفال؛ فصرف الله تعالی عنهم تلک النار العظیمة ذات الشمال، و نجوا من الأوجال، فسارت تلک النار من مخرجها و سالت ببحر عظیم من النار، و أخذت فی وادی أحیلین و أهل المدینة یشاهدونها من دورهم کأنها عندهم، و مالت من مخرجها إلی جهة الشمال و استمرت مدة ثلاثة أشهر علی ما ذکره المؤرخون.

مدة النار

و ذکر القطب القسطلانی فی کتاب أفرده لهذه النار، و هو ممن أدرکها، لکنه کان بمکة فلم یشاهدها: أن ابتداءها یوم الجمعة السادس من شهر جمادی الآخرة، و أنها دامت إلی یوم الأحد السابع و العشرین من رجب، ثم خمدت، فجملة ما أقامت اثنان و خمسون یوما، لکنه ذکر بعد ذلک أنها أقامت منطفیة أیاما، ثم ظهرت، قال: و هی کذلک تسکن مرة و تظهر أخری؛ فهی لا یؤمن عودها، و إن طفئ وقودها، انتهی؛ فکأن ما ذکره المؤرخون من المدة باعتبار انقطاعها بالکلیة، و طالت مدتها لیشتهر أمرها فینزجر بها عامة الخلق و یشهدوا من عظمها عنوان النار التی أنذرهم بها حبیب الحق.

قوة النار

و ذکر القسطلانی عمن یثق به أن أمیر المدینة أرسل عدة من الفرسان إلی هذه النار للإتیان بخبرها، فلم تجسر الخیل علی القرب منها، فترجل أصحابها و قربوا منها، فذکروا أنها ترمی بشرر کالقصر، و لم یظفروا بجلیة أمرها، فجرد عزمه للإحاطة بخبرها، فذکر أنه وصل

منها إلى قدر غلوتين بالحجر و لم يستطع أن يجاوز موقفه من حرارة الأرض و أحجار كالمسامير تحتها نار سارية و مقابله ما يتصاعد من اللهب، فعاين نارا كالجبال الراسيات، و التلال المجتمعة السائرات، تقذف بزبد الأحجار كالبحار المتلاطمة الأمواج، و عقد لهيبها

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۱۸

فى الأفق قتاما حتى ظن الظان أن الشمس و القمر كسفا إذ سلبا بهجة الإشراق فى الآفاق، و لو لا كفاية الله كفتها لأكلت ما تقدم عليه من الحيوان و النبات و الحجر، انتهى.

و ذكر الجمال المطرى ما يخالف بعض هذا؛ فإنه قال: أخبرنى علم الدين سنجر العزى من عتقاء الأمير عز الدين منيف بن شيحة صاحب المدينة قال: أرسلنى مولاى الأمير عز الدين بعد ظهور النار بأيام، و معى شخص من العرب، و قال لنا و نحن فارسان:

اقربا من هذه النار، و انظرا هل يقدر أحد على القرب منها، فإن الناس يهابونها لعظمها، فخرجت أنا و صاحبى إلى أن قربنا منها؛ فلم نجد لها حرا، فنزلت عن فرسى، و سرت إلى أن وصلت إليها، و هى تأكل الصخر و الحجر، فأخذت سهما من كنانتى، و مددت به يدى إلى أن وصل النصل إليها فلم أجد لذلك ألما و لا حرا، فعرق النصل و لم يحترق العود، فأدرت السهم و أدخلت فيها الريش فاحترق الريش و لم يؤثر فى العود.

و ذكر المطرى قبل ذلك أنها كانت تأكل كل ما مرت عليه من جبل و حجر، و لا تأكل الشجر، قال: و ظهر لى فى معنى ذلك أنه لتحريم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم شجر المدينة؛ فمنعت من أكل شجرها لوجوب طاعته صلّى اللّه عليه و سلّم على كل مخلوق.

قلت: و ذكر القسطلانى أن هذه النار لم تزل مارة على سبيلها حتى اتصلت بالحرة و وادى الشظاة، و هى تسحق ما والاها، و تذيب ما لاقاها من الشجر الأخضر و الحصى من قوة اللظى، و أن طرفها الشرقى أخذ بين الجبال فحالت دونه ثم وقفت، و أن طرفها الشامى- و هو الذى يلى الحرم- اتصل بجبل يقال له وعيرة على قرب من شرقى جبل أحد، و مضت فى الشظاة الذى فى طرفه وادى حمزة رضى الله عنه، ثم استمرت حتى استقرت تجاه حرم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فطفئت، قال: و أخبرنى شخص أعتمد عليه أنه عاين حجرا ضخما من حجارة الحرة كان بعضه خارجا عن حد الحرم، فعلقت بما خرج منه، فلما وصلت إلى ما دخل منه فى الحرم طفئت و خمدت، انتهى.

و هذا أولى بالاعتماد من كلام المطرى؛ لأن المطرى لم يدرك هذه النار و إن أدرك من أدركها، بخلاف القطب فإنه أدركها، و اعتنى بجمع أخبارها، و أفردها بالتصنيف، و لم يقف عليه المطرى، و هذا أبلغ فى الإعجاز، حيث لم تدخل هذه النار حرمه الشريف؛ إذ هى للإنذار و التخويف و هو نبى الرحمة صلّى اللّه عليه و سلّم.

ضوء النار

و قد نقل أبو شامة عن مشاهدة كتاب القاضى سنان الحسينى أن سيل النار انحدر مع وادى الشظاة حتى حاذى جبل أحد، و كادت النار تقارب حرة العريض و خاف الناس منها خوفا عظيما، ثم سكن قتيرها الذى يلى المدينة، و طفئت مما يلى العريض بقدرة الله

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۱۹

تعالى، فرجعت تسير فى الشرق، و هو مؤيد لما ذكره القطب، و مشاهدة آثارها اليوم تقضى بذلك.

قال المطرى: و أخبرنى بعض من أدركها من النساء أنهن كن يغزلن على ضوئها بالليل على أسطحة البيوت بالمدينة الشريفة.

و قال القسطلانى: إن ضوءها استوى على ما بطن من القيعان، و ظهر من القلاع، حتى كأن الحرم النبوى عليه الشمس مشرقة، و جملة أماكن المدينة بأنوارها محدقة، و دام على ذلك لهبها حتى تأثر له النيران، و صار نور الشمس على الأرض تعتريه صفرة، و لونها من تصاعد الالتهاب يعتريه حمرة، و القمر كأنه قد كسف من اضمحلال نوره، قال:

و أخبرنى جمع ممن توجه للزيارة على طريق المشيان أنهم شاهدوا ضوءها على ثلاثة مراحل للمجدّ، و آخرون أنهم شاهدوها من

جبال سايۀ.

قلت: نقل أبو شامۀ عن مشاهدۀ كتاب الشريف سنان قاضى المدينۀ أن هذه النار رئيت من مكۀ و من الفلاۀ جميعها، و رآها أهل ينبع.

قال أبو شامۀ: و أخبرنى بعض من أثق به ممن شاهدها بالمدينۀ أنه بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب.

و قال المجد: و الشمس و القمر فى المدۀ التى ظهرت بها ما يطلعان إلا كاسفين.

قال أبو شامۀ: و ظهر عندنا بدمشق أثر ذلك الكسوف من ضعف النور على الحيطان، و كنا حيارى من سبب ذلك، إلى أن بلغنا الخبر عن هـذه النار، و كل من ذكر هـذه النار يقول فى آخر كلامه: و عجائب هذه النار و عظمتها يكلّ عن وصـفها البنان و الأقلام، و تجل عن أن يحيط بشـرحها البيان و الكلام؛ فظهر بظهورها معجزۀ للنبى صـلّى اللّه عليه و سلّم لوقوع ما أخبر به و هى هذه النار؛ إذ لم تظهر من زمنه صلّى اللّه عليه و سلّم قبلها و لا بعدها نار مثلها.

هل رؤيت النار ببصرى

و قـال القسـطلانى: إن جاء من أخبر برؤيتها ببصـرى فلا كلام، و إلا فيحتمل أن يكون ذكر ذلك فى الحـديث على وجه المبالغۀ فى ظهورها، و أنها بحيث ترى، و قد جاء من أخبر أنه أبصرها بتيماء، و بصرى منها مثل ما هى من المدينۀ فى البعد.

قلت: قد تقدم عن القرطبى أنه بلغه أنها رئيت من جبال بصـرى، و صـرح الشـيخ عماد الدين بن كثير بما يقتضـى أنه أضاءت من هذه النار أعناق الإبل ببصرى، فقال: أخبرنى قاضى القضاۀ صدر الدين الحنفى قال: أخبرنى والدى الشيخ صفى الدين مدرس مدرسۀ

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۲۰

بصـرى أنه أخبره غير واحـد من الأعراب صبيحـۀ الليلـۀ التى ظهرت فيها هذه النار ممن كان يحاضـره ببلد بصـرى أنهم رأوا صـفحات أعناق إبلهم فى ضوء تلك النار، فقـد تحقق بـذلك أنها الموعود بها، و الحكمۀ فى إنارتها بالأماكن البعيدۀ من هذا المظهر الشـريف حصول الإنذار، ليتم به الانزجار، كما اتفق لأهل المدينۀ، و فى هذا المعنى يقول قائلهم:

يا كاشف الضّرّ صفحا عن جرائمنا لقد أحاطت بنا يا ربّ بأساء

نشكو إليك خطوبا لا نطيق لها حملا و نحن بها حقا أحقّاء

زلازلا تخشع الصّمّ الصّلاب لها و كيف تقوى على الزلزال شمّاء

أقام سبعا يرجّ الأرض فانصدعت عن منظر منه عين الشمس عشواء

بحر من النار تجرى فوقه سفن من الهضاب لها فى الأرض إرساء

ترمى لها شررا كالقصر طائشۀ كأنها ديمۀ تنصبّ هطلاء

تنشقّ منها بيوت الصخر إن زفرت رعبا، و ترعد مثل السعف أضواء

منها تكاثف فى الجو الدخان إلى أن عادت الشمس منه و هى دهماء

قد أثرت سعفۀ فى البدر لفحتها فليلۀ التم بعد النور عمياء

تحدت النيرات السبع ألسنها بما تلاقى بها تحت الثرى الماء

و قد أحاط لظاها بالبروج إلى أن صار يلفحها بالأرض أهواء

فباسمك الأعظم المكنون إن عظمت منا الذنوب و ساء القلب أسواء

فاسمح وهب و تفضل بالرضى كرما و ارحم فكلّ لفرط الجهل خطّاء

فقوم يونس لما آمنوا كشف الت عذيب عنهم و عمّ القوم نعماء

و نحن أمۀ هذا المصطفى، و لنا منه إلى عفوك المرجو دعّاء

هذا الرسول الذی لولاه ما سلکت محجة فی سبیل الله بیضاء

فارحم و صلّ علی المختار ما خطبت علی علا منبر الأوراق ورقاء

مبدأ ظهور النار

قال المؤرخون: و کان ظهور هـذه النار من صـدر واد یقال له وادی الأحیلیین و قال البـدر بن فرحون: إنها سالت فی وادی أحیلیین، و موضعها شرقی المدینة علی طریق السوارقیة مسیرة من الصبح إلی الظهر.

قال القطب القسطلانی: ظهرت فی جهة المشرق علی مرحلة متوسطة من المدینة فی

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفی، ج۱، ص: ۱۲۱

موضع یقال له قارع الهیلاء علی قرب من مساکن قریظة شرقی قباء، فهی بین قریظة و موضع یقال له أحیلیین، فثارت من هذا القاع، ثم امتدت فیه آخذة فی الشـرق إلی قریب من أحیلیین، ثم عرجت و استقبلت الشام سائلة إلی أن وصلت إلی موضع یقال له قرین الأرنب بقرب من أحد، فوقفت و انطفت و انصرفت، انتهی.

من فوائد هذه النار

قال المؤرخون: و اسـتمرت هذه النار مدة ظهورها تأکل الأحجار و الجبال، و تسیل سیلا ذریعا فی واد یکون طوله مقدار أربعة فراسخ و عرضه أربعة أمیال و عمقه قامة و نصف، و هی تجری علی وجه الأرض و الصخر یذوب حتی یبقی مثل الآنک، فإذا خمد اسودّ بعد أن کـان أحمر، و لم یزل یجتمع من هـذه الحجارة المذابـة فی آخر الوادی عنـد منتهی الحرة حتی قطعت فی وسط وادی الشـظاة إلی جهـة جبل وعیرة، فسدت الوادی المذکور بسد عظیم من الحجر المسـبوک بالنار و لا کسد ذی القرنین، یعجز عن وصـفه الواصف، و لا مسلک لإنسان فیه و لا دابة.

قلت: و هذا من فوائد إرسال هذه النار؛ فإن تلک الجهة کثیرا ما یطرق منها المفسدون لکثرة الأعراب بها؛ فصار السـلوک إلی المدینة متعسّرا علیهم جدّا.

قال القسطلانی: أخبرنی جمع ممن أرکن إلی قولهم إن النار ترکت علی الأرض من الحجر ارتفاع رمح طویل علی الأرض الأصلیة.

قال المؤرّخون: و انقطع وادی الشـظاة بسـبب ذلک، و صار السـیل إذا سال ینحبس خلف السـد المـذکور حتی یصـیر بحرا مـد البصـر عرضا و طولا، فانخرق من تحته فی سـنة تسـعین و سـتمائة لتکاثر الماء من خلفه، فجری فی الوادی المذکور سـنتین کاملتین، أما السنة الأولی فکان قـد ملأ ما بین جانبی الوادی، و أما الثانیـة فـدون ذلک، ثم انخرق مرة أخری فی العشـر الأول بعد السـبعمائة فجری سـنة کاملـة أو أزیـد، ثم انخرق فی سـنة أربع و ثلاـثین و سـبعمائة و کـان ذلک بعـد تواتر أمطار عظیمـة فی الحجاز، فکثر الماء و علا من جـانبی السـد و من دونه مما یلی جبل وعیرة و تلک النواحی، فجاء سـیل طام لا یوصف، و لو زاد مقـدار ذراع فی الارتفاع وصل إلی المدینة، و کان أهل المدینة یقفون خارج باب البقیع علی التل الذی هناک فیشاهدونه و یسـمعون خریرا توجل القلوب دونه، فسبحان القادر علی ما یشاء!

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفی، ج۱، ص: ۱۲۲

النذر الحادثة فی عام النار و الذی یلیه

و من العجائب أن فی السـنة التی ظهرت فیها هذه النار احترق المسـجد الشـریف النبوی بعد انطفائها کما سـیأتی، و زادت دجلة زیادة عظیمة فغرق أکثر بغداد و تهدمت دار الوزیر، و کان ذلک إنذارا لهم، ولیتهم اتعظوا.

ثم فى أول السنة التى تلى هذه السنة وقعت الطامة الكبرى، و هى أخذ التتار لبغداد و قتل الخليفة المستعصم و بعده المسلمون، و بذل السيف ببغداد نيفا و ثلاثين يوما، و أخرجت الكتب فألقيت تحت أرجل الدواب، و شوهد بالمدرسة المستنصرية معالف الدواب مبنية بالكتب موضع اللبن، و خلت بغداد من أهلها، و استولى عليها الحريق على ما ذكره سعيد الذهلى، و احترقت دار الخلافة، و عم الحريق أكثر الأماكن حتى القصور البرانية و ترب الرصافة مدفن ولاة الخلافة، و شوهد على بعض حيطان منها مكتوب:

إن ترد عبرة فهذا بنو العباس دارت عليهم الدائرات

استبيح الحريم إذ قتل الأحى اء منهم و أحرق الأموات

ثم كثر الموت و الفناء ببغداد، و طوى بساط الخلافة منها من ذلك الزمان، فلله الخلق و الأمر!

و قد نظم بعضهم خروج هذه النار و غرق بغداد، و أصلحه أبو شامة منبها على أن الأمرين فى سنة بقوله:

سبحان من أصبحت مشيئته جارية فى الورى بمقدار

فى سنة أغرق العراق، و قد أحرق أرض الحجاز بالنار

بعض ما يناسب هذه النار

قال المجد: و مما يناسب هذه النار و يضاهيها ما حكاه ابن جبير أنه رأى من أخبره أن فى بحر رومية جزيرتين يخرج منهما النار دائما، قال: و أبصرنا الدخان صاعدا منهما، و تظهر بالليل نار حمراء ذات ألسن تصعد فى الجو، قال: و أعلمنا أن خروجها من جبلين يصعد منهما نفس نارى شديد، و ربما قذف فيها الحجر فتلقى به مسودا إلى الهواء بقوة ذلك النفس، و تمنعه من الانتهاء إلى القعر، قال: و أما الجبل الشامخ الذى بالجزيرة المعروف بجبل النار فشأنه أيضا عجيب، و ذلك أن نارا تخرج منه فى بعض السنين كالسيل

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۲۳

العرم؛ فلا تمر بشىء إلا أحرقته، حتى تنتهى إلى البحر فتركب ثبجه طائرة على صفحته حتى تغوص فيه.

شأن خالد بن سنان العبسى

قلت: و أقرب من ذلك فى مناسبة هذه النار ما ذكره ابن شبة فى أخبار المدينة- عند ذكر خالد بن سنان العبسى الذى قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لما جاءته بنته «هذه ابنة نبى ضيعه قومه» - فروى ابن شبة فى خبره من طرق ما ملخصه أنه كان بأرض الحجاز نار يقال لها نار الحدثان (حرة بأرض بنى عبس) تعشى الإبل بضوئها من مسيرة ثمانى ليال، و ربما خرج منها العنق فذهب فى الأرض فلا يبقى شيئا إلا أكله، ثم يرجع حتى يعود إلى مكانه، و إن اللّه تعالى أرسل إليها خالد بن سنان، فقال لقومه: يا قوم، إن اللّه أمرنى أن أطفئ هذه النار التى قد أضرت بكم فليقم معى من كل بطن رجل، فخرج بهم حتى انتهى إلى النار فخط عليهم خطا ثم قال: إياكم أن يخرج أحد منكم من هذا الخط فيحترق، و لا ينوهن باسمى فأهلك، و جعل يضرب النار و يقول: بدا بدا كل هدى للّه مودا، حتى عادت من حيث جاءت، و خرج يتبعها حتى ألجأها فى بئر فى وسط الحرة منها تخرج النار، فانحدر فيها خالد. و فى درة الغواص: فإذا هو بكلاب تحتها فرضهن بالحجارة، و ضرب النار حتى أطفأها اللّه على يده، و معهم ابن عم له، فجعل يقول: هلك خالد، فخرج و عليه بردان ينطفان من العرق و هو يقول: كذب ابن رايعة المعزى لأخرجنّ منها و ثيابى تندى، فسموا بنى ذلك الرجل «بنى راعية المعزى» إلى اليوم، و فى رواية أن قومه سالت عليهم نار من حرة النار فى ناحية خيبر، و الناس فى وسطها، و هى تأتى من ناحيتين جميعا، فخافها الناس خوفا شديدا. و فى رواية: و هى تخرج من شق جبل من حرة يقال لها حرة أشجع، فقال لهم خالد بن سنان: ابعثوا معى إنسانا حتى أطفئها من أصلها، فخرج معه راعى غنم، و هو ابن راعية، حتى جاء غارا تخرج منه النار. و فى رواية: أنها كانت تخرج من بئر، ثم قال خالد للراعى: أمسك ثوبى، ثم دخل فى الغار، و فى رواية:

أنه انطلق فی ناس من قومه حتی أتوها، و قال لهم: إن أبطأت عنکم فلا تدعونی باسمی، فخرجت کأنها خیل شقر یتبع بعضها بعضا، فاستقبلها خالد فجعل یضربها بعصاه و یقول:

هدیا هدیا، کل نهب مودی، زعم ابن راعیة المعزی، أنی لا أخرج منها و ثیابی تندی،

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفی، ج۱، ص: ۱۲۴

حتی دخل معها الشعب، فأبطأ علیهم، فقال بعضهم: لو کان حیّا لخرج إلیکم، فقالوا:

إنه قد نهاها أن ندعوه باسمه، قال: ادعوه باسمه، فو الله لو کان حیّا لخرج إلیکم بعد، فدعوه باسمه، فخرج و هو آخذ برأسه؛ فقال: أ لم أنهکم أن تدعونی باسمی؟ قد و الله قتلتمونی، احملونی و ادفنونی، فإذا مرت بکم حمر معها حمار أبتر، و فی روایة فإذا دفنتمونی و أتی علیّ ثلاثة أیام فأتوا قبری، فإذا عرضت لکم عانة من حمر وحش و بین یدیها عیر فانبشونی فإنی أقوم فأخبرکم ما هو کائن إلی یوم القیامة، فأتوا القبر بعد ثلاث و سنحت لهم الحمر، فأرادوا نبشه، فمنعهم قوم من أهل بیته، و قالوا: لا ندعکم تنبشون صاحبنا فنعیر بذلک، و فی روایة: فیکون سبة علینا، فترکوه.

و فی روایة لابن القعقاع بن خلید العبسی عن أبیه عن جده، قال: بعث الله خالد بن سنان نبیا إلی بنی عبس، فدعاهم فکذبوه، فقال قیس بن زهیر: إن دعوت فأسیل علینا هذه الحرة نارا اتبعناک؛ فإنک تخوفنا بالنار، و إن لم تسل نارا کذبناک، قال: فذلک بینی و بینکم؟

قالوا: نعم، قال: فتوضأ ثم قال: اللهم إن قومی کذّبونی و لم یؤمنوا برسالتی إلا أن تسیل علیهم هذه الحرة نارا، فأسلها علیهم نارا، قال: فطلع مثل رأس الحریش، ثم عظمت حتی عرضت أکثر من میل، فسالت علیهم، فقالوا: یا خالد ارددها فإنا مؤمنون بک، فتناول عصا ثم استقبلها بعد ثلاث لیال فدخل فیها فضربها بالعصا، فلم یزل یضربها حتی رجعت، قال: فرأیتنا نعشی الإبل علی ضوء نارها ضلعا الربذة و بین ذلک ثلاث لیال.

قف علی کرامة لتمیم الداری

و روی له ابن شبة أخبارا أخری مع قومه، و روی البیهقی فی دلائل النبوة فی باب «ما جاء فی الکرامة التی ظهرت علی تمیم الداری شرفا للمصطفی صلّی اللّه علیه و سلّم و تنویها باسم من آمن به، عن معاویة بن حرمل، و ذکر خبرا فی قدومه المدینة، و قول عمر له: اذهب إلی خیر المؤمنین فانزل علیه، ثم قال: فبینا نحن ذات یوم إذ خرجت نار بالحرة، فجاء عمر رضی الله عنه إلی تمیم الداری رضی الله عنه، فقال: قم إلی هذه النار، فقال: یا أمیر المؤمنین و من أنا؟ قال: فلم یزل به حتی قام معه، قال: و تبعتهما فانطلقا إلی النار، فجعل تمیم یحوشها بیده حتی دخلت الشعب، و دخل تمیم خلفها، فجعل عمر یقول: لیس من رأی کمن لم یر، قالها ثلاثا، و الله أعلم.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفی، ج۱، ص: ۱۲۵

الباب الثالث فی أخبار سکانها فی سالف الزمان، و مقدمه صلّی اللّه علیه و سلّم إلیها،

اشارة

و ما کان من أمره بها فی سنین الهجرة، و فیه اثنا عشر فصلا

الفصل الأول فی سکانها بعد الطوفان، و ما ذکر فی سبب نزول الیهود بها، و بیان منازلهم

نزول عبیل بیثرب

أسند الكلبى عن ابن عباس أن مخرج الناس من السفينة نزلوا طرف بابل، و كانوا ثمانين نفسا، فسمى الموضع سوق الثمانين، قال: و طول بابل مسيرة عشرة أيام و اثنى عشر فرسخا، فمكثوا بها حتى كثروا، و صار ملكهم نمروذ بن كنعان بن حام، فلما كفروا بلبلوا، فتفرقت ألسنتهم على اثنين و سبعين لسانا، ففهّم الله العربية منهم عمليق و طسم ابنى لوذا بن سام، و عادا و عبيل ابنى عوص بن أرم بن سام، و ثمود و جديس ابنى جاثق بن أرم بن سام، و قنطور بن عابر بن شالخ بن أرفحشذ بن سام، فنزلت عبيل يثرب، و يثرب اسم ابن عبيل، ثم أخرجوا منها فنزلوا الجحفة، فجاءهم سيل أجحفهم فيه، فلهذا سميت جحفة، فرثاهم رجل منهم فقال:

عين جودى على عبيل و هل ير جع من فات بيضها بالسحام؟

عمروا يثربا و ليس بها شف ر و لا صارخ و لا ذو سنام

غرسوا لينها بمجرى معين ثم حفوا النخيل بالآجام

أول من سكن يثرب

و قال أبو القاسم الزجاجى: أول من سكن المدينة عند التفرق يثرب بن قاينة ابن مهلائيل بن أرم بن عبيل بن عوص بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام، و به سميت يثرب، و روى عن ابن عباس ما يدل له.

سكنى العماليق المدينة

و قال ياقوت: كان أول من زرع بالمدينة، و اتخذ بها النخل، و عمر بها الدور و الآطام، و اتخذ بها الضياع، العماليق، و هم بنو عملاق بن أرفخشذ بن سام بن نوح،

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۲۶

و كانت العماليق ممن انبسط فى البلاد، فأخذوا ما بين البحرين و عمان و الحجاز كله إلى الشام و مصر، و جبابرة الشام و فراعنة مصر منهم، و كان منهم بالبحرين و عمان أمة يسمون جاسم، و كان ساكن المدينة منهم بنو هف و بنو مطرويل، و كان ملكهم بالحجاز الأرقم بن أبى الأرقم.

و أسند ابن زبالة عن زيد بن أسلم أن ضبعا رؤيت و أولادها رابضة فى حجاج عين رجل من العماليق- و الحجاج، بكسر أوله و فتحه: العظم الذى ينبت عليه الحاجب- قال زيد بن أسلم: و كان تمضى أربعمائة سنة و ما يسمع بجنازة.

قوم من اليهود ينزلون المدينة

و أسند رزين عن أبى المنذر الشرقى قال: سمعت حديث تأسيس المدينة من سليمان بن عبيد الله بن حنظلة الغسيل، قال: و سمعت أيضا بعض ذلك من رجل من قريش عن أبى عبيدة بن عبد الله بن عمار بن ياسر، قال: فجمعت حديثهما لكثرة اتفاقه و قلة اختلافه، قالا: بلغنا أنه لما حج موسى صلوات الله عليه حج معه أناس من بنى إسرائيل، فلما كان فى انصرافهم أتوا على المدينة، فرأوا موضعها صفة بلد نبى يجدون وصفه فى التوراة بأنه خاتم النبيّين، فاشتورت طائفة منهم على أن يتخلفوا به، فنزلوا فى موضع بنى قينقاع، ثم تألفت إليهم أناس من العرب فرجعوا على دينهم، فكانوا أول من سكن موضع المدينة.

و ذكر بعض أهل التواريخ أن قوما من العمالقة سكنوه قبلهم، قلت: و هو الأرجح.

داود النبى يغزو سكان المدينة

و أسند ابن زبالة مصدّرا به كتابة فى بدء من سكنها عن مشيخة من أهل المدينة قالوا:

كان ساكن المدينة فى سالف الزمان صعل و فالج، فغزاهم داود النبى عليه الصلاة و السلام، و أخذ منهم مائة ألف عذراء، قالوا: و سلط الله عليهم الدود فى أعناقهم فهلكوا، فقبورهم هذه التى فى السهل و الجبل، و هى التى بناحية الجرف، و بقيت امرأة منهم تعرف بزهرة، و كانت تسكن بها، فاكترت من رجل و أرادت الخروج إلى بعض تلك البلاد، فلما دنت لتركب غشيها الدود، فقيل لها: إنا لنرى دودا يغشاك، فقالت: بهذا هلك قومى، ثم قالت: ربّ جسد مصون، و مال مدفون، بين زهرة و رانون، قالوا: و قتلها

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۲۷

قلت: و داود بعد موسى عليهما السلام، و كان يدعو إلى شريعته.

و قد عبّر ابن النجار عما سبق بقوله: قال أهل السير: أول من نزل المدينة بعد غرق قوم نوح قوم يقال لهم صعل و فالج، و ذكر قصة داود ملخصة، ثم قال: قالوا: و كان قوم من الأمم يقال لهم: بنو هف و بنو مطر و بنو الأزرق فيما بين مخيض إلى غراب الضائلة إلى القصاصين إلى طرف أحد؛ فتلك آثارهم هنالك.

و روى ابن زبالة عند ذكر جماء أم خالد بوادى العقيق عن عثمان بن عبد الرحمن قال: وجد قبر فى الجماء عليه حجر مكتوب فيه فهبط بالحجر فقرأه رجل من أهل اليمن، فإذا فيه: أنا عبد الله رسول رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم سليمان بن داود إلى أهل يثرب، و أنا يومئذ على الشمال.

و روى أيضا عن عمر بن سليم الزرقى قال: رقينا الجماء فوجدنا قبرا إرميا على رأسها عنده حجران مكتوبان لا تقرأ كتابتهما، فحملناهما، فثقل علينا أحدهما فرميناه فى الجماء، و أخذت الآخر، فكان عندى، فعرضته على أهل التوراة من يهود فلم يعرفوه، ثم عرضته على أهل الإنجيل من النصارى فلم يعرفوه، فأقام عندى حتى دخل المدينة رجلان من أهل ماه، فسألتهما: هل كان لكم كتاب؟ قالا: نعم، فأخرجت إليهما الحجر، فقرآه فإذا فيه: أنا عبد الله الأسود رسول رسول الله عيسى بن مريم إلى أهل قرى عرينة، و قالا: نحن كنا أهل هذه القرية فى أس الدهر، و سيأتى بقية ما جاء فى ذلك فى رابع فصول الباب السابع.

مهلك العماليق بالحجاز

و أسند ابن زبالة أيضا عن عروة بن الزبير قال: كانت العماليق قد انتشروا فى البلاد، فسكنوا مكة و المدينة و الحجاز كله، و عتوا عتوّا كبيرا، فلما أظهر الله موسى عليه السلام على فرعون وطئ الشام و أهلك من بها، يعنى من الكنعانيين و قيل: بعث إليهم بعثا، فأهلك من كان بها منهم، ثم بعث بعثا آخر إلى الحجاز للعماليق، و أمرهم أن لا يستبقوا أحدا منهم بلغ الحلم، فقدموا عليهم، فأظهرهم الله فقتلوهم، حتى انتهوا إلى ملكهم الأرقم بن أبى الأرقم فقتلوه، و أصابوا ابنا له- و كان شابا من أحسن الناس- فضنوا به عن القتل، و قالوا: نستحييه حتى نقدم به على نبى الله موسى عليه السلام فيرى فيه رأيه، فأقبلوا و هو معهم، فقبض الله موسى قبل قدوم الجيش، فلما سمع بهم الناس تلقوهم فسألوهم فأخبروهم بالفتح، و قالوا: لم نستبق منهم إلا هذا الفتى، فإنا لم نر شابا أحسن

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۲۸

منه، فتركناه حتى نقدم به على نبى الله موسى عليه السلام فيرى فيه رأيه، فقالت لهم بنو إسرائيل: إن هذه لمعصية منكم لما خالفتم أمر نبيكم، لا و الله لا تدخلون علينا بلادنا أبدا، فقال الجيش: ما بلد إذ منعتم بلادكم بخير من البلد الذى خرجتم منه، و كان الحجاز إذ ذاك أشجر بلاد الله و أظهره ماء، قال: و كان هذا أول سكنى اليهود الحجاز بعد العماليق.

سبب نزول اليهود المدينة

و فى الروض الأنف عن أبى الفرج الأصبهانى أن السبب فى كون اليهود بالمدينة- و هى وسط أرض العرب- أن بنى إسرائيل كانت تغير عليهم العماليق من أرض الحجاز، و كانت منازلهم يثرب و الجحفة إلى مكة، فشكت بنو إسرائيل ذلك إلى موسى، فوجه إليهم

جیشا، و ذکر نحو ما تقدم، ثم قال: و أصح من هذا ما ذکره الطبری أن نزول بنی إسرائیل بالحجاز کان حین وطئ بختنصر بلادهم بالشام و خرب بیت المقدس، انتهی.

و حکی ابن النجار عن بعض العلماء أن سببه أن علماءهم کانوا یجدون صفة رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم فی التوراة، و أنه یهاجر إلی بلد فیه نخل بین حرتین، فأقبلوا من الشام یطلبون الصفة، فلما رأوا تیماء و فیها النخل نزلها طائفة منهم، و ظن طائفة أنها خیبر فنزلوها، و مضی أشرفهم و أکثرهم فلما رأوا یثرب سبخة و حرة و فیها النخل قالوا: هذه البلد التی تکون مهاجر النبی العربی علیه الصلاة و السلام، فنزل النضیر بطحان، ثم حکی ما سیأتی من نزول قریظة و النضیر بمذینیب و مهزور.

و حکی یاقوت عن بعض علماء الحجاز من یهود أن سبب نزولهم الحجاز أن ملک الروم حین ظهر علی بنی إسرائیل و ملک الشام خطب إلی بنی هرون، و فی دینهم أن لا یزوجوا النصاری، فخافوه و أنعموا له، و سألوه أن یشرفهم بإتیانه إلیهم، فأتاهم، ففتکوا به و بمن معه، ثم هربوا حتی لحقوا بالحجاز فأقاموا بها، و زعم بنو قریظة أن الروم لما غلبوا علی الشام خرج قریظة و النضیر و هدل هاربین من الشام یریدون من کان بالحجاز من بنی إسرائیل، فوجه ملک الروم فی طلبهم؛ فأعجزوا رسله، و انتهی الرسل إلی ثمد بین الحجاز و الشام فماتوا عنده عطشا، فسمی الموضع «ثمد الروم» و هو معروف بذلک، و الله أعلم أی ذلک کان.

و روی بعض أهل السیر عن أبی هریرة رضی الله عنه، قال: بلغنی أن بنی إسرائیل لما أصابهم ما أصابهم من ظهور بختنصر علیهم و فرقتهم و ذلتهم تفرقوا، و کانوا یجدون

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفی، ج ۱، ص: ۱۲۹

محمدا صلّی اللّه علیه و سلّم منعوتا فی کتابهم، و أنه یظهر فی بعض هذه القری العربیة فی قریة ذات نخل، و لما خرجوا من أرض الشام کانوا یعبرون کل قریة من تلک القری العربیة بین الشام و الیمن یجدون نعتها نعت یثرب، فینزل بها طائفة منهم، و یرجون أن یلقوا محمدا فیتبعونه، حتی نزل من بنی هرون ممن حمل التوراة بیثرب منهم طائفة، فمات أولئک الآباء و هم یؤمنون بمحمد صلّی اللّه علیه و سلّم أنه جاء، و یحثون أبناءهم علی اتباعه إذا جاء، فأدرکه من أبنائهم فکفروا به و هم یعرفونه: أی حسدا للأنصار حیث سبقوهم إلیه.

و قال ابن زبالة عقب ما قدمناه عنه من عود الجیش من بنی إسرائیل إلی الحجاز و سکناهم المدینة: فرکحوا منها حیث شاءوا- أی: تفسحوا و تبوؤوا- فکان جمیعهم بزهرة، و کانت لهم الأموال بالسافلة، و زهرة ثبرة- أی أرض سهلة بین الحرة و السافلة مما یلی القف- و نزل جمهورهم بمکان یقال له یثرب بمجتمع السیول مما یلی زغابة، قالوا:

و کانت یثرب سقیفة طویلة فیها بغایا یضرب إلیهن من البلدان، و کانوا یروحون فی قریة یثرب ثمانین جملا جونا سوی سائر الألوان.

ثم أسند عن محمد بن کعب القرظی أنه قال: و خرجت قریظة و إخوانهم بنو هدل و عمرو أبناء الخزرج بن الصریح بن السبط بن الیسع بن سعد بن لاوی بن جبر بن النحام بن عازر بن عیرز بن هرون بن عمران علیه السلام و النضیر بن النحام بن الخزرج بن الصریح بعد هؤلاء، فتبعوا آثارهم، فنزلوا بالعالیة علی وادیین یقال لهما مذینیب و مهزور، فنزلت بنو النضیر علی مذینیب و اتخذوا علیه الأموال فکانوا أول من احتفر بها- أی بالعالیة- الآبار و غرس الأموال، قال: و نزل علیهم بعض قبائل العرب فکانوا معهم، فاتخذوا الأموال، و ابتنوا الآطام و المنازل.

و أسند هو و ابن شبة أیضا عن جابر مرفوعا: أقبل موسی و هارون حاجّین فمرا بالمدینة، فخافا من یهود، فخرجا مستخفیین، فنزلا أحدا، فغشی هارون الموت، فقام موسی فحفر له و لحد، ثم قال: یا أخی إنک تموت، فقام هارون فدخل فی لحده، فقبض علیه موسی التراب.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفی، ج ۱، ص: ۱۳۰

قلت: و إسناد ابن شبة لا بأس به، غیر أن فیه رجلا لم یسمّ، و سماه ابن زبالة، و ذلک المسمی لا بأس به أیضا، لکن ابن زبالة لا یعتمد

علیه فی ذلک، و هو دال علی أن الیهود نزلوا المدینة فی زمن موسی علیه السلام، و طالت مدتهم بها فی حیاته، حتی وقع منهم ما یقتضی خوفه منهم عند مروره، و هو إنما یتأتی علی ما قدمناه من أنه لما حج و معه ناس من بنی إسرائیل فرأوا موضع المدینة صفة بلد خاتم النبیین، فاشتورت طائفة منهم علی أن یتخلفوا به، و یکون ما اتفق لموسی و هارون علیهما السلام فی حجة أخری بعد ذلک، و سیأتی فی مسجد عرق الظبیة بالروحاء حدیث «و لقد مر به موسی بن عمران حاجّا و معتمرا فی سبعین ألفا من بنی إسرائیل» و من الغریب ما نقل الحافظ ابن حجر عن کتاب الأنواء لعبد الملک بن یوسف قال: إن قریظة کانوا یزعمون أنهم من ذریة شعیب نبی الله علیه السلام، و إن ذلک محتمل؛ فإن شعیبا کان من بنی جذام القبیلة المشهورة- قال الحافظ ابن حجر: و هو بعید جدّا- و نقل ابن زبالة ما حاصله: أن ممن کان من العرب مع یهود قبل الأنصار بنو أنیف حی من بلی، و یقال: إنهم بقیة من العمالیق، و بنو مرید حی من بلی، و بنو معاویة بن الحارث بن بهثة بن سلیم، و بنو الجذماء حی من الیمن، و کانت الآطام عزّ أهل المدینة و منعتهم التی کانوا یتحصنون فیها من عدوهم، و روی حدیث النهی عن هدم آطام المدینة، قال: و کان لبنی أنیف بقباء: الأجش عند البئر التی یقال لها لاوة، و أطمان فیما بین المال الذی یقال لها الماثة و المال الذی یقال له القائم، و آطام عند بئر عذق و غیرها، قال شاعرهم فیها:

و لو نطقت یوما قباء لخبرت بأنّا نزلنا قبل عاد و تبّع

و آطامنا عادیّة مشمخرّة تلوح فتنکی من نعادی و تمنع

بقایا الیهود بالمدینة

و کان ممن بقی من الیهود- حین نزلت علیهم الأوس و الخزرج- جماعات منها بنو القصیص و بنو ناغصة کانوا مع بنی أنیف بقباء، و کان بقباء رجل من الیهود یقال «إنه من بنی النضیر» کان له أطم یقال له «عاصم» کان فی دار ثوبة بن حسین بن السائب بن أبی لبابة، و فیه البئر الذی یقال لها قباء، و قیل: إن بنی ناغصة حی من الیمن کانت منازلهم فی شعب بنی حرام حتی نقلهم عمر بن الخطاب إلی مسجد الفتح، و منها بنو قریظة فی دارهم المعروفة بهم الیوم، و کان لهم بها آطام: من ذلک أطم الزبیر بن باطا القرظی، کان موضعه فی موضع مسجد بنی قریظة، و أطم کعب بن أسد یقال له بلحان بالمال الذی یقال له الشجر، و له یقول الشاعر:

من سره رطب و ماء بارد فلیأت أهل المجد من بلحان

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفی، ج۱، ص: ۱۳۱

و کان مع قریظة فی دارهم إخوتهم بنو هدل و بنو عمرو المقدم ذکرهم، و إنما سمی هدلا بهدل کان فی شفته، و من ولده ثعلبة و أسد ابنا سعیّة و أسد بن عبید و رفاعة بن سموأل و سخیت و منبه ابنا هدل، و منها بنو النضیر فی النواعم، و منهم کعب بن الأشرف، و کان لهم عامة أطم فی المال الذی یقال له فاضحة، و أطم فی زقاق الحارث دبر قصر ابن هشام دون بنی أمیة بن زید کان لعمر بن جحاش، و أطم البویلة، و غیر ذلک، هذا ما ذکره ابن زبالة.

و نقل ابن عساکر عن الواقدی أنه قال: کانت منازل بنی النضیر بناحیة الغرس.

قلت: و الظاهر أنهم کانوا بالنواعم، و تمتد منازلهم و أموالهم إلی ناحیة الغرس و إلی ناحیة الصافیة و ما معها من صدقات النبی صلّی اللّه علیه و سلّم و بعض منازلهم کانت بجفاف؛ لأن فاضحة به، و رأیت بالحرة فی شرقی النواعم آثار حصون و قریة بقرب مذینیب یظهر أنها من جملة منازلهم، و أن ما فی قبلة ذلک فی شرقی العهن من منازل بنی أمیة بن زید کما سیأتی، و منها بنو مرید فی بنی خطمة و ناعمة إبراهیم بن هشام، و کان لهم أطم یعرف بهم فیه بئر، و منها بنو معاویة فی بنی أمیة بن زید، و منها بنو ماسکة بقرب صدقة مروان بن الحکم مما یلی صدقة النبی صلّی اللّه علیه و سلّم و کان لهم الأطمان اللذان فی القف فی القریة، و منها بنو محمم فی المکان الذی یقال له بنو محمم، و کان لهم المال الذی یقال له خناقة، معروف الیوم، و کان رجل منهم قطع ید رجل فی الجاهلیة فقال المقطوع: أعطنی خناقة عقلا بیدی، فأبی، و حفر للذی قطعه کوة فی خناقة، ثم أخرج یده منها من وراء الحائط و قال: اقطع،

فقطع يده، فقال حين قطع يده:

الآن قد طابت ذرى خنافة طابت فلا جوع و لا مخافة

و منها بنو زعورا عند مشربة أم إبراهيم بن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و لهم الأطم الذى عندها، و كان الأطم الذى فى مال جحاف لبعض من كان هناك من اليهود، و منها بنو زيد اللات، قال ابن زبالة: و هم رهط عبد الله بن سلام، كانوا قريبا من بنى غصينة، و منها بنو قينقاع عند منتهى جسر بطحان مما يلى العالية، و كان هناك سوق من أسواق المدينة، و كان لهم الأطمان اللذان عند منقطع الجسر على يمينك و أنت ذاهب من المدينة إلى العالية إذا سلكت الجسر، و غير ذلك، و فى صحيح البخارى عن ابن عمر أن بنى قينقاع هم رهط عبد الله بن سلام، خلاف ما تقدم عن ابن زبالة، قال الحافظ ابن حجر: و هم من ذرية يوسف الصديق عليه السلام، و منها بنو حجر عند المشربة التى عند الجسر، و لهم أطم يعرف بهم، و منها بنو ثعلبة و أهل زهرة بزهرة، و هم رهط الفطيون، و هو ملكهم الذى كان يفتض نساء أهل المدينة قبل أن يدخلن على أزواجهن، و كان لهم الأطمان اللذان على

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۳۲

طريق العريض حين يهبط من الحرة، و كانت بزهرة جماع من اليهود و كانت من أعظم قرى المدينة، و قد بادوا، و منها ناس كانوا بالجوانية- بفتح الجيم و تشديد الواو و الياء المثناة من تحت: موضع بقرب أحد فى شمالى المدينة كما سيأتى- و لهم أطمان صارا لبنى حارثة بن الحارث و هما صرار و الريان، و لذلك يقول نهيك بن سياف:

لعل صرارا أن تعيش بياره و يسمع بالريان تبنى مشاربه

و كانت بنو الحذماء المتقدم ذكرهم- و هم حى من اليمين- ما بين مقبرة بنى عبد الأشهل و بين قصر ابن عراك، ثم انتقلوا إلى راتج، و منها بنو عكوة فى يمانى بنى حارثة، و منها بنو مرابة فى شامى بنى حارثة، و لهم الأطم الذى يقال له الشبعان فى ثمغ صدقة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، و منها ناس براتج، و هو أطم سميت به الناحية، و هو الذى يقول له قيس بن الخطيم:

ألا إن بين الشرعبىّ و راتج ضرابا كتخديم السبال المعضد

و منها ناس بالشوط و العنابس و الوالج و زبالة إلى عين فاطمة حيث كان يطبخ الآجر لمسجد الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم و كان لأهل الشوط الأطم الذى يقال له الشرعبى، و هو الأطم الذى دون ذباب، و قد صار لبنى جشم بن الحارث بن الخزرج أى الأصغر يعنى إخوة بنى عبد الأشهل، و كان لأهل الوالج أطم بطرفه مما يلى قناة، و كان لبعض من هناك من اليهود الأطمان اللذان يقال لهما الشيخان بمفضاهما المسجد الذى صلّى فيه رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم حين سار إلى أحد، و كان لأهل زبالة الأطمان عند كومة أبى الحمراء الرابض و الذى دونهما، و منها أهل يثرب، و كانوا جماعا من اليهود بها و قد بادوا فلم يبق منهم أحد.

قلت: و نقل رزين عن الشرقى أن يهود كانوا نيفا و عشرين قبيلة، و قال ابن النجار:

إن آطامهم كانت تسعة خمسين أطما، و للعرب النازلين عليهم قبل الأنصار ثلاثة عشر أطما، و قد ذكر ابن زبالة أسماء كثير منها حذفناه لعدم معرفته فى زماننا.

فهذا علم من سكن المدينة بعد الطوفان إلى قدوم الأوس و الخزرج.

الفصل الثانى فى سبب سكنى الأنصار بها

قصة مأرب و سيل العرم غسان

نقل ابن زبالة و غيره أن اليهود لم تزل هى الغالبة بالمدينة، الظاهرة عليها، حتى كان من أمر سيل العرم ما كان و ما قص الله من قصته فى مائه يعنى قصة أهل مأرب، و مأرب مهموز: أرض سبأ المعنية بقوله تعالى: بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ [سبأ: ۱۵] عن ابن عباس أنها كانت أخصب

البلاد و أطيبها، تخرج المرأة و على رأسها المكتل فتعمل بيديها أى بمغزلها و تسير

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۳۳

بين ذلك الشجر، فيمتلئ مما يتساقط فيه من الثمر، فطغوا، و قيل: بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبيّا يدعونهم إلى الله، و يذكرونهم نعمة الله عليهم، فكذبوهم، و قالوا: ما نعرف لله نعمة، قال المسعودى: و كان طول بلدهم أكثر من شهرين للراكب المجد، و كذلك عرضها، و كان أهلها فى غاية الكثرة مع اجتماع الكلمة و القوة، و كانوا كما قص الله من خبرهم بقوله: وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها يعنى: قرى الشام قُرىً ظاهِرَةً [سبأ: ۱۸] يعنى متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها، فكانوا آمنين فى بلادهم، تخرج المرأة لا تتزود شيئا، تبيت فى قرية، و تقيل فى أخرى حتى تأتى الشام، فقالوا: رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا [سبأ: ۱۹] لأنهم بطروا النعمة و ملوها، و قالوا: لو كان جنى جناتنا أبعد كان أجدر أن نشتهيه، و تمنوا أن يجعل الله بينهم و بين الشام مفاوز ليركبوا الرواحل فيها و يتزودوا الأزواد، فجعل الله لهم الإجابة كما قال: فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ [سبأ: ۱۹] و عن الضحاك أنهم كانوا فى الفترة التى بين عيسى و محمد عليهما الصلاة و السلام، فسلط عليهم سيل العرم، قيل: العرم: المطر الشديد، و قيل: جرذ أعمى فنقب عليهم السد، و كان فرسخا فى فرسخ بناه لقمان الأكبر العادى، و كان بناه للدهر على زعمه، و كان يجتمع إليه مياه اليمن ثم تتفرق فى مجارى على قدر حاجة جنانهم، و قيل: بناه سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، و ساق إليه سبعين واديا، و مات قبل أن يكمله فأكمله بعده ملوك حمير، و كان أولاد حمير بن سبأ و أولاد كهلان بن سبأ سادة اليمن فى ذلك الزمان، و كان كبيرهم و سيدهم جد الأنصار عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد، و يقال: الأسد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان ابن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، ذكر نسبه كذلك ابن هشام و ابن حزم و ابن الكلبى فيما نقله عنه ابن عبد البر، و نقل غيره عنه أنه جعل ثعلبة بين حارثة و بين امرئ القيس، و كانت الأنصار تقول: سمى عمرو مزيقياء لأنه كان يلبس فى كل يوم حلتين ثم يمزقهما لئلا يلبسهما أحد بعده، و قيل لأبيه «ماء السماء» لجوده و قيامه عند الجدب مقام الغيث، و كان لعمرو مزيقياء أخ كاهن لم يعقب يسمى عمران، و كانت زوجة عمرو مزيقياء يقال لها طريفة من حمير، و كانت كاهنة، فولدت له ثلاثة عشر رجلا، ولدت ثعلبة و هو الذى أخرج جرهم من مكة هو و أخواته، و من انخرع معه من الأزد على ما نقله رزين، و نقل أن والد ثعلبة- و هو عمرو بن عامر- توفى قبل

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۳۴

غلبة ثعلبة لجرهم، و ثعلبة أبو الأوس و الخزرج، و ولدت له أيضا حارثة والد خزاعة على ما سيأتى، و قيل: غير ذلك، و ولدت له أيضا جفنة والد غسان، سموا باسم ماء نزلوا عليه يقال له: غسان، و الأشهر أنهم بنو مازن بن الأزد بن الغوث، و ولدت له أيضا وداعة، و أبا حارثة، و الحارث، و عوفا، و كعبا، و مالكا، و عمران، هؤلاء أعقبوا كلهم، و الثلاثة الباقون لم يعقبوا.

غسان

و قال ابن حزم: إن غسان هم بنو الحارث و جفنة و مالك و كعب بنى عمرو مزيقياء، شربوا كلهم من ماء غسان، بخلاف بقية ولد عمرو مزيقياء فلم يشربوا من ذلك الماء، فليسوا غسان، و كان لعمرو بن عامر بمأرب من القصور و الأموال ما لم يكن لأحد.

أول خبر سيل العرم

و نقل رزين أنه كان أول شىء وقع بمأرب من أمر سيل العرم أن عمران بن عامر رأى فى كهانته أن قومه سيمزقون و يباعد بين أسفارهم، و أن بلادهم ستخرب، فذكر ذلك لأخيه عمرو بن عامر؛ فكان بين التصديق و التكذيب، فبينا طريفة امرأته ذات يوم نائمة إذ رأت فيما يرى النائم أن سحابة غشيت أرضهم فأرعدت و أبرقت، فذعرت ذعرا شديدا، فسكّنوها، فقالت: يا عمرو بن عامر، الذى

رأيت فى الغيم، أذهب عنى النوم، رأيت غيما أرعد و أبرق، طويلا ثم أصعق، فما وقع على شىء إلا احترق؛ فما بعده إلا الفرق، فلما رأوا ما بها خفضوها حتى سكنت، ثم إن عمرو بن عامر دخل حديقة و معه جاريتان له، فبلغ ذلك طريفة خرجت نحوه، فلما خرجت من بيتها عارضها ثلاث مناجذ- و هى دواب تشبه اليرابيع- منتصبات على أرجلهن واضعات أيديهن على أعينهن، فلما رأتهن طريفة وضعت يدها على عينها و قعدت على الأرض، فلما ذهبت المناجذ خرجت مسرعة، فلما عارضها خليج الحديقة التى فيها عمرو و ثبت من الماء سلحفاة فوقعت فى الطريق على ظهرها، و جعلت تروم الانقلاب و تستعين بيدها فلا تستطيع، فتحذف التراب على نفسها، و تقذف بالبول من تحتها، فلما رأت طريفة ذلك جلست على الأرض حتى عادت السلحفاة إلى الماء، ثم مضت طريفة حتى دخلت الحديقة التى فيها عمرو بن عامر حين انتصف النهار فى ساعة شديد حرها، و إذا الشجرة من غير ريح تتكفأ،

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۳۵

فمرت حتى دخلت على عمرو، فلما رآها قال: هلمى يا طريفة، فقالت: و النور و الظلماء، و الأرض و السماء، إن الماء لغائر، و إن الشجر لهالك، فقال عمرو: و من أخبرك بذلك؟ قالت: أخبرتنى المناجذ، بسنين شدائد، يقطع فيها الولد الوالد، و سلحفاة تحذف بالتراب حذفا، و تقذف بالبول قذفا، و رأيت الشجر من غير ريح و لا مطر تكفأ، قال: و ما ترين ذلك؟ قالت: داهية وكيمة، و أمور جسيمة، قال: أما إن كان ذلك فلك الويل. قالت: أجل و ما لعمرو فيها من نيل، مما يجىء به السيل، فألقى بنفسه على الفراش و قال: ما هذا الذى تقولين إلا أمر جليل، و خلف قليل، و أخذ القليل خير من تركه، قال عمرو: و ما علامة ما تذكرين؟ قالت: إذا رأيت جرذا يكثر فى السد الحفر، و يقلب منه بيديه الصخر، فاعلم أن قد وقع الأمر. فانطلق عمرو إلى السد ينظر فإذا جرذ يقلب بيديه و رجليه الصخرة ما يقلها خمسون رجلا من أسد، فرجع إلى طريفة فأخبرها.

ثم رأى عمرو رؤيا أنه لا بد من سيل العرم، و قيل: إن آية ذلك أن ترى الحصى قد ظهر فى شرب النخل، فذهب فرأى ذلك، فعرف أن ذلك واقع، و أن بلادهم ستخرب، فكتم ذلك و أخفاه، و أجمع على أن يبيع كل شىء له بأرض سبأ و يخرج منها هو و ولده، فخشى أن يستنكر الناس ذلك، فاحتال فى الأمر، فأمر بإبل فنحرت، و بغنم فذبحت، و صنع طعاما واسعا، و بعث إلى أهل مأرب بأجمعهم، و كان فيمن دعا يتيم كان رباه و أنكحه، و قال له فيما بينه و بينه: إذا أنا جلست أطعم الناس فاجلس بجنبى ثم نازعنى الحديث و اردد علىّ مثل ما أقول لك، و افعل بى مثل ما أفعل بك، فكلمه عمرو فى شىء، فرد عليه، فضرب عمرو وجهه و شتمه، ففعل اليتيم به مثله، فصاح عمرو: وا ذلاه، اليوم ذهب فخر عمرو و مجده، فحلف ليقتلنه، فلم يزالوا به حتى تركه، و قال: و الله لا أقيم ببلدة صنع بى هذا فيه أبدا، و لأبيعن أموالى كلها و أرحل عنكم، فاغتنم الناس غضبه و اشتروا منه أمواله، فباع جميع عقاره، و تبعه ناس من الأزد فباعوا أموالهم، و لما كثر البيع استنكر الناس ذلك، فأمسكوا، فلما اجتمع عند عمرو بن عامر أثمان أمواله أخبر الناس بأمر سيل العرم، فخرج من مأرب ناس كثير، و أقام بها من قضى عليه بالهلاك، هذا ما نقله رزين فى تاريخه و قد اقتفيت أثره فى ذلك فى كتابى.

و ذكر ابن هشام فى سيرته نحوه، و قال: إن الأسد- يعنى الأزد- قالوا: لا نتخلف عن عمرو بن عامر، فباعوا أموالهم و خرجوا معه، و قيل: كانت طريفة زوجة ثعلبة، و إنه صاحب القصة و المحتال فى بيع ماله.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۳۶

و قال ياقوت: إن عمرو بن عامر مات قبل سيل العرم، و صارت الرئاسة إلى أخيه عمران بن عامر الكاهن، و كان عاقرا لا يولد له، و إنه صاحب القصة مع طريفة الكاهنة، و إنها أقبلت عليه يوما و قالت: و الظلمة و الضياء، و الأرض و السماء، ليقبلن إليكم الماء، كالبحر إذا طما، فيدع أرضكم فلا يسفى عليها الصبا، و ذكر القصة، و أنه احتال لبيع أمواله بأن قال لحارثة أحد أولاد أخيه عمرو بن عامر إذا اجتمع الناس إلىّ فإنى سآمرك بأمر فأظهر فيه العصيان فإذا ضربت رأسك بالعصا فقم إلىّ و الطمنى، فقال: و كيف يلطم الرجل عمه؟ فقال: افعل يا بنى فإن فى ذلك صلاحك و صلاح قومك، و ذكر القصة، قال: فجاء بعد رحيلهم بمديدة السيل و قد خرب

الجرذ السد فلم يجد مانعا، فغرق البلاد حتى لم يبق من جميع الأرضين و الكروم إلا ما كان فى رءوس الجبال و الأمكنة البعيدة مثل ذمار و حضرموت و عدن، و ذهبت الضياع و الحدائق و الجنان، و جاء السيل بالرمل و طمّها، فمضى على ذلك إلى اليوم، و باعد الله بين أسفارهم كما سألوا.

عمرو بن عامر يصف البلاد لقومه

و نقل رزين أن عمرو بن عامر الكاهن قال لهم عند خروجهم: سأصف لكم البلاد، فقال: من كان منكم ذا همّ بعيد، و جمل شديد، و مراد حديد، فليلحق بقصر عمان المشيد؛ فسكنها أزدعمان. قال: و من كان منكم ذا هم غير بعيد، و جمل غير شديد، و مراد غير حديد؛ فليلحق بالشعب من كرود- و هى من أرض همدان- فكان الذين سكنوه وداعة بن عمرو بن عامر فانتسبوا فى همدان. قال: و من كان منكم ذا هم مدن، و جمل معن، فليلحق بالثنى من شن، و هو بالسراة، فسكنه أزدشنوءة. قال: و من كان منكم ذا جلد و بصر، و له صبر على أزمات الدهر، فليلحق ببطن مر، فسكنته خزاعة. قال: و من كان منكم يريد الراسخات فى الوحل، المطعمات فى المحل، فليلحق بالحرة ذات النخل؛ فكان الذين سكنوها الأوس و الخزرج. قال: و من كان يريد الخمر و الخمير، و الديباج و الحرير، و الأمر و التأمير، فليلحق ببصرى و سدير- و هما من أرض الشام- فكان الذين سكنوه آل جفنة بن غسان. قال: و من كان يريد الثياب الرقاق، و الخيول العتاق، و الكنوز من الأرزاق، فليلحق بالعراق؛ فكان الذين لحقوا بالعراق جذيمة الأبرش و من كان بالحيرة من غسان.

قلت: و قيل: إن الذى سجع لهم بذلك طريفة الكاهنة، و إنها قالت: و من كان منكم يريد الراسخات فى الوحل، المطعمات فى المحل، فليلحق بيثرب ذات النخل.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۳۷

و روى ابن زبالة سجع عمرو بن عامر فى المدينة بلفظ: من كان يريد الراسيات فى الوحل، المطعمات فى المحل، المدركات بالذحل، فليلحق بيثرب ذات النخل؛ فلما سمعوا ذلك القول خرج عمرو بن عامر بجميع ولده و من معه من الأزد يريد أرضا يقيمون بها، ففارقهم وداعة بن عامر فسكن همدان، ثم سار عمرو حتى إذا كان بين السراة و مكة أقام هنالك ناس من الأزد، و أقام معهم عمران بن عمرو بن عامر، ثم سار عمرو فى باقى ولده و فى ناس من بنى مازن من الأزد حتى نزلوا ماء يقال له غسان، و غلب عليهم اسمه حتى قال شاعرهم:

إمّا سألت فإنّا معشر نجب الأزد نسبتها و الماء غسان

نزول خزاعة فى مكة

قال أبو المنذر الشرقى: و من ماء غسان انخزع لحىّ- و اسمه ربيعة بن حارثة بن عمرو بن حارثة- فأتى مكة فتزوج بنت عامر الجرهمى ملك جرهم، فولدت له عمرو بن لحى الذى غيّر دين إبراهيم، فسمى ولده خزاعة لأن أباهم انخزع من غسان.

و قال غيره ما يخالف ذلك؛ فروى الأزرقى أن عمرو بن عامر سار هو و قومه لا يطؤون بلدا إلا غلبوا عليه، فلما انتهوا إلى مكة- و أهلها جرهم قد قهروا الناس و حازوا ولاية البيت على بنى إسماعيل و غيرهم- أرسل إليهم ثعلبة بن عمرو بن عامر يقول: يا قوم إنا خرجنا من بلادنا، فلم ننزل بلدا إلا فسح أهله لنا فنقيم معهم حتى نرسل روّادنا إلى الشام و المشرق، فحيث ما قيل لنا إنه أمثل لحقنا به، فأبت جرهم ذلك، فأرسل إليهم ثعلبة: إنه لا بد لى من المقام، فإن تركتمونى نزلت و حمدتكم و واسيتكم فى الماء و المرعى، و إن أبيتم أقمت على كرهكم ثم لم ترتعوا معى إلا- فضلا و لا- تشربوا إلا- رنقا- يعنى الكدر- فإن قاتلتمونى قاتلتكم، ثم إن ظهرت عليكم سبيت النساء و قتلت الرجال، و لم أترك أحدا منكم ينزل الحرم أبدا، فأبت جرهم، فاقتتلوا ثلاثة أيام، ثم انهزمت جرهم، فلم ينفلت منهم إلا الشريد، و أقام ثعلبة بمكة و ما حولها بعساكره حولا، فأصابتهم الحمى، و كانوا ببلد لا يدرون فيه ما الحمى، فدعوا

طريفة الكاهنة فشكوا إليها الذى أصابهم، فقالت: قد أصابنى الذى تشكون، ثم ذكر الأزرقى سجعها فى أمر الدلالة على البلاد فى هذا المحل و هو غى سجع عمران بن عامر عند تفرقهم من سبأ، ثم ذكر لحوق كل فرقة منهم ببلدها على النحو الذى قدمناه، و أن الأوس و الخزرج ابنى حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر- و هم الأنصار- نزلوا بالمدينة، ثم قال: و انخزعت خزاعة بمكة،

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۳۸

فأقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر و هو لحىّ، فولى أمر مكة، فهذا يقتضى أنهم إنما افترقوا من مكة، و لا شك أن منها افترق الذين وصلوا إليها.

نزول ثعلبة بن عمرو فى المدينة

و قال ياقوت: إنهم لما ساروا من اليمن عطف ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السما بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة البهلول بن مازن الراد بن الغوث نحو الحجاز، فأقام ما بين الثعلبية إلى ذى قار، و باسمه سميت الثعلبية، فنزلها بأهله و ولده و من تبعه، فأقام هناك يتبع مواقع القطر، فلما كثر ولده و قوى ركنه سار بهم نحو المدينة و بها يهود فاستوطنوها؛ فأقاموا بها بين قريظة و النضير و خيبر و تيماء و وادى القرى، و نزل أكثرهم بالمدينة.

الفصل الثالث فى نسبهم

اشارة

قد قدمنا انتسابهم إلى عمرو مزيقياء، و انتساب عمرو إلى قحطان.

نسب قحطان

و قال ابن رزين نقلا عن الشرقى: أصل الأنصار الأوس و الخزرج و هما من ولد ثعلبة بن عمرو بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان، و كأنه سقط من النسخة بعد الغوث «بن نبت» فإنه بين مالك و الغوث كما قدمناه، و جماع قبائل اليمن تنتهى إلى قحطان، و قحطان اختلف فى نسبه، فالأكثرون قالوا: إنه عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، و قيل:

هو من ولد هود نفسه، و قيل: ابن أخيه، و يقال: قحطان أول من تكلم بالعربية، و هو والد العرب المتعربة، و أما إسماعيل فهو والد العرب المستعربة، و أما العرب العاربة فكانوا قبل ذلك كعاد و ثمود و طسم و جديس و عمليق و غيرهم، و قيل: إن قحطان أول من قيل له:

أبيت اللّعن، و عم صباحا. و ذهب الزبير بن بكار إلى أن قحطان من ذرية إسماعيل عليه السلام، و أنه قحطان بن الهميسع بن تيم بن نبت بن إسماعيل عليه السلام، و يدل له تبويب البخارى بأن نسبة اليمن إلى إسماعيل، و أورد فيه الحديث المتضمن لمخاطبة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بنى أسلم بأنهم من بنى إسماعيل، و أسلم هو ابن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس صاحب النسب المتقدم، فدل على أن اليمن بنى قحطان من بنى

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۳۹

إسماعيل، و هو ظاهر قول أبى هريرة فى الصحيحين فى قصة هاجر «فتلك أمكم يا بنى ماء السماء» يخاطب الأنصار؛ لأن جدهم عامرا والد عمرو كان يلقب بذلك، كما تقدم، أو أراد أبو هريرة رضى الله عنه العرب كلهم؛ لكثرة ملازمتهم الفلوات التى بها مواقع القطر،

و هذا متمسّك من ذهب إلى أن جميع العرب من ولد إسماعيل عليه السلام.

قال ابن حبان فى صحيحه: كل من كان من ولد إسماعيل يقال له «ابن ماء السماء» لأن إسماعيل ولد هاجر، و قد ربى بماء زمزم و هى من ماء السماء، و رجح عياض أن مراد أبى هريرة الأنصار خاصة، و نسبتهم إلى جدهم المعروف بماء السماء، انتهى. و دلالته على أن قبائل اليمن كلها من ولد إسماعيل ظاهرة.

قال الحافظ ابن حجر: و هو الذى يترجح فى نقدى، و قد ذكر ابن عبد البر من طريق القعقاع بن أبى حدرد أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم «مرّ بناس من أسلم و خزاعة و هم يتناضلون فقال: ارموا بنى إسماعيل» و أسلم و خزاعة قد تقدم نسبهما فى قبائل اليمن التى جماع نسبتها قحطان، و مما يؤيد ذلك قول المنذر بن عمرو جد حسان بن ثابت الأنصارى:

ورثنا من البهلول عمرو بن عامر و حارثة الغطريف مجدا مؤثّلا

مآثر من آل ابن نبت بن مالك و نبت بن إسماعيل ما إن تحوّلا

و أول ذلك كله المخالفون بتأويلات بعيدة، بل الذى أميل إليه أن العرب كلهم من ولد إسماعيل صلوات الله و سلامه عليه، و إن لم يتم ذلك فالعرب الذين لهم الشرف بالتقديم فى الكفاءة و غيرها شرعا هم بنو إسماعيل، و يدل له قول بعض أصحابنا فى الإمامة: إذا لم يوجد قرشى مستجمع للشروط نصب كنانى، فإن لم يكن فرجل من ولد إسماعيل صلوات الله و سلامه عليه، فإن تعذر انتقلنا إلى العجم، و لم يقولوا انتقلنا إلى بقية العرب، لكن فى التتمة للمتولى: فإن لم يوجد من ولد إسماعيل عليه السلام يولّى جرهمى، و جرهم أصل العرب، فإن لم يوجد فرجل من ولد إسحاق عليه السلام، اه.

و هو مخالف لقول البغوى فى التهذيب: فإن لم يوجد ولد إسماعيل فمن العجم، و أيضا فالمتولى جعل جرهما متأخرين عن ولد إسماعيل، و جعل لهم فضلا فى الجملة على العجم، كذا قدم بعض العجم على بعض، و إسماعيل أبو العرب الذين شرف نسبهم بمشاركة نسبة أشرف الأنبياء صلوات الله و سلامه عليه و عليهم، و هو الأسّ فى ذلك،

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۴۰

و عربى اللسان لا عبرة به، على أن فى مستدرك الحاكم من حديث ابن عباس «أول من نطق بالعربية إسماعيل» لكن فى الصحيح أن إسماعيل تعلم العربية من جرهم الذين نزلوا مع أمه.

أول من تكلم بالعربية

قال ابن إسحاق: و كان جرهم و أخوه قطورا ابنا قحطان أول من تكلم بالعربية عند تبلبل الألسن.

قلت: و هو جار على رأى من يقول: إن العرب كلها ليست من ولد إسماعيل.

و روى الزبير بن بكار فى النسب من حديث على بإسناد حسن قال: أول من فتق الله لسانه بالعربية المبينة إسماعيل؛ فبهذا القيد يجمع بين الخبر المتقدم و بين ما فى الصحيح، فيكون أوليته فى ذلك بحسب الزيادة فى البيان، لا الأولية المطلقة، فيكون بعد تعلم أصل العربية من جرهم ألهمه الله العربية الفصيحة المبينة؛ فعلى تقدير تسليم أن العرب كلهم ليسوا من ولد إسماعيل فالمستحق للشرف إنما هو عربية إسماعيل، فيمتاز بنوه بما تقدم.

و قال ابن دريد فى الوشاح: أول من نطق بالعربية يعرب بن قحطان، ثم إسماعيل، و نقل ابن هشام عن الشرقى أن عربية إسماعيل كانت أفصح من عربية يعرب بن قحطان و بقايا حمير و جرهم، و كله جار على خلاف ما قدمناه من أن العرب كلها من ولد إسماعيل، و الله أعلم.

أم الأنصار و نسبها

و أم الأنصار فى قول الكلبى: قيلة بنت عمرو بن جفنة، و قال ابن حزم: هى بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة بن عمرو مزيقياء، و يقال: بنت كاهل بن عذرة من قضاعة، و قضاعة من حمير عند الأكثر، و اشتهرت الأنصار ببنى قيلة و لهم يقول القائل:

بهاليل من أولاد قيلة، لم يجد عليهم خليط من مخالطة عتبا

مطاعيم فى المقرى، مطاعين فى الوغى يرون عليهم فعل آبائهم نحبا

و ذكر رزين عن الشرقى عقب ما قدمناه عنه من أن الأنصار أصلهم الأوس و الخزرج و هما من ولد ثعلبة بن عمرو، فقال: فولد لثعلبة بن عمرو بن حارثة الأوس و الخزرج، و أمهما قيلة؛ فولد الأوس مالكا، و من مالك قبائل الأوس كلها، فولد لمالك عمرو و عوف و مرة، و يقال لهم أوس الله، و هم الجعادرة، سموا بذلك لقصر فيهم.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۴۱

قلت: و سيأتى ما يخالف هذا مع بيان قبائل الأوس المنتشرة من هؤلاء.

و روى الخرائطى أنه لما حضرت الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو الوفاة اجتمع عليه قومه، فقالوا: قد حضر من أمر الله ما ترى، و قد كنا نأمرك فى شبابك أن تتزوج فتاة، و هذا أخوك الخزرج له خمسة بنين و ليس لك ولد غير مالك، فقال: لن يهلك هالك، ترك مثل مالك، إن الذى يخرج النار من الرينة قادر أن يجعل لمالك نسلا، و رجالا بسلا، و كل إلى موت، ثم أقبل على مالك فقال: أى بنى، المنية و لا الدنية، و ذكر حكما سجع بها، قال: ثم أنشأ يقول:

شهدت السبايا يوم آل محرّق و أدرك عمرى صيحة الله فى الحجر

فلم أر ذا ملك من الناس واحدا و لا شوقه إلا إلى الموت و القبر

فعلّ الذى أردى ثمودا و جرهما سيعقب لى نسلا على آخر الدهر

تقربهم من آل عمرو بن عامر عيون لدى الداعى إلى طلب الوتر

فإن تكن الأيام أبلين جدّتى و شيبن رأسى و المشيب مع العمر

فإنّ لنا ربّا علا فوق عرشه عليما بما يأتى من الخير و الشر

أ لم يأت قومى أنّ لله دعوة يفوز بها أهل السعادة و البرّ

إذا بعث المبعوث من آل غالب بمكة فيما بين زمزم و الحجر

هنالك فابغوا نصره ببلادكم بنى عامر؛ إن السعادة فى النصر

ثم قضى من ساعته.

و قال ابن حزم: إن بنى عامر بن عمرو بن مالك بن الأوس كانوا كلهم بعمان لم يكن منهم بالمدينة أحد؛ فليسوا من الأنصار.

قال الشرقى: و ولد الخزرج بن حارثة أخو الأوس أيضا خمس بنين. و تفرقوا بطونا كثيرة.

قلت: و هم عمرو، و عوف، و جشم، و كعب، و الحارث، و سيأتى بيان ما انتشر من قبائلهم.

و قال ابن حزم: إن عقب السائب بن قطن بن عوف بن الخزرج لم يكن منهم أحد بالمدينة، كانوا بعمان؛ فليسوا من الأنصار، و ذكر نحو ذلك فى بعض بنى الحارث بن الخزرج الأكبر كما سيأتى، و ذكر أيضا أن بعض بنى جفنة بن عمرو مزيقياء كانوا بالمدينة فى عداد الأنصار، و الله أعلم.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۴۲

الفصل الرابع فى تمكنهم بالمدينة، و ظهورهم على يهود، و ما اتفق لهم مع تبع

اشارة

قال الشرقى: لما قدمت الأوس و الخزرج المدينة تفرقوا فى عاليتها و سافلتها، و منهم من نزل مع قوم من بنى إسرائيل فى قراهم، و منهم من نزل وحده لا مع بنى إسرائيل و لا مع العرب الذين كانوا قد تألفوا إلى بنى إسرائيل، و كانت الثروة فى بنى إسرائيل، كانوا نيفا على عشرين قبيلة، و لهم قرى أعدّوا بها الآطام، فنزلت الأوس و الخزرج بينهم و حواليهم.

إقامة الأوس و الخزرج مع اليهود

و قال ابن زبالة عن مشيخة من أهل المدينة قالوا: أقامت الأوس و الخزرج بالمدينة، و وجدوا الأموال و الآطام و النخيل فى أيدى اليهود، و وجدوا العدد و القوة معهم، فمكثت الأوس و الخزرج ما شاء الله، ثم إنهم سألوهم أن يعقدوا بينهم جوارا و حلفا يأمن به بعضهم من بعض، و يمتنعون به ممن سواهم، فتعاقدوا و تحالفوا و اشتركوا و تعاملوا، فلم يزالوا على ذلك زمانا طويلا، و أمرت الأوس و الخزرج و صار لهم مال و عدد، فلما رأت قريظة و النضير حالهم خافوهم أن يغلبوهم على دورهم و أموالهم، فتنمروا لهم حتى قطعوا الحلف الذى كان بينهم، و كانت قريظة و النضير أعدّ و أكثر، و كان يقال لهما الكاهنان، و بنو الصريح، و فى ذلك يقول قيس بن الخطيم مثنيا عليهم:

كنا إذا رامنا قوم بمظلمة شدت لنا الكاهنان الخيل و اعتزموا

نسوا الرهون و آسونا بأنفسهم بنو الصّريح فقد عفّوا و قد كرموا

قصة الفطيون ملك اليهود الطاغية

فأقامت الأوس و الخزرج فى منازلهم خائفين أن تجليهم يهود، حتى نجم منهم مالك بن العجلان أخو بنى سالم بن عوف بن الخزرج و سوّده الحيان الأوس و الخزرج، و كان الفطيون- أى بالفاء المكسورة، و قال ياقوت: الفيطوان- ملك اليهود بزهرة، و كانت لا تهدى عروس بيثرب من الحيين الأوس و الخزرج حتى تدخل عليه فيكون هو الذى يفتضها قبل زوجها، فتزوجت أخت مالك بن العجلان رجلا من قومها، فبينا مالك فى

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۴۳

نادى قومه إذ خرجت أخته فضلا، فنظر إليها أهل المجلس، فشق ذلك على مالك، و دخل فعنّفها و أنبها، فقالت: ما يصنع بى غدا أعظم من ذلك، أهدى إلى غير زوجى، فلما أمسى مالك اشتمل على السيف و دخل على الفطيون متنكرا مع النساء، فلما خف من عنده عدا عليه فقتله و انصرف إلى دار قومه، ثم بعث هو و جماعة من قومه إلى من وقع بالشام من قومهم يخبرونهم بحالهم و يشكون إليهم غلبة اليهود، و كان رسولهم الرمق بن زيد بن امرئ القيس أحد بنى سالم بن عوف بن الخزرج، و كان قبيحا دميما شاعرا بليغا، فمضى حتى قدم على أبى جبيلة أحد بنى جشم بن الخزرج الذين ساروا من يثرب إلى الشام، و قال بعضهم: كان أبو جبيلة من ولد جفنة بن عمرو بن عامر قد أصاب ملكا بالشام و شرفا.

قلت: قد تقدم أن أبناء جفنة من غسان، و كانوا بالشام ملوكا.

و لما ذكر ابن حزم بنى جشم بن الخزرج قال: فولد جشم غضب، فولد غضب مالك، فولد مالك عبد حارثة، فولد عبد حارثة حبيب، فولد حبيب عبد الله، فولد عبد الله أبا جبيلة الملك الغسانى الذى جلبه مالك بن العجلان لقتل اليهود، انتهى.

و فيه نظر؛ إذ ليس من بطون الخزرج غسانى كما يؤخذ مما قدمناه عن ابن حزم أيضا، و المشهور ما قدمناه، قالوا: فشكا إليه حالهم و غلبة اليهود عليهم، و ما يتخوفون منهم، و أنهم يخشون أن يخرجوهم، و أنشده من شعره. فتعجب من شعره و بلاغته و قبحه و دمامته، و قال: عسل طيب فى وعاء خبيث. فقال الرمق: أيها الملك، إنما يحتاج من الرجل إلى أصغريه لسانه و قلبه. فقال: صدقت؛ و أقبل أبو جبيلة فى جمع كثير لنصرة الأوس و الخزرج. كذا قاله ابن زبالة.

و قد نقل رزين عن الشرقى ما يقتضى أن مالك بن العجلان هو الذى توجّه بنفسه، و أن ما ذكر من سيرة الفطيون فى افتضاض الأبكار إنما كانت فى غير الأوس و الخزرج، و أنه أراد أن يسير فيهم بذلك، فقتله مالك بن العجلان، فإنه قال: إن الفطيون كان قد شرط ألّا تدخل امرأة على زوجها حتى تدخل عليه، فلما سكن الأوس و الخزرج المدينة أراد أن يسير فيهم بتلك السيرة؛ فتزوجت أخت مالك بن العجلان رجلا من بنى سليم، فأرسل الفطيون رسولا فى ذلك و كان مالك أخوها غائبا، فخرجت تطلبه، فمرت بقوم أخوها فيهم، فنادته، فقال أخوها: لقد جئت بسبّة يا هنتاه، تنادينى و لا تستحيى؟ فقالت:

الذى يراد بى أكبر، فأخبرته، فقال لها: أكفيك ذلك، فقالت: و كيف؟ فقال: أتزيا بزى النساء و أدخل معك عليه بالسيف فأقتله، ففعل، ثم خرج حتى قدم الشام فنزل على أبى

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۴۴

جبيلة، و كان نزلها حين نزلوا هم المدينة، فجيّش جيشا عظيما، و أقبل كأنه يريد اليمن و اختفى معهم مالك بن العجلان، فجاء فنزل بذى حرض، و أرسل إلى أهل المدينة من الأوس و الخزرج فأتوا إليه فوصلهم و أعطاهم، ثم أرسل إلى بنى إسرائيل- يعنى اليهود- و قال: من أراد الحباء من الملك فليخرج إليه، و إنما فعل ذلك خيفة أن يتحصنوا فى الحصون فلا يقدر عليهم، فخرج إليه أشراف بنى إسرائيل كلهم، فأمر لهم بطعام حتى اجتمعوا، فقتلهم من عند آخرهم، فلما فعل ذلك صار الأوس و الخزرج أعز أهل المدينة؛ ففى ذلك يقول البلوى يمدح مالكا فيما فعل:

فليشهدنّ بما أقول عصابة بلويّة و عصابة من سالم

هل كان للفطيون عقر نساكم حكم النصيب و ليس حكم الحاكم

حتى حباه مالك عن عرسه حمراء تضحك عن نجيع قاتم

ثم ذكر أبياتا نسبها إلى أبى يزيد بن سالم أحد بنى سالم بن عوف بن الخزرج مدح بها أبا جبيلة و نسبها ابن زبالة للرمق فإنه قال: إن الأوس و الخزرج قالوا لأبى جبيلة لما قدم لنصرهم: إن علم القوم ما تريد تحصنوا فى آطامهم فلم تقدر عليهم، و لكن ادعهم للقائك و تلطفهم حتى يأمنوك و يطمئنوا فتستمكن منهم، فصنع لهم طعاما و أرسل إلى وجوههم و رؤسائهم، فلم يبق من وجوههم أحد إلا أتاه، و جعل الرجل منهم يأتى بحامته و حشمه رجاء أن يحبوهم، و كان قد بنى لهم حيّزا و جعل فيه قوما فأمرهم أن يقتلوا من دخل عليهم منهم، ففعلوا حتى أتوا على وجوههم و رؤسائهم، فعزت الأوس و الخزرج بالمدينة، و اتخذوا الديار و الأموال و الآطام، فقال الرمق يثنى على أبى جبيلة:

لم تقض دينك من حسان و قد عنيت و قد عنينا

قضيت همك فى الحسان فقد عنيت و قد عنينا

و فى رواية رزين:

الراشقات المرشقا ت الجازيات بما جزينا

أمثال غزلان الصّرا ثم يأتزرن و يرتدينا

الرّيط و الدّيباج و الحلى المفصل و البرينا

و أبو جبيلة خير من يمشى، و أوفاه يمينا

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۴۵

و أبرّهم برا و أع لمهم بهدى الصالحينا

القائد الخيل الصوا نع بالكماة المعلمينا

أبقت لنا الأيام و الحر ب الملمة تعترينا

كبشا له در يغل متو نها الذكر السمينا

و معاقلا شمّا و أسيا فا يقمن و ينحنينا

و محلة زوراء تج حف بالرجال الظالمينا

و فى بعض الروايات أن مالك بن العجلان لما قتل الفطيون قصد اليمن إلى تبّع الأصغر؛ فشكا إليه ما كان الفطيون يسير فيهم، فعاهد أن لا يقرب امرأة و لا يمس طيبا و لا يشرب خمرا حتى يسير إلى المدينة و يذل من بها من اليهود؛ ففعل ذلك.

و ذكر ابن قتيبة فى معارفه تبّع بن حسان، قال: و هو تبع الأصغر آخر التبابعة، و ذكر أنه صار إلى الشام و ملوكها غسان فأطاعته، قال: و صار إلى ابن أخيه الحارث و هو بالمستقر من ناحية هجر فأتاه قوم كانوا وقعوا إلى يثرب ممن خرج مع عمرو مزيقياء و حالفوا اليهود بيثرب- أى و هم الأنصار- فشكوا اليهود، و ذكروا سوء مجاورتهم، و نقضهم الشرط الذى شرطوه لهم عند نزولهم، و متّوا إليه بالرحم، فأحفظه ذلك، فصار إلى يثرب و نزل فى سفح أحد، و بعث إلى اليهود، فقتل منهم ثلاث مائة و خمسين رجلا صبرا، و أراد خرابها، فقام إليه رجل من اليهود قد أتت عليه مائتان و خمسون سنة فقال: أيها الملك، مثلك لا يقتل على الغضب، و أمرك أعظم من أن يطير بك برق أو يسرع بك لجاج، فإنك لا تستطيع أن تخرب هذه القرية، قال: و لم؟ قال: لأنها مهاجر نبى من ولد إسماعيل يخرج من عند هذه البنية، يعنى البيت الحرام، فكف تبع و مضى و معه هذا اليهودى و رجل آخر من اليهود عالم، و هما الحبران، فأتى مكة، و كسا البيت ثم رجع إلى اليمن و معه الحبران و قد دان بدينهما و آمن بموسى صلّى اللّه عليه و سلّم اه.

فلعل مالك بن العجلان كان قد توجه إلى جهة ملك غسان و بها تبّع المذكور فوقع من كل منهما نصره، فأضافه قوم إلى تبع، و قوم إلى أبى جبيلة الغسانى.

قالوا: و لعنت اليهود مالك بن العجلان فى كنائسهم و بيوت عباداتهم، فبلغه ذلك، فقال:

تحامى اليهود بتلعانها تحامى الحمير بأبوالها

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۴۶

و ما ذا علىّ بأن يلعنوا و تأتى المنايا بإذلالها

و قالت سارة القرظية ترثى من قتل من قومها:

بأهلى رمّة لم تغن شيئا بذى حرض تعفّيها الرياح

كهول من قريظة أتلفتهم سيوف الخزرجية و الرماح

و لو أذنوا بأمرهم لحالت هنالك دونهم حرب رداح

قال أهل السير: ثم انصرف أبو جبيلة راجعا إلى الشام، و قد ذلّل الحجاز و المدينة، و مهّدها للأوس و الخزرج.

و نقل المجد عن ياقوت أن تبّعا كان بالمدينة، فإنه قال: و عكس ياقوت قصة افتضاض الأبكار؛ فجعل أنها كانت باليمامة، و أن أهل المدينة مع تبّع هم الذين أزالوا هذه الفضيحة من اليمامة، ثم أورد كلام ياقوت، و ليس مضمونه ما ذكره؛ بل مضمونه أن من كان يفعل فيهم هذه الفضيحة باليمامة احتالوا فى دفعها و قتلوا من كان يفعل بهم ذلك و غلبوا عليهم، فهرب منهم شخص و لحق بتبع فنصره تبع مع أهل المدينة، و هو خبر ممتنع فلنورده تبعا للمجد، قال ياقوت: إن طسما و جديسا من ولد لاوذ بن إرم بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام أقاموا باليمامة، و كثروا بها، حتى ملكوا عليهم عمليق الطّسمى- و كان جبارا غشوما، و كان قد قضى بقضاء جائر بين امرأة و زوجها من جديس، فأنشدت المرأة أبياتا بلغته، فأمر ألا تزوج بكر من جديس حتى تدخل عليه فيكون هو الذى يفترعها- و لقوا منه ذلا حتى زوجت منهم أخت الأسود بن غفار سيد جديس، و كان جلدا، فلما كانت ليلة الإهداء خرجت و القيان حولها لتحمل إلى عمليق و هن يضربن بمعازفهن و يقلن:

أبدى بعمليق و قومى فاركبى و بادرى الصبح بأمر معجب

فسوق تلقين الذى لم تطلبى و ما لبكر دونه من مهرب

ثم أدخلت على عمليق فافترعها، و قيل: كانت أيدة، فامتنعت عليه، فخاف العار فوجأها بحديدة فى قبلها فأدماها، فخرجت و قد تقاصرت إليها نفسها فشقّت ثوبها من خلفها و دماؤها تسيل، فمرت بأخيها فى جمع من قومه و هى تبكى و تقول:

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۴۷

لا أحد أذلّ من جديس أ هكذا يفعل بالعروس

فى أبيات، فأغضب ذلك أخاها، و وقفها على نادى قومه، و هى تقول:

أ يجمل أن يؤتى إلى فتياتكم و أنتم رجال فيكم عدد الرمل

أ يجمل تمشى فى الدما فتياتكم صبيحة زفّت فى العشاء إلى بعل

فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه فكونوا نساء لا تغب من الكحل

و دونكم ثوب العروس فإنما خلقتم لأثواب العروس و للغسل

فلو أننا كنا رجالا و كنتم نساء لكنا لا نقر على الذل

فموتوا كراما أو أميتوا عدوكم و كونوا كنار شب بالحطب الجزل

و إلا فخلوا بطنه و تحمّلوا إلى بلد قفر و هزل من الهزل

فللموت خير من مقام على أذى و للفقر خير من مقام على ثكل

فدبّوا إليه بالصّوارم و القنا و كل حسام محدث العهد بالصّقل

و لا تجزعوا للحرب قومى فإنما يقوم رجال للرجال على رجل

فيهلك فيها كل وغل مواكل و يسلم فيها ذو الجلادة و الفضل

فامتلأت جديس غيظا، و نكسوا رءوسهم حياء، و تشاوروا فى الأمر، فقال الأسود:

أطيعونى فإنه عز الدهر، و قد رأيت أن أصنع للملك طعاما ثم أدعوه و قومه، فإذا جاءونا قتلت الملك، و قام كل منكم إلى رئيس منهم فقتله، فلا يبقى للباقين قوة، فنهتهم أخت الأسود عن الغدر، و قالت: ناجزوهم فلعل الله أن ينصركم عليهم لظلمهم؛ فعصوها فقالت:

لا تغدرنّ فإنّ الغدر منقصة و كل عيب يرى عيبا و إن صغرا

إنى أخاف عليكم مثل تلك غدا و فى الأمور تدابير لمن نظرا

حشّوا سعيرا لهم فيها مناجزة فكلكم باسل أرجو له الظفرا

فأجابها أخوها:

شتان باغ علينا غير متئد يغشى الظلامة لا يبقى و لن يذرا

إنا لعمرك لا نبدى مناجزة نخاف منها صروف الدهر من ظفرا

إنى زعيم بطسم حين تحضرنا عند الطعام بضرب يهتك الفقرا

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۴۸

و صنع الأسود الطعام، و دفن كل منهم سيفه تحته فى الرمل مجردا، فلما جلس الملك و قومه للأكل و ثبت عليهم جديس حتى أبادوهم، ثم قتلوا باقيهم، فهرب رجل من طسم حتى لحق بتبّع تبان أسعد بن كلكيكرب، و قيل: بحسان بن تبّع الحميرى و كان بالمدينة، فاستغاثه، و ذكر أبياتا فيها غدر جديس بهم، فوعده بنصره، ثم رأى منه تباطؤا فقال:

إنى طلبت لأوتارى و مظلمتى بال حسّان آل العز و الكرم

المنعمين إذا ما نعمة ذكرت و الواصلين بلا قربى و لا رحم

قصة زرقاء اليمامة

فى أبيات أخرى، فسار تبع من المدينة فى جيوشه، حتى إذا كان عند جبل على ليلة من اليمامة قال له الطسمى: توقف أيها الملك فإن لى أختا متزوجة فى جديس يقال لها يمامة أبصر خلق الله على بعد، و إنى أخاف أن ترانا فتنذرهم بنا، فأقام تبع، و أمر رجلا فصعد الجبل ليرى ما هناك، فدخل فى رجله شوكة بالجبل، فأكب يستخرجها، فأبصرته اليمامة، و كانت زرقاء العين، فقالت لهم: إنى أرى على الجبل الفلانى رجلا و ما أظنه إلا عينا، فقالوا: ما يصنع؟ فقالت: إما يخصف نعلا أو ينهش كتفا، فكذبوها، ثم قال الطسمى لتبع: إن بصرها بالليل أنفذ فمر أصحابك ليقطعوا من الشجر أغصانا ليستتروا بها فيشبهوا عليها الأمر، ففعلوا، حتى إذا دنوا من اليمامة ليلا؛ فنظرت اليمامة فقالت: يا جديس سارت إليكم الشجر، أو جاءتكم أوائل خيل حمير، فكذبوها، فصبّحتهم حمير، فهرب الأسود فى نفر من قومه لجبلى طىء و فتح أهل المدينة حصون اليمامة، و امتنع عليهم حصن زرقاء اليمامة؛ فصابره تبع حتى افتتحه، و قبض عليها، و سألها: كيف أبصرتهم؟ فأخبرته بخبر الذى صعد الجبل، فسأله تبع، فقال: صعدت فانقطع شراك نعلى و أصابتنى شوكة؛ فعالجت إصلاحها و إصلاح قبالى بفمى، فقال لها: أنّى لك هذا؟ قالت:

كنت آخذ حجرا أسود فأدقه و أكتحل به: فكان يقوى بصرى، فيقال: إنها أول من اكتحل بالإثمد، فأمر تبع بقلع عينيها ليرى ما فيهما، فوجد عروقها كلها محشوة بالإثمد، و خربت اليمامة يومئذ؛ لأن تبعا قتل أهلها، و لم يخلف بها أحدا، و رجع إلى المدينة.

هذا ما ذكره المجد عن ياقوت باختصار، و ليس فيه عكس القضية؛ فيجوز أن يقع بكل من اليمامة و المدينة مثل هذا، و الظاهر أن قصة اليمامة كانت بعد قصة المدينة.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۴۹

و نقل رزين عن الشرقى أن أبا جبيلة لما فرغ من نصر أهل المدينة رجع إلى الشام؛ فأقبل تبع الأخير- و هو كرب بن حسان بن أسعد الحميرى، و التبابعة كلهم من حمير- يريد المشرق كما كانت التبابعة تفعل؛ فمر بالمدينة، فخلف فيها ابنا له و مضى حتى قدم الشام، ثم سار حتى قدم العراق، فلما كان بالعراق قتل ابنه بالمدينة غيلة فأقبل راجعا يريد تخريب المدينة، فنزل بسفح أحد، فاحتفر بئرا ثم أرسل إلى أشراف المدينة، فلما جاءهم الرسول قال بعضهم: إنما أراد أن يملكنا على قومنا، و قال أحيحة: و الله ما دعاكم لخير، و كان لأحيحة رئىّ من الجن فخرجوا و خرج أحيحة معه بقينة و خمر و خباء، فضرب الخباء و جعل فيه القينة و الخمر، ثم دخل على تبع أول الناس. فتحدث معه، ففطن بالشر، ثم قال: إن أصحابى يصلونك إلى الظهر، فاستأذن فى الخروج إلى الخيمة، فأذن له، فشرب و جعلت القينة تغنيه بأبيات صنعها لها تقول:

لتبكنى قينة و مزهرها و تبكنى قهوة و شاربها

و تبكنى عصبة إذا اجتمعت لا يعلم الناس ما عواقبها

و هو يقلّ من الشراب، و جاء أصحابه قريبا من الليل، فأمر لهم تبع بضيافة، فلما كان فى جوف الليل أرسل إليهم ليقتلهم، ففطن أحيحة، فقال للقينة: أنا سائر إلى أهلى، فإذا طلبنى الملك فقولى: هو نائم، فإذا ألحوا فقولى: يقول لك: أما أحيحة فقد ذهب فاغدر بقينته أو دع، و انطلق فتحصن فى حصنه، فحاصروه ثلاثا يقاتلهم بالنهار، و إذا كان بالليل يرمى إليهم بتمر و يقول: هذا ضيافتكم. فأخبروا تبعا أنه فى حصن حصين، فأمرهم أن يحرقوا نخله، و اشتعلت الحرب بين تبع و أهل المدينة من اليهود و الأوس و الخزرج، و تحصنوا فى الآطام، فخرج رجل من أصحاب تبع حتى جاء بنى عدى بن النجار، فدخل لهم حديقة، فرقى على عذق منها. فأخذ يجده، فنزل إليه صاحب العذق فقتله و جره إلى بئر و ألقاه فيها، و هو يقول:

جانا يجدّ نخيلنا و كان الجداد لمن قد أبر

فزاد ذلك تبعا حنقا، و جرد إلى بنى النجار خيلا، فقاتلهم بنو النجار و رئيسهم يومئذ عمرو بن طلحة أخو بنى معاوية بن مالك بن النجار، و رمى عسكر تبع حصون

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۵۰

الأنصار بالنبل، فلقد جاء الإسلام و النبل فيها، و جزع فى القتال فرس تبع فحلف لا يبرح حتى يخربها بزعمه، فسمع بذلك أحبار من اليهود فنزلوا إليه و قالوا: أيها الملك إن هذه البلدة محفوظة، فإنا نجد اسمها فى الكتاب طيبة، و إنها مهاجر نبى من بنى إسماعيل من الحرم، و هى تكون قراره فلن تسلط عليها، فأعجب تبع بقولهم، فصرف تبع نبته عنها، و أمر أهل المدينة فتبايعوا مع العسكر، و كان تبع قد استوبأ بئره التى حفر، فمرض، فجاءته امرأة من بنى زريق اسمها فاكهة براوية من بئر رومة فأعجبه فاستلذه، فلما كان رحيله قال لها: يا فاكهة ما نترك فى موضعنا من شىء إذا رحلنا فهو لك، فأخذت ذلك، فاستغنت منه، و خرج تبع يريد اليمن و معه من الأحبار الذين نهوه عن خراب المدينة رجلان أو ثلاثة، فقال لهم: تسيرون معى أياما آنس بحديثكم، فكانوا يحدثونه عن الكتاب و عن قصة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فلم يتركهم حتى وصلوا معه إلى اليمن؛ فهم كانوا أول يهودى دخل اليمن، و اتفق فى مسيرة قصة إكسائه الكعبة.

و قد قدمنا فى بعض الروايات أن مالك بن العجلان لما قتل ملك اليهود قصد اليمن إلى تبع الأصغر، و أنه الذى نصرهم على يهود، و لعل هذا مراد ياقوت لقوله «إن يهود كانوا أهل المدينة حتى أتاهم تبع فأنزل معهم بنى عمرو بن عوف» لكن نقل المجد و غيره عن المبتدأ لابن إسحاق أنه قال فى بيت أبى أيوب الذى نزله النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مقدمه المدينة: إن تبعا الأول بناه لما مر بالمدينة، قال فى المبتدأ: و اسمه تبان أسعد بن كلكيكرب، و كان معه أربعمائة عالم، فتعاقدوا على أن لا يخرجوا منها، فسألهم تبع عن سر ذلك، فقالوا:

إنا نجد فى كتبنا أن نبيا اسمه محمد هذه دار مهاجره؛ فنحن نقيم لعل أن نلقاه، فأراد تبع الإقامة معهم، ثم بنى لكل واحد من أولئك دارا و اشترى له جارية و زوجها منه و أعطاه مالا جزيلا، و كتب كتابا فيه إسلامه، و منه:

شهدت على أحمد أنه رسول من اللّه بارى النّسم

فلو مدّ عمرى إلى عمره لكنت وزيرا له و ابن عم

و ختمه بالذهب و دفعه إلى كبيرهم، و سأله أن يدفعه إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إن أدركه، و إلا فمن أدركه من ولده أو ولد ولده، و بنى للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم دارا لينزلها إذا قدم المدينة، فتداول

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۵۱

الدار الملاك إلى أن صارت لأبى أيوب و هو من ولد ذلك العالم، و أهل المدينة الذين نصروه كلهم من أولاد أولئك العلماء، انتهى.

زاد غير المجد: و يقال: إن الكتاب الذى فيه الشعر كان عند أبى أيوب حين نزل عليه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فدفعه له، و هو غريب، و كتب التواريخ متظاهرة على ما قدمناه فى أمر الأنصار و نسبهم.

و قد ذكر السهيلى إيمان تبّع بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم و ذكر البيتين، و روى حديث «لا تسبوا تبّعا فإنه كان مؤمنا».

و روى عبد الرزاق عن وهب بن منبه قال: نهى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن سب أسعد و هو تبّع.

قال وهب: و كان على دين إبراهيم.

و روى أحمد من حديث سهل بن سعيد رفعه «لا تسبوا تبّعا فإنه كان قد أسلم» و أخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس مثله، و إسناده أصلح من إسناد سهل، و أما ما رواه عبد الرزاق عن أبى هريرة مرفوعا «لا أدرى تبع كان لعينا أم لا» فمحمول على أنه صلّى اللّه عليه و سلّم قاله قبل أن يعلم بحاله.

و قال المرجانى: إن أبا كرب بن أسعد الحميرى آمن بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم قبل أن يبعث بسبعمائة سنة، و قال: «شهدت على أحمد- البيتين المقدمين» و إن أباه أسعد هو تبّع الذى كسا الكعبة، و نقله عن حكاية ابن قتيبة، و الذى رأيته فى المعارف لابن قتيبة أن أسعد أبا كرب الحميرى هو الموصوف بما ذكره. و روى ابن زبالة أن تبعا لما قدم المدينة و أراد إخراجها جاءه حبران من قريظة يقال لهما سحيت و منبه فقالا: أيها الملك انصرف عن هذه البلدة فإنها محفوظة، و إنها مهاجر نبى من بنى إسماعيل اسمه أحمد يخرج فى آخر الزمان، فأعجبه ما سمع منهما، فصدقهما و كفّ عن أهل المدينة.

الفصل الخامس فى منازل قبائل الأنصار بعد إذلال اليهود،

و شىء من آطامهم، و ما دخل بينهم من الحروب، و هو نافع فى معرفة جهات المساجد التى لا تعرف اليوم، و غير ذلك.

اعلم أن ابن زبالة نقل ما حاصله أن الأوس و الخزرج بعد انصراف أبى جبيلة و نصره

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۵۲

لهم تفرقوا فى عالية المدينة و سافلتها، و اتخذوا الأموال و الآطام، فنزل بنو عبد الأشهل بن جشم بن الحارث بن الخزرج الأصغر و بنو حارثة بن الحارث بن الخزرج الأصغر بن عمرو بن مالك بن الأوس بن حارثة فكلاهما من الأوس دار بنى عبد الأشهل قبلى دار بنى ظفر مع طرف الحرة الشرقية، قاله المطرى، و الذى يظهر لى أن منازلهم كانت قريبة من منازل بنى ظفر فى شاميها و تمتد إلى الحرة المعروفة اليوم بدشم و ما حولها، بل سيأتى فى ترجمة الخندق ما يقتضى أن منازلهم كانت بالقرب من الشيخين. و ابتنى بنو عبد الأشهل أطما يقال له «واقم» و به سميت الناحية واقما، و كان لحضير بن سماك، و له يقول شاعرهم:

نحن بنينا واقما بالحره بلازب الطين و بالأصره

و له يقول خفاف بن ندبة:

لو أنّ المنايا جزن عن ذى مهابة لهبن حضيرا يوم أغلق واقما

يطيف به حتى إذا الليل جنّه تبوّأ منه مضجعا متناغما

و أطما يقال له: «الرعل» بالمال الذى يقال له واسط لصخرة أم بنى عبد الأشهل، و له يقول شاعرهم يوم بعاث:

نحن بنو صخرة أرباب الرعل

و آطاما غير ذلك، و ابتنى بنو حارثة أطما اسمه «المسيّر» صار لبنى عبد الأشهل بعد خروج بنى حارثة من دارهم؛ فإن بنى حارثة تحولوا من دارهم هذه إلى غربى مشهد سيدنا حمزة رضى الله عنه فى الموضع المعروف اليوم بيثرب؛ فكانت بها منازلهم على ما قدمناه عن المطرى فى الباب الأول. و الذى تحرر لى من مجموع كلام الواقدى و ابن زبالة و غيرهما أن منازلهم التى استقروا بها و جاء الإسلام و هم فيها كانت فى شامى بنى عبد الأشهل بالحرة الشرقية. و يؤيد ذلك ما سيأتى فى ترجمة الخندق من أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم خطه من أجمة الشيخين طرف بنى حارثة كما رواه الطبرانى.

و قد قال المطرى كما سيأتى عنه: الشيخان: موضع بين المدينة و بين جبل أحد، على الطريق الشرقية مع الحرة إلى جبل أحد. و يؤيده أيضا أن المطرى قد ذكر أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم غدا إلى أحد يوم وقعته على الطريق الشرقية المذكورة، و سيأتى أنه بات بالشيخين.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۵۳

و فى المعارف لابن قتيبة عن ابن إسحاق: فلما سارت قريش لحرب رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم خرج رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و المسلمون حتى نزلوا بيوت بنى حارثة، فأقاموا بقية يومهم و ليلتهم.

ثم خرج فى غد، و ذكر انخزال عبد الله بن أبىّ؛ فتحرر أن بيوت بنى حارثة عند الشيخين و فى ناحيتهما.

و قد ذكر ابن إسحاق و غيره أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أجاز ذلك اليوم فى حائط لمربع بن قيظ، و اتفق له معه ما سيأتى ذكره: و مربع هذا من بنى حارثة و أيضا فقد قدمنا فى الفصل الرابع فى تحريمها قول أبى هريرة فى رواية الإسماعيلى: ثم جاء- يعنى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم- بنى حارثة و هم فى سند الحرة. اه. و ليس الموضع الذى ذكره المطرى فى سند الحرة، بخلاف الموضع الذى قدمناه، مع أنه يحتمل أن بعض منازل بنى حارثة كانت بالموضع الذى ذكره المطرى أيضا.

قال ابن زبالة: و ابتنوا بها- أى بدارهم الثانية- أطما يقال له «الريان» عند مسجد بنى حارثة كان لبنى مجدعة بن حارثة، و سبب خروج بنى حارثة من دار بنى عبد الأشهل حرب كانت بينهم و بين عبد الأشهل، و و الى بنو ظفر بنى عبد الأشهل، ثم هزمهم بنو حارثة و قتلوا سماك بن رافع و كان باغيا، قتله مسعود أبو محيصة الحارثى، و ظفرت بهم بنو حارثة فأجلوهم أولا؛ فلحقوا بأرض بنى سليم، فسار حضير بن سماك ببنى سليم حتى قاتل بنى حارثة، فقتل منهم، و اشتد عليهم الحصار بأطمهم المسير المتقدم ذكره فى دار بنى عبد الأشهل، فسارت بنو عمرو بن عوف و بنو خطمة إليهم، و قالوا: إما أن تخلّوا سبيلهم، و إما أن تأخذوا عقل صاحبكم، و إما أن تصالحوهم، فاختاروا أن يجلوهم، فخرج بنو حارثة إلى خيبر فكانوا بها قريبا من سنة، ثم رق لهم حضير و طلب صلحهم، فخرجت السفراء فى ذلك حتى اصطلحوا، و أبت بنو حارثة أن ينزلوا دارهم مع بنى عبد الأشهل، و نزلوا الدار المعروفة بهم اليوم، اه.

و نزل بنو ظفر و هو كعب بن الخزرج الأصغر بن عمرو بن مالك بن الأوس دارهم شرقى البقيع عند مسجدهم: أى المعروف بمسجد البغلة بجوار بنى عبد الأشهل.

و ذكر ابن حزم فى الجمهرة أن بطون بنى عمرو بن مالك بن الأوس [و هم]

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۵۴

النبيت: منهم ظفر، و حارثة، و بنو عبد الأشهل، و بنو زعورا بن جشم بن الحارث أخى عبد الأشهل بن جشم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس.

و لم يذكر ابن زبالة بنى زعورا فى هذه البطون، بل و لا فى بطون الأنصار كلها.

و ذكر ابن حزم أن منهم مالك بن التيهان و بنى أوس بن عتيك و غيرهم، و قال فى موضع آخر: فولد جشم عبد الأشهل، بطن ضخم، و زعورا بطن، و هم أهل راتج.

و نزل بنو عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس قباء؛ فابتنوا أطما يقال له «الشّنيف» عند دار أبى سفيان بن الحارث بين أحجار المراء و بين مجلس بنى الموالى، كان لبنى ضبيعة بن زيد بن مالك بن عوف، و أطما فى دار عبد الله بن أبى أحمد، كان لكلثوم بن الهدم من بنى عبيد بن زيد بن أظلم أخى بنى عبيد بن زيد بن مالك، و أطما يقال له واقم كان بقباء لأحيحة بن الجلاح الجحجبى ثم صار لبنى عبد المنذر بن رفاعة فى دية جدهم رفاعة بن زر بن زيد بن أمية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف، و له يقول كعب بن مالك:

فلا تتهدّد بالوعيد سفاهة و أوعد شنيفا إن عصيت و واقما

و كان فى رحبة بنى زيد بن مالك بن عوف أربعة عشر أطما يقال لها: الصّياصى، و كان لهم أطم بالمسكبة شرقى مسجد قباء، و أطم يقال له «المستظل» كان موضعه عند بئر غرس، كان لأحيحة ثم صار لبنى عبد المنذر فى دية جدهم رفاعة، ثم خرجت بنو جحجبا بن كلفة بن عوف بن عمرو بن عوف من قباء حين قتلوا رفاعة بن زر و غنما أخا بنى عمرو بن عوف فسكنوا العصبة، و هى غربى مسجد قباء، قال سعد بن عمرو الجحجبى لبشر بن السائب: تدرى لم سكنا العصبة؟ قال: لا، قال: لأنا قتلنا قتيلا منكم فى الجاهلية، فقال بشر: و الأمانة لوددت أنكم قتلتم منا آخر و أنكم وراء عير، يعنى الجبل الذى غربى العصبة.

و ابتنى أحيحة بن الجلاح بالعصبة أطما يقال له «الضحيان» و هو الأطم الأسود الذى بالعصبة، و كان عرضه قريبا من طوله، بناه أولا من بثرة بيضاء فسقط، يعنى من حجارة الحرار البيض. و كان يرى من المكان البعيد، و فيه يقول أحيحة:

و قد أعددت للحدثان حصنا لو أنّ المرء تنفعه العقول

طويل الرأس أبيض مشمخرّ يلوح كأنه سيف صقيل

و ابتنوا هم و بنو مجدعة أطما يقال له «الهجيم» عند المسجد الذى صلّى فيه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و قد تقدم أن بنى أنيف كانوا مع اليهود بقباء، و أنهم حى من بلى؛ فلذلك لم يذكر ابن

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۵۵

زبالة منازلهم هنا، و سيأتى فى المساجد عن المطرى و تبعه المجد أن بنى أنيف بطن من الأوس، و أن منازلهم كانت بين بنى عمرو بن عوف و بين العصبة، و مأخذ المطرى فى نسبتهم إلى الأوس قول أهل السير فى المغازى: شهد من الأوس كذا و كذا رجلا، ثم يذكرون فيهم بعض بنى أنيف؛ و ذلك لأنهم حلفاء الأوس، لا لأنهم منهم، نبه عليه ابن إسحاق حيث قال: شهد بدرا من الأوس بضع و ستون رجلا، فذكر من بنى جحجبا جماعة، ثم قال: و من حلفائهم من بنى أنيف أبو عقيل، ثم نسبه إلى بلى بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، لكن استفدنا من كلام المطرى أن منازلهم بين العصبة و قباء، و يستفاد مما قدمناه عن ابن زبالة أن من منازلهم بئر عذق و ما حولها و المال الذى يقال له القائم، و ذلك معروف بقباء.

و خرجت بنو معاوية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف فسكنوا دارهم التى وراء بقيع الغرقد المعروفة بهم، و لا يشكل عليه ما سيأتى فى دور بنى النجار من الخزرج من أن حديلة لقب لمعاوية بن عمرو بن مالك بن النجار للاشتراك فى الاسم، و لكن الشهرة ببنى معاوية لهؤلاء، و أولئك يعرفون ببنى حديلة، و قد اشتبه ذلك على المطرى فقال فى مسجد بنى معاوية- و هو مسجد الإجابة- ما لفظه: هو مسجد بنى معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار، ثم قال فى دور بنى النجار: إن بنى حديلة هم بنو معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار، و دارهم عند بئر حاء، ثم قال: و دار بنى دينار بين دار بنى معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار أهل مسجد الإجابة، و دار بنى حديلة، فذكر أولا أنهم هم، ثم غاير بينهما، و الصواب المغايرة، و أن بنى حديلة من الخزرج، و بنى معاوية من الأوس، و قد صرح بتغايرهما أهل السير، و نسبوهما كما ذكرنا، و مسجد الإجابة لبنى معاوية من الأوص، و الذى أوقع المطرى فى هذا ما سيأتى عن عياض فى بنى حديلة إن شاء الله تعالى.

و من بنى معاوية هؤلاء حاطب بن قيس، و فيه كانت حرب حاطب كما ذكره ابن حزم.

و خرجت بنو السميعة- و هم بنو لوذان بن عمرو بن عوف- فسكنوا عند زقاق ركيح، و ابتنوا أطما يقال له «السعدان» و موضعه فى الربع (حائط هناك) ذكره ابن زبالة، و لعل الربع هو الحديقة المعروفة اليوم بالربعى، و كان بنو السميعة يدعون فى الجاهلية بنو الصماء، فسماهم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بنى السميعة.

و نزل بنو واقف و السلم ابنا امرئ القيس بن مالك بن الأوس عند مسجد الفضيخ، فكانا هنالك و ولدهما.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۵۶

و ابتنى بنو واقف أطما يقال له «الزيدان» و له يقول قيس بن رفاعة:

و كيف أرجو لذيذ العيش بعدهم و بعد من قد مضى من أهل زيدان

كان لهم عامة موضعه فى قبلة مسجد الفضيخ، و أطما كان موضعه عند بئر عائشة الواقفى، و غير ذلك، ثم كان بين السّلم و واقف كلام، فلطم واقف و هو الأكبر عين السلم- و كان شرسا- فحلف لا يساكنه، فنزل السلم على بنى عمرو بن عوف، فلم يزل ولده فيهم، (و من بقيتهم سعد بن خيثمة بن الحارث) ثم انقرضوا سنة تسع و تسعين و مائة.

و كان لبنى السلم حصن شرقى مسجد قباء، ذكره ابن زبالة، و قد ذكر ابن حزم انقراض جميع بنى السلم، قال: و كان قد بلغ عددهم فى الجاهلية ألف مقاتل.

قلت: و فى قبلة مسجد الفضيخ عند الحديقة المعروفة بالأشرفية و السابور آثار آطام و قرية و حصن عظيم، فهى منازل بنى واقف.

و نزل بنو وائل بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس فى دارهم المعروفة بهم، و ابتنوا أطما يقال له: «الموجا» كان

موضعه فى مسجد بنى وائل.

و نزل بنو أميـة بن زيـد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس فى دارهم المعروفة بهم التى بها الكبا يمر فيها سيل مذينيب بين بيوتهم ثم يلتقى هو و سيل بنى قريظة بفضاء بنى خطمة، و يؤخذ مما ذكره ابن زبالة فى منازل بنى النضير بالنواعم قربه منزل بنى أمية بن زيد منهم.

و فى صحيح البخارى عن عمر رضى الله عنه قال: كنت أنا و جار لى من الأنصار فى بنى أميـة بن زيـد، و هى من عوالى المدينة، نتناوب النزول على رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم.

قال ابن زبالة: و ابتنوا أطما يقال له: «أطم العذق» كان عند الكبا المواجهة مسجد بنى أمية، و أطما كان فى دار آل رويفع التى فى شرقى مسجد بنى أمية.

و نزل بنو عطية بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس بصفنة فوق بنى الحبلى، و صفنة- كجفنة- بإهمال أوله سميت بذلك لارتفاعها عن السيول فلم تشرب بشيء منها، و ابتنوا فيها أطما اسمه «شاس» كان لشاس بن قيس أخى بنى عطية بن زيد، و هو الذى على يسارك فى رحبة مسجد قباء مستقبل القبلة، و وائل و أمية و عطية بنو زيد هم الجعادرة، سموا به لأنهم كانوا إذا أجاروا جارا قالوا له: جعدر حيث شئت أى: اذهب حيث شئت، فلا بأس عليك، فقال الرمق بن زيد:

و إن لنا بين الجوارى وليدة مقابلة بين الجعادر و الكسر

متى تدع فى الزيدين زيد بن مالك و زيد بن قيس تأتها عزة النصر

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۵۷

قالوا: و الكسر أمية و عبيد و ضبيعة بنو زيد بن مالك بن عوف، كان يقال لهم كسر الذهب و ذلك أراد الرمق بقوله «و الكسر» كذا قاله ابن زبالة، و نقل رزين أن الجعادرة الأوس كلهم فإنه قال فيما نقل عن الشرقى: فولد الأوس مالكا و من مالك قبائل الأوس كلها، فولد لمالك عمرو و عوف و مرة، و يقال لهم: أوس الله، و هم الجعادرة، سموا بذلك لقصر فيهم، اه.

قلت: و سيأتى عن ابن إسحاق فى آخر الفصل السابع ما يقتضى أن أوس الله هم بنو أمية بن زيد و وائل و واقف و خطمة، و الله أعلم.

و نزل بنو خطمة- و خطمة هو عبد الله بن جشم بن مالك بن الأوس- دارهم المعروفة بهم، و ابتنوا بها الآطام، و غرسوا النخيل، فابتنوا بها أطما يقال له «صع ذرع» ليس فيه بيوت، جعلوه كالحصن الذى يتحصنون فيه للقتال، و كان لخطمة كلها، و كان موضعه عند مهراس بنى خطمة، و إنما سمى «صع ذرع» لأنه كان عند بئر بنى خطمة التى يقال لها ذرع، و ابتنى أمية بن عامر بن خطمة أطما كان موضعه فى مال الماجشون الذى يلى صدقة أبان بن أبى حدير.

قلت: و الظاهر أنه المسمى اليوم «بالمجشونية» فإن اسمه الأصلى «الماجشونية» على ما تقدم فى تربة صعيب.

و قال المطرى: منازل بنى خطمة لا يعرف مكانها اليوم، إلا أن الأظهر أنهم كانوا بالعوالى شرقى مسجد الشمس؛ لأن تلك النواحى كلها ديار الأوس، و ما سفل من ذلك إلى المدينة ديار الخزرج، اه.

و فى قوله: «و ما سفل إلخ» نظر، و الذى يظهر أن أول منازل الخزرج فى هذه الجهة منازل بنى الحارث كما سيأتى، و فوقها بنو خطمة، و سيأتى فى وادى بطحان و وادى مهزور ما يؤيد ذلك.

و كان بنو خطمة متفرقين فى آطامهم، لم يكن فى قصبة دارهم منهم أحد، فلما جاء الإسلام اتخذوا مسجدهم، و ابتنى رجل منهم عند المسجد بيتا سكنه، فكانوا يسألون عنه كل غداة مخافة أن يكون السبع عدا عليه، ثم كثروا فى الدار حتى كان يقال لهم غزة، تشبيها بغزة الشام من كثرة أهلها.

و قد انتهى الكلام فى منازل الأوس و هذه منازل الخزرج.

قال ابن زبالة: و نزل بنو الحارث بن الخزرج الأكبر بن حارثة و هم بلحارث دارهم المعروفة بهم بالعوالى: أى: شرقى وادى بطحان و

تربة صعيب، يعرف اليوم بالحارث بإسقاط بنى، و ابتنوا أطما كان لبنى امرئ القيس بن مالك و خرج جشم و زيد ابنا الحارث بن

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۵۸

الخزرج و هما التوأمان فسكنا السنح، و هذا هو المراد بقول ابن حزم: كان سكنى بنى الحارث بالسّنح على ميل من مسجد الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم انتهى.

قال ابن زبالة: و ابتنوا أطما يقال له «السّنح» و به سميت الناحية، و يقال بل اسمه «الريان» انتهى. و بالسّنح كان منزل أبى بكر الصديق رضى الله عنه بزوجته بنت خارجة بن زيد، قاله عياض، قال: و هو منازل بنى الحارث بن الخزرج بعوالى المدينة، و بينه و بين منزل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ميل، انتهى. فكأن السنح- و هو كما قال عياض و غيره بالسين المهملة ثم النون- بالقرب من منازل بنى الحارث بالعوالى. و خرج عتبة بن عمر بن خديج بن عامر بن جشم بن الحارث بن الخزرج فسكن الشوط و كوم الكومة يقال لها «كومة أبى الحمراء» ثم رجع فى السنح. و خرجت بنو خدرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج حتى سكنوا الدار التى يقال لها «جرار سعد» مما يلى سوق المدينة، و خرجت بنو الأبجر و هو خدرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج و هم بنو خدرة أخوة بنى خدارة فسكنوا دارهم المعروفة ببنى خدرة، و ابتنوا أطما يقال له «الأجرد» و هو الأطم الذى يقال لبئره البصة، كان لمالك بن سنان جد أبى سعيد الخدرى، و ذكر ابن حزم للحارث بن الخزرج الأكبر ابنا اسمه الخزرج ابن الحارث، و قال فيه: فولد الخزرج كعبا، فسار بعض بنيه إلى الشام مع غسان، فليس من الأنصار، ثم سمى من بقى منهم الأنصار.

و نزل سالم و غنم ابنا عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الأكبر الدار التى يقال لها «دار بنى سالم» على طرف الحرة الغربية غربى الوادى الذى به مسجد الجمعة ببطن رانونا، و ابتنوا آطاما: منها «المزدلف» أطم عتبان بن مالك، قاله المطرى، و قال: المزدلف هو الأطم الذى بناه عتبان بن مالك، كان لمالك بن العجلان السالمى، و له يقول مالك «إنّى بنيت للحروب المزدلف» و منها «الشماخ» كان خارجا عن بيوت بنى سالم من جهة القبلة، و منها أطم «القواقل» و هو الذى فى طرف بيوت بنى سالم مما يلى ناحية العصبة، كان لبنى سالم بن عوف، و تسميته بذلك يرجح ما ذكره ابن سيد الناس من أن القواقل بنو غنم و بنو سالم ابنى عوف، سموا بذلك لأنهم كانوا إذا أجاروا جارا قال له: قوقل حيث شئت، و أفهم سياق بعضهم أن القواقل بعض بنى سالم بن غنم، و هم بنو الحبلى، و ما

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۵۹

قدمناه هو الظاهر؛ لما سيأتى فى خروجه صلّى اللّه عليه و سلّم من قباء إلى المدينة. و قال ابن حزم: ولد عوف بن عمر و سالم بطن، و غنم بطن، و عنز بطن، و هو قوقل، و ذكر من ولده عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن قوقل بن عوف بن عمرو.

و نزل بنو غصينة حى من بلى حلفاء لبنى سالم عند مسجد بنى غصينة.

و نزل بنو الحبلى- بلفظ المرأة الجبلى- و اسمه مالك بن سالم بن غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الأكبر الدار المعروفة بهم بين قباء و بين دار ابنى الحارث بن الخزرج التى شرقى وادى بطحان و صعيب، كذا قاله المطرى، و أظن مستنده ما تقدم فى منازل الأوس من قول ابن زبالة: و نزل بنو عطية بن زيد بن قيس بصفنة فوق بنى الحبلى إلى آخره، و قال ابن حزم: كانت دار بنى الحبلى بين دار بنى النجار و بين بنى ساعدة.

قلت: و سيأتى فى خروجه صلّى اللّه عليه و سلّم من قباء إلى المدينة ما يؤيده، و كذلك مروره صلّى اللّه عليه و سلّم بعبد الله بن أبى فى ذهابه لعيادة سعد بن عبادة، و ما ذكره من أن الحبلى اسمه مالك بن سالم ذكره ابن زبالة، و قال ابن هشام: الحبلى سام بن غنم بن عوف، و إنما سمى الحبلى لعظم بطنه، انتهى.

و ذكر ابن حزم نحوه، و الظاهر أن الحبلى كان يطلق على سالم والد مالك المذكور، ثم اشتهر به ابنه هذا من بنى بنيه، و حينئذ فيحمل ما تقدم عن ابن زبالة فى نزول بنى عطية بن زيد بصفنة فوق بنى الحبلى، على أن المراد

دار سالم بن غنم فى دار بنى سالم؛ لكونه ذكر فى آطام بنى الحبلى هؤلاء ما يوافق كلام ابن حزم فى نزولهم قرب دار بنى ساعدة،

فقال: و ابتنوا آطاما منها «مزاحم» بين ظهران بيوت بنى الحبلى، و هو لعبد الله بن أبى بن سلول. و منها أطم كان بين مال عمارة بن نعيم البياضى و بين مال ابن زمانة. و منها أطم كان فى جوف بيوتهم. انتهى.

و سيأتى فى منازل بنى ساعدة ذكر الحماضة، و هى مذكورة فى منازل بنى بياضة، و قد صرح ابن حزم و غيره من أهل السير و علماء النسب بأن عبد الله بن أبى من بنى الحبلى من الخزرج؛ فالظاهر أن ما وقع للحافظ ابن حجر فى حديث زوجة ثابت بن قيس بن شماس فى الخلع من أن عبد الله بن أبى من بنى مغالة من بنى النجار و هم. نعم داره غربى المسجد قريبة من دار بنى مغالة فيما يظهر. و الله أعلم.

و نزل بنو سلمة بن سعد بن على بن أسد بن شاردة بن تزيد (بالمثناة من فوق) بن جشم بن الخزرج الأكبر ما بين مسجد القبلتين إلى المذاد أطم بنى حرام فى سند تلك الحرة، و كانت دارهم هذه تسمى خربى. قال ابن زبالة: فسماها رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم «طلحة» كذا هو فى نسخة ابن زبالة بالطاء، و نقله عنه الزين المراغى أيضا كذلك كما رأيته بخطه.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۶۰

و لعل الصواب ما ذكره المجد فى تاريخه أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم سماها «صلحة» بضم الصاد المهملة و سكون اللام، و قال فى قاموسه: خربا كحبلى: منزلة كانت لبنى سلمة غيّرها صلّى اللّه عليه و سلّم و سماها صالحة.

و نزل بنو سواد بن غنم بن كعب بن سلمة عند مسجد القبلتين إلى أرض ابن عبيد الديا ناری، و لهم مسجد القبلتين، قاله ابن زبالة، و هو يرد ما سيأتى عن المطرى و غيره من أن المسجد لبنى حرام، و ابتنوا أطما يقال له «الأغلب» كان على المهد الذى عليه الأحجار التى يستريح عليها السقاءون حين يفيضون من زقاق رومة إلى بطحان، و أطما يقال له «خيط» فى شرقى مسجد القبلتين على شرف الحرة و عند منقطع السهل من أرض بنى سلمة، و أطما يقال له «منيع» فى يمانى مسجد القبلتين على ظهر الحرة يمين الحزن الذى فى أرض ابن أبان أو دون ذلك قليلا.

و نزل بنو عبيد بن عدى بن غنم بن كعب بن سلمة عند مسجد الخربة إلى الجبل الذى يقال له الدويخل جبل بنى عبيد، و لهم مسجد الخربة، و ابتنوا «الأشنق» و هو المواجه لمسجد الخربة، كان للبراء بن معرور صخر بن حسان بن سنان بن عبيد، و ابتنوا «الأطول» عند قبلة مسجد الخربة أو عن يسارها.

و نزل بنو حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة عند مسجد بنى حرام الصغير الذى بالقاع بين الأرض التى كانت لجابر بن عتيك و الأرض التى كانت لمعبد بن مالك، و كانوا بين مقبرة بنى سلمة إلى المذاد، و المذاد: هو الذى يقول له كعب بن مالك:

فليأت مأسدة تسن سيوفها بين المذاد و بين جزع الخندق

و هو أطم لهم سميت به الناحية، و ابتنوا أطما يقال له «جاعس» كان فى السهل بين الأرض التى كانت لجابر بن عتيك و بين العين التى عملها معاوية بن أبى سفيان، كان لعمرو بن الجموح جد جابر بن عبد الله بن عمرو.

قلت: و هذه العين لعلها التى ذكر ابن النجار أنها تأتى إلى النخل الذى بأسفل المدينة حوالى مسجد الفتح، يعنى فى غربيه، و يعرف ذلك الموضع بالسّيح- بالسين المهملة و المثناة التحتية- كما قال المطرى، و الله أعلم.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى؛ ج ۱؛ ص ۱۶۰

ابتنى بنو مر بن كعب بن سلمة- و هم حلفاء بنى حرام- أطما يقال له «أخنس» و هو الأسود القائم فى بنى سلمة فى غربى الحائط الذى كان لجابر بن عتيك مما يلى جبل بنى عبيد، ذكره ابن زبالة.

و قوله «عند مسجد بنى حرام الصغير» يفهم أن لهم مسجدا آخر كبيرا، و هو الآتى فى منزلهم الثانى بشعب سلع، و سيأتى فى المساجد وصف مسجد بنى حرام الذى صلّى فيه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بأنه بالقاع، و أنه لم يصل فى مسجدهم الأكبر.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۶۱

و كل هؤلاء بنو سلمة، و كانوا بهذه الدور، و كلمتهم واحدة، و ملكوا عليهم أمّة بن حرام، فلبث فيهم زمانا حتى هلك رجل من بنى عبيد ذو أموال كثيرة، له ولد واحد اسمه صخر، فأراد أمة أن ينزع طائفة من أمواله فيقسمها فى بنى سلمة، فعظم ذلك على صخر، و شكا ذلك على بنى عبيد و بنى سواد، و قال: إن فعل أمة ذلك لأضربنه بالسيف، و سألهم أن يمنعوه إن هو فعل، فأطاعوا له، فلما فعل أمة ذلك ضربه صخر فقطع حبل عاتقه، و قامت دونه بنو عبيد و بنو سواد، فنذر أمة أن لا يؤويه ظل بيت ما عاش حتى يقتل بنو سلمة صخرا أو يأتوه به فيرى فيه رأيه، و جلس أمة عند الضرب الذى فوق مسجد الفتح مما يلى الجرف فى الشمس، فمرت به وليدة حطابة فقالت: مالك يا سيدى هنا فى الشمس؟ فقال:

إن قومى أجمعوا لى أمرهم ثم نادوا لى صخرا فضرب

إننى آليت لا يسترنى سقف بيت من حرور و لهب

أبدا ما دام صخر آمنا بينهم يمشى و لا يخشى العطب

فذهبت الجارية، فأخبرتهم، فربطوا صخرا ثم أتوه به، فعفا عنهم و أخذ الذى كان يريد أن يأخذ من أمواله؛ فهذا خبر ما دخل بين بنى سلمة.

و روى ابن شبة عن جابر بن عبد الله أن بنى سلمة قالوا: يا رسول الله، نبيع دورنا و نتحول إليك، فإن بيننا و بينك واديا؟ فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: «اثبتوا فإنكم أوتادها، و ما من عبد يخطو إلى الصلاة خطوة إلا كتب الله له أجرا».

و روى أيضا عن يحيى بن عبد الله بن أبى قتادة قال: شكا أصحابنا- يعنى بنى سلمة و بنى حرام- إلى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم أن السيل يحول بينهم و بين الجمعة، و كانت دورهم مما يلى نخيلهم و مزارعهم فى مسجد القبلتين و مسجد الخربة، فقال لهم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «و ما عليكم لو تحولتم إلى سفح الجبل» يعنى سلعا، فتحولوا؛ فدخلت حرام الشّعب، و صارت سواد و عبيد إلى السفح.

قلت: و شعب بنى حرام معروف بسلع، و هناك آثار منازلهم و آثار مسجدهم فى غربى جبل سلع على يمين السالك إلى مساجد الفتح من الطريق القبلية، و على يسار السالك إلى المدينة و على مقربة من محاذاته فى جهة المغرب حصن خل.

و روى ابن زبالة و يحيى من طريقه عن جابر بن عبد الله قال: كان السيل يحول بين بنى حرام و بين مسجد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فنقلهم عمر بن الخطاب إلى الشعب، و كلهم قوما

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۶۲

كانوا فيه من أهل اليمن يقال لهم بنو ناغضة، فانتقلوا إلى الشعب الذى تحت مسجد الفتح، فآثارهم هناك، و اشترت بنو حرام غلاما روميّا من أعطياتهم، و كان ينقل الحجارة من الحرة و ينقشها، فبنوا مسجدهم الذى فى الشعب و سقفوه بخشب و جريد، و كان عمر بن عبد العزيز زاد فيه مدماكين من أعلاه، و طابق سقفه، و جعل فيه ذيت مسجد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم.

قلت: و آثار خرز أساطينه و ما تكسر منها موجود اليوم فيه، يعرف محله بالشعب المذكور.

و قد روى المجد فى فضل المساجد الخبر المتقدم، إلا أنه قال: و جعل فيه ذيت مسجد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم ثم قال: و الذيت الساج الذى يظهر على الحائط، انتهى. و لم يضبطه غير أنه بالذال فى كتابه، و الذى فى كتاب ابن زبالة و يحيى ما قدمناه، و الله أعلم.

و نزل بنو بياضة و زريق ابنا عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج الأكبر، و بنو حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب، و بنو عذارة و هم بنو كعب بن مالك بن غضب، و بنو الليل و هم بنو عامر بن مالك بن غضب، و بنو أجدع و هم بنو معاوية بن مالك بن غضب دار بنى بياضة. قال المطرى: فيما بين دار بنى سالم بن عوف بن الخزرج التى عند مسجد الجمعة إلى وادى بطحان قبلى دار بنى مازن بن النجار.

قلت: الذى يترجح عندى أن دارهم كانت فى شامى دار بنى سالم بن عوف و قبلى دار بنى مازن، ممتدة فى الحرة الغربية، حتى إن فى كلام ابن زبالة ما يقتضى أن بعض منازلهم تمتد إلى منازل بنى ساعدة لما سنذكره.

و ابتنوا بدارهم الآطام، و روى ابن زبالة أنه كان بدارهم تسعة عشر أطما، و أن الذى أحصاه لبنى أمية بن عامر بن بياضة خاصة ثلاثة عشر أطما: منها أطم أسود فى يمانى أرض فراس بن ميسرة، كان فى الحرة، و منها «عقرب» كان فى شامى المزرعة المسماة بالرحابة فى الحرة على الفقارة، و منها «سويد» كان فى شامى الحائط الذى يقال له الحماضة، و لصاحبه كانت الحماضة، و سيأتى ذكر الحماضة فى منازل بنى ساعدة، لكن يبعد أن يكون هى المراد هنا، و منها «اللواء» كان موضعه فى حد السرارة بينه و بين زاوية الجدار الشامى الذى يحيط على الحماضة عشرون ذراعا، و منها أطم كان فى السرارة، و السرارة: ما بين أرض ابن أبى قليع إلى منتهى الحماضة، و ما بين الأطم الذى يقال له

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۶۳

اللواء إلى الجدار الذى يقال له بيوت بنى بياضة، و الجدار الذى بناه زياد بن عبيد الله لبركة السوق وسط السرارة، قاله ابن زبالة، و هو يقتضى أن السرارة قرب سوق المدينة، و يؤيده ذكر الحماضة فى منازل بنى ساعدة، لكن الظاهر أن المراد ببركة السوق هنا بركة كانت مما يلى سيل بطحان و رانونا؛ لأن ابن شبة قال فى سيل رانونا: إنه يقترن بذى صلب، يعنى موضع مسجد الجمعة، ثم يستبطن السرارة حتى يمر على قعر البركة، ثم يفترق فرقتين، إلى آخر ما سيأتى عنه.

و نقل رزين أن السرارة بين بنى بياضة و الحماضة. ثم ذكر ابن زبالة بقية آطامهم، و ذكر ما يقتضى أن ما حول السرارة هو أقصى بيوت بنى بياضة. ثم قال: و ابتنى بنو حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج الأطم الذى فى أدنى بيوت بنى بياضة الذى دونه الجسر الذى عند ذى ريش. ثم قال: فلبث بنو غضب بن جشم بن الخزرج- أى الفرق المذكورين كلهم- فى دار بنى بياضة، و أمرهم جميع، ثم إن زريق بن عامر هلك فأوصى ببنيه إلى عمه حبيب بن عبد حارثة، فكان حبيب يكلفهم النّضح بأيديهم، فلما اشتد عليهم عدوا عليه فقتلوه، فحالف بنو حبيب بنى بياضة على نصرهم على بنى زريق، فخافت بنو زريق أن يكثروهم. و كانت بنو بياضة حينئذ أثرى من بنى زريق، فخرجوا من دار بنى بياضة حتى حلوا دارهم المعروفة بهم قبلىّ المصلى و سور المدينة الموجود اليوم و داخله بالموضع المعروف بذروان و ما والاه، و ابتنوا آطاما منها أطم فى زاوية دار كبير بن الصلت بالمصلى، و أطما يقال له «الريان» عند سقيفة آل سراقة التى يقال لها «سقيفة الريان» و أقام بنو عمرو بن عامر بن زريق مع بنى بياضة، و لهم الأطم الذى فى شامى أرض فراس بن ميسرة فى أدنى بيوت بنى بياضة مما يلى السبخة، فلبثوا هناك حتى انتقل رافع بن مالك هو و ولده قبيل الإسلام فسكنوا طرف السبخة ما بين الأساس إلى طرف السبخة إلى الدار التى فيها يسكن إسحاق بن عبيد بن رفاعة، و كان يقال لرافع بن مالك «الكامل» لأن أهل الجاهلية كانوا يقولون لمن كان كاتبا شاعرا «الكامل» و انتقل سائر بنى عمرو بن عامر بعد ذلك، فاشتروا من بنى عوف بن زريق بعض دورهم و حقوقهم، و خرجت بنو عوف بن زريق قبيل الإسلام إلى الشام؛ فيزعمون أن هنالك ناسا منهم، و لبث بنو بياضة و بنو حبيب زمانا لا يقاتلون بنى زريق، و الرسل تجرى بينهم، و بنو زريق يدعونهم إلى الصلح و الدية، و عرضوا على بنى حبيب أن يقطعوا لهم طائفة من ديارهم، فقبلوا ذلك، و وضعوا الحرب، و سمى الزقاق الذى دفعوه لهم «زقاق الدية» و انتقل بنو مالك بن زيد بن حبيب بن عبد حارثة من بنى بياضة، و نزلوا الناحية التى ودت بنو زريق، و ابتنوا أطما كان لبنى المعلى بن لوذان، و تخلف بنو الصمة بن حارثة بن

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۶۴

الحارث بن زيد بن حبيب فى بنى بياضة، فلبثت بنو المعلى بن لوذان فى بنى زريق ما شاء الله.

ثم إن عبيد بن المعلى قتل حصن بن خالد الزرقى، فأراد بنو زريق أن يقتلوه، ثم بدا لهم أن يدوا حصن بن خالد من أموالهم عن عبيد على أن يحالفهم بنو المعلى، و يقطعون حلفهم مع بنى بياضة، ففعلوا، و كان عامر بن زريق بن عبد حارثة والد زريق و بياضة لما

حضرته الوفاة أوصى ابنه بياضة بالصبر فى الحروب و شدة البأس، و أوصاه بأخيه زريق و كان أصغرهما، فقال بعض شعرائهم فى ذلك:

بالصّبر أوصى عامر بياضه

و يقال للأوس و الخزرج: أبطأهم فرة و أرعهم كرة بنو بياضة و بنو زريق و بنو ظفر، و إن الأوس و الخزرج لم يلتقوا فى موطن قط إلا كان لهذه القبائل فضل بيّن على غيرهم من بطون الأوس و الخزرج.

و أما بنو عذارة بن مالك بن غضب بن جشم فكانوا أقل بطون بنى مالك بن غضب عددا، و كانوا قوما ذوى شراسة و شدة أنفس، فقتلوا قتيلا- من بعض بطون بنى مالك بن غضب إما من بنى اللين أو بنى أجدع، و أبى أهل القتيل الدية، و ذهبوا إلى بنى بياضة ليعينوهم على بنى عذارة حتى يعطوهم القاتل، فكلمات بنو بياضة بنى عذارة فى ذلك، فأبوا أن يخلوا بينهم و بينه، فأرادت بنو بياضة أن يأخذوه عنوة، فخرجوا من دار بنى بياضة حتى نزلوا قباء على بنى عمرو بن عوف فحالفوهم و صاهروهم، و امتنعوا من بنى بياضة، ثم إنه دخل بين بنى عذارة و بين بنى عمرو بن عوف قبيل الإسلام أمر، فأجمعوا أن ينتقلوا من عندهم إلى بنى زريق، و كرهوا أن يرجعوا إلى بنى بياضة، فجاؤوهم و ذكروا لهم ذلك، فلقوهم بما يحبون، و سددوا رأيهم، و أتوا أبا عبيدة سعيد بن عثمان الزرقى فذكروا له ذلك، فرحب بهم و ذكر شرفهم و فضلهم، ثم قال: إنى أشير عليكم أن ترجعوا إلى أخوالكم- يعنى: بنى عمرو بن عوف- و لا- تنتقلوا إلى بنى زريق، فإن فى أخلاقكم شراسة و فى أخلاق بنى زريق مثلها، فتفرقوا عن رأيه، فلم يزالوا كذلك إلى أن فرض المهدى للأنصار سنة ستين و مائة، فانتقلوا بديوانهم إلى بنى بياضة، و كان بطنان من بطون بنى مالك بن غضب ممن كان بدار بنى بياضة- لا ندرى أهم من اللين أم من أجدع- كان

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۶۵

بينهم ميراث فى الجاهلية، فاشتجروا فيه، فلما رأوا أنهم لا يستقيمون فيه على أمر تداعوا إلى أن يدخلوا حديقة كانت فى بنى بياضة فيقتتلوا فيها، فدخلوا جميعا ثم أغلقوها، فاقتتلوا حتى لم يبق منهم عين تطرف، فسميت تلك الحديقة «حديقة الموت» و كان بنو مالك بن غضب سوى بنى زريق ألف مقاتل فى الجاهلية، و أما بنو أجدع فلم يبق منهم أحد، و أما بنو اللين فكان بقى منهم رجلان ثم انقرضا لا عقب لهما.

و ذكر ابن حزم: أن زيد بن حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب المتقدم ذكر بنيه كان له أخ، و هو عبد الله بن حبيب، و أن عبد الله بن حبيب هذا ولد أبى جبيلة الغسانى الذى جلبه مالك بن العجلان لقتل اليهود بالمدينة كما قدمنا الإشارة إليه، و الله أعلم.

و نزل بنو ساعدة بن كعب بن الخزرج الأكبر مفترقين فى أربع منازل: فنزل بنو عمرو و بنو ثعلبة ابنا الخزرج بن ساعدة دار بنى ساعدة التى بين السوق- أى سوق المدينة- و بين بنى ضمرة؛ فهى فى شرقى سوق المدينة مما يلى الشام. و قال المطرى: قرية بنى ساعدة عند بئر بضاعة، و البئر وسط بيوتهم. قال ابن زبالة: فابتنوا أطما يقال له «معرض» فى الدار المواجهة مسجد بنى ساعدة، و هو آخر أطم بنى بالمدينة، و قدم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة و هم يبنونه، فاستأذنوه فى إتمامه، فأذن لهم فيه، و له يقول شاعرهم:

و نحن حمينا عن بضاعة كلّها و نحن بنينا معرضا فهو مشرف

فأصبح معمورا طويلا فدى له و تخرب آطام بها و تصفصف

و أطما فى دار أبى دجانة الصغرى التى عند بضاعة، و نزلت بنو قشبة- و اسم قشبة عامر بن الخزرج بن ساعدة- قريبا من بنى حديلة، و ابتنوا أطما عند خوخة عمرو بن أمية الضّمرى.

قلت: فمنزلهم فى شرقى بنى ضمرة، و المنزل المذكور قبل، و الله أعلم.

و نزلت بنو أبى خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة- و هم رهط سعد بن عبادة الدار التى يقال لها جرار سعد و هى جرار كان يسقى الناس فيها الماء بعد موت أمه.

قال ابن زبالة: عرض سوق المدينة ما بين المصلى إلى جرار سعد بن عبادة.

قلت: فهى مما يلى السوق، فإما أن يكون من جهة المشرق و المصلى حده من جهة المغرب، فيشهد ذلك لأنها الموضع المعروف اليوم بين أهل درب السويقة بسقيفة بنى ساعدة، و يكون إطلاق السقيفة على ذلك المحل صحيحا، لا كما قال المطرى: إنها بقرية ببنى ساعدة عند بئر بضاعة؛ لأن سعد بن عبادة لم يكن هناك، و إنما كان مع رهطه فى منزلهم، و السقيفة كانت عند منزله، و إما أن يكون جرار سعد مما يلى السوق من جهة

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۶۶

الشام، و يكون المصلى حده القبلى، و هذا هو الأرجح؛ لأن الجهة التى بالمشرق مما تقدم إنما هى من منازل بنى زريق، و الله أعلم.

قال ابن زبالة: فابتنوا أطما يقال له واسط، و قد تقدم أن بنى خدارة نزلوا بجرار سعد أيضا، فكأنها كانت منزلها، و بنو خدارة من بنى الحارث بن الخزرج كما تقدم، فدارهم المرادة فى حديث عيادة سعد بن عبادة فى بنى الحارث بن الخزرج، لا دار بنى الحارث المعروفة بهم لبعدها جدا عن منازل بنى ساعدة، و ليسوا قوم سعد إلا من حيث إن الكل من الخزرج.

و فى حديث عائشة فى الصحيح بعد قول عروة لها: ما كان يعيشكم؟ قالت:

الأسودان التمر و الماء، إلا أنه قد كان لرسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم جيران من الأنصار كانت لهم منائح، الحديث.

قال الحافظ ابن حجر فى بيان ذلك: جيرانه صلّى اللّه عليه و سلّم من الأنصار سعد بن عبادة و عبد الله بن عمرو بن حزم و أبو أيوب و سعد بن زرارة؛ فيبعد كون سعد بن عبادة فى دار بنى الحارث لعده فى الجيران، و مأخذ الحافظ ابن حجر فى ذلك ما رواه ابن سعد عن أم سلمة قالت: كان الأنصار يكثرون إلطاف رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: سعد بن عبادة، و سعد بن معاذ، و عمارة بن حزم، و أبو أيوب، و ذلك لقرب جوارهم من رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم انتهى، و الله أعلم.

و نزلت بنو وقش و بنو عنان ابنا ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة الدار التى يقال لها «بنو ساعدة» و يقال لها أيضا «بنو طريف» و هى بين الحماضة و جرار سعد، و سيأتى فى ترجمة الشوط ما يقتضى أن لبنى ساعدة منزلا فى شامى مسجد الراية، و الظاهر أنه هذا المنزل، و الله أعلم.

و نزل بنو مالك بن النجار دارهم المعروفة بهم، فابتنى بنو غنم بن مالك أطما يقال له «فويرع» و فى موضعه دار حسن بن زيد بن حسن بن على بن أبى طالب، رضى الله عنه!

قلت: و هى الدار المقابلة لدار جعفر الصادق التى فى قبلة المدرسة الشهابية، كما سيأتى نقله عن ابن شبة.

و ابتنى بنو مغالة- و هم بنو عدى بن عمرو بن مالك، و مغالة أم عدى- أطما يقال له «فارع» و هو الأطم الذى واجه دور بنى طلحة بن عبيد الله، و دخل فى دار [جعفر] بن يحيى بن خالد بن برمك، و له يقول حسان بن ثابت:

أرقت لتوماض البروق اللوامع و نحن نشاوى بين سلع و فارع

قاله ابن زبالة.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۶۷

و قال الزين المراغى: إن هذا الأطم كان لثابت والد حسان بن ثابت، و إنه دخل فى الدار المواجهة لباب الرحمة التى كانت دار عاتكة، و مأخذه فى ذلك أن دار عاتكة من جملة دار جعفر بن يحيى، لكن سيأتى من كلام ابن زبالة و يحيى عند ذكر أبواب المسجد أن دار جعفر بن يحيى، لكن سيأتى من كلام ابن زبالة و يحيى عند ذكر أبواب المسجد أن دار جعفر بن يحيى دخل فيها بيت عاتكة و فارع أطم حسان بن ثابت، و بيّنا محله هناك فى شامى الدار المذكورة، أعنى دار عاتكة، و فارع هذا هو الأطم الذى كانت به صفية عمة رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يوم الخندق و عندها حسان.

و فى مسلم فى حديث ابن صياد «فوجده عند أطم بنى مغالة».

قال عياض: بنو مغالة كل ما كان على يمينك إذا وقفت آخر البلاط مستقبل المسجد النبوى.

و ابتنى بنو حديلة (بضم الحاء المهملة) و هو- كما قال ابن زبالة و غيره- لقب معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار أطما يقال له «مشعط» كان فى غربى مسجدهم الذى يقال له «مسجد أبى» يعنى أبى بن كعب، و فى موضعه بيت يقال له «بيت أبى نبيه» و قد أسند ابن زبالة عقب ذكره الحديث المتقدم «إن كان الوباء فى شىء فهو فى ظل مشعط» و ذكر ابن شبة قصر بنى حديلة، و قال: بناه معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ليكون حصنا، قال: و له بابان: باب شارع على خط بنى حديلة، و باب فى الزاوية الشرقية اليمانية عند دار محمد بن طلحة التّيمى، و فى وسطه بئر حاء، انتهى.

و قال عياض فى المشارق: بئر حاء: موضع يعرف بقصر بنى حديلة، و قد قال ابن إسحاق: بنو عمرو بن مالك بن النجار هم بنو حديلة، أى لأن حديلة بطن منهم؛ لما قدمناه من أنه لقب أبيهم معاوية بن عمرو بن مالك.

قلت: فليس بنو حديلة هؤلاء بنى معاوية من الأوس أهل مسجد الإجابة كما قدمناه و لكن الاشتراك فى الاسم أوجب الوهم، فقد وقع للقاضى عياض فى المشارق ما يخالف كلام عامة الناس، فقال: قال الزبير: كل ما كان من المدينة عن يمينك إذا وقفت آخر البلاط مستقبل مسجد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بنو مغالة، و الجهة الأخرى أى التى على يسارك بنو حديلة، و هم بنو معاوية و هم من الأوس.

قال الجوهرى: هى قرية من قرى الأنصار، قال القاضى: هم بطن من الأنصار سميت جهتهم بهم، و هم أيضا بنو حديلة (بحاء و دال مهملتين) و حديلة أمهم، انتهى.

و الذى نقله غيره عن الزبير أن بنى حديلة من بنى النجار من الخزرج، و بنو معاوية من الأوس غيرهم، و قد قدمناه عن ابن زبالة شيخ الزبير، و قد ذكر ابن حزم فى الجمهرة

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۶۸

معاوية من الأوس، و ذكر بنى حديلة من الخزرج، فقال و ولد مالك بن النجار معاوية و أمه حديلة فنسب إليها، و الظاهر أن قول القاضى «و هم من الأوس» ليس من كلام الزبير فى هذا الموضع، و لكن القاضى لما رأى قوله «و هم بنو معاوية» ظن أنهم بنو معاوية من الأوس، و هذا موجب ما وقع للمطرى من الخبط فى هذا المحل، حيث غاير بينهما مرة و جعلهما متحدين أخرى، و لا يصح الجمع بما ذكره المراغى من احتمال أن يكون بنو معاوية بطنا أو فخذا من بنى حديلة؛ لما قدمناه.

و ابتنى بنو مبذول- و اسمه عامر بن مالك بن النجار- أطما يقال له «السلج» و أطما كان فى دار آل حيىّ بن أخطب كان لبنى مالك بن مبذول، و أطما كان فى دار سرجس مولى الزبير التى إلى بقيع الزبير كان لآل عبيد بن النعمان أخى النعمان بن عمرو بن مبذول، و بقيع الزبير ذكر فى أماكن يؤخذ منها أنه كان فى شرقى الدور التى تلى قبة المسجد النبوى إلى بنى زريق، و إلى بنى غنم، و إلى البقال كما سيأتى.

و نزل بنو عدى بن النجار دارهم المعروفة بهم غربى المسجد النبوى، على ما قاله المطرى، و كان بها الأطم الذى فى قبلة مسجدهم، و ابتنوا أطما يقال له «أطم الزاهريرة» امرأة سكنته كان فى دار النابغة عند المسجد الذى فى الدار.

و نزل بنو مازن بن النجار دارهم المعروفة بهم قبلى بئر البصة، و تسمى الناحية اليوم أبو مازن، غيّرها أهل المدينة.

قال المطرى: و ابتنوا بها أطمين أحدهما يقال له «واسط» قلت: و الذى يؤخذ من كلام ابن شبة الآتى فى منازل القبائل أن منازل بنى مازن كانت فى قبلة المدينة شرقى منازل بنى زريق قريبة منها، و الله أعلم.

و نزل بنو دينار بن النجار دارهم التى خلف بطحان المعروفة بهم، و ابتنوا أطما يقال له «المنيف» عند مسجدهم الذى يقال له مسجد بنى دينار، قاله ابن زبالة، و قال المطرى فى بيان هذا المسجد: و دار بنى دينار بن النجار بين دار بنى حديلة و دار بنى معاوية أهل مسجد الإجابة، و دار بنى حديلة عند بئر حاء، اه.

و لا أدرى من أين أخذ هذا، و ما ذكره ابن زبالة أقرب و أولى بالاعتماد لأمور سنذكرها فى بيان مسجدهم.

قال ابن زبالة: و زعم بنو دينار أنهم نزلوا أولا دار أبى جهم بن حذيفة العدوى، و كانت امرأة منهم هنالك، و كان لها سبعة إخوة، فوقفت على بئر لهم بدار أبى جهم و معها مدرى لها من فضة فسقط منها فى البئر، فصرخت بإخوتها، فدخل أولهم يخرجه

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۶۹

فأسر، فاستغاث ببعض إخوته حتى دخلوا جميعا فماتوا فى تلك البئر، فهذه منازل بنى النجار.

قال المطرى و تبعه من بعده: إن دار النابغة المتقدمة فى بنى عدى كانت غربى مسجد الرسول، و هى دار بنى عدى بن النجار، و مسجد الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم و ما يليه من جهة الشرق دار بنى غانم بن مالك بن النجار، و دور بنى النجار بالمدينة و ما حولها من الشمال إلى مسجد الإجابة، و النجار: هو تيم الله بن ثعلبة، و سمى بذلك لأنه ضرب رجلا فنجره، فقيل له: النجار، و فى دور بنيه هؤلاء قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «خير دور الأنصار بنو النجار ثم بنو عبد الأشهل» و هم من الأوس كما سبق. و فى رواية أخرى: «أ لا- أخبركم بخير دور الأنصار؟ قالوا: بلى، قال: بنو عبد الأشهل، و هم رهط سعد بن معاذ، قالوا: ثم من يا رسول الله قال: ثم بنو النجار» و راويهما واحد، و قد صحتا، فاختلف عليه، و تقديم بنى النجار روى عن أنس من غير اختلاف عليه، و لها مؤيدات أخرى، و هم أخوال عبد المطلب جد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و لذلك نزل عليهم صلّى اللّه عليه و سلّم كما سيأتى، ثم ذكر فى الرواية المذكورة بعد بنى عبد الأشهل بنى الحارث بن الخزرج أى الأكبر «ثم بنو ساعدة» و قال فى هذه الرواية أيضا «و فى كل دور الأنصار خير» و كأن المفاضلة وقعت بحسب السبق إلى الإسلام، و بحسب مساعيهم فى إعلام كلمة الله.

قال ابن زبالة عقب ذكر جميع منازل الأنصار المتقدمة: و نزل بنو الشطبة حين قدموا من الشام ميطان، فلم يوافقهم، فتحولوا قريبا من جذمان، ثم تحولوا فنزلوا براتج، فهم أحد قبائل راتج الثلاث، و قد ذكر راتج فى منازل يهود فقال: و كان براتج ناس من اليهود، و كان راتج أطما سميت به تلك الناحية، ثم صار لبنى الجذماء، ثم صار بعد لأهل راتج الذين كانوا حلفاء بنى عبد الأشهل، و هو الذى يقول له قيس بن الخطيم:

ألا إن بين الشّرعبى و راتج

البيت.

و قد قدمنا عن ابن حزم أن أهل راتج هم بنو زعورا بن جشم أخى عبد الأشهل بن جشم، و ذكر أيضا أن من أهل راتج بنى سعد بن مرة بن مالك بن الأوس.

و قال المطرى: راتج جبيل صغير غربى وادى بطحان، و بجنبه جبيل آخر صغير يقال له: جبل بنى عبيد، انتهى. و سيأتى ما ينازع فيه مع بيان أن راتجا فى ناحية مسجد الراية.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۷۰

الفصل السادس فيما كان بينهم من حرب بعاث

اشارة

نقل رزين عن الشرقى أن الأوس و الخزرج لبثوا بالمدينة ما شاء الله و كلمتهم واحدة، ثم وقعت بين الأوس و الخزرج حروب كثيرة حتى لم يسمع قط فى قوم أكثر منها و لا أطول.

الحروب قبل بعاث

أولها: حرب سمير، و سببه رجل من بنى ثعلبة كان حليفا لمالك بن العجلان، قتله رجل من الأوس يقال له سمير بالمهملة مصغرا. ثم حرب كعب بن عمرو، ثم يوم السرارة، و هو موضع بين بنى بياضة و الحماضة، ثم يوم الديك، و هو موضع أيضا، ثم حرب بعاث، و هو كان آخرها، قتل فيه سراة الأوس و الخزرج و رؤسائهم.

قلت: فى كلام بعضهم أنه كان بين الأوس و الخزرج وقائع من أشهرها يوم السرارة، و يوم فارع، و يوم الفجار الأول و الثانى، و حرب حضير بن الأسلت، و حرب حاطب بن قيس، إلى أن كان آخر ذلك يوم بعاث، فقول الخطابى «يوم بعاث يوم مشهور كانت فيه مقتلة عظيمة للأوس على الخزرج، و بقيت الحرب قائمة مائة و عشرين سنة إلى الإسلام على ما ذكره ابن إسحاق و غيره» مؤول بأن حروب الأوس و الخزرج كلها قبل بعاث و بعده مكثت هذه المدة، و إلا فهو مردود، و سيأتى تعيين تاريخ يوم بعاث.

سبب حرب بعاث

و كان سببه أن الحروب المتقدمة كلها كان الظفر فى أكثرها للخزرج على الأوس، حتى ذهبت الأوس لتحالف قريظة، فأرسلت إليهم الخزرج: لئن فعلتم فأذنوا بحرب، فتفرقوا و أرسلوا إلى الخزرج: إنا لا نخالفهم، و لا ندخل بينكم، فقالت الخزرج لليهود: فأعطونا رهائن، و إلا فلا نأمنكم، فاعطوهم أربعين غلاما من بينهم، ففرقهم الخزرج فى دورهم، فلما أيست الأوس من نصرة اليهود حالفت بطونا من الخزرج منهم بنو عمرو بن عوف، و قال سائرهم: و الله لا نصالح حتى ندرك ثأرنا، فتقاتلوا، و كثر القتل فى الأوس لما خذلهم قومهم، و خرج سعد بن معاذ الأشهلى، فأجاره عمرو بن الجموح الحرامى، فلما رأت الأوس أن أمرهم إلى قل عزموا على أن يكونوا حلفا للخزرج فى المدينة، ثم اشتوروا فى أن يحالفوا قريشا، فأظهروا أنهم يريدون العمرة، و كان بينهم أن من أراد حجا أو عمرة لم يعرض له، فأجار أموالهم بعدهم البراء بن معرور، فأتوا مكة فحالفوا قريشا، ثم جاء أبو جهل- و كان غائبا- فنقض حلف قريش بحيلة احتالها.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۷۱

قلت: روى ابن شبة عن أفلح بن سعيد ما يخالفه فى نسبة ذلك لأبى جهل مع بيان الحيلة، فقال: خرجت الأوس جالية من الخزرج حتى نزلت على قريش بمكة فحالفتها، فلما حالفتهم قال الوليد بن المغيرة: و الله ما نزل قوم قط على قوم إلا أخذوا شرفهم و ورثوا ديارهم، فاقطعوا حلف الأوس، فقالوا: بأى شىء؟ قال: إن فى القوم حمية، قولوا لهم: إنا نسينا شيئا لم نذكره لكم، إنا قوم إذا كان النساء بالبيت فرأى الرجل امرأة تعجبه قتلها و لمسها بيده، فلما قالوا ذلك للأوس نفرت و قالوا: اقطعوا الحلف بيننا و بينكم، فقطعوه، انتهى.

فلما لم يتم لهم الحلف ذهبت النبيت إلى خيبر- قلت: أراد بالنبيت بعضهم، و هم بنو حارثة؛ لما قدمناه من أن النبيت يطلق عليهم و على بنى عبد الأشهل و بنى ظفر و بنى زعورا، و الذى انتقل من هؤلاء إلى خيبر هم بنو حارثة فقط كما سبق، إلا أن يريد غيره- فأقاموا بها سنة، و ماتت منهم عجوز فقالوا «أهون حادث موت عجوز فى سنة» فذهب مثلا، فلما رأت الخزرج أن قد ظفرت بالأوس افتخروا عليهم فى أشعارهم، و قال عمرو بن النعمان البياضى: يا قوم إن بياضة بن عمرو أنزلكم منزل سوء، و الله لا يمس رأسى غسلا حتى أنزلكم منازل بنى قريظة و النضير و أقتل رهنهم، و كان لهم غزار المياه و كرام النخل، و قال رجل منهم أيضا شعرا يتغنى به يذكر جلاء النبيت إلى خيبر و أخذهم الرهن من اليهود:

هلمّ إلى الأحلاف إذ رقّ عظمهم و إذ أصلحوا ما لا لجذمان ضائعا

إذا ما امرؤ منهم أساء عمارة بعثنا عليهم من بنى العير جادعا

فأما الصّريح منهم فتحمّلوا و أما اليهود فاتخذنا بضائعا

و ذاك بأنا حين نلقى عدوّنا نصول بضرب يترك العز خاشعا

فبلغ قولهم قريظة و النضير و هم المعينون بالصريح لأنهم من بنى الكاهن بن هارون، و بلغ ذلك أيضا من كان فى المدينة من الأوس، فمشوا إلى كعب بن أسد القرظى، فدعوه إلى المحالفة على الخزرج، ففعل، ثم تحالفوا مع قريظة و النضير، ثم أرسلوا بذلك إلى النبيت فقدموا فأخذت الخزرج فى قتل الرهن، فقال لهم كعب بن أسد القرظى: إنما هى ليلة ثم تسعة أشهر و قد جاء الخلف، و أرسلوا إلى الأوس و قالوا لهم: انهضوا إلينا، فنأتيهم بأجمعنا، فجاءت الخزرج إلى عبد الله بن أبى فقالوا: مالك لا تقتل الرهن؟ فقال: لا أغدرهم أبدا، و أنتم البغاة، و قد بلغنى أن الأوس تقول: منعونا الحياة فيمنعونا الموت، و و الله ما يموتون أو تهلكون عامتكم، فقال له عمرو بن النعمان: انتفخ و الله سحرك، فقال: إنى لا أحضركم، و لكأنى أنظر إليك قتيلا يحملك أربعة فى كساء.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۷۲

فاجتمع الخزرج و رأسوا عليهم عمرو بن النعمان قلت: الذى ذكره ابن حزم أن رئيس الخزرج يومئذ هو والد النعمان، و هو رحيلة بن ثعلبة البياضى، و الله أعلم. فاقتتلوا فى بعاث، و هو موضع عند أعلى قورى، و كانت الدّبرة على الخزرج، و قتل عمرو بن النعمان، و جىء به تحمله أربعة كما قال له ابن أبى، و حلفت اليهود لتهدمن حصن عبد الله بن أبى، و كان أبو عمرو الراهب مع الأوس، و كانت تحته جميلة بنت أبى، و هى أم حنظلة الغسيل، فلما أحاطوا بالحصن قال لهم عبد الله: أما أنا فلم أحضر معهم، و هؤلاء أولادكم الذين عندى فإننى لم أقتل منهم أحدا، و نهبت الخزرج فعصونى، و كان جل من عنده من الرهن من أولاد بنى النضير، ففرحوا حين سمعوا بذلك، فأجاروه من الأوس و من قريظة، فأطلق أولادهم و حالفهم، و لم يزل حتى ردهم حلفاء الخزرج بحيل تحيّل بها، و كان رئيس الأوس فى هذه الحرب حضير الذى قال له «حضير الكتائب» والد أيد بن حضير، و بها قتل، و قال خفاف بن ندبة يرثى حضيرا:

أتانى حديث فكذّبته و قالوا: خليلك فى المرمس

فيا عين بكى حضير الندى حضير الكتائب و المجلس

و كان رئيس الخزرج عمرو بن النعمان البياضى كما تقدم أيضا، قال بعضهم: و كان النصر فيها أولا للخزرج، ثم ثبت حضير الأوس فرجعوا و انتصروا.

و ذكر أبو الفرج الأصبهانى أن سبب ذلك أنه كان من قاعدتهم أن الأصيل لا يقتل بالحليف، فقتل رجل من الأوس حليفا للخزرج، فأرادوا أن يقيدوه فامتنعوا، فوقعت بينهم الحرب لأجل ذلك.

و كان يوم بعاث قبل الهجرة بخمس سنين على الأصح، و قيل: بأربعين سنة، و قيل:

بأكثر، و هو اليوم الذى تقول فيه عائشة رضى الله عنها كما فى الصحيح «كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله صلّى اللّه عليه و سلّم فى دخولهم فى الإسلام، فقدم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و قد افترق ملؤهم و قتلت سراتهم» يعنى الأوس و الخزرج، و معناه أنه قتل فيه من أكابرهم من كان لا يؤمن أن يتكبر و يأنف أن يدخل فى الإسلام لتصلبه فى أمر الجاهلية و لشدة شكيمته حتى لا يكون تحت حكم غيره، و قد كان بقى منهم من هذا النمط عبد الله بن أبىّ بن سلول، و قصته فى ذلك مشهورة، و كذلك أبو عامر الراهب الذى سماه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بالفاسق، قال أهل السير: قدم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة و سيد أهلها عبد الله بن أبى بن سلول، كان من الخزرج ثم من بنى عوف بن الخزرج ثم من بنى الحبلى، لا يختلف فى شرفه فى قومه اثنان، لم تجتمع الأوس و الخزرج قبله و لا بعده على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الإسلام غيره، و معه فى الأوس رجل هو فى قومه من الأوس شريف مطاع أبو عامر بن

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۷۳

صيفى بن النعمان أحد بنى ضبيعة بن زيد، و هو أبو حنظلة الغسيل، و كان قد ترهب و لبس المسوح، فشقيا بشرفهما: أما عبد الله بن أبى فلما انصرف عنه قومه إلى الإسلام ضغن و رأى أن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم قد استلبه ملكا، فلما راى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارها مصرا على نفاق و ضغن، فكان رأس المنافقين، و إليه يجتمعون، و هو القائل فى غزوة بنى المصطلق لَئِنْ

رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَ [المنافقين: ۸] و أما أبو عامر فأبى إلا الكفر و الفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام. و أتى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم حين قدم المدينة فقال: ما هذا الدين الذى جئت به؟ قال: جئت بالحنيفية دين إبراهيم، قال: فأنا عليها، فقال له رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: إنك لست عليها، قال: إنك أدخلت يا محمد فى الحنيفية ما ليس منها، قال: ما فعلت، و لكنى جئت بها بيضاء نقية، قال:

الكاذب أماته الله طريدا غريبا وحيدا، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: أجل، فمن كذب ففعل الله ذلك به، فكان هو ذاك عدو الله: خرج إلى مكة مفارقا الإسلام، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم:

«لا تقولوا الراهب، و لكن قولوا الفاسق» فلما افتتح رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم مكة خرج إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام، فمات بها طريدا غريبا وحيدا.

و روى بعضهم أنه لم يكن فى الأوس و الخزرج رجل أوصف لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم من أبى عامر المذكور، و كان يألف اليهود و يسائلهم فيخبرونه بصفة رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم ثم خرج إلى يهود تيماء و إلى الشام، فسأل النصارى فأخبروه بذلك، فرجع و هو يقول: أنا على دين الحنيفية، و ترهب و لبس المسوح، و زعم أنه ينتظر خروج النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فلما ظهر بمكة لم يخرج إليه، فلما قدم المدينة حسد و بغى، و ذكر إتيانه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بنحو ما سبق، إلا أنه قال: فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: «الكاذب أماته الله وحيدا طريدا» قال: آمين، ثم ذكر خروجه إلى مكة، و زاد: فكان مع قريش يتبع دينهم و ترك ما كان عليه؛ فهذا مصداق ما ذكرت عائشة رضى الله عنها.

الفصل السابع فى مبدأ إكرام الله لهم بهذا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و ذكر العقبة الصغرى

اعلم أن تلك الحروب المتقدمة لم تزل بين الأوس و الخزرج حتى أكرمهم الله باتباعه صلّى اللّه عليه و سلّم و ذلك أنه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يعرض نفسه فى كل موسم من مواسم العرب على قبائلهم، و يقول: أ لا رجل يحملنى إلى قومه؟ فإن قريشا قد منعونى أن أبلغ كلام ربى، فيأبونه و يقولون: قوم الرجل أعلم به.

و ذكر ابن إسحاق عرضه عليه الصلاة و السلام نفسه على كندة و على كلب و على بنى

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۷۴

حنيفة، قال: و لم يكن أحد من العرب أقبح ردا عليه منهم، و قال موسى بن عقبة عن الزهرى: فكان فى تلك السنين- أى التى قبل الهجرة- يعرض نفسه على القبائل، و يكلم كل شريف قوم، لا يسألهم إلا أن يؤووه و يمنعوه، و يقول: لا أكره أحدا منكم على شىء، بل أريد أن تمنعوا من يؤذينى حتى أبلغ رسالة ربى، فلا يقبله أحد.

و ذكر الواقدى دعاءه صلّى اللّه عليه و سلّم بنى عبس إلى الإسلام، و أنه أتى غسان فى منازلهم بعكاظ و بنى محارب كذلك، و لم يزل صلّى اللّه عليه و سلّم يدعو إلى دين الله، و يأمر به كل من لقيه و رآه من العرب، إلى أن قدم سويد بن الصامت أخو بنى عمرو بن عوف من الأوس، و كان يسمى «الكامل» لجلده و شعره، و هو القائل:

فرشنى بخير طالما قد بريتنى فخير الموالى من يريش و لا يبرى

فدعاه رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم إلى الإسلام، فلم يبعد و لم يجب، ثم انصرف إلى يثرب، فلم يلبث أن قتل يوم بعاث.

قال ابن إسحاق: فإن كان رجال من قومه ليقولون: إنا نراه قد قتل و هو مسلم، و قدم مكة أبو الحيسر أنس بن رافع و هو فى فتية من قومه بنى عبد الأشهل يطالبون الحلف، فدعاهم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم إلى الإسلام، فقال رجل منهم اسمه إياس بن معاذ و كان شابا: هذا و الله خير مما قدمنا، فضربه أبو الحيسر و انتهره، فسكت، ثم لم يتم لهم الحلف، فانصرفوا إلى بلادهم، و مات إياس بن معاذ فقيل: إنه مات مسلما.

و قال رزين فى ذكر هذه القصة: ثم جاءت الأوس تطلب أن تحالف قريشا، فجاءهم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و عرض نفسه عليهم، و قال: اسمعوا منى، هل لكم فى خير مما جئتم له؟

و تلا عليهم القرآن، ثم قال: بايعونى و اتبعونى، فإنكم ستجمعون بى، فقال عمرو بن الجموح: هذا أى قوم و الله خير لكم مما جئتم له، فانتهروه، و قالوا: ما جئنا لهذا، و لم يقبلوا عليه، ثم انصرفوا، فكانت وقعة بعاث.

و قال ابن زبالة: إنه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يعرض نفسه على القبائل فيأبونه، حتى سمع بنفر من الأوس قدموا فى المنافرة التى كانت بينهم، فأتاهم فى رحالهم، فقالوا: من أنت؟ فانتسب لهم، و أخبرهم خبره، و قرأ عليهم القرآن، و ذكر أنهم أخواله، و سألهم أن يؤووه و يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه، فنظر بعضهم إلى بعض و قالوا: و الله هذا صادق، و إنه للنبى الذى يذكر أهل الكتاب و يستفتحون به عليكم، فاغتنموه و آمنوا به، فقالوا: أنت رسول الله، قد عرفناك و آمنا بك و صدقناك، فمرنا بأمرك فإنا لن نعصيك، فسر بذلك رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و جعل يختلف إليهم، و يزدادون فيه بصيرة، ثم أمرهم صلّى اللّه عليه و سلّم أن يدعوا قومهم إلى دينهم،

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۷۵

فسألوه أن يرتحل معهم، فقال: حتى يأذن لى ربى، فلحقوا بأهلهم المدينة، ثم شخصوا إليه فى الموسم فكان من أمر العقبة ما كان، و هو مخالف لما تقدم من أن النفر من الأوس لم يقبلوا.

و قد أخرج الحاكم و غيره بإسناد حسن عن على رضى الله عنه قال: لما أمر الله نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب و خرج و أنا معه و أبو بكر إلى منى حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، و تقدم أبو بكر و كان نسابة، فقال: من القوم؟ قالوا: ربيعة، فذكر حديثا طويلا فى مراجعتهم و توقفهم أخيرا عن الإجابة، ثم قال: ثم دفعنا إلى مجلس الأوس و الخزرج، و هم الذين سماهم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم الأنصار، لكونهم أجابوه إلى إيوائه و نصره، قال: فما نهضنا حتى بايعوا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم.

و قال ابن إسحاق فى ذكر العقبة الأولى: لما أراد الله عز و جل إظهار دينه خرج رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فى الموسم الذى لقى فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم، فبينا هو عند العقبة لقى رهطا من الخزرج، قال: أمن موالى يهود؟ قالوا: نعم، قال: أ فلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله، و عرض عليهم الإسلام، و كان مما صنع الله لهم فى الإسلام أن يهود كانوا معهم فى بلادهم، و كانوا أهل علم و كتاب، و كانوا هم أهل شرك أصحاب أوثان، و كانوا قد غزوهم فى بلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا لهم: إن نبيا مبعوث قد أظل زمانه نتبعه نقتلكم معه قتل عاد و إرم، فلما كلم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم أولئك النفر و دعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض: تعلموا إنه للنبى الذى توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، و قالوا له: إنا تركنا قومنا، و لا قوم بينهم من العداوة و الشر ما بينهم، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم ليدعوا قومهم، فلما جاءوهم لم يبق دار من دور قومهم إلا و فيها ذكر رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم قال: و هم- يعنى أصحاب العقبة الأولى- فيما ذكر لى ستة نفر من الخزرج، و هم: أبو أمامة أسعد بن زرارة، و عوف بن الحارث، كلاهما من بنى غنم بن مالك بن النجار، و رافع بن مالك بن العجلان الزرقى، و قطبة بن عامر بن حديدة، و جابر بن عبد الله بن رئاب، و عقبة بن عامر بن نابى، و هؤلاء الثلاثة من بنى سلمة.

و قال موسى بن عقبة عن الزهرى و أبى الأسود عن عروة: هم أسعد بن زرارة، و معاذ بن عفراء و هى أمه، و هو ابن عمرو بن الجموح من بنى غنم بن مالك بن النجار أيضا، و رافع بن مالك، و يزيد بن ثعلبة البلوى، ثم من بنى غصينة حليفهم، و أبو الهيثم

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۷۶

مالك بن التيهان الأوسى، ثم من بنى جشم أخى عبد الأشهل بن جشم، و عويم بن ساعدة الأوسى، ثم من بنى أمية بن زيد، و يقال: كان فيهم عبادة بن الصامت الخزرجى ثم من بنى غنم أخى سالم بن عوف، و ذكوان الزرقى، فيكونون ثمانية، و منهم من عدهم سبعة

فأسقط جابر بن عبد الله أو عبد الله بن زيد، و قيل: إنما أسلم فى العام الأول اثنان فقط، هما أسعد بن زرارة و ذكوان.

قال ابن إسحاق فى ذكر العقبة- يعنى: الثانية لما قدمه، و بعضهم يسميها الأولى-:

فلما كان الموسم- يعنى: من العام المقبل- وافاه منهم اثنا عشر رجلا، فذكر الستة الذين قدمهم غير جابر بن عبد الله، و زاد: ذكوان الزرقى، و عبادة بن الصامت، و يزيد بن ثعلبة، و العباس بن عبادة بن نضلة الغنمى السالمى الخزرجى، و معاذ بن عفراء، و أبو الهيثم بن التيهان، و عويم بن ساعدة، قال: فبايعهم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم عند العقبة على بيعة النساء: أى على وفق بيعة النساء التى نزلت بعد الفتح، عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً [الممتحنة: ۱۲] إلى آخر الآية، و لم يكن أمر بالقتال بعد، بل كان جميع ذلك قبل نزول الفرائض ما عدا التوحيد و الصلاة، و أرسل رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم معهم مصعب بن عمير ليفقههم فى الدين و يعلمهم الإسلام، فكان يصلى بهم، و قيل: بعثه إليهم بعد ذلك بطلبهم ليعلمهم و يقرئهم القرآن، فكان يسمى «المقرئ» و هو أول من سمى به، فنزل على أسعد بن زرارة، و قيل:

بعث إليهم مصعب بن عمير و ابن أم مكتوم؛ فكان مصعب بن عمير يؤمهم، و ذلك أن الأوس و الخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض، فجمّع بهم أول جمعة فى الإسلام، و فى الدارقطنى عن ابن عباس أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كتب إلى مصعب بن عمير أن يجمّع بهم فجمّع بهم و كانوا اثنى عشر.

قال الزهرى: و عند ابن إسحاق أول من جمّع بهم أبو أمامة أسعد بن زرارة، و فى أبى داود من طريق عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال: كان أبى إذا سمع الأذان للجمعة استغفر لأسعد بن زرارة، فسألته، فقال: كان أول من جمّع بنا فى هزم النبيت من حرة بنى بياضة فى نقيع يقال له نقيع الخضمات. قلت: كم أنتم يومئذ؟ قال: أربعون. قال البيهقى: و لا يخالف هذا ما روى عن الزهرى من تجميع مصعب بن عمير بهم و أنهم كانوا اثنى عشر؛ إذ مراد الزهرى أنه أقام الجمعة بمعونة النفر الاثنى عشر الذين بايعوا فى العقبة و بعثه صلّى اللّه عليه و سلّم فى صحبتهم أو على أثرهم حين كثر المسلمون، و منهم أسعد بن زرارة، فالزهرى أضاف التجمع إلى مصعب لكونه الإمام، و كعب أضافه إلى أسعد لنزول مصعب أولا عليه و نصره له و خروجه به إلى دور الأنصار يدعوهم إلى الإسلام، و أراد الزهرى بالاثنى عشر عدد الذين خرجوا به، و كانوا له ظهرا، و مراد كعب جميع من صلّى معه، هذا و قول كعب متصل، و قول الزهرى منقطع، اه.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۷۷

و روى الطبرانى مرسلا فى خبر طويل قال فيه عن عروة: ثم بعثوا إلى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم أن ابعث إلينا رجلا من قبلك يدعو الناس بكتاب الله؛ فإنه أدنى أن يتبع؛ فبعث إليهم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم مصعب بن عمير أخا بنى عبد الدار، فنزل فى بنى غنم على أسعد بن زرارة، فجعل يدعو الناس، و يفشو الإسلام، و هم فى ذلك مستخفون بدعائهم، ثم إن أسعد بن زرارة أقبل هو و مصعب بن عمير حتى أتيا مرقا أو قريبا منها، فجلسا هنالك، و بعثا إلى رهط من أهل الأرض، فأتوهم مستخفين، فبينا مصعب بن عمير يحدثهم و يقص عليهم القرآن أخبر بهم سعد بن معاذ، فأتاهم فى لأمته و معه الرمح حتى وقف عليه فقال: غلام يأتينا فى دارنا، هذا الوحيد الفريد الطريد الغريب ليسفه ضعفاءنا بالباطل و يدعوهم، لا أراكما بعد هذا بشىء من جوارنا، فرجعوا، ثم إنهم عادوا الثانية ببئر مرق أو قريبا منها فأخبر بهم سعد بن معاذ الثانية، فتوعدهم بوعيد دون الأول، فلما رأى أسعد منه اللين قال: يا ابن خالة، اسمع من قوله، فإن سمعت منكرا فارده بأهدى منه، و إن سمعت خيرا فأجب إليه، فقال: ما ذا يقول؟ فقرأ عليه مصعب: حم (۱) وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ (۲) إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [الزخرف: ۱- ۳] فقال سعد: و ما أسمع إلا ما أعرف، فرجع و قد هداه الله، و لم يظهر أمر الإسلام حتى رجع إلى قومه، فدعا بنى عبد الأشهل إلى الإسلام و أظهر إسلامه، و قال: من شك فيه من صغير أو كبير فليأتنا بأهدى منه، فو الله لقد جاء أمر لتحزّنّ فيه الرقاب، فأسلمت بنو عبد الأشهل عند إسلامه و دعائه إلا من لا يذكر فكانت أول دار من دور الأنصار أسلمت بأسرها، ثم إن بنى النجار اشتدوا على أسعد بن زرارة، و أخرجوا مصعب بن عمير، فانتقل إلى سعد بن معاذ، فلم

يزل يدعو و يهدى على يديه، حتى قل دار من دور الأنصار إلا أسلم فيها ناس، و أسلم أشرافهم، و أسلم عمرو بن الجموح، و كسرت أصنامهم، فكان المسلمون أمر أهلها، و رجع مصعب بن عمير إلى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم اه.

و قد روى هذه القصة ابن إسحاق عمن سمى من شيوخه بزيادة و نقص، فقال: إن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بنى عبد الأشهل و دار بنى ظفر، فدخل به حائطا من حوائط بنى ظفر على بئر يقال لها بئر مرق، فجلسا فيه و اجتمع إليهما رجال ممن أسلم، فلما سمع بذلك سعد بن معاذ و أسيد بن حضير- و هما يومئذ سيدا قومهما بنى عبد الأشهل- و كلاهما مشرك، قال سعد لأسيد: لا- أبا لك! انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما و انههما عن أن يأتيا دارينا؛ فإنه لو لا أن أسعد

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۷۸

ابن زرارة منى حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتى، فأخذ أسيد حربته ثم أقبل إليهما فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه، قال: فوقف عليهما متشتما، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا، اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع؛ فإن رضيت أمرا قبلته، و إن كرهته كف عنك ما تكره، قال: أنصفت، ثم ركز حربته و جلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، و قرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: و الله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، ثم قال: ما أحسن هذا و أجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهر، و تطهر ثيابك ثم تتشهد شهادة الحق، ثم تصلى، فقام ففعل ذلك، ثم قال لهما: إن ورائى رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، و سأرسله إليكما الآن سعد بن معاذ، ثم انصرف إلى سعد و قومه و هم جلوس فى ناديهم، فلما نظر إليه سعد مقبلا قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به، فلما وقف على النادى قال له سعد: ما فعلت؟ قال:

كلمات الرجلين فو الله ما رأيت بهما بأسا، و قد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، و قد حدثت أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، و ذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك، فقام سعد مغضبا مبادرا متخوفا للذى ذكر له، فأخذ الحربة من يده ثم قال: و الله ما أراك أغنيت شيئا، ثم خرج إليهما، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدا إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتما ثم قال: يا أبا أمامة، أما و الله لو لا ما بينى و بينك من القرابة ما رمت هذا منى، أتغشانا فى دارينا بما نكره، و قد قال أسعد لمصعب بن عمير أى مصعب، جاءك و الله سيد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا- يتخلف عنك منهم اثنان، فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرا و رغبت فيه قبلته و إن كرهته عزلنا عنك ما تكره، قال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة فجلس، فعرض عليه الإسلام، و قرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا و الله فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه و تسهله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم؟ فذكرا له ما تقدم، ففعله، ثم أقبل عامر إلى نادى قومه و معه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلا قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به، فلما وقف عليهم قال: يا بنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا، أفضلنا رأيا، و أيماننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم و نسائكم حرام على حتى تؤمنوا بالله و رسوله، قال: فو الله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل و لا امرأة إلا

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۷۹

مسلما أو مسلمة، و رجع مصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا و فيها رجال و نساء مسلمون، إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد و خطمة و وائل و واقف، و تلك أوس الله، و ذلك أنه كان فيهم أبو قيس ابن صيفى بن الأسلت، و كان شاعرا لهم قائدا يسمعون منه و يطيعون، فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجر رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و مضى بدر و أحد و الخندق، ثم أسلموا كلهم.

و فى التأريخ الأوسط للبخارى أن أهل مكة سمعوا هاتفا يهتف قبل إسلام سعد بن معاذ:

فإن يسلم السّعدان يصبح محمد بمكّة لا يخشى خلاف المخالف

فيا سعد سعد الأوس كن أنت ناصرا و يا سعد سعد الخزرجين الغطارف

أجيبا إلى داعى الهدى و تمنّيا على الله فى الفردوس منية عارف

فى أبيات أخرى.

و ذكر لها رزين سببا آخر كما سيأتى، و هذا أصح، و لم يذكر ابن إسحاق فى الخبر المتقدم إسلام عمرو بن الجموح، بل ذكره بعد ذكر العقبة الآتية كما سنذكره، نعم ابنه معاذ شهد العقبة.

الفصل الثامن فى العقبة الكبرى

اشارة

و بعضهم يسميها العقبة الثانية، و مقتضى ما قدمناه أن تسمى الثالثة.

قال ابن إسحاق: ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة و خرج من خرج من الأنصار من المسلمين للقائهم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و مبايعته فى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك، حتى قدموا مكة، فواعدوا رسول الله صلى اللّه عليه و سلّم العقبة من أوسط أيام التشريق، حين أراد الله بهم ما أراد: من كرامته، و النصر لنبيه، و إعزاز الإسلام و أهله، و إذلال الشرك و أهله.

و روى ابن إسحاق و صححه ابن حبان من طريقه عن كعب بن مالك قال: خرجنا حجاجا مع مشركى قومنا، و قد صلينا و فقهنا، و معنا البراء بن معرور سيدنا و كبيرنا، فذكر شأن صلاته إلى الكعبة، قال: فلما وصلنا إلى مكة و لم نكن رأينا رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم قبل ذلك، فسألنا عنه، فقيل: هو مع العباس فى المسجد، فدخلنا فجلسنا إليه، فسأله البراء عن القبلة، ثم خرجنا إلى الحج و واعدناه العقبة، فلما كانت الليلة التى واعدنا رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم لها. و كنا نكتم من معنا من المشركين أمرنا و معنا عبد الله بن عمرو والد

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۸۰

جابر. و لم يكن أسلم قبل، فعرفناه أمر الإسلام، فأسلم حينئذ و صار من النقباء، قال:

فنمنا تلك الليلة فى قومنا فى رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم تسلل القطا مستخفين، فاجتمعنا فى الشعب عند العقبة ثلاثة و سبعين رجلا، و معنا امرأتان: أم عمارة بنت كعب إحدى نساء بنى مازن، و أسماء بنت عمر بن عدى إحدى نساء بنى سلمة، قال: فجاء و معه العباس، فتكلم فقال: إن محمدا منا من حيث علمتم، و قد منعناه، و هو فى عز، و قد أبى إلا الانحياز إليكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه و مانعوه ممن خالفه فأنتم و ذاك، و إلا فمن الآن، قال: فقلنا:

قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك و لربك ما أحببت، فتكلم، فدعا إلى الله، و قرأ القرآن، و رغب فى الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم و أبناءكم، قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، فقال: نعم و الذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله فنحن و الله أصحاب الحروب و أهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر، فاعترض القول و البراء يكلم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله، إن بيننا و بين الرجال- يعنى اليهود- حبالا و نحن قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك و تدعنا، قال: فتبسم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ثم قال: بل الدم الدم و الهدم الهدم، أنا منكم و أنتم منى، أحارب من حاربتم و أسالم من سالمتم، و قال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا يكونون على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا، تسعة من الخزرج، و ثلاثة من الأوس:

فمن الخزرج أسعد بن زرارة نقيب بنى النجار، و سعد بن الربيع و عبد الله بن رواحة نقيبا بنى الحارث بن الخزرج و رافع بن مالك بن العجلان نقيب بنى زريق، و البراء بن معرور و عبد الله بن عمرو بن حرام نقيبا بنى سلمة، و عبادة بن الصامت نقيب القبائل و فى الطبرانى أنه نقيب بنى عدى من الخزرج، فكأنه نقيب الجميع، و سعد بن عبادة، و المنذر بن عمرو نقيبا بنى ساعدة- و من الأوس أسيد بن حضير نقيب بنى عبد الأشهل، و سعد بن خيثمة و رفاعة بن عبد المنذر نقيبا بنى عمرو بن عوف.

قال ابن إسحاق: و أهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التيهان، و لا يعدون رفاعة.

قلت: فيكون أبو الهيثم نقيبا ثانيا لبنى عبد الأشهل فإنه منهم، و قد صرحوا به.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۸۱

و جعل صلّى اللّه عليه و سلّم النقباء على عدة الأسباط، و روى أنه نقب على النقباء أسعد بن زرارة، فتوفى بعد و المسجد النبوى يا بنى، قيل: فاجتمعت بنو النجار إلى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و سألوه أن يجعل منهم شخصا بدله نقيبا عليهم، فقال لهم: أنتم أخوالى، و أنا فيكم، و أنا نقيبكم، و كره صلّى اللّه عليه و سلّم أن يخص بها بعضهم دون بعض، فكان ذلك من فضل بنى النجار الذى يعدون.

قال ابن إسحاق: و حدثنى عبد الله بن أبى بكر بن حزم أن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم قال للنقباء: أنتم كفلاء على قومكم كفالة الحواريين لعيسى بن مريم، قالوا: نعم.

و حدث عاصم بن عمر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا للبيعة قال العباس بن عبادة بن نضلة أخو بنى سالم بن عوف: يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟

قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر و الأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة و أشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن، فهو و الله إن فعلتم خزى الدنيا و الآخرة. و إن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على ما ذكرت لكم فهو و الله خير الدنيا و الآخرة، قالوا: فإنا نأخذه على ما قلت، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: الجنة، قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه.

قال عاصم: ما قال ذلك العباس إلا ليشد العقد فى أعناقهم، و قال غيره: أراد التأخير تلك الليلة رجاء أن يحضر عبد الله بن أبى بن سلول فيكون أقوى للأمر.

أول من بايع

قال ابن إسحاق: فبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أول من ضرب على يده، و بنو عبد الأشهل يقولون: بل أبو الهيثم بن التيهان، و فى حديث كعب المتقدم أنه البراء ابن معرور، ثم بايع القوم.

و فى المستدرك عن ابن عباس: كان البراء بن معرور أول من بايع رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بيعة العقبة، و عند أحمد عن جابر و عند الحاكم فى الإكليل عن كعب بن مالك: قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله اشترط لربك و لنفسك ما شئت، فقال: أشترط لربى أن تعبدوه و لا تشركوا به شيئا، و أشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم، قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: الجنة، قالوا: ربح البيع، لا نقيل و لا نستقيل، فنزل إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ [التوبة: ۱۱۱] الآية.

و فى حديث كعب المتقدم بعد ذكر صراخ الشيطان أن العباس بن نضلة قال للنبى

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۸۲

صلّى اللّه عليه و سلّم: و الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا، فقال صلّى اللّه عليه و سلّم: لم أومر بذلك، و لكن ارجعوا إلى رحالكم، فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها، فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاءونا فى منازلنا فقالوا: يا معشر

الخزرج، إنه بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا و تبايعونه على حربنا، و إنه و الله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تشب الحرب بيننا و بينهم منكم، فانبعث من هناك من مشركى قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء، و ما علمناه، و لقد صدقوا لم يعلموه.

و فى حديث غير كعب أنهم أتوا عبد الله بن أبى، فقال لهم: إن هذا الأمر جسيم، ما كان قومى ليتفوتوا على بمثل هذا، و ما علمته كان، و روى أن مشركى الأنصار الذين حجوا فى ذلك العام كانوا خمسمائة نفر، و أن أهل العقبة كانوا سبعين نفرا.

عدة أهل البيعة

و فى لفظ عن ابن إسحاق: من الأوس أحد عشر رجلا- و من القبائل أربعة نفر حلفاء الخزرج، و كان من بنى الحارث بن الخزرج اثنان و ستون رجلا، فكأنه أدخل فى الخزرج حلفاءهم الأربعة، و إلا فتزيد العدة على ثلاثة و سبعين أربعة.

و روى رزين أن أهل العقبة كانوا سبعين رجلا و امرأتان؛ فإنه روى حديث العقبة هذه عن عبادة بن الصامت بنحو حديث كعب المتقدم، فقال: قال عبادة بن الصامت: فلما كان العام المقبل أتينا رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و نحن سبعون رجلا و امرأتان من قومنا، فواعدنا رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم عند مسجد شعب العقبة، عن يسارك و أنت ذاهب إلى منى، فلما توافينا عنده جاء رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و معه عمه العباس، و قال: يا معشر الخزرج، و هذا الاسم يغلب على الأوس و الخزرج جميعا إذ ذاك، إن محمدا منا حيث علمتم، و قد منعناه كما بلغكم، فإن كنتم تعلمون أنكم تقدرون على منعه، و إلا فذروه فهو مع قومه فى عز و منعة، فقام البراء بن معرور فقال: قد سمعنا ما قلت، و إنا ما ضربنا إليه أكباد الإبل إلا و قد علمنا أنه نبى، فبايعنا يا رسول الله، و اشترط لنفسك و لربك ما شئت، فحمد الله رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و دعا إلى الله، و رغّب فى الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم، فأخذ البراء بيده، و قال: نعم و الذى بعثك بالحق نبيا لنمنعك مما نمنع منه أزرنا، و نحن أهل الحلقة و الحصون و الحروب، فقام أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله إن بيننا و بين الرجال حبالا، و نحن قاطعوها، فهل عسيت إن نصرك الله أن ترجع إلى قومك و تدعنا، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: بل الدم الدم و الهدم الهدم، المحيا محياكم، و الممات مماتكم، و أحارب من حاربكم، و أسالم من سالمكم، أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا يكونوا نقباء على الناس، فأخرجوا تسعة من الخزرج و ثلاثة من

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۸۳

الأوس، فبينما هم فى ذلك إذ صرخ الشيطان يقول: يا أهل الجباجب، و هى المنازل، هل لكم فى الصباة قد اجتمعوا على حربكم، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم هذا أزب العقبة لأفرغن لك أى عدو الله، ارجعوا إلى رحالكم، نصركم الله، فقال له العباس بن عبادة بن نضلة:

و الذى بعثك بالحق نبيا لئن شئت لنميلن بأسيافنا غدا على منى، فقال له: لم أومر بذلك، ثم ذكر قصة كلام قريش فى ذلك و حلف مشركى قومهم لهم عن ذلك، قال: ثم إنهم قالوا لرسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: أ تخرج معنا؟ قال: ما أمرت به.

قال رزين: و قد قيل إنه وقع بين قريش و الأنصار كلام فى سبب خروج النبى صلّى اللّه عليه و سلّم معهم، ثم ألقى الرعب فى قلوب قريش فقالوا: ليس يخرج معكم إلا فى بعض أشهر السنة، و لا يتحدث العرب بأنكم غلبتمونا، فقالت الأنصار: الأمر فى ذلك لرسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و نحن سامعون لأمره، فأنزل الله على رسوله وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ [الأنفال: ۶۲] أى: إن كان كفار قريش يريدون المكر بك فسيمكر الله بهم، فانصرفت الأنصار إلى المدينة.

و قيل: إن قريشا بدا لهم فخرجوا فى آثارهم، فأدركوا منهم رجلين كانا تخلفا فى أمر، فردوهما إلى مكة: المنذر، و عباس بن عبادة، فأدركهما جبير بن مطعم و الحارث بن أمية، فخلصاهما و لحقا أصحابهما.

قلت: و الـذى ذكره غيره أن الرجلين هما المنذر و سـعد بن عبادة، فأما المنذر فأعجز القوم و نجا، و أما سـعد فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بنسـع رحله، ثم أقبلوا به حـتى أدخلوه مكـة يضـربونه و يجـذبونه بجمته، و كـان ذا شـعر كـثير، ثم خلصه منهم جـبير بن مطعم و الحارث بن أميهٔ؛ لأنه كان يجير لهما تجارهما و يمنعهم أن يظلموا ببلده.

إسلام عمرو بن الجموح

و ذكر رزين عقب ما تقدم عنه إسـلام عمرو بن الجموح كما ذكره أهل السـير عقب ذلك أيضا، و كان عمرو شـيخا كيرا من سادات بنى سـلمهٔ، و شهد معاذ ابنه العقبهٔ، و كان لعمرو فى داره صنم من خشب يعبده يدعى مناهٔ، فكان معاذ ابنه و معاذ بن جبل و فتيان بنى سلمـهٔ يدلجون بالليل على صـنم عمرو فيطرحونه فى بعض حفر بنى سـلمهٔ و فيها عذر الناس منكسا على رأسه، فإذا أصـبح قال عمرو: من عـدا على إلهنا هـذه الليلـهٔ؟ ثم يغدو يلتمسه، حتى إذ وجده غسـله و طيبه ثم يقول: و الله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزيته، فتكرر ذلك، فطهره يوما و طيبه ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال: إنى و الله لا أعلم من يصنع بك

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۸۴

ما ترى، فإن كان فيك خير فامتنع فهـذا السـيف معك، فلما نام أخذوا السـيف و قرنوا كلبا ميتا بالصـنم بحبل ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سـلمهٔ فيها عذر، فلم يجده عمرو فى مكانه، فخرج حتى وجده كذلك، فلما أبصـر ما به و كلمه من أسـلم من قومه فأسلم و حسن إسلامه، و قال فى ذلك:

و الله لو كنت إلها لم تكن أنت و كلب وسط بئر فى قرن

أفّ لملقاك إلها مستدن الآن فتّشناك عن سوء الغبن

الحمد لله العلى ذى المنن الواهب الرزاق ديّان الدين

هو الذى أنقذنى من قبل أن أكون فى ظلمهٔ قبر مرتهن

الفصل التاسع فى هجرهٔ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إليها

رؤيا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم دار هجرته

روينـا فى الصـحيحين حـديث «رأيت أنى أهـاجر من مكـهٔ إلى أرض بهـا نخل، فـذهب و هلى إلى اليمامـهٔ أو هجر، فإذا هى المـدينهٔ يـثرب» و وقع للـبيهقى من حـديث صـهيب «أريت دار هجرتكم سـبخهٔ بين ظهرانى حرّتين، فإمـا أن يكون هجر أو يثرب» و لم يـذكر اليمامهٔ، و للترمذى من حديث جرير «أوحى إلى: أى هؤلاء الثلاثهٔ نزلت فهى دار هجرتك، المدينهٔ أو البحرين أو قنسرين» و استغربه، و فيه نظر؛ لمخالفته لما فى الصـحيح من ذكر اليمامهٔ، و أما هجر فيصح التعبير بها عنها لكونها من بلاد البحرين، و أما قنسرين فهى من أرض الشام، و يحتمل أن يكون أرى ما فى الصحيح و أوحى إليه بالتخيير قبل أو بعد، فاختار المدينهٔ.

و قـال ابن التين: أرى النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم أولاـ دار هجرته بصـفهٔ تجمع المدينـهٔ و غيرهـا، ثم أرى الصـفهٔ المختصـهٔ بالمـدينهٔ فتعينت.

إذن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لأصحابه فى الهجرهٔ

ثم أذن النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم لأصـحابه فى الهجرهٔ إلى المدينـهٔ، و أقام بمكـهٔ ينتظر أن يؤذن له فى الخروج، فتوجه بين العقبتين جماعهٔ منهم ابن أم مكتوم، و يقال: إن أول من هاجر إلى المدينهٔ أبو سلمهٔ عبد الأسد المخزومى زوج أم سلمهٔ، و ذلك أنه أوذى لما

رجع من الحبشة، فعزم على الرجوع إليهما، ثم بلغة قصة الاثنى عشر من الأنصار فتوجه إلى المدينة، فقدمها بكرة، و قدم بعده عامر بن ربيعة عشية، ثم توجه مصعب بن عمير ليفقه من أسلم من الأنصار كما تقدم، ثم توالى خروجهم بعد العقبة الأخيرة، فخرجوا أرسالا:

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۸۵

منهم عمر بن الخطاب، و أخوه زيد، و طلحة بن عبيد الله، و صهيب، و حمزة بن عبد المطلب، و زيد بن حارثة، و عبيدة بن الحارث، و عبد الرحمن بن عوف، و الزبير، و عثمان بن عفان، و غيرهم، حتى لم يبق معه صلّى اللّه عليه و سلّم بمكة إلا على بن أبى طالب و الصديق رضى الله عنهما، كذا قاله ابن إسحاق و غيره، و الظاهر أن المراد لم يبق من أعيانهم؛ لما روى من أن من كان بمكة ممن يطيق الخروج من المسلمين خرجوا بعد خروجه صلّى اللّه عليه و سلّم من مكة، فطلبهم أبو سفيان و غيره من المشركين، فردوهم و سجنوهم، فافتتن منهم ناس؛ ففى هذا دلالة على بقاء جماعة غير الصديق و على رضى الله عنهما مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم حينئذ، فلما رأت قريش ذلك علموا أن أصحابه قد أصابوا منعة، و نزلوا دارا، فحذروا خروج رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم إليهم، فاجتمعوا بدار الندوة ليأتمروا فى أمر رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و فيهم أبو جهل، و زعم ابن دريد فى الوشاح أنهم كانوا أنهم كانوا خمسة عشر رجلا، و فى المولد لابن دحية كانوا مائة رجل، و جاءهم إبليس فى صورة شيخ نجدى فقال: أدخلونى معكم، فلن تعدموا منى رأيا، فأدخلوه، فقال بعضهم: نخرجه من بين أظهرنا، و قال آخرون: بل نحبسه و لا يطعم حتى يموت، فقال أبو جهل: قد رأيت أصلح من رأيكم: أن يعطى خمس رجال من خمس قبائل سيفا سيفا فيضربونه ضربة رجل، فيتفرق دمه فى هذه البطون، فلا يقدر لكم بنو هاشم على شىء، فقال النجدى: لا أرى غير هذا، فأخبر جبريل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فأنزل الله على نبيه: وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ [الأنفال: ۳۰] فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لعلى: نم على فراشى و تسجّ ببردى فلن يخلص إليك منهم أمر، فترد هذه الودائع إلى أهلها، لأن كفار قريش كانت تودع عنده لأمانته، و كان اسمه عندهم الأمين الصادق، و أتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أبا بكر الصديق فأعلمه، و قال: قد أذن لى، فقال: الصحبة يا رسول الله، و كان إنما حبس نفسه عليه لما ثبت فى الصحيح أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لما ذكر لأصحابه رؤياه المتقدمة هاجر من هاجر منهم قبل المدينة و رجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، و تجهز أبو بكر قبل المدينة، فقال له النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: على رسلك فإنى أرجو أن يؤذن لى، فقال له:

و هل ترجو ذلك بأبى أنت و أمى؟ قال: نعم، فحبس نفسه على رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم ليصحبه، و كان عمر قد تقدم إلى المدينة، و علف أبو بكر راحلتين كانت عنده الخبط أربعة أشهر، فعرض على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إحداهما، فقال: بالثمن، و فى رواية ابن إسحاق قال: لا أركب بعيرا ليس هو لى، فقال: فهو لك، قال: لا و لكن بالثمن الذى ابتعتها به، قال: أخذتها

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۸۶

بكذا و كذا، قال: قد أخذتها بذلك، قال: هى لك، و الحكمة فيه- كما أفاده بعضهم- أنه صلّى اللّه عليه و سلّم أحب ألّا تكون هجرته إلا من مال نفسه، و ذكر ابن إسحاق أن الناقة التى أخذها هى الجدعاء، و أنها كانت من إبل بنى الحريش، و كذا فى رواية أخرجها ابن حبان، و أنها الجدعاء، و أفاد الواقدى أن الثمن كان ثمان مائة درهم، و أن المأخوذة هى القصوى، و أنها كانت من نعم بنى قشير، و أنها عاشت حتى ماتت فى خلافة الصديق، و كانت مرسلة ترعى فى النقيع، و فى طبقات ابن سعد أن ثمنها ثمان مائة درهم، اشتراها أبو بكر من نعم بنى قشير، و أخذ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم منه القصوى بثمنها، و سيأتى من رواية يحيى الحسينى أيضا أنها القصوى، و جاء عن ابن عباس أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أذن له فى الهجرة إلى المدينة بقوله تعالى:

وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ اجْعَلْ لِى مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً [الإسراء:

۸۰] أخرجه الترمذى و صححه هو و الحاكم، فذهب أبو بكر إلى عبد الله بن أريقط قاله ابن عقبة. و فى تهذيب ابن هشام «عبد الله بن أرقد» و فى رواية الأموى عن ابن إسحاق «ابن أريقد» و فى الغنية عن مالك اسمه «رقيط من بنى الديل من كنانة» فاستأجره، و كان

هاديا خرّيتا: أى ماهرا بالهداية، و كان على دين الكفار. قال النووى: لا نعلم له إسلاما، فأمره أن يأتيهما بعد ثلاث فى غار ثور، ثم انصرف رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم إلى منزله، فجاءه على رضى الله عنه، و اجتمعت قريش على باب الدار ليقتلوه بزعمهم، فقال لهم أبو جهل: لا- تقتلوه حتى يجتمعوا، يعنى الخمسة من القبائل الخمس، و جعل يقول لهم: هذا محمد كان يزعم لكم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوك العرب و العجم، و يكون لكم فى الآخرة جنات تأكلون منها، و إن لم تتابعوه يكون له فيكم ذبح فى الدنيا، و يوم القيامة نار تحرقون فيها، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: نعم و الله كذا أقول، و كذا يكون، و أنت أحدهم، ثم أخذ حفنة من تراب فرماها فى وجوههم، فأخذ على أبصارهم و لم على أصمختهم فجعل على رأس كل رجل منهم ترابا و هو يقرأ أول سورة يس يستتر بها منهم إلى «فهم لا يبصرون» و تلا: وَ إِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً [الإسراء: ۴۵] ثم أتى منزل أبى بكر، فخرجا من خوخة كانت له، و أتيا غار ثور، و أقام المشركون ساعة، فجعلوا يتحدثون، فجاءهم رجل كان إذ ذاك بعيدا منهم فقال لهم: و ما تنتظرون؟

فقالوا: أن نصبح فنقتل محمدا، قال: قبحكم الله و خيبكم، أو ليس قد خرج عليكم و جعل على رءوسكم التراب، قال أبو جهل: أو ليس هو ذاك مسجى ببرده؟ الآن كلمنا، فلما أصبحوا قام على من الفراش، فقال أبو جهل: صدقنا ذلك المخبر، فاجتمعت قريش،

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۸۷

و أخذت الطرق، و جعلت الجعائل لمن جاء به، فانصرفت أعينهم و لم يجدوا شيئا، فجاء الديلى بعد ثلاث بالراحلتين، و لا ينافى هذا ما وقع فى رواية هشام بن عروة عند ابن حبان حيث قال: فركبا حتى أتيا الغار فتواريا؛ لاحتمال أنهما ركبا غير هاتين الراحلتين، أو هما ثم ذهب بهما عامر بن فهيرة إلى الديلى.

و ذكر موسى بن عقبة عن ابن شهاب فى الحديث المتقدم أن عليا رقد على فراش رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يورى عنه، و باتت قريش تحلف و تأتمر، أيهم يهجم على صاحب الفراش فيوثقه، حتى أصبحوا فإذا بعلى، فسألوه فقال: لا علم لى، فعلموا أنه فر منهم.

و روى أحمد بإسناد حسن عن ابن عباس فى قوله تعالى: وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا الآية فذكر تشاور قريش ثم قال: فبات على على فراشه صلّى اللّه عليه و سلّم و خرج هو حتى لحق بالغار، و بات المشركون يحرسون عليا يحسبونه رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يعنى ينتظرونه حتى يقوم فيفعلون به ما اتفقوا عليه، فلما أصبحوا و رأوا عليا رد الله مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال:

لا- أدرى، فاقتصّوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا الجبل، فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليال، و ذكر نحوه موسى بن عقبة عن الزهرى، و كله مقتض لأن الخروج إلى الغار كان فى بقية تلك الليلة، و كان ذلك بعد العقبة شهرين و ليال، و قال الحاكم: بثلاثة أشهر أو قريبا منهم، و يرجح الأول ما جزم به ابن إسحاق من أنه خرج أول يوم من ربيع الأول؛ فيكون بعد العقبة بشهرين و بضعة عشر يوما، و كذا جزم به الأموى، فقال: خرج لهلال ربيع الأول، و قدم المدينة لاثنى عشر خلت منه، و على هذا كان خروجه يوم الخميس، و هو الذى ذكره محمد بن موسى، لكن قال الحاكم: تواترت الأخبار بأن الخروج كان يوم الإثنين، و جمع الحافظ ابن حجر بأن خروجه من مكة كان يوم الخميس: أى فى أثناء ليلته لما قدمناه، و خروجه من الغار- يعنى غار ثور- ليلة الإثنين؛ لأنه أقام فيه ثلاث ليال، و من روى ليلتين لعله لم يحسب أول ليلة، و أما حديث الحاكم «لبثت مع صاحبى» يعنى: أبا بكر «فى الغار بضعة عشر يوما، ما لنا طعام إلا ثمر البرير» أى الأراك، فقال الحاكم: معناه مكثنا مختفين من الكفار فى الغار و فى الطريق بضعة عشر يوما، و قال الحافظ ابن حجر: الذى يظهر أنها قصة أخرى، لما فى الصحيح من أن عامر بن فهيرة كان يروح عليهما فى الغار باللبن، و كذا قصة نزولهما بخيمة أم معبد، و غير ذلك، و كان مدة مقامه صلّى اللّه عليه و سلّم بمكة بعد النبوة بضع عشر سنة. و قال عروة:

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۸۸

عشرا، و قال ابن عباس: خمس عشر سنة، و فى رواية عنه: ثلاث عشرة، و لم يعلم بخروجه إلا على و آل أبى بكر، و كان من قصة

نسج العنكبوت و غيره من أمر الغار ما كان، و انطلق رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و أبو بكر، و معهما عامر بن فهيرة يخدمهما يردفه أبو بكر و يعقبه، و الدليل، فأخذ بهم فى أسفل مكة حتى أتى بهما طريق السواحل أسفل من عسفان، ثم عارض الطريق على أمج، ثم نزل من قديد خيام أم معبد الخزاعية من بنى كعب، و بقية المنازل إلى قباء ذكرها ابن زبالة، و قد أوضحناه فى الأصل، و اتفق فى مسيرهم قصة سراقة عارضهم يوم الثلاثاء بقديد على ما ذكره ابن سعد و غيرها من القصص المشتملة على الآيات البينات.

قال رزين: و أقامت قريش أياما لا يدرون أين أخذ محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فسمعوا صوتا على أبى قبيس و هو يقول:

فإن يسلم السّعدان يصبح محمد من الأمن لا يخشى خلاف المخالف

فقالت قريش: لو علمنا من السعدان، فقال:

أيا سعد سعد الأوس كن أنت مانعا و يا سعد سعد الخزرجين الغطارف

أجيبا إلى داعى الهدى و تبوّءا من الله فى الفردوس زلفة عارف

فعلموا إذ ذاك أنه أخذ طريق المدينة.

قلت: و الأقرب ما تقدم من إنشاد هذه الأبيات قبل ذلك؛ لأن السعدين كانا قد أسلما قبل، ثم سمعوا قائلا بأسفل مكة لا يرى يقول:

جزى الله ربّ الناس خير جزائه رفيقين قالا: خيمتى أم معبد

قصة أم معبد

قلت: و روى هذا مع الأبيات الآتية مما سمع حينئذ، و قيل: سمعوا هاتفا على أبى قبيس يقول:

جزى الله خيرا و الجزاء بكفه رفيقين قالا خيمتى أمّ معبد

هما رحلا بالحقّ و انتزلا به فقد فاز من أمسى رفيق محمد

فما حملت من ناقة فوق رحلها أبرّ و أوفى ذمة من محمد

و أكسى لبرد الخال قبل ابتذله و أعطى لرأس السانح المتجدد

ليهن بنى كعب مكان فتاتهم و مقعدها للمؤمنين بمرصد

و كان رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم قد مرّ بأم معبد، فاستسقاها لبنا، فقالت: ما عندنا من لبن،

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۸۹

و نحن فى سنة، فنظر إلى شاة قد نحلت عجفاء من الهزال، فقال: قرّبى لى هذه الشاة، فقربتها، فمسح ضرعها بيده المباركة و سمّى و دعا، ثم قال: هات قدحا، فجاءت بقدح، فحلب فيه حتى امتلأ، فأمر أبا بكر أن يشرب، فقال: بل أنت فاشرب يا رسول الله، قال: ساقى القوم آخرهم شربا، فشرب أبو بكر، ثم حلب فشرب رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم ثم حلب فشربت أم معبد، ثم حلب فقال: ارفعى هذا لأبى معبد إذا جاءك، ثم ركبوا و ساروا، فلما أتى أبو معبد أخبرته بما رأت، و سقته اللبن، فعلم أنه رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فركب راحلته و خرج فى أثره يطلب أن يسلم، فقيل: إنه قال فى طريقه:

جزى الله ربّ الناس خير جزائه رفيقين قالا خيمتى أم معبد

هما نزلاها بالهدى فاهتدت به فقد فاز من أمسى رفيق محمد

فيا لقصىّ ما زوى الله عنكم به من فعال لا تجارى و سودد

ليهن بنى كعب مكان فتاتهم و مقعدها للمؤمنين بمرصد

سلوا أختكم عن شاتها و إنائها فإنكم إن تسألوا الشّاة تشهد

دعاها بشاة حائل فتحلّبت له بصريح ضرة الشاة مزبد

فغادرها رهنا لديها لحالب يرددها فى مصدر ثم مورد

و قال الشرقى: بلغنى أن أبا معبد أدركهما ببطن ريم، فبايع رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و انصرف.

قلت: و ذكر غير رزين هذه الأبيات كلها فيما سمع بأسفل مكة من القائل الذى لا يدرون، فلما سمع حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بذلك جعل يجاوب الهاتف و يقول:

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم و قدّس من يسرى إليهم و يغتدى

ترحّل عن قوم فضلت عقولهم و حلّ على قوم بنور مجدّد

هداهم به بعد الضلالة ربّهم و أرشدهم؛ من يتبع الحق يرشد

و هل يستوى ضلّال قوم تسكعوا عمى و هداة يهتدون بمهتد

لقد نزلت منه على أهل يثرب ركاب هدى رحّلت عليهم بأسعد

نبى يرى ما لا يرى الناس حوله و يتلو كتاب الله فى كل مسجد

و إن قال فى يوم مقالة غائب فتصديقها فى اليوم أو فى ضحى غد

ليهن أبا بكر سعادة جدّه بصحبته؛ من يسعد الله يسعد

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۹۰

خروج أبى بريدة لاستقبال الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم

قال أبو سليمان الخطابى: لما شارف النبى صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة لقيه بريدة الأسلمى فى سبعين من قومه بنى أسلم، فقال: من أنت؟ قال: بريدة فقال لأبى بكر: برد أمرنا و صلح، ثم قال: ممن؟ قال: من أسلم، قال: سلمنا، ثم قال: ممن؟ قال: من بنى سهم، قال: خرج سهمنا.

و قد روى ابن الجوزى فى شرف المصطفى من طريق البيهقى موصولا إلى بريدة قال: كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لا يتطير، و كان يتفاءل، و كانت قريش جعلت مائة من الإبل لمن يأخذ نبى الله صلّى اللّه عليه و سلّم فيرده إليهم حين توجه إلى المدينة، فركب بريدة فى سبعين راكبا من أهل بيته من بنى سهم، فلقى نبى الله صلّى اللّه عليه و سلّم فقال نبى الله صلّى اللّه عليه و سلّم: من أنت؟ قال: أنا بريدة، فالتفت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه فقال: يا أبا بكر، برد أمرنا و صلح، ثم قال صلّى اللّه عليه و سلّم: ممن أنت؟ قال: من أسلم، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم لأبى بكر: سلمنا، ثم قال: ممن؟

قال: من بنى سهم، قال: خرج سهمك، فقال بريدة للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم: من أنت؟ قال: أنا محمد بن عبد الله رسول الله، فقال بريدة: أشهد أن لا إله إلا الله، و أشهد أن محمدا عبده و رسوله، فأسلم بريدة و أسلم من كان معه جميعا، فلما أصبح قال بريدة للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم:

لا تدخل المدينة إلا و معك لواء، فحل عمامته ثم شدّها فى رمح ثم مشى بين يديه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول الله تنزل على من؟ فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: إن ناقتى هذه مأمورة، قال بريدة:

الحمد لله الذى أسلمت بنو سهم طائعين.

و فى الصحيح أن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم لقى الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و أبا بكر ثياب بياض.

و روى أن طلحة كان قدم من الشام و معه ثياب أهداها لأبى بكر من ثياب الشام، فلما لقيه أعطاه، فلبس منها النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أبو بكر.

قال الحافظ ابن حجر: فيحتمل: أن كلا من طلحة و الزبير أهدى لهما، و الذى فى السّير هو طلحة؛ فالأولى الجمع، و عند ابن أبى شيبة ما يؤيده، و إلا فما فى الصحيح أصح.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۹۱

الفصل العاشر فى دخوله صلّى اللّه عليه و سلّم أرض المدينة، و تأسيس مسجد قباء

اشارة

كان المسلمون بالمدينة قد سمعوا بمخرج رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فكانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة أول النهار فينتظرونه، فما يردهم إلا حرّ الشمس، فبعد أن رجعوا يوما أو فى رجل من اليهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه مبيضين، فلم يملك اليهودى أن قال بأعلى صوته: يا بنى قيلة- يعنى الأنصار- و فى رواية: يا معشر العرب، هذا جدكم، يعنى حظكم- و فى رواية: صاحبكم الذى تنتظرونه- فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقّوا رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف بقباء على كلثوم بن الهدم، قيل: و كان يومئذ مشركا، و به جزم ابن زبالة، و قال رزين: نزل فى ظل نخلة، ثم انتقل منها إلى دار كلثوم أخى بنى عمرو بن عوف، و فى «أخبار المدينة» ليحيى الحسينى جد أمراء المدينة اليوم فى النسخة التى رواها ابنه طاهر بن يحيى عنه من طريق محمد بن معاذ، قال: حدثنا مجمّع بن يعقوب عن أبيه و عن سعيد بن عبد الرحمن بن رقيش عن عبد الرحمن بن يزيد بن حارثة قالا: صلى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بظهر حرّتنا، ثم ركب فأناخ إلى عذق عند بئر غرس قبل أن تبزغ الشمس و ما يعرف رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم من أبى بكر، عليهما ثياب متشابهة، فجعل الناس يقفون عليهم حتى بزغت الشمس من ناحية أطمهم الذى يقال له «شنيف» فأمهل أبو بكر ساعة حتى خيل إليه أنه يؤذى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بحر الشمس، فقام فستر على رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بردائه، فعرف القوم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فجعلوا يأتون فيسلمون على رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم قلت لمجمّع بن يعقوب: إن الناس يرون أنه جاء بعد ما ارتفع النهار و أحرقتهم الشمس، قال مجمع: هكذا أخبرنى أبى و سعيد بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن يزيد قال: ما بزغت الشمس إلا و هو جالس فى منزله صلّى اللّه عليه و سلّم.

قلت: و لم أر هذا الخبر فى النسخة التى رواها ولد ابن يحيى عن جده، و قوله «عند بئر غرس» الظاهر أنه تصحيف، و لعله «بئر عذق» لبعد بئر غرس من منزله صلّى اللّه عليه و سلّم بقباء، بخلاف بئر عذق، و إلا فهو قادح فيما يعرفه الناس اليوم من أن بئر غرس هى هى المعروفة بمحلها الآتى بيانه.

و فى كتاب يحيى أيضا عن محمد بن إسماعيل بن مجمّع قال: لما نزل رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم على كلثوم بن الهدم هو و أبو بكر و عامر بن فهيرة قال: يا نجيح، لمولى له، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و التفت إلى أبى بكر: أنجحت، أو أنجحنا، فقال: أطعمنا رطبا، قال:

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۹۲

فأتوا بقنو من أم جرذان فيه رطب منصف و فيه زهو، فقال صلّى اللّه عليه و سلّم: ما هذا؟ قال: عذق أم جرذان، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: اللهم بارك فى أم جرذان، و قد أخرجه أبو سعيد فى شرف المصطفى من طريق الحاكم، و قال قوم بمنزله صلّى اللّه عليه و سلّم على سعد بن خيثمة. و قد رواه يحيى أيضا، قال رزين: و الأول أصح اه.

اختلاف العلماء فى تاريخ مقدمة المدينة

و قال الحاكم: إنه الأرجح، قال: و قد قاله ابن شهاب و هو أعرف بذلك من غيره، و قال بعضهم: كان سعد عزبا، فكان صلّى اللّه عليه و سلّم يجلس مع أصحابه فى بيته، فلذلك قيل: إنه نزل عنده، و يشهد له ما نقله ابن الجوزى عن ابن حبيب الهاشمى قال: نزل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم على كلثوم، و كان يتحدث فى منزل سعد بن خيثمة، و يسمى «منزل العزاب» و فى الصحيح:

فتلقوا رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى ينزل بهم فى بنى عمرو بن عوف، و فى رواية له: علو المدينة و قباء معدودة من العالية، و كأن حكمته التفاؤل له و لدينه بالعلو، و ذلك يوم الإثنين نهارا عند الأكثر، قال الحافظ ابن حجر: و هو المعتمد، و شذ من قال يوم الجمعة. قلت: لعل مراد هذا القائل القدوم الآتى للمدينة نفسها بعد الخروج من قباء، و قيل: ليلة الإثنين؛ لقوله فى مسلم «ليلا» قال الحافظ ابن حجر: و يجمع بأن القدوم كان آخر الليل، فدخل نهارا. قلت: و فيه نظر، و كان ذلك أول ربيع الأول على ما رواه موسى بن عقبة عن ابن شهاب، و قيل: لثمان خلون منه. و فى الإكليل عن الحاكم: تواترت الأخبار بذلك، و فى رواية جرير بن حازم عن ابن إسحاق:

قدمها لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول، و نحوه عن أبى معشر، و لكن قال: ليلة الإثنين، و مثله عن ابن البرقى، و ثبت كذلك فى أواخر صحيح مسلم، و فى رواية إبراهيم بن سعد عن ابن إسحاق: لاثنتى عشرة ليلة خلت منه حين اشتد الضحى، و هذا ما جزم به الكلبى فيما نقله عنه الحافظ ابن حجر. و حكاه ابن الجوزى فى شرف المصطفى عن الزهرى فقال: قال الزهرى: قدم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يوم الإثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، و به جزم النووى فى السّير من الروضة، و كذا ابن النجار، و نقل المراغى هذا عن النووى و ابن النجار فقط، و تعجب من عدم موافقته لشىء من الأقوال، و كأنه فهم أن مرادهما المدينة نفسها بعد الخروج من قباء، و ليس ذلك مرادهما؛ فإن ابن النجار عبر بقوله: فعدل بهم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف، و ذلك يوم الإثنين لاثنى عشر من شهر ربيع الأول، و أما النووى و إن عبر بالمدينة فليس مراده

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۹۳

سوى ذلك، و العلماء كلهم يطلقون على ذلك قدوم المدينة. و فى شرف المصطفى لابن الجوزى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: ولد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يوم الإثنين، و استنبئ يوم الإثنين، و رفع الحجر يوم الإثنين، و خرج مهاجرا من مكة يوم الإثنين، و قدم المدينة يوم الإثنين، و قبض يوم الإثنين. و فى روضة الأقشهرى: قال ابن الكلبى: خرج من الغار ليلة الإثنين أول يوم من ربيع الأول، و قدم المدينة يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت منه. قال أبو عمر: و هو قول ابن إسحاق إلا فى تسمية اليوم. و عند أبى سعيد فى شرف المصطفى من طريق أبى بكر بن حزم: قدم لثلاث عشرة من ربيع الأول، و هذا الجمع بينه و بين الذى قبله بالحمل على الاختلاف فى رؤية الهلال. و عنده من حديث عمر: ثم نزل على بنى عمرو بن عوف يوم الإثنين لليلتين بقيتا من ربيع الأول، و لعل الرواية خلتا ليوافق ما تقدم. و نقل ابن زبالة عن ابن شهاب أن ذلك كان فى النصف من ربيع الأول، و قيل:

كان قدومه فى سابعه، و جزم ابن حزم بأنه خرج من مكة لثلاث ليال بقين من صفر، و هذا يوافق قول هشام بن الكلبى إنه خرج من الغار ليلة الإثنين أول يوم من ربيع الأول، فإن كان محفوظا فلعل قدومه قباء كان يوم الإثنين ثامن ربيع الأول، و إذا ضم ذلك إلى ما سيأتى عن أنس أنه أقام بقباء أربع عشرة ليلة خرج منه أن دخوله المدينة نفسها كان لاثنين و عشرين منه، لكن الكلبى جزم بأنه دخلها لاثنتى عشرة خلت منه؛ فعلى قوله تكون إقامته بقباء أربع ليال فقط، و به جزم ابن حبان؛ فإنه قال: أقام بها الثلاثاء و الأربعاء و الخميس، يعنى و خرج يوم الجمعة، فلم يعتد بيوم الخروج، و كذا قال موسى بن عقبة: إنه أقام فيهم ثلاث ليال؛ فكأنه لم يعد يوم الدخول و لا الخروج. و عن قوم من بنى عمرو بن عوف أنه أقام فيهم اثنين و عشرين يوما، حكاه ابن زبالة. و فى البخارى من حديث أنس «أقام فيهم أربع عشرة ليلة» و هو المراد فى رواية عائشة بقولها «بضع عشرة ليلة» و قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب: أقام فيهم ثلاثا، قال: و روى ابن شهاب عن مجمع بن حارثة أنه أقام اثنتين و عشرين ليلة. و قال ابن إسحاق: أقام فيهم خمسا، و بنو عمرو بن عوف يزعمون أكثر من ذلك. قال الحافظ ابن حجر: أنس ليس من بنى عمرو بن عوف؛ فإنه من الخزرج، و قد جزم بأربع عشرة ليلة،

فهو أولى بالقبول، و أمر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بالتاريخ فكتب من حين الهجرة فى ربيع، رواه الحاكم فى الإكليل، و هو معضل، و المشهور أن ذلك كان فى خلافة عمر رضى الله عنه، و أن عمر قال: الهجرة فرقت بين الحق و الباطل، فأرخ بها، و ابتدأ من المحرم بعد إشارة على و عثمان رضى الله عنهما بذلك، و قد ذكرنا ما قيل فى

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۹۴

سببه فى الأصل، و أفاد السهيلى أن الصحابة رضى الله عنهم أخذوا التأريخ بالهجرة من قوله تعالى: لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ [التوبة: ۱۰۸].

ابتداء التأريخ من الهجرة

و فى الصحيح أنهم لما قدموا قام أبو بكر للناس: أى يتلقاهم، و جلس رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فطفق من جاء من الأنصار يحيى أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم. و فى رواية موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال: و جلس رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم صامتا، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم يكن رآه يحسبه أبا بكر، حتى إذا أصابته الشمس أقبل أبو بكر بشىء أظله به، و فى رواية ابن إسحاق: حتى رأينا أبا بكر ينحاز له عن الظل، فعرفناه بذلك.

و نزل أبو بكر رضى الله عنه على حبيب بن إساف أحد بنى الحارث بن الخزرج بالسنح، و يقال: على خارجة بن زيد منهم.

و أقام على رضى الله عنه بعد مخرجه صلّى اللّه عليه و سلّم أياما، قال بعضهم: ثلاثة، حتى أدى للناس ودائعهم التى كانت عند النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و خلفه لردها، ثم خرج فلحق رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بقباء، فنزل على كلثوم بن الهدم، قال فيما رواه رزين: فبينا أنا بائت عند رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم إذا برجل يضرب باب امرأة، فخرجت فأعطاها شيئا و انصرف، ثم فعل ذلك ليلة ثانية أيضا، فذكرت ذلك لها فقالت: هذا سهل بن حنيف يغدو كل ليلة على أصنام قومه فيكسرها ثم يأتى بها لأوقدها حطبا، و قد علم أن ليس لى من الحطب شىء.

و روى يحيى عن عبد العزيز بن عبيد الله بن عثمان بن حنيف قال: لما نزل رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم على بنى عمرو بن عوف، و قد كان بين الأوس و الخزرج ما كان من العداوة، و كانت الخزرج تخاف أن تدخل دار الأوس، و كانت الأوس يخاف أن تدخل دار الخزرج، و كان أسعد بن زرارة قتل نبتل بن الحارث يوم بعاث، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: أين أسعد بن زرارة؟ فقال سعد بن خيثمة و مبشر بن عبد المنذر و رفاعة بن عبد المنذر: كان يا رسول الله أصاب منا رجلا يوم بعاث، فلما كانت ليلة الأربعاء جاء أسعد إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم متقنّعا بين المغرب و العشاء، فلما رآه رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم قال: يا أبا أمامة، جئت من منزلك إلى هاهنا و بينك و بين القوم ما بينك؟ قال أبو أمامة: لا و الذى بعثك بالحق ما كنت لأسمع بك فى مكان إلا جئت، ثم بات عند رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم حتى أصبح، ثم غدا فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۹۵

لسعد بن خيثمة و رفاعة و مبشر ابنى عبد المنذر: أجيروه، قالوا: أنت يا رسول الله فأجره فجوارنا فى جوارك، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: يجيره بعضكم، فقال سعد بن خيثمة: هو فى جوارى، ثم ذهب سعد بن خيثمة إلى أسعد بن زرارة فى بيته فجاء بن مخاصرة يده فى يده ظهرا حتى انتهى به إلى بنى عمرو بن عوف، ثم قالت الأوس: يا رسول الله كلنا له جار، فكان أسعد بن زرارة بعد يغدو و يروح إلى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم انتهى.

و كان لكلثوم بن الهدم بقباء مربد، و المربد: الموضع الذى يبسط فيه التمر ليبس، فأخذه منه رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فأسسه و بناه مسجدا كما رواه ابن زبالة و غيره.

و فى الصحيح عن عروة: فلبث فى بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، و أسس المسجد الذى أسس على التقوى، و فى رواية عبد الرزاق عنه قال: الذين بنى فيهم المسجد الذى أسس على التقوى هم بنو عمرو بن عوف، و كذا فى حديث ابن عباس عند ابن عائذ، و لفظه: و مكث فى بنى عمرو بن عوف ثلاث ليال، و اتخذ مكانه مسجدا فكان يصلى فيه، ثم بناه بنو عمرو بن عوف؛ فهو الذى أسس على التقوى.

و روى يونس بن بكير فى زيادات المغازى عن المسعودى عن الحكم بن عتيبة قال:

لما قدم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فنزل بقباء قال عمار بن ياسر: ما لرسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بد من أن يجعل له مكانا يستظل به إذا استيقظ و يصلى فيه، فجمع حجارة فبنى مسجد قباء، فهو أول مسجد بنى، يعنى لعامة المسلمين أو للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم بالمدينة، و هو فى التحقيق أول مسجد صلّى فيه بأصحابه جماعة ظاهرا، و إن كان قد تقدم بناء غيره من المساجد، فقد روى ابن أبى شبة عن جابر قال: لقد لبثنا بالمدينة قبل أن يقدم علينا رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم سنتين نعمر المساجد و نقيم الصلاة، و لذا قيل: كان المتقدمون فى الهجرة من أصحاب رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و الأنصار بقباء قد بنوا مسجدا يصلون فيه، يعنى هذا المسجد، فلما هاجر رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و ورد قباء صلى بهم فيه إلى بيت المقدس، و لم يحدث فيه شيئا: أى: فى مبدأ الأمر؛ لأن ابن شبة روى ذلك، ثم روى أنه صلّى اللّه عليه و سلّم بنى مسجد قباء و قدم القبلة إلى موضعها اليوم، و قال: جبريل يؤم بى البيت، و قد اختلف فى المراد بقوله تعالى: لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ فالجمهور على أن المراد به: مسجد قباء، و لا ينافيه قوله صلّى اللّه عليه و سلّم لمسجد المدينة «هو مسجدكم هذا» إذ كل منهما أسس على التقوى على ما سيأتى إيضاحه.

و فى الكبير للطبرانى- و فيه ضعيف- عن جابر بن سمرة قال: لما سأل أهل قباء النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أن يا بنى لهم مسجدا قال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: «ليقم بعضكم فيركب الناقة» فقام أبو بكر رضى الله عنه فركبها فحركها فلم تنبعث، فرجع فقعد، فقام عمر رضى الله عنه فركبها

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۹۶

فلم تنبعث، فرجع فقعد، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم لأصحابه: «ليقم بعضكم فيركب الناقة» فقام على رضى الله عنه فلما وضع رجله فى غرز الركاب و ثبت به، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم:

«أرخ زمامها، و ابنوا على مدارها فإنها مأمورة».

و روى الطبرانى- و فيه من لم يعرف- عن جابر أيضا قال: لما قدم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة قال لأصحابه: «انطلقوا بنا إلى أهل قباء نسلم عليهم، فأتاهم فسلم عليهم، فرحّبوا به، ثم قال: يا أهل قباء ائتونى بأحجار من هذه الحرة، فجمعت عنده أحجار كثيرة، و معه عنزة له، فخط قبلتهم، فأخذ حجرا فوضعه رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم ثم قال: يا أبا بكر، خذ حجرا فضعه إلى حجرى، ثم قال: يا عمر خذ حجرا فضعه إلى جنب حجر أبى بكر، ثم قال: يا عثمان خذ حجرا فضعه إلى جنب حجر عمر، ثم التفت إلى الناس فقال: ليضع كل رجل حجره حيث أحب على ذلك الخط.

متى بنى مسجد قباء

قلت: و هو يقتضى أن هذا البنيان لم يكن عند قدوم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إلى قباء، بل بعد قدوم عثمان رضى الله عنه من الحبشة؛ فإنه كان قد هاجر إلى أرض الحبشة فارا بدينه مع زوجته رقية بنت رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و كان أول خارج إليها، ثم هاجر الهجرة الثانية إلى المدينة؛ فيمكن أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أسسه عند قدومه، ثم بناه بعد ذلك، و إلا فلم يكن عثمان رضى الله عنه حاضرا، كذا نبه عليه بعضهم و لهذا قال السهيلى: أول من وضع حجرا رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم ثم أبو بكر، ثم عمر، و لم يذكر عثمان، ثم قال: و صلّى فيه نحو بيت المقدس قبل أن يأتى المدينة، انتهى. و سيأتى عند ذكره فى المساجد عن عمر

رضى الله عنه أنه قال: و الذى نفسى بيده لقد رأيت رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و أبا بكر و أصحابه ننقل حجارته على بطوننا، و يؤسسه رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و جبريل يؤم به البيت، و لم أر من نبه على تعيين زمان قدوم عثمان من الحبشة، و سيأتى فى بنائه صلّى اللّه عليه و سلّم لمسجد المدينة أخبار تقتضى حضور عثمان له، و هو محتمل أيضا للبناء الأول و الثانى، و سبق فى الفصل قبله عد عثمان فيمن قدم المدينة قبل مقدم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إليها، و هو كذلك فى كلام ابن إسحاق.

و قال المحب الطبرى: الظاهر أن قدوم عثمان من الحبشة كان قبل هجرة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أو بعدها و قبل وقعة بدر؛ لأنه صح أنه كان فى وقعة بدر متخلفا فى المدينة على زوجته رقية بنت رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و كانت مريضة، و وقعة بدر فى الثانية، و كان قدوم أكثر مهاجرى الحبشة فى السابعة كما سيأتى، و الله أعلم.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۹۷

و فى الكبير للطبرانى و رجاله ثقات عن الشموس بنت النعمان قالت: نظرت إلى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم حين قدم و نزل و أسس هذا المسجد مسجد قباء، فرأيته يأخذ الحجر أو الصخرة حتى يهصره الحجر، و أنظر إلى بياض التراب على بطنه أو سرته، فيأتى الرجل من أصحابه و يقول: بأبى و أمى يا رسول الله أعطنى أكفك، فيقول: لا، خذ مثله، حتى أسسه، و يقول: إن جبريل عليه السلام هو يؤم الكعبة، قالت: فكان يقال: إنه أقوم مسجد قبلة.

قلت: قد صح أنه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يستقبل بيت المقدس حتى نسخ ذلك، و جاءت القبلة و هم فى صلاة الصبح فأخبرهم، و كانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة؛ فيحتمل:

أن جبريل عليه السلام كان يؤم به البيت ليستدل به على جهة بيت المقدس لتقابل الجهتين، و لعلمه بما يؤول إليه الأمر من استقبال الكعبة، أو أنه صلّى اللّه عليه و سلّم كان مخيّرا فى ابتداء الهجرة فى التوجه إلى بيت المقدس أو إلى الكعبة كما قاله الربيع فأمّ به جبريل البيت لذلك، و اختياره الصلاة لبيت المقدس أولا لاستمالة اليهود، أو أن استقبال الكعبة كان مشروعا فى ذلك الوقت ثم نسخ ببيت المقدس ثم نسخ بالكعبة، لما قاله ابن العربى و غيره من أن القبلة نسخت مرتين، أو أن ذلك تأسيس آخر غير التأسيس الأول، و يدل لهذا الأخير ما قدمناه من راوية ابن شبة.

و قوله فى حديث الشموس المتقدم «حتى يهصره الحجر» أى: يميله. و أورده المجد من رواية الخطابى بلفظ آخر، فقال: و روى الخطابى عن الشموس بنت النعمان قالت:

كان رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم حين بنى مسجد قباء يأتى بالحجر قد صهره إلى بطنه فيضعه، فيأتى الرجل يريد أن يقله فلا يستطيع حتى يأمره أن يدعه و يأخذ غيره، ثم قال: صهره و أصهره إذا ألصقه بالشىء، و منه اشتقاق الصهر فى القرابة.

و روى ابن شبة أيضا أن عبد الله بن رواحة كان يقول و هم يبنون فى مسجد قباء:

أفلح من يعالج المساجدا

فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم «المساجدا» فقال عبد الله:

و يقرأ القرآن قائما و قاعدا

فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم «و قاعدا» فقال عبد الله:

و لا يبيت الليل عنه راقدا

فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم «راقدا»، و الله أعلم.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۱۹۸

الفصل الحادى عشر فى قدومه صلّى اللّه عليه و سلّم باطن المدينة

اشارة

، و سكناه بدار أبى أيوب الأنصارى، و أمر هذه الدار، و ما آلت إليه، و ما وقع من المؤاخاة بين المهاجرين و الأنصار.

قال أهل السير: ثم إن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم أرسل إلى ملأ بنى النجار، فجاؤوا متقلدين بالسيوف، و كانوا أخواله، و ذلك أن هاشم بن عبد مناف تزوج منهم امرأة، و هى سلمى بنت عمرو، فجاءه منها ولد، فلما مات هاشم و كبر الغلام مر به قوم من قريش فأبصروه و قد ترعرع و هو ينتضل و يقول: أنا القرشى، فجاؤوا و أخبروا عمه المطلب بن عبد مناف، فذهب فجاء به، فدخل به مكة و هو ردفه و عليه ثياب السفر، فقالت قريش: هذا عبد المطلب، فغلب عليه هذا الاسم؛ فلذلك كان أخواله بنى النجار، فقالوا لرسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: اركبوا آمنين مطاعين.

و فى البخارى من حديث أنس: قدم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فنزل فى حى يقال لهم بنو عمرو بن عوف، فأقام فيهم أربع عشرة ليلة، ثم أرسل إلى بنى النجار فجاؤوا بالسيوف، ثم رواه البخارى بلفظ آخر، فقال: قدم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فنزل جانب الحرة، ثم بعث إلى الأنصار فجاؤوا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أبا بكر فسلموا عليهما، و قالوا: اركبا آمنين مطاعين، فركب حتى نزل جانب دار أبى أيوب.

قال الحافظ ابن حجر: تقديره فنزل جانب الحرة فأقام بقباء المدة التى أقام بها و بنى بها مسجده، ثم بعث إلى آخره.

و فى التأريخ الصغير للبخارى عن أنس أيضا قال: إنى لأسعى مع الغلمان إذ قالوا:

محمد جاء، فننطلق فلا نرى شيئا، حتى أقبل و صاحبه، فكمنا فى بعض جوانب المدينة، و بعثا رجلا من أهل البادية يؤذن بهما، فاستقبله خمسمائة من الأنصار، فقالوا:

انطلقا آمنين مطاعين، الحديث، ففيه طى لذكر قصة قباء، إلا أن يريد أن ذلك وقع فى مبدأ الأمر عند نزوله صلّى اللّه عليه و سلّم بقباء، و هو ما اقتضاه رواية رزين، فإنه قال: عن أنس قال: كنت إذ قدم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة ابن تسع سنين، فأسمع الغلمان و الولائد يقولون: جاء رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فنذهب فلا نرى شيئا، حتى جاء رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و أبو بكر، فكمنا فى

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۱۹۹

خرب فى طرف المدينة، و أرسلا رجلا يؤذن لهما الأنصار، فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار، حتى انتهوا إليهما، قال: فما رأيت مثل ذلك اليوم قط، و الله لقد أضاء منها كل شىء، و نزلا على كلثوم بن الهدم، ثم ذكر تأسيس مسجد قباء، ثم قال: ثم خرج منها رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يريد المدينة، فلا يمر بدار من دور الأنصار إلا عرضوا عليه، و ذكر نحو ما سيأتى؛ فهو صريح فى أن ذلك كان عند مقدمه صلّى اللّه عليه و سلّم فى بدء الأمر.

و كان خروجه صلّى اللّه عليه و سلّم من قباء يوم الجمعة، و تعيينه من الشهر مرتب على ما تقدم فى قدومها.

و روى يحيى أنه صلّى اللّه عليه و سلّم لما شخص: أى: من قباء، اجتمعت بنو عمرو بن عوف فقالوا:

يا رسول الله أخرجت ملالا- أم تريد دارا خيرا من دارنا؟ قال: إنى أمرت بقرية تأكل القرى، فخلوها- أى ناقته- فإنها مأمورة فخرج صلّى اللّه عليه و سلّم من قباء، فعرض له قبائل الأنصار كلهم يدعوه و يعدوه النصرة و المنعة، فيقول: خلوها فإنها مأمورة، حتى أدركته الجمعة فى بنى سالم، فصلى فى بطن الوادى الجمعة وادى ذى صلب.

قلت: قيل كانت هذه أول جمعة صلاها رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بالمدينة، و قيل: إنه كان يصلى الجمعة فى مسجد قباء فى إقامته هناك، و الله أعلم.

و روى أيضا عن عمارة بن خزيمة قال: لما كان يوم الجمعة و ارتفع النهار دعا رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم براحلته، و حشد المسلمون، و لبسوا السلاح، و ركب رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم ناقته القصوى، و الناس معه عن يمينه و عن شماله و خلفه: منهم

الماشى و الراكب، فاعترضنا الأنصار فما بدار من دورهم إلاـ قالوا هلم يا رسول الله إلى العز و المنعة و الثروة، فيقول لهم خيرا، و يدعو، و يقول: إنها مأمورة، خلوا سبيلها، فمر ببنى سالم، فقام إليه عتبان بن مالك، و نوفل بن عبد الله بن مالك بن العجلان و هو آخذ بزمام راحلته يقول: يا رسول الله انزل فينا فإن فينا العدد و العدة و الحلقة، و نحن أصحاب العصا و الحدائق و الدرك، يا رسول الله قد كان الرجل من العرب يدخل هذه البحرة خائفا فيلجأ إلينا فنقول له: قوقل حيث شئت، فجعل رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يتبسم و يقول: خلوا سبيلها فإنها مأمورة، فقام إليه عبادة بن الصامت و عباس بن الصامت بن نضلة بن العجلان فجعلا يقولان: يا رسول الله انزل فينا، فيقول النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: بارك الله عليكم، إنها مأمورة، فلما أتى مسجد بنى سالم- و هو المسجد الذى فى الوادى- فجمّع بهم فخطبهم، ثم أخذ رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم عن يمين الطريق حتى جاء بنى الحبلى، فأراد أن ينزل على عبد الله بن أبى، فلما رآه ابن أبى و هو

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۲۰۰

عند مزاحم أى الأطم محتبيا قال: اذهب إلى الذين دعوك فانزل عليهم، فقال سعد بن عبادة لا تجد يا رسول الله فى نفسك من قوله، فقد قدمت علينا و الخزرج تريد أن تملكه عليها، و لكن هذه دارى، فمر ببنى ساعدة فقال له سعد بن عبادة و المنذر بن عمرو و أبو دجانة: هلم يا رسول الله إلى العز و الثروة و القوة و الجلد، و سعد يقول: يا رسول الله ليس من قومى أكثر عذقا و لا فم بئر منى مع الثروة و الجلد و العدد و الحلقة؛ فيقول رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: بارك الله عليكم، و جعل رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: يا أبا ثابت خلّ سبيلها فإنها مأمورة، فمضى، و اعترضه سعد بن الربيع و عبد الله بن رواحة و بشير بن سعد فقالوا: يا رسول الله لا تجاوزنا فإنا أهل عدد و ثروة و حلقة، قال: بارك الله فيكم، خلوا سبيلها فإنها مأمورة، و اعترضه زياد بن لبيد و فروة بن عمرو- أى: من بنى بياضة- يقولان: يا رسول الله هلم إلى المواساة و العز و الثروة و العدد و القوة، نحن أهل الدرك يا رسول الله، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: خلوا سبيلها فإنها مأمورة، ثم مر ببنى عدى بن النجار- و هم أخواله- فقام أبو سليط و صرمة بن أبى أنيس فى قومهما فقالاـ يا رسول الله نحن أخوالك هلم إلى العدد و المنعة مع القرابة، لا تجاوزنا إلى غيرنا يا رسول الله، ليس أحد من قومنا أولى بك منا لقرابتنا بك، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: خلوا سبيلها فإنها مأمورة، و يقال: إن أول الأنصار اعترضه بنو بياضة، ثم بنو سالم، ثم مال إلى ابن أبى، ثم مر على بنى عدى بن النجار، حتى انتهى إلى بنى مالك بن النجار.

قلت: و قول بنى عدى بن النجار «نحن أخوالك» لأنهم أقاربه من جهة الأمومة؛ لأن سلمى بنت عمرو أحد بنى عدى بن النجار كانت أم جده عبد المطلب، و قول البراء فى حديث الصحيح «إن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده، أو قال أخواله، من الأنصار» فيه تجوز من حيث إنه صلّى اللّه عليه و سلّم إنما نزل على إخوتهم بنى مالك بن النجار، أو أراد أنه نزل بخطة بنى النجار لتقارب منازلهم الجميع و منهم بنو عدى.

و قال الحافظ ابن حجر فى المقدمة فى الكلام على الحديث المذكور: هم من بنى عمرو بن عوف من الخزرج، و كانت أم عبد المطلب جد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم منهم، و اسمها سلمى؛ فهم أجداده حقيقة، و أخواله مجازا، و الشك من راوى الخبر، انتهى.

و هو و هم، سببه اشتباه النزول الأول بقباء بهذا النزول الذى وقع فيه الاستقرار، و ليس بنو عمرو بن عوف ممن يوصف بذلك، و قد تنبه له فى الشرح؛ فذكره على الصواب كما قدمناه، و الله أعلم.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۲۰۱

و روى رزين أنه صلّى اللّه عليه و سلّم سار من قباء و معه جماعة من الأنصار فى السلاح و جميع المهاجرين، و ذكر صلاة الجمعة، قال: ثم ركب فجاء بنى الحبلى فأراد أن ينزل على عبد الله بن أبى بن سلول، و كان جالسا محتبيا عند أطم له، فقال: اذهب إلى الذين دعوك فانزل عليهم، فقال سعد بن عبادة لرسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: لا تجد عليه، فإن أهل هذه البحرة كانوا قد أجمعوا على أن يعصّبوه و يتوّجوه، فلما رد الله عليه ذلك بالحق الذى أعطاك شرق لذلك.

قلت: الذى فى الصحيح ذكر سعد لذلك فى قصة عيادته صلّى اللّه عليه و سلّم له من مرض بعد سكناه بالمدينة، و الذى فى كتب السير عن ابن إسحاق أن الجمعة أدركته فى وادى رانونا فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة، و كانوا أربعين، و قيل: مائة، فأتاه عتبان بن مالك فى رجال من بنى سالم فقالوا: يا رسول الله أقم عندنا فى العدد و العدة و المنعة، قال: خلوا سبيلها فإنها مأمورة، لناقته، فخلوا سبيلها، فانطلقت حتى إذا وازنت دار بنى بياضة تلقاه زياد بن لبيد و فروة بن عمرو فى رجال من بنى بياضة، فأجابهم بمثل ما تقدم، فخلوا سبيلها، حتى إذا وازنت دار بنى الحارث بن الخزرج اعترضه سعد بن الربيع و خارجة بن زيد و عبد الله بن رواحة فى رجال من بلحارث، فأجابهم بما تقدم، فخلوا سبيلها، فانطلقت حتى إذا مرت بدار عدى بن النجار- و هم أخواله دنيا- اعترضهم سليط بن قيس فى رجال منهم، فأجابهم بمثل ما تقدم، حتى إذا أتت دار بنى مالك بن النجار بركت على باب مسجده صلّى اللّه عليه و سلّم ثم و ثبت و سارت غير بعيد و رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم واضع لها زمامها لا يثنيها به، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه، ثم تلحلحت و أرزمت و وضعت جرانها فنزل عنها رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و فى رواية أنها لما و ثبت من مبركها الأول بركت على باب أبى أيوب الأنصارى، ثم ثارت منه و بركت فى مبركها الأول، و فى رواية فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: هذا المنزل إن شاء الله.

و ذكر ابن سيد الناس بعد قصة بنى سالم أن راحلته انطلقت حتى وازنت دار بنى بياضة، فذكر قصتهم، ثم قال: فانطلقت حتى إذا مرت بدار بنى ساعدة اعترضه سعد بن عبادة، و ذكر قصتهم، ثم قال: فانطلقت حتى إذا وازنت دار بنى الحارث بن الخزرج اعترضه سعد بن الربيع، و ذكر قصتهم، ثم ذكر القصة كما قدمناه.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۰۲

و ذكر يحيى فى رواية أخرى أنه صلّى اللّه عليه و سلّم بعد أن سار من بنى سالم تيامن، فأتى منزل ابن أبى، ثم مضى فى الطريق و الطريق يومئذ فضاء حتى انتهى إلى سعد بن عبادة، ثم اعترضت له بنو بياضة عن يساره، ثم مضى حتى أتى بنى عدى بن النجار، ثم أتى إلى بنى مازن بن النجار، فقامت إليه وجوههم، ثم مضى حتى انتهى إلى باب المسجد و قد حشدت بنو مالك بن النجار فهم قيام ينتظرونه إلى أن طلع فهش إليه أسعد بن زرارة و أبو أيوب و عمارة بن حزم و حارثة بن النعمان يقول: يا رسول الله قد علمت الخزرج أنه ليس ربع أوسع من ربعى، قال: فبركت بين أظهرهم، فاستبشروا، ثم نهضت كأنها مذعورة ترجّع الحنين، فساءهم ذلك، و جعلوا يعدون بجنبها حتى أتت إلى زقاق الحبشى ببئر جمل فبركت و النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عليها مرخ لها زمامها ثم قامت عودها على بدئها تزيد فى المشى حتى بركت على باب المسجد و ضربت بجرانها و عدلت ثفناتها، و جاء أبو أيوب و القوم يكلمونه فى النزول عليهم، فأخذ رحله فأدخله، فنظر رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم إلى رحله و قد حط فقال: «المرء مع رحله».

و ذكر رزين اعتراض بنى سالم له و قوله «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» ثم قال: فمر ببنى بياضة فكذلك، ثم ببنى ساعدة فكذلك، ثم بدار بنى الحارث بن الخزرج فكذلك، ثم مر بدار عدى بن النجار فكذلك، فمضت حتى إذا أتت دار بنى مالك بن المجار بركت على باب المسجد اليوم، و لم ينزل رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم حين بركت، ثم و ثبت فسارت غير بعيد ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها الأول، فنزل إذا ذاك رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: أى الدور أقرب؟ فقال أبو أيوب: دارى، هذا بابى، و قد حططنا رحلك فيها، فقال: «المرء مع رحله» فمضت مثلا.

و روى ابن زبالة أنها لما بركت بباب أبى أيوب جعل رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يريد أن ينزل فتحلحل فيطيف حولها أبو أيوب فيجد جبار بن صخر أخا بنى سلمة ينخسها برجله، فقال أبو أيوب: يا جبار عن منزلى تنخسها؟ أما و الذى بعثه بالحق لو لا الإسلام لضربتك بالسيف، فنزل رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فى منزل أبى أيوب، و قر قراره، و اطمأنت داره، و نزل معه زيد بن حارثة.

و عند الحاكم عن أنس: جاءت الأنصار فقالوا: إلينا يا رسول الله، فقال: دعوا الناقة فإنها مأمورة، فبركت على باب أبى أيوب.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۰۳

و روى الطبرانى فى الأوسط و فيه صديق بن موسى- قال الذهبى: ليس بالحجة- عن عبد الله بن الزبير أن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم قدم المدينة فاستناخت راحلته بين دار جعفر بن محمد بن على و دار الحسن بن زيد، فأتاه الناس فقالوا: يا رسول الله المنزل، فانبعثت به راحلته، فاستناخت ثم تحلحلت، و للناس ثم عريش كانوا يرشونه و يعمرونه و يبردون فيه، حتى نزل رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم عن راحلته فآوى إلى الظل فنزل فيه، فأتاه أبو أيوب فقال: يا رسول الله منزلى أقرب المنازل إليه أ فأنقل رحلك؟ قال: نعم، فذهب برحله إلى المنزل، ثم أتاه آخر فقال: يا رسول الله انزل على، فقال: إن الرجل مع رحله حيث كان، و ثبت رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فى العريش اثنتى عشرة ليلة حتى بنى المسجد.

قلت: دار جعفر بن محمد هى التى فى قبلة دار أبى أيوب ملاصقة لها، و دار الحسن ابن زيد تقابلها من جهة المغرب، بينهما الشارع.

و عند ابن عائذ و سعيد بن منصور أن ناقته صلّى اللّه عليه و سلّم استناخت به أولا، فجاءه ناس فقالوا:

المنزل يا رسول الله، فقال دعوها، فانبعثت حتى استناخت عند موضع المنبر من المسجد، ثم تحلحلت، فنزل عنها، فأتاه أبو أيوب فقال: منزلى أقرب المنازل فاذن لى أن أنقل رحلك، قال: نعم، و أناخ الناقة فى منزله.

و قال الواقدى: أخذ أسعد بن زرارة بزمام راحلته فكانت عنده، و نقله الحافظ ابن حجر عن ابن سعد و نقل الأقشهرى، فى روضته عن ابن نافع صاحب مالك فى أثناء كلام نقله عن مالك أن ناقته صلّى اللّه عليه و سلّم لما أتت موضع مسجده بركت و هو عليها، و أخذه الذى كان يأخذه عند الوحى، ثم ثارت من غير أن تزجر و سارت غير بعيد، ثم التفتت، ثم عادت إلى المكان الذى بركت فيه أول مرة فبركت، فسرّى عنه، فأمر أن يحط رحله، فى بعض الروايات أن القوم لما تنازعوا أيهم ينزل عليه قال: إنى أنزل على أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك.

و فى البخارى من حديث عائشة أنه صلّى اللّه عليه و سلّم أقبل يسير حتى نزل جانب دار أبى أيوب، فقال: أىّ بيوت أهلنا أقرب؟ أىّ أخوال جده، فقال أبو أيوب: أنا يا نبى الله، هذه دارى، و هذا بابى، قال: فانطلق فهيئ لنا مقيلا.

و فى رواية لابن زبالة: اختار رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم على عينه، فنزل منزله و تخيره، و أراد أن يتوسط الأنصار كلها.

قال المطرى: و هو غير مناف لما تقدم من قوله: «دعوها فإنها مأمورة»؛ لأن الله اختار له ما كان يختار لنفسه.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۰۴

و فرح أهل المدينة بمقدمه صلّى اللّه عليه و سلّم إليهم فرحا شديدا؛ ففى البخارى من حديث البراء:

«ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم برسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم» الحديث، و روى أبو داود أن الحبشة لعبت بحرابهم فرحا بقدومه صلّى اللّه عليه و سلّم.

قال رزين: و صعدت ذوات الخدور على الأجاجير يقلن:

طلع البدر علينا من ثنيّات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

و فى رواية:

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

و الغلمان و الولائد يقولون: جاء رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فرحا به.

و فى شرف المصطفى: لما بركت الناقة على باب أبى أيوب خرج جوار من بنى النجار يضربن بالدفوف و يقلن:

نحن جوار من بنى النجار يا حبذا محمد من جار

فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: أ تحبنانى؟ قلن: نعم يا رسول الله، فقال: و الله و أنا أحبكن، قالها ثلاثا، و فى رواية: «يعلم الله إنى أحبكن».

و أخرج الحاكم من طريق إسحاق بن أبى طلحة: فخرجت جوار من بنى النجار يضربن بالدف و هن يقلن، و ذكر البيت المتقدم.

و روى عن أنس قال: لما خرج رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم من مكة أظلم منها كل شىء، فلما دخل المدينة أضاء منها كل شىء، و رواه ابن ماجه بلفظ: لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة أضاء منها كل شىء، فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شىء. و رواه أبو داود بلفظ: لما قدم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة لعبت الحبشة بحرابهم فرحا بقدومه صلّى اللّه عليه و سلّم و ما رأيت يوما كان أحسن و لا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة، أضاء منها كل شىء، الحديث. و رواه ابن أبى خيثمة عنه بلفظ: شهدت يوم دخول رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة، فلم أر يوما أحسن منه و لا أضوأ.

و روى يحيى عن عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة انجفل الناس إليه، و قيل: قدم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فجئت أنظر، فلما تبينت وجهه علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شىء سمعته يتكلم قال: أيها الناس، أفشوا السلام، و أطعموا الطعام، و صلوا الأرحام، و صلوا بالليل و الناس نيام، تدخلون الجنة بسلام، و هذا الحديث بنحوه فى الترمذى و صححه.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۰۵

و بعث رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم زيد بن حارثة و أبا رافع إلى مكة أعطاهما خمسمائة درهم و بعيرين، فقدما عليه بفاطمة و أم كلثوم بنتيه و سودة زوجته و أم أيمن زوج زيد بن حارثة و أسامة بن زيد، و خرج عبد الله بن أبى بكر معهم بعيال أبى بكر فيهم عائشة و أختها أسماء زوج الزبير و أمها أم رومان، فلما قدموا المدينة أنزلهم فى بيت حارثة بن النعمان.

و قال رزين: إن أبا بكر أرسل عبد الله بن أريقط مع زيد بن حارثة ليأتيه بعائشة و أم رومان أمها و عبد الرحمن.

قال بعضهم: و وجدوا طلحة بن عبيد الله على خروج، فخرج معهم، فقدموا كلهم.

و روى ابن إسحاق عن أبى أيوب الأنصارى قال: لما نزل علىّ رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فى بيتى نزل فى السفل و أنا و أم أيوب فى العلو، فقلت له: يا نبى الله، بأبى أنت و أمى، إنى أكره و أعظم أن أكون فوقك و تكون تحتى، فاظهر أنت فكن فى العلو و ننزل نحن فنكون فى السفل، فقال: يا أبا أيوب إن أرفق بنا و بمن يغشانا أن نكون فى سفل البيت، قال:

فكان رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فى سفله، و كنا فوقه فى المسكن، فلقد انكسر حب لنا فيه ماء، فقمت أنا و أم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفا أن يقطر على رأس رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم منه شىء فيؤذيه.

قلت: و ذكر بعضهم أن ذلك هو سبب سكناه فى العلو بعد ذلك، و الذى فى صحيح مسلم عن أبى أيوب أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم نزل عليه، فنزل صلّى اللّه عليه و سلّم فى السفل و أبو أيوب فى العلو، فانتبه أبو أيوب ليلة فقال: نمشى فوق رأس النبى صلّى اللّه عليه و سلّم؟! فتنحوا و باتوا فى جانب، ثم قال للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: السفل أرفق، فقال: لا أعلو سقيفة و أنت تحتها، فتحول النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى العلو و أبو أيوب فى السفل.

و قد قدمنا فى آخر الفصل الرابع أن ابن إسحاق ذكر أن هذا البيت بناه تبّع الأول لما مرّ بالمدينة للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم ينزله إذا قدم المدينة، فتداول البيت الملاك إلى أن صار لأبى أيوب، و أن أبا أيوب من ذرية الحبر الذى أسلمه تبع كتابه.

و قد نقل الحافظ ابن حجر ذلك عن حكاية ابن هشام فى التيجان، قال: و أورده ابن عساكر فى ترجمة تبع، فما نزل صلّى اللّه عليه و سلّم إلا فى بيته، و قد ابتاع المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بيت أبى أيوب هذا من ابن أفلح مولى أبى أيوب الأنصارى بألف دينار، فتصدق به، و هو فى شرقى المسجد المقدس كما سيأتى فى الدور المطيفة بالمسجد.

و قد اشترى الملك المظفر شهاب الدين غازى بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب بن شادى عرصة دار أبى أيوب هذه، و بناها مدرسة للمذاهب الأربعة،

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۰۶

و وقف عليها أوقافا بميّافارقين التى هى دار ملكه، و بدمشق لها وقف آخر أيضا، و لها بالمدينة الشريفة أيضا وقف من النخيل و غيرها، غير أنه شمل ذلك ما عم الأوقاف، و كان بها كتب كثيرة نفيسة فتفرقت أيدى سبا، و آل حال هذه المدرسة إلى التعطيل، فسكنها بعض نظارها، فتشاءمت على عياله، و اتصل ذلك بسلطان مصر فخرج منها، و المدرسة قاعتان: كبرى، و صغرى، و فى إيوان الصغرى الغربى خزانة صغيرة جدا، فما يلى القبلة فيها محراب.

قال المطرى: يقال إنها مبرك ناقة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم.

و كانت إقامته صلّى اللّه عليه و سلّم بهذه الدار كما أفاده ابن سعد سبعة أشهر: أى: بتقديم السين على الباء، حتى بنى مساكنه. و قال رزين: أقام عند أبى أيوب من شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الثانية، و قال الدولابى: شهرا، و فى كتاب يحيى عن زيد بن ثابت: لما نزل رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم على أبى أيوب لم يدخل منزل رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم هدية أول من هدية دخلت بها عليه قصعة مثرودة خبز بر و سمنا و لبنا فأضعها بين يديه، فقلت: يا رسول الله أرسلت بهذه القصعة أمى، فقال: بارك الله فيها، و دعا أصحابه فأكلوا، فلم أرم الباب حتى جاءت قصعة سعد بن عبادة على رأس غلام مغطاة، فأقف على باب أبى أيوب فأكشف غطاءها لأنظر، فرأيت ثريدا عليه عراق، فدخل بها على رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم قال زيد: فقد كنا فى بنى مالك بن النجار ما من ليلة إلا على باب رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم منا الثلاثة و الأربعة يحملون الطعام و يتناوبون بينهم، حتى تحول رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم من بيت أبى أيوب، و كان مقامه فيه سبعة أشهر، و ما كانت تخطئه جفنة سعد بن عبادة و جفنة أسعد بن زرارة كل ليلة.

و فيه أنه قيل لأم أبى أيوب: أىّ الطعام كان أحب إلى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فإنكم عرفتم ذلك لمقامه عندكم؟ قالت: ما رأيته أمر بطعام فصنع له بعينه، و لا رأيناه أتى بطعام قط فعابه.

و قد أخبرنى أبو أيوب أنه تعشى عنده ليلة من قصعة أرسل بها سعد بن عبادة طفيشل فقال أبو أيوب: فرأيت رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم ينهل تلك القدر ما لم أره ينهل غيرها، فكنا نعملها له، و كنا نعمل له الهريس و كانت تعجبه، و كان يحضر عشاءه خمسة إلى ستة عشر كما يكون الطعام فى الكثرة و القلة.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۰۷

و فيه عن أبى أيوب أنهم تكلفوا له طعاما فيه بعض هذه البقول، فلما أتوه به كرهه و قال لأصحابه: كلوا فإنى لست كأحدكم، إنى أخاف أن أوذى صاحبى.

و فى كتاب رزين عنه بعد ذكر نزوله عليه قال: و ما مرت ليلة من نحو السنة إلا و تأتيه جفنة سعد بن معاذ ثم سائر الناس، يتناوبون ذلك نوبا، قال أبو أيوب: فصنعت له ليلة طعاما، و جعلت فيه ثوما، فلم يأكل منه رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم ففزعت فنزلت إليه فقلت له:

أ حرام هو؟ فقال: إنى أناجى، و أنا أكرهه لذلك، و أما أنتم فكلوه، قال: فقلت: فإنى أكره ما تكره يا رسول الله.

المؤاخاة بين الأنصار و المهاجرين

قال ابن إسحاق: و كتب رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم كتابا بين المهاجرين و الأنصار و ادع فيه يهود، و عاهدهم، و أقرهم على دينهم و أموالهم، و اشترط لهم، و آخى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بين أصحابه من المهاجرين و الأنصار، فقال فيما بلغنا: تاخوا فى الله أخوين أخوين، ثم أخذ بيد على بن أبى طالب فقال: هذا أخى.

قلت: كانت هذه المؤاخاة بعد مقدمه صلّى اللّه عليه و سلّم بخمسة أشهر، و قيل: ثمانية، و هو يا بنى المسجد، و قيل: بعده، و قيل: قبله، و ذكره أبو حاتم فى السنة الأولى، و الظاهر أن ابتداءها كان فيها، و استمرت على حسب من يدخل فى الإسلام أو يحضر، كما يعلم

من تفاصيلها، قيل: و كانوا تسعين رجلا من كل طائفة خمسة و أربعون، و قيل: مائة، آخى بينهم على الحق و المواساة و التوارث، و كانوا كذلك إلى أن نزل بعد بدر وَ أُولُوا الْأَرْحامِ [الأنفال: ۷۵] الآية.

و قال الواقدى: لما قدم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة آخى بين المهاجرين، و آخى بين المهاجرين و الأنصار.

و قال ابن عبد البر: كانت المؤاخاة مرتين: الأولى قبل الهجرة بمكة بين المهاجرين، فآخى بين أبى بكر و عمر، و هكذا حتى بقى على رضى الله عنه فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: أ ما ترضى أن أكون أخاك؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: فأنت أخى فى الدنيا و الآخرة، و المواخاة الثانية ما تقدم من مواخاة المهاجرين و الأنصار، و هى المرادة بقول الحسن: كان التوارث بالحلف؛ فنسخ بآية المواريث.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۰۸

و لأبى داود عن أنس بن مالك: حالف رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بين المهاجرين و الأنصار فى دارنا، و حديث «لا حلف فى الإسلام» معناه: حلف التوارث، و الحلف على ما منع الشرع منه، و عبر رزين عن المواخاة بين المهاجرين و الأنصار فيما نقله عن أبى حاتم بقوله: ثم آخى بين أصحابه، و دعا لكل واحد منهم دعوة، و قال: أبشروا أنتم فى أعلى غرف الجنة، و قال لعلى: ما أخرتك إلا لنفسى، أنت أخى و وارث علمى، و أنت معى فى الجنة فى قصرى مع ابنتى، و قصة المؤاخاة الأولى أقر بها الحاكم؛ فذكر المؤاخاة بين أبى بكر و عمر، و ذكر جماعة، ثم قال: فقال على: يا رسول الله، إنك آخيت بين أصحابك فمن أخى؟ قال: أنا أخوك.

و قد أنكر ابن تيمية فى الرد على ابن المطهر الرافضى المؤاخاة بين المهاجرين خصوصا مؤاخاة النبى لعلى، قال: لأنها شرعت للإرفاق و التألف؛ فلا معنى لها بينهم، و هو رد للنص و غفلة عن حقيقة الحكمة فى ذلك، مع أن بعضهم كان أقوى من بعض بالمال و العشيرة، و الارتفاق ممكن، و قد كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يقوم بعلى من عهد الصبا، و استمر ذلك.

و أخرج الحاكم و ابن عبد البر بسند حسن أنه صلّى اللّه عليه و سلّم «آخى بين الزبير و ابن مسعود» و هما من المهاجرين.

اليهود تحاول الإفساد بين الأوس و الخزرج

و التأم شمل الحيين الأوس و الخزرج ببركته صلّى اللّه عليه و سلّم فمر شاس بن قيس- و كان شيخا من اليهود شديد الضغن على المسلمين و الحسد لهم- على نفر من الأوس و الخزرج فى مجلس يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم و صلاح ذات بينهم بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد، لا و الله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر شابا من يهود كان معه فقال: اجلس إليهم ثم اذكر يوم بعاث، و ما كان فيه، و أنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل الشاب ذلك، فتنازع القوم و تفاخروا، حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب، و هما أوس بن قيظى و جبار بن صخر، فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة، و غضب الفريقان جميعا، و قالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة، و هى الحرة، فخرجوا إليها، و بلغ ذلك رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم فقال:

يا معشر المسلمين، الله الله، أ بدعوى الجاهلية و أنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، و أكرمكم به، و قطع به عنكم أمر الجاهلية، و استنقذكم به من الكفر، و ألف به بينكم؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، و كيد من عدوهم، فبكوا، و عانق الأوس

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۰۹

و الخزرج بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس، فأنزل الله فى شأنه: قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ (۹۸) قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَ أَنْتُمْ شُهَداءُ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [آل عمران: ۹۸- ۹۹]، و أنزل الله فى الذين صنعوا ما صنعوا من الحيين: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إلى قوله: كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [آل عمران:

۱۰۰- ۱۰۳].

و كان حيى بن أخطب و أخوه أبو ياسر من أشد يهود للعرب حسدا لما خصهم الله برسوله صلّى اللّه عليه و سلّم؛ فكانا جاهدين فى رد الناس عن الإسلام بما استطاعا فأنزل الله تعالى فيهما:

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ إلى قوله: حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [البقرة: ۱۰۹].

و حدثت صفية بنت حيى رضى الله عنها قالت: كنت أحبّ ولد أبى إليه و إلى عمى أبى ياسر، لم ألقهما قط مع ولدهما إلا أخذانى دونه، فلما قدم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة غدا عليه أبى و عمى مغلّسين، فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس، فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا، فهششت إليهما كما كنت أصنع. فو الله ما التفت إلى واحد منهما، مع ما بهما من الغم، و سمعت عمى أبا ياسر و هو يقول لأبى: أ هو هو؟ قال: نعم و الله، قال: أ تعرفه و تثبته؟ قال: نعم، قال: فما فى نفسك منه؟ قال: عداوته و الله ما بقيت، فشقيا بجسدهما، و الله أعلم.

الفصل الثانى عشر فيما كان من أمره صلّى اللّه عليه و سلّم بها فى سنى الهجرة إلى أن توفاه الله عز و جل مختصرا

اشارة

و قد لخصه رزين من تأريخ أبى حاتم، فزدت فيه نفائس ميزتها، فأقول فى أولها «قلت» و فى آخرها «و الله أعلم» و قد أقام صلّى اللّه عليه و سلّم بالمدينة بعد الهجرة عشر سنين بالإجماع كما حكاه النووى.

السنة الأولى من الهجرة:

اشارة

و قد تقدم بعض ما فيها من بناء مسجد قباء و غيره.

و قال أبو حاتم: كان فيها بناء المسجد النبوى، و مات أسعد بن زرارة و المسجد يا بنى؛ فكان أول من دفن بالبقيع من المسلمين.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۲۱۰

قلت: و من هذا يعلم أن عثمان بن مظعون أول من دفن به من المهاجرين، جمعا بين النقلين، و مات كلثوم بن الهدم قبل أسعد بن زرارة؛ فهو أول من مات من الأنصار بعد مقدم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و قيل: توفى أسعد بن زرارة فى الثانية، و الله أعلم.

و مات البراء بن معرور قبل قدوم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و أوصى أن يوجّه إلى الكعبة، و صلى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم على قبره، و كانت الأنصار يتقربون إلى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بالهدايا رجالهم و نساؤهم، و كانت أم سليم تتأسف على ذلك، و ما كان لها شيء، فجاءت بابنها أنس، و قالت: يخدمك أنس يا رسول الله؟ قال: نعم.

قلت: الذى فى الصحيح عن أنس «قدم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة ليس له خادم، فأخذ أبو طلحة بيدى، فانطلق بى إلى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول الله إن أنسا غلام كيس فليخدمك، قال: فخدمته، الحديث، و قد يجمع بأنها جاءت به أولا، و انطلق به أبو طلحة ثانيا؛ لأنه وليه و عصبته، و هذا غى مجيئه به لخدمته صلّى اللّه عليه و سلّم فى غزوة خيبر كما يفهمه لفظ الحديث، و الله أعلم.

ثم زيد فى صلاة الحضر ركعتين بعد مقدمه المدينة بشهر.

قلت: قال السهيلى: إن ذلك كان بعد الهجرة بعام أو نحوه، و الذى عليه الأكثر أن الصلاة نزلت بتمامها من بدء الأمر، و الله أعلم.

و وعك أصحابه فدعا بنقل وبائها إلى الجحفة، و قال: «اللهم حبب إلينا المدينة» ثم آخى بين أصحابه كما سبق، ثم مات الوليد بن

المغيرة بمكة، و ولد عبد الله بن الزبير، جاءت أمه أسماء بعد الهجرة فنفست به فى قباء فى شوال، فكان أول مولود ولد فى الإسلام بها بعد الهجرة، و كان أول شىء دخل جوفه ريق رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم تفل فى فيه.

قلت: سيأتى فى مسجد دار سعد بن خيثمة من المساجد التى لا تعلم عينها أن الذهبى قال: إن عبد الله ولد فى الثانية، و الله أعلم.

ثم عقد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم لواء لابن عمه عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب على ستين من المهاجرين ليس فيهم أنصارى، و هى أول راية عقدت فى الإسلام، و رمى فيها سعد بن أبى وقاص بسهم، فكان أول سهم رمى به فى الإسلام، فالتقى مع أبى سفيان بن حرب، و قيل: عكرمة بن أبى جهل، و كان فى مائة من المشركين ببطن رابغ و يعرف بودان فانحاز

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۱۱

إلى المسلمين من المشركين المقداد بن عمرو بن الأسود و عتبة بن غزوان، و كان حامل اللواء لعبيدة مصلح بن أثاثة.

أول راية عقدت فى الإسلام

قلت: و ذكر أبو الأسود فى مغازيه عن عروة، و وصله ابن عائذ من حديث ابن عباس: «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لما وصل إلى الأبواء بعث عبيدة بن الحارث فى ستين رجلا» و ذكر القصة، فيكون ذلك فى السنة الثانية، و به صرّح بعض السير، و الله أعلم.

ثم عقد لواء لعمه حمزة على ثلاثين من المهاجرين- قيل: و من الأنصار- ليتعرض عير قريش، فلقى أبا جهل فى ثلاثمائة راكب، فحجب بينهم مجدى بن عمرو، و كان حليفا للفريقين، و انصرفوا من غير قتال، و كان حامل لواء حمزة يومئذ أبو مرثد.

قلت: قدم بعضهم هذه على سرية عبيدة، و قال: إن لواء حمزة أول لواء عقد فى الإسلام، و رجح ابن إسحاق الأول، و قال: إنما أشكل أمرهما أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم شيعهما جميعا، و ذكر أبو عمر أن أول راية عقدت لعبد الله بن جحش. و قيل: إن سرية حمزة هذه كانت فى السنة الثانية، و الله أعلم.

زواج عائشة

ثم بنى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بعائشة و هى بنت تسع، و كان عقد بها فى مكة قبل الهجرة بثلاث و هى بنت ست.

زواج سودة بنت زمعة

قلت: و عقد على سودة بنت زمعة بعد عائشة- و قيل: قبلها، و بنى بها بمكة- و كان بناؤه بعائشة على رأس تسعة أشهر- و قيل: ثمانية، و قيل ثمانية عشر شهرا- من قدومه، و الله أعلم.

ثم عقد لواء لسعد بن أبى وقاص فى عشرين يريدون عير قريش فى ذى القعدة، فخرجوا على أقدامهم يكمنون بالنهار و يسيرون بالليل، و كان حامل اللواء لسعد المقداد بن عمرو، فلم يجدوا شيئا، ثم جاء أبو قيس بن الأسلت ليسلم، فلقيه ابن أبىّ ابن سلول، فقال: تربص حتى ترى، فرجع فمات كافرا.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۱۲

إسلام عبد الله بن سلام

قلت: و أسلم عبد الله بن سلام فى أول قدومه صلّى اللّه عليه و سلّم؛ ففى البخارى من حديث عائشة التصريح بأنه جاء قبل دخوله صلّى اللّه عليه و سلّم دار أبى أيوب لما سمع بقدومه صلّى اللّه عليه و سلّم ثم رجع إلى أهله، ثم قال صلّى اللّه عليه و سلّم لأبى أيوب:

اذهب فهیئ لنا مقیلا، فقال: قوما علی برکة الله، أی هو و أبو بکر، قالت: فلما جاء نبی الله صلّی اللّه علیه و سلّم جاء عبد الله بن سلام فقال: أشهد أنک رسول الله و أنک قد جئت بحق، و قد علمت یهود أنی سیدهم و ابن سیدهم و أعلمهم و ابن أعلمهم، فسلهم عنی قبل أن یعلموا أنی قد أسلمت؛ فإنهم إن یعلموا أنی قد أسلمت قالوا فیّ ما لیس فیّ، فأرسل رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم فدخلوا علیه، فقال لهم رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم: یا معشر الیهود، ویلکم! اتقوا الله، فوالذی لا إله إلا هو إنکم لتعلمون أنی رسول الله حقا، و أنی جئتکم بحق، فأسلموا، قالوا: ما نعلمه، قال: فأی رجل فیکم عبد الله بن سلام؟ قالوا: ذاک سیدنا و ابن سیدنا، و أعلمنا و ابن أعلمنا، قال: أ فرأیتم إن أسلم، قالوا: حاشا لله ما کان لیسلم، قال: أ فرأیتم إن أسلم، قالوا: حاشا لله ما کان لیسلم، کرر علیهم ذلک ثلاثا فیقولون له ذلک، قال: یا ابن سلام اخرج علیهم، فخرج علیهم، فقال: یا معشر الیهود، اتقوا الله فوالذی لا إله إلا هو إنکم لتعلمون أنه رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم و أنه جاء بحق، فقالوا:

کذبت، فأخرجهم رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم. و فی روایة أن عبد الله بن سلام سأل رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم عن أشیاء، فلما أعلمه بها أسلم، و فی هذه الروایة ذکر قصة الیهود المتقدمة، و أن عبد الله بن سلام لما خرج إلیهم و تشهد قالوا: شرنا و ابن شرنا، و تنقصوه؛ فقال: هذا کنت أخاف یا رسول الله، و نصبت أحبار الیهود العداوة للنبی صلّی اللّه علیه و سلّم بغیا و حسدا: منهم حیی بن أخطب، و أبو رافع الأعور، و کعب بن الأشرف، و عبد الله بن صوریا، و الزبیر بن باطا، و شمویل، و لبید بن الأعصم، و غیرهم، و دخل منهم جماعة فی الإسلام نفاقا، و انضاف إلیهم من الأوس و الخزرج منافقون، و أری عبد الله بن زید بن ثعلبة بن عبد ربه الأذان، و قیل: کان ذلک فی السنة الثانیة عند ما شاور صلّی اللّه علیه و سلّم أصحابه فیما یجمعهم به للصلاة؛ إذ کان اجتماعهم قبل بمناد «الصلاة جامعة» و الله أعلم.

السنة الثانیة من الهجرة

اشارة

السنة الثانیة: فلما جاء العاشر من المحرم أمر رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم بصومه، و قال: «نحن أحق بموسی من الیهود» ثم زوج علیا بفاطمة.

قلت: و ذلک قبل بدر، فی رجب علی الأصح، و بنی بها فی ذی الحجة کما سیأتی، و کان لها خمس عشرة سنة، و قل: ثمان عشرة، و قیل: تزوجها بعد أحد، و الله أعلم.

ثم غزا رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم بنفسه إلی الأبواء و هی من ودان علی ستة أمیال مما یلی المدینة.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفی، ج۱، ص: ۲۱۳

قلت: و لتقاربهما أطلق علیها «غزوة ودان»، و الله أعلم.

و استخلف علی المدینة سعد بن عبادة، و کان حامل لوائه سعد بن أبی وقاص، ثم رجع، و لم یلق کیدا، فانصرف بعد ما وادع مجدی بن عمرو الضمری، ثم غزا فی مائتین من أصحابه إلی ناحیة رضوی، و حامل لوائه سعد بن أبی وقاص، ثم رجع و لم یلق کیدا.

قلت: و هی غزوة «بواط» خرج رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم یرید تجار قریش أیضا، حتی بلغ بواط من ناحیة رضوی، و قال ابن هشام: و استعمل علی المدینة السائب بن عثمان بن مظعون، و فی نسخة السائب بن مظعون، و قال الواقدی: سعد بن معاذ، و الله أعلم.

ثم أغار علی سرح المدینة کرز بن جابر الفهری، فخرج رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم فی أثره فی المهاجرین، و حامل لوائه علی بن أبی طالب، فانتهی إلی بدر، و فاته کرز، و هذه بدر الأولی.

قلت: ذکر ذلک ابن إسحاق بعد «العشیرة» بلیال، و الله أعلم.

ثم بعث رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم عبد الله بن جحش فى سرية، و هم الذين قتلوا فى الشهر الحرام فى اثنى عشر نفسا، فأضل عتبة بن غزوان و سعد بن أبى وقاص راحلتيهما، فتخلفا عنهم، و مضى العشرة حتى لقوا جماعة من قريش: منهم عثمان بن عبد الله بن المغيرة، و افتدى من رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و الحكم ابن كيسان، أسلم، و قتلوا عمرو بن الحضرمى.

قلت: ذكرها بعضهم بعد العشيرة، و وصلوا نخلة على يوم و ليلة من مكة، فمرت بهم عير قريش تحمل زبيبا و أدما من الطائف معها الجماعة المذكورون فى آخر يوم من رجب، فاستأسروا الأسيرين، و قتلوا عمرا، و استاقوا العير، و كانت أول غنيمة فى الإسلام، و الله أعلم.

ثم خرج رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم إلى العشيرة، فوادع بنى مدلج و حلفاءهم، ثم رجع.

قلت: و كان خروجه فيها يعترض عيرا لقريش، ففاتته بأيام، و استخلف أبا سلمة بن عبد الأسد، و الله أعلم.

التوجه إلى الكعبة

قال أبو حاتم: و بلغنى أن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم كان يحب أن يوجه إلى الكعبة، فقال عمر رضى الله عنه: يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى فدعا الله تعالى، فأنزل قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ إلى قوله: وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ [البقرة: ۱۴۴] وقت صلاة الظهر يوم الثلاثاء النصف من شعبان ثانية سنى الهجرة.

قلت: سيأتى ما فيه من الخلاف فى الفصل الثالث من الباب بعده، و الله أعلم.

ثم نزلت فريضة الصوم فى شعبان، فصاموا رمضان، فلما فرض رمضان لم يأمرهم بصيام عاشوراء و لا نهاهم.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۱۴

ثم كانت غزوة بدر فى رمضان لاثنتى عشرة ليلة خلت منه، و قيل: يوم جمعة صبيحة سبع عشرة منه، و قيل: صبيحة أربع و عشرين منه، و كان المسلمون ثلاثمائة و بضعة عشر.

قلت: الراجح القول الثانى، و خرجت الأنصار معه صلّى اللّه عليه و سلّم فيها، و لم تكن قبل ذلك خرجت معه، و معهم ثلاثة أفراس، و كان المشركون ألفا، و يقال، تسعمائة و خمسين رجلا معهم مائة فرس، و هذه بدر الثانية لما تقدم، و الله أعلم.

ثم قتل عمير بن عدى الخطمى العصماء امرأة من الأنصار، و هى زوج يزيد الخطمى، كانت تؤذى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فى الشعر، فقتلها، ثم جاء رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا ينتطح فيها عنزان».

قلت: قال فى الاكتفاء: إن العصماء هذه نافقت لما قتل أبو عفك (بالفاء و إهمال أوله) و قالت شعرا تعيب الإسلام و أهله، و تؤنب الأنصار فى اتباعهم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و إن عميرا رجع إلى قومه بعد قتلها يومئذ كثير موجهم فى شأنها، و لها بنون خمسة رجال، فقال: يا بنى خطمة، أنا قتلت بنت مروان، يعنى العصماء، فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون، فذلك اليوم أول ماء الإسلام فى دار بنى خطمة، و كان يستخفى بإسلامه فيهم من أسلم، و يومئذ أسلم رجال منهم لما رأوا من عز الإسلام، انتهى. و الذى رواه ابن سيد الناس عن ابن سعد أنه قال بعد ذكر قتل عمير للعصماء: ثم فى شوال كانت سرية سالم بن عمير إلى أبى عفك اليهودى، و كان أبو عفك من بنى عمرو بن عوف شيخا قد بلغ عشرين و مائة، و كان يحرض على رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و يقول الشعر، فقال سالم بن عمير و هو أحد البكائين و ممن شهد بدرا: على نذر أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه، و ذكر قتله إياه، و هو مخالف لما قدمناه عن الاكتفاء من تقديم قتل أبى عفك على قتل العصماء، و ذكر ابن سعد أيضا أن قتل العصماء كان لخمس ليال بقين من شهر رمضان، و أن عميرا كان ضرير البصر، و سماه رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم البصير، قيل: و كان أول من أسلم من بنى خطمة، و كان إمام قومه و قارئهم، و كان يدعى «القارئ»، و الله أعلم.

ثم خطب رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم قبل الفطر بيومين يعلّم الناس زكاة الفطر.

قلت: و قيل: فى أول شوال، و صلّى صلاة الفطر، و فيها فرضت زكاة الأموال أيضا، و قيل: فى الثالثة، و قيل: فى الرابعة، و قيل: قبل الهجرة، و ثبتت بعدها، و الله أعلم.

ثم غزا بنى قينقاع فى شوال.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۱۵

قلت: قد تقدم أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان قد وادع اليهود، و كانوا يرجعون إلى ثلاث طوائف:

بنى قينقاع، و النضير، و قريظة، فنقض الثلاثة العهد طائفة بعد طائفة، فأول من نقض منهم بنو قينقاع فحاربهم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بعد بدر فى شوال، فألقى الله الرعب فى قلوبهم، فنزلوا على حكمه، فأراد قتلهم، فاستوهبهم منه عبد الله بن أبى و كانوا حلفاءه فوهبهم له، و أخرجهم من المدينة إلى أذرعات، و فى الاكتفاء: و كان منشأ أمرهم، يعنى فى نقض العهد، أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها، فباعته بسوق بنى قينقاع، و جلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقلته، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فوقع الشر بينهم و بين المسلمين، فحاصرهم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم حتى نزلوا على حكمه.

و روى أن ابن أبىّ قال للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم: يا محمد، أحسن فى موالى، فأعرض عنه، و أنه قال: أربعمائة حاسر و ثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر و الأسود تحصدهم فى غداة واحدة، إنى و الله امرؤ أخشى الدوائر، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: هم لك، و قال مغلطاى فى غزوة بنى قينقاع، قال الحاكم: هذه و بنى النضير واحد، و ربما اشتبهتا على من لا يتأمل، و قال الحافظ ابن حجر بعد ذكر أنهم أول من نقض العهد: فغزاهم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ثم بنى النضير، و أغرب الحاكم فزعم أن إجلاء بنى قينقاع و إجلاء بنى النضير كان فى زمن واحد و لم يوافق على ذلك؛ لأن إجلاء بنى النضير كان بعد بدر بستة أشهر على قول عروة، أو بعد ذلك بمدة طويلة على قول ابن إسحاق، و ذكر الواقدى أن إجلاء بنى قينقاع كان فى شوال سنة اثنتين، يعنى بعد بدر بشهر، و يؤيده ما روى ابن إسحاق بإسناد حسن عن ابن عباس قال: لما أصاب رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم قريشا يوم بدر جمع يهود فى سوق بنى قينقاع فقال: يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم ما أصاب قريشا، فقالوا: إنهم كانوا لا يعرفون القتال، و لو قاتلتنا لعرفت أنا الرجال؛ فأنزل الله: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَيُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إلى قوله: لِأُولِي الْأَبْصارِ [آل عمران: ۱۲- ۱۳] و أصاب صلّى اللّه عليه و سلّم من سلاح بنى قينقاع ثلاثة أسياف و در عين أحدهما تسمى فضة و الأخرى تسمى السغدية (بالسين المهملة و الغين المعجمة) قال بعض الحفاظ: و كانت السغدية درع داود عليه السلام التى لبسها حين قتل جالوت، و الله أعلم.

غزوة السويق

قلت: سميت به لأنه كان أكثر زاد المشركين، و غنمه المسلمون لأن أبا سفيان خرج

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۱۶

فى مائتى راكب، و قيل: فى أربعين، حتى أتوا العريض، فحرق نخلا و قتل رجلا من الأنصار و أجيرا له، فخرج رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فى طلبه، و جعل أبو سفيان و أصحابه يتخففون للهرب فيلقون جرب السويق، فأخذها المسلمون فرجعوا، و ذلك بعد بدر، فإن أبا سفيان حلف بعدها أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدا، ففعل ذلك، و رأى أن يمينه انحلت، و الله أعلم.

ثم مات عثمان بن مظعون فى ذى الحجة، فهو أول من مات من المهاجرين بالمدينة، ثم صلّى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم صلاة العيد، ثم ضحى بكبش، ثم بنى على بفاطمة فى ذى الحجة.

قلت: و قال النووى: و توفيت فى ذى الحجة منها رقية ابنته صلّى اللّه عليه و سلّم لكن ذكر أهل السير ما يقتضى أن وفاتها كانت فى رمضان منها، و الله أعلم.

السنة الثالثة من الهجرة

اشارة

السنة الثالثة: ثم قال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: «من لكعب بن الأشرف»؟ فقال محمد بن مسلمة: أنا له، ثم قتله.
قلت: ابن الأشرف كان أصله عربيا من نبهان على ما قاله ابن إسحاق، أتى أبوه المدينة فخالف بنى النضير، فشرف فيهم، و تزوج بنت أبى الحقيق، فولدت له كعبا، و كان جسيما شاعرا، و هجا المسلمين بعد وقعة بدر، و خرج إلى مكة و أنشدهم الأشعار، و بكى أصحاب القليب من قريش، و نزل فيهم على المطلب بن أبى وداعة السهمى، و عنده عاتكة بنت أبى العيص ابن أمية، فهجاه حسان و هجا امرأته عاتكة، فطردته، فرجع إلى المدينة و شبب بنساء المسلمين، و كان يهجو رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و يحرض عليه كفار قريش، و قيل: صنع طعاما و واطأ يهود أن يدعو النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فإذا حضر فتكوا به، ثم دعاه، فأعلمه جبريل فقام منصرفا و قال: «من لكعب بن الأشرف» فانتدب له محمد بن مسلمة فى نفر، و احتال عليه حتى نزل له ليلا فقتله، و قيل: أمر رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم سعد بن معاذ أن يبعث رهطا ليقتلوه، و الله أعلم.

غزوة الكدر

ثم غزا غزوة الكدر، و كان حامل لوائه على بن أبى طالب، فرجع و لم يلق كيدا.
قلت: خرج فيها رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يريد بنى سليم، و استخلف سباع بن عرفطة، و قيل:
وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۲۱۷
ابن أم مكتوم، فبلغ ماء يقال له الكدر، و تعرف بغزوة «قرقرة»، و يقال نجران، فلم يلق أحدا، و الله أعلم.

غزوة أنمار

ثم غزا غزوة أنمار، فجاءه دعثور فوجده نائما تحت الشجرة، فاستيقظ رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و هو قائم على رأسه بالسيف، فقال له دعثور: من يمنعك منى؟ قال: الله، فوقع السيف من يده، و أخذه رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و قال: من يمنعك منى؟ قال: لا أحد، قال: اذهب لشأنك، فولى و هو يقول: محمد خير منى، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: نعم، و أنا أحق بذلك منك، فنذرت غطفان برسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فهربوا.

غزوة ذى أمر

قلت: هذه غزوة ذى أمر، و سماها الحاكم غزوة أنمار، و سمى بعضهم الأعرابى غورث، و يقال: كان ذلك فى ذات الرقاع، و لا مانع من تعدد ذلك، و كأن أبا حاتم رأى اتحادهما فلم يذكر ذات الرقاع، و هى بنخل عند بعضهم؛ فلذلك لم يذكرها أيضا، و الله أعلم.
ثم كانت سرية القردة، و كان أميرها زيد بن حارثة، فلقى بها عير قريش، فأخذها، و أسر فرات بن حيان، و بلغ الخمس من تلك الغنيمة عشرين ألفا.

سرية القردة

قلت: و القردة ماء من مياه نجد، فإن قريشا بعد بدر خافوا طريقهم التى كانوا يسلكون إلى الشام، فسلكوا طريق العراق، و كان فى هذه العير أبو سفيان بن حرب و معه فضة كثيرة هى عظم تجارتهم، و الله أعلم.

ثم كانت أحد.

غزوة أحد

اشارة

قلت: كانت فى شوال سنة ثلاث باتفاق الجمهور، و شذ من قال: سنة أربع، و قال ابن إسحاق: لإحدى عشرة ليلة خلت منه، و قيل: لسبع ليال، و قيل: لثمان؛ و قيل:

لتسع، و قيل: فى نصفه، و قال مالك: كانت بعد بدر بسنة، و فيه تجوز، لأن بدرا كانت فى رمضان باتفاق، فهى بعدها بسنة و شهر لم يكمل، و لهذا قال مرة أخرى: كانت بعد الهجرة بإحدى و ثلاثين شهرا.

و كان السبب فيها أنه لما قتل الله من قتل من كفار قريش يوم بدر و رجع من بقى منهم إلى مكة و رجع أبو سفيان بعيرهم، فكلموا أبا سفيان و من له فى العير مال فى

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۱۸

الاستعانة بها على حرب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ففعلوا، و قيل: كان المال خمسين ألف دينار، فسلم إلى أهل العير رءوس أموالهم، و عزلت الأرباح، و كانوا يربحون فى تجارتهم الديا نار دينارا، و جهزوا الجيش بذلك، و حركوا من أطاعهم من القبائل، و خرجوا بأحابيشهم و من تابعهم من بنى كنانة و أهل تهامة، و خرجوا معهم بالظعن لئلا يفروا، فخرج أبو سفيان- و كان قائدهم- بهند بنت عتبة، و كذلك سار أشرافهم خرجوا بنسائهم، و كان جبير بن مطعم أمر غلامه وحشيا الحبشى بالخروج مع الناس، و قال له: إن قتلت حمزة عم محمد صلّى اللّه عليه و سلّم بعمى طعمة بن عدى فأنت عتيق، فأقبلوا حتى نزلوا بعينين جبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادى مقابل المدينة، قاله ابن إسحاق، و وادى قناة خلف عينين بينه و بين أحد، فإن عينين فى مقابلة أحد، فنزلوا هم أمام عينين مما يلى المدينة و فى غربيه لجهة بئر رومة؛ فلا يخالف ما سيأتى عن المطرى، و نقل ابن عقبة أن أبا سفيان سار بجمعه حتى طلعوا من بئر الجماوين، ثم نزلوا ببطن الوادى الذى قبل أحد، و كان رجال من المسلمين أسفوا على ما فاتهم من مشهد بدر، و تمنوا لقاء العدو، و أرى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم ليلة الجمعة رؤيا، فلما أصبح قال: رأيت البارحة فى منامى بقرا تذبح، و الله خير، و رأيت سيفى ذا الفقار انقصم من عند ظبته، أو قال به فلول، فكرهته و هما مصيبتان، و رأيت أنى فى درع حصينة، و أنى مردف كبشا، قالوا: ما أولتها؟ قال: أولت البقر بقرا يكون فينا، و أولت الكبش كبش الكتيبة [۳]، و أولت الدرع الحصينة المدينة، فامكثوا فإن دخل القوم الأزقة قاتلناهم و رموا من فوق البيوت، و نقل ابن إسحاق أيضا أن عبد الله بن أبى قال: يا رسول الله، أقم بالمدينة، و لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا، و لا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم، فقال أولئك القوم: يا نبى الله كنا نتمنى هذا اليوم، و أبى كثير من الناس إلا الخروج، فلما صلّى الجمعة و انصرف دعا باللأمة فلبسها، ثم أذن فى الناس بالخروج، فندم ذوو الرأى منهم، فقالوا: يا رسول الله امكث كما أمرتنا، فقال: ما ينبغى لنبى إذا أخذ لأمة الحرب أن يرجع حتى يقاتل، فخرج بهم و هم ألف رجل، و كان المشركون ثلاثة آلاف. و قال المطرى: إن نزول قريش يوم أحد بالمدينة كان يوم الجمعة، قال: و قال ابن إسحاق: يوم الأربعاء.

قال المطرى: فنزلوا برومة من وادى العقيق، و صلّى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم الجمعة بالمدينة، ثم

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۱۹

خرج هو و أصحابه على الحرة الشرقية حرة واقم، و بات بالشيخين موضع بين المدينة و بين جبل أحد على الطريق الشرقية مع الحرة إلى جبل أحد، و غدا صبح يوم السبت إلى أحد، انتهى. و نقل الأقشهرى أنه صلّى اللّه عليه و سلّم دعا بثلاثة أرماح فعقد ثلاثة ألوية؛ فدفع لواء الأوس إلى أسيد بن حضير، و لواء الخزرج إلى الحباب بن المنذر بن الجموح، و قيل: إلى سعد بن عبادة، و لواء المهاجرين إلى على بن أبى طالب، و قيل: إلى مصعب بن عمير، و استخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، ثم ركب فرسه، و تقلد القوس، ثم أخذ قناته بيده، و فى المسلمين مائة دارع، و خرج السعدان أمامه سعد بن معاذ و سعد بن عبادة و الناس على يمينه و شماله، فمضى حتى إذا كان بالشيخين- و هما أطمان- التفت فنظر إلى كتيبة حسنة لها زجل، فقال: ما هذه؟ قالوا: حلفاء ابن أبى من يهود، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: لا نستنصر بأهل الشرك، فلما بلغوا الشوط انخذل عبد الله بن أبى بثلث الناس، انتهى.

و فى الاكتفاء أن مخيريقا كان من أحبار يهود، فقال لهم يومئذ، لقد علمتم إن نصر محمد عليكم لحق، فتعللوا بسبتهم، فقال لهم: لا سبت لكم، و أخذ سيفه و عدته فلحق برسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فقاتل معه حتى قتل بعد أن قال: إن أصبت فمالى لمحمد يصنع فيه ما شاء، و فيه قال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: «مخيريق خير يهود» انتهى.

و روى الطبرانى فى الكبير و الأوسط برجال ثقات عن أبى حميد الساعدى أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم خرج يوم أحد حتى إذا جاوز ثنية الوداع فإذا هو بكتيبة حسناء، فقال: من هؤلاء؟

قالوا: عبد الله بن أبى فى ستمائة من مواليه من اليهود من بنى قينقاع، فقال: و قد أسلموا؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: مروهم فليرجعوا، فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين.

قال الأقشهرى عقب كلامه السابق: و عرض رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم من عرض ورد من رد فى ذلك الموضع، يعنى بالشيخين، و أذن بلال المغرب فصلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بأصحابه، و بات بذلك الموضع صلّى اللّه عليه و سلّم و استعمل على الحرس فى تلك الليلة محمد بن مسلمة فى خمسين يطوفون بالعسكر، و أدلج رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فى السحر و هو يرى المشركين و دليله أبو خيثمة الحارثى، فانتهى إلى موضع القنطرة، فحانت الصلاة فصلى بأصحابه الصبح صفوفا عليهم السلاح، قال: و قال مجاهد و الكلبى و الواقدى: غدا رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم من منزل عائشة على رجليه إلى أحد، فجعل يصف أصحابه للقتال كما يقوّم القدح، و قال ابن إسحاق: لما خرج رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم إلى أحد حتى إذا كان بالشوط انخذل عبد الله بن أبى فى ثلاثمائة، و فى رواية بثلث الناس، و قال: أطاعهم و عصانى، و قال ابن عقبة: فبقى صلّى اللّه عليه و سلّم فى سبعمائة،

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۲۲۰

فلما رجع عبد الله بن أبى سقط فى أيدى طائفتين من المؤمنين- و هما بنو حارثة و بنو سلمة- و قال الأقشهرى: فبقى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فى سبعمائة، و معه فرسه و فرس لأبى بردة بن نيار، و هذه رواية الواقدى، و الذى رواه ابن عقبة- كما سيأتى- أنه لم يكن مع المسلمين فرس، و فى الاكتفاء بعد ذكر انخذال ابن أبى أن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم مضى حتى سلك فى حرة بنى حارثة، ثم قال: من رجل يخرج منا على القوم من كثب، أى من قرب، من طريق لا يمر بنا عليهم؟ فقال أبو خيثمة أخو بنى حارثة: أنا يا رسول الله، فنفذ به فى حرة بنى حارثة و بين أموالهم حتى سلك فى مال لمربع بن قيظى، و كان منافقا ضرير البصر، فلما سمع حس رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و من معه قام فحثا فى وجوههم التراب و يقول: إن كنت رسول الله فإنى لا أحل لك أن تدخل حائطى، و ذكر أنه أخذ حفنة من تراب، ثم قال: و الله لو أعلم أنى لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: لا تقتلوه فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر، فمضى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم حتى نزل الشعب من أحد، فجعل ظهره و عسكره إلى أحد. و قال الأقشهرى: و جعل أحدا خلف ظهره، و استقبل المدينة، و جعل عينين الجبل عن يساره، و قال ابن عقبة: و صفّ المسلمون بأصل أحد، و صف المشركون بالسبخة، و تعبوا للقتال، و على خيل المشركين- و هى مائة فرس- خالد بن الوليد، و ليس مع المسلمين فرس، و صاحب لواء المشركين طلحة بن عثمان، و أمّر رسول الله

صلّى اللّه عليه و سلّم عبد الله بن جبير على الرماة و هم خمسون رجلا، و عهد إليهم أن لا يتركوا منازلهم. و نقل الأقشهرى أنه جعلهم على جبل عينين. و فى الاكتفاء أنه صلّى اللّه عليه و سلّم قال لأميرهم: انضح الخيل عنا لا يأتونا من خلفنا، إن كان لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك، و ظاهر رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بين درعين، و تعبأ قريش، و هم ثلاثة آلاف و معهم مائة فرس قد جنبوها، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، و على الميسرة عكرمة بن أبى جهل، و قد كان أبو عامر الراهب من الأوس خرج عن قومه إلى مكة مباعدا لرسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فكان يعد قريشا أن لو لقى قومه لم يختلف عليه منهم رجلان، فلما التقى الناس كان أول من لقيهم هو فى الأحابيش و عبدان أهل مكة، فنادى: يا معشر الأوس أنا أبو عامر، قالوا: فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق، و بذلك سماه رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و كان يسمى فى الجاهلية الراهب، فلما سمع ردهم عليه قال:

لقد أصاب قومى بعدى شر، ثم قاتلهم قتالا شديدا، ثم راضخهم بالحجارة، انتهى.

و روى البزار- و رجاله ثقات- عن الزبير بن العوام قال: عرض رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم سيفا يوم أحد فقال: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام أبو دجانة فقال: يا رسول الله أنا آخذه بحقه، فأعطاه إياه، فخرج، فأتبعته فجعل لا يمر بشىء إلا أفراه و هتكه، حتى أتى نسوة فى سفح الجبل و معهن هند و هى تقول:

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۲۱

نحن بنات طارق نمشى على النمارق

و الدر فى المخانق و المسك فى المفارق

إن تقبلوا نعانق و نفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

يعنى تحرضهم بذلك، قال: فحمل عليها، فنادت بالصحراء فلم يجبها أحد، فانصرف عنها، فقلت له: كل سيفك رأيته فأعجبنى غير أنك لم تقتل المرأة، قال: فإنها نادت فلم يجبها أحد، فكرهت أن أضرب بسيف رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم امرأة لا ناصر لها.

و فى الاكتفاء: ذكر الزبير رضى الله عنه أن سيف عبد الله بن جحش انقطع يوم أحد، فأعطاه رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم عرجونا، فعاد فى يده سيفا قائمه منه، فقاتل به؛ فكان ذلك السيف يسمى العرجون، و لم يزل بعد يتوارث حتى بيع من بغا التركى بمائتى دينار.

و روى البزار برجال الصحيح عن بريدة أن رجلا قال يوم أحد: اللهم إن كان محمد على الحق فاخسف به، قال: فخسف به.

و قال ابن إسحاق: قتل أصحاب لواء المشركين و هم تسعة بأحد واحد بعد واحد.

و قال غيره: أحد عشر آخرهم غلام لبنى طلحة.

و قال ابن عقبة: و كان صاحب لواء المسلمين مصعب بن عمير أخو بنى عبد الدار، فبارز طلحة بن عثمان من بنى عبد الدار فقتله، و حمل المسلمون على المشركين حتى أجهضوهم، و حملت خيل المشركين فنضحهم الرماة بالنبل ثلاث مرات، فدخل المسلمون عسكر المشركين فانتهبوه، فرأى ذلك الرماة، فتركوا مكانهم، و دخلوا العسكر، فأبصر ذلك خالد و من معه، فحملوا على المسلمين فى الخيل، فمزقوهم، و صرخ صارخ: قتل محمد، أخراكم، فعطف المسلمون يقتل بعضهم بعضا و هم لا يشعرون، و انهزم طائفة منهم و تفرق سائرهم، و وقع فيهم القتل، و ثبت نبى الله حين انكشفوا عنه و هو يدعوهم فى أخراهم، حتى رجع إليه بعضهم و هو عند المهراس فى الشعب، و توجه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يلتمس أصحابه، فاستقبله المشركون فرموا وجهه فأدموه و كسروا رباعيته، فمر مصعدا فى الشعب و معه طلحة و الزبير، و قيل: معه طائفة من الأنصار منهم سهل بن بيضاء و الحارث بن الصمة، و اشتغل المشركون بقتلى المسلمين يمثلون بهم يقطعون الآذان

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى؛ ج ۱؛ ص ۲۲۱

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۲۲

و الأنوف و الفروج و يبقرون البطون، و هم يظنون أنهم أصابوا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أشراف أصحابه، فقال أبو سفيان يفتخر بإلهه: «اعل هبل» فناداه عمر: الله أعلى و أجل، و رجع المشركون إلى أثقالهم.

الرسول يقتل أبى بن خلف

قال ابن إسحاق: كان أول من عرف رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بعد الهزيمة، و تحدث الناس بقتله، كعب بن مالك الأنصارى، قال: عرفت عينيه يزهران تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتى: يا معشر المسلمين، أبشروا هذا رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فأشار إلى أن أنصت، فلما عرف المسلمون رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم نهضوا به، و نهض معهم نحو الشعب معه أبو بكر و عمر و على و طلحة و الزبير و الحارث بن الصمة و رهط من المسلمين، فلما أسند رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فى الشعب أدركه أبى بن خلف و هو يقول: أين محمد؟ لا نجوت إن نجا، فقال القوم:

يا رسول الله أ يعطف عليه رجل منا؟ فقال: دعوه، فلما دنا تناول رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم الحربة من الحارث بن الصمة، يقول بعض القوم: فلما أخذها رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم استقبله فطعنه فى عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مرارا، و كان أبى بن خلف يلقى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بمكة فيقول: يا محمد إن عندى العود فرسا أعلفه كل يوم فرقا من ذرة أقتلك عليه، فيقول رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: أنا أقتلك إن شاء الله، فلما رجع إلى قريش و قد خدشه فى عنقه خدشا غير كبير فاحتقن الدم، قال: قتلنى و الله محمد، فقالوا: ذهب و الله فؤادك، و الله إن يك بأس، قال: إنه قد كان، قال بمكة: أنا أقتلك، فوالله لو بصق على لقتلنى، فمات عدو الله بسرف و هم قافلون إلى مكة، و قد قال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فيما قاله يومئذ: اشتد غضب الله على رجل قتله رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فسحقا لأصحاب السعير.

و فى الصحيح عن عائشة قالت: لما كان يوم أحد هزم المشركون هزيمة بينة، فصاح إبليس: أى عباد الله، أخراكم، فرجعت أولاهم، فاجتلدت مع أخراهم، فنظر حذيفة فإذا هو بأبيه فنادى: أى عباد الله، أبى أبى، فقالت: فو الله ما احتجزوا حتى قتلوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم.

و نقل الأقشهرى أن أبا سفيان بن حرب قال يومئذ لبنى عبد الدار: إنكم ضيعتم اللواء يوم بدر، فأصابنا ما رأيتم، فادفعوا اللواء إلينا نكفكم، و إنما أراد تحريضهم على القتال

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۲۲۳

و الثبات، فغضبوا و أغلظوا له، و أن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم سأل: من يحمل لواء المشركين؟ قيل:

عبد الدار، قال: نحن أحق بالوفاء منهم؟ أين مصعب بن عمير؟ فقال:ها أنا، قال: خذ اللواء، فأعطاه اللواء، و إن حمزة رضى الله عنه حمل على عثمان بن طلحة حامل لواء المشركين فقطع يده و كتفه حتى انتهى إلى مؤتزره، ثم إن أصحاب اللواء قتلوا واحدا بعد واحد، فانكشف المشركون منهزمين، و نساؤهم يدعون بالويل و الثبور، و تبعهم المسلمون يضعون فيهم السلاح، و وقفوا يأخذون الغنائم، فلما رأى الرماة ذلك أقبل جماعة منهم و خلوا الجبل، فكر خالد بالخيل، فتبعه عكرمة، فحملوا على من بقى من الرماة فقتلوهم و قتلوا أميرهم عبد الله بن جبير، و انتقضت صفوف المسلمين، و نادى إبليس: قتل محمد، و ثبت رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم ما يزول، يرمى عن قوسه حتى صارت شظايا، و يرمى بالحجارة، و ثبت معه عصابة من الصحابة أربعة عشر من المهاجرين فيهم أبو بكر و عمر و سبعة من الأنصار، اه.

و روى النسائى عن جابر قال: لما ولّى الناس يوم أحد كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى اثنى عشر رجلا من الأنصار فيهم طلحة.

و وقع عند الطبرى من طريق السدى قال: تفرق الصحابة فدخل بعضهم المدينة، و انطلق بعضهم فوق الجبل، و ثبت رسول الله صلّى

اللّه عليه و سلّم يدعو الناس إلى الله، فرماه ابن قميئة بحجر فكسر أنفه و رباعيته و شجه فى وجهه فأثقله، فتراجع إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ثلاثون رجلا، فجعلوا يذبون عنه، فحمله منهم طلحة و سهل بن حنيف، فرمى طلحة بسهم فيبست يده، و قال بعض من فر إلى الجبل: ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبى يستأمن لنا من أبى سفيان، فقال أنس بن النضر: يا قوم إن كان محمد قتل فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه، ثم ذكر قصة قتله، و قصد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم الجبل، فأراد رجل من أصحابه أن يرميه بسهم، فقال: أنا رسول الله، فلما سمعوا ذلك فرحوا به، و اجتمعوا حوله، و تراجع الناس.

و روى أحمد عن سعد بن أبى وقاص قال: رأيت عن يمين رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و عن يساره يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد القتال، ما رأيتهما قبل و لا بعد، و قد أخرجه الشيخان، و فى رواية لمسلم: يعنى جبريل و ميكائيل، و قول مجاهد: «لم تقاتل الملائكة يومئذ و لا قبله و لا بعده، إلا يوم بدر». قال البيهقى: أراد به أنهم لم يقاتلوا يوم أحد عن القوم حين عصوا الرسول و لم يصبروا على ما أمرهم به.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۲۴

و عن عروة بن الزبير: كان الله وعدهم على الصبر و التقوى أن يمدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين، و كان قد فعل، فلما عصوا أمر الرسول و تركوا مصافهم و تركت الرماة عهده إليهم و أرادوا الدنيا رفع عنهم مدد الملائكة، و أنزل الله: وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ [آل عمران: ۱۵۲] فصدق الله وعده، و أراهم الفتح، فلما عصوا أعقبهم البلاء.

و عند ابن سعد: ثبت معه صلّى اللّه عليه و سلّم سبعة من الأنصار و سبعة من قريش.

و فى مسلم من حديث أنس: أفرد فى سبعة من الأنصار و رجلين من قريش طلحة و سعد.

و قال ابن إسحاق: حدثنى حميد الطويل عن أنس قال: كسرت رباعية النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يوم أحد، و شج فى وجهه، فجعل يسيل الدم على وجهه، و جعل يمسح الدم و هو يقول:

كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم و هو يدعوهم إلى ربهم؟ فأنزل الله تعالى: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ [آل عمران: ۱۲۸] الآية.

و روى بن إسحاق من حديث سعد بن أبى وقاص قال: ما حرصت على قتل رجل قط حرصى على قتل أخى عتبة بن أبى وقاص لما صنع برسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم.

و ذكر ابن هشام فى حديث أبى سعيد الخدرى أن عتبة بن أبى وقاص أخا سعد هو الذى كسر رباعية النبى صلّى اللّه عليه و سلّم السفلى، و جرح شفته السفلى، و أن عبد الله بن شهاب هو الذى شجه فى جبهته، و أن عبد الله بن قميئة جرحه فى وجنته، فدخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته، و أن مالك بن سنان مص الدم من وجهه، ثم ازدرده، فقال له: لن تمسك النار.

و فى الطبرانى من حديث أبى أمامة قال: رمى عبد الله بن قميئة رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يوم أحد فشج وجهه، و كسر رباعيته، و قال: خذها و أنا بن قميئة، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و هو يمسح الدم عن وجهه: ما لك أقمأك الله، فسلط الله عليه تيس جبل، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة.

و قال السهيلى: الذى كسر رباعية رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم عتبة بن أبى وقاص أخو سعد، لم يولد من نسله ولد فبلغ الحلم إلا و هو أبخر أو أهتم، يعرف بذلك فى عقبه.

و روى ابن الجوزى عن محمد بن يوسف الفريابى قال: لقد بلغنى أن الذين كسروا رباعية النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لم يولد لهم صبى فنبتت له رباعية.

و قيل: كان سبب الهزيمة أن ابن قميئة الليثى قتل مصعب بن عمير، و كان مصعب إذا

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۲۵

لبس لأمته يشبه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فلما قتله ظن أنه رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فرجع إلى قريش و قال: قد قتلت محمدا،

فازدادوا جرأة و صاح إبليس من العقبة: قتل محمد، فلما سمع المسلمون ذلك و هم متفرقون كانت الهزيمة، فلم يلو أحد على أحد.

و الصواب أن السبب مخالفة الرماة للأمر، و هذا مؤكد له و متمم، مع أن الأصل فى ذلك- مع إرادة الله تعالى- ما اتفق ببدر من أخذ الفداء، فقد أخرج الترمذى و النسائى عن على أن جبريل هبط فقال: خيّرهم فى أسارى بدر القتل أو الفداء على أن يقتل منهم من قابل مثلهم، قالوا: الفداء و يقتل منا، و قال الترمذى: حسن، و ذكر غيره له شواهد تقويه، و لهذا جاء فى الصحيح أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين و مائة، و قتلوا سبعين، و أسروا سبعين. و فيه أيضا أن المشركين أصابوا يوم أحد من المسلمين سبعين، و لفظه من حديث البراء قال: لقينا المشركين يومئذ، و أجلس النبى صلّى اللّه عليه و سلّم جيشا من الرماة، و أمّر عليهم عبد الله بن جبير، و قال: لا- تبرحوا، فإن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، و إن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا، فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن فى الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة، فقال عبد الله: عهد إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ألّا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صرف الله وجوههم، فأصيب سبعون قتيلا.

و وقع عند مسلم من طريق ابن عباس عن عمر فى قصة بدر قال: فلما كان يوم أحد قتل منهم سبعون و فروا، و كسرت رباعية النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و هشمت البيضة على رأسه، و سال الدم على وجهه، فأنزل الله تعالى: أَ وَ لَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها [آل عمران:

۱۶۵] الآية، و المراد بكسر الرباعية- و هى السن التى تلى الثنية و الناب- أنها كسرت فذهب منها فلقة، و لم تقلع من أصلها، و قوله «و فروا» أى: بعضهم، أو أطلق ذلك باعتبار تفرقهم، و الواقع أنهم صاروا ثلاث فرق: فرقة استمروا فى الهزيمة إلى قرب المدينة، فما رجعوا حتى انقضى القتال، و هم قليل، و هم الذين نزل فيهم: إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ [آل عمران: ۱۵۵] و فرقة صاروا حيارى لما سمعوا أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قتل، فصار غاية الواحد منهم أن يذب عن نفسه، أو يستمر على نصرته فى القتال إلى أن يقتل، و هم أكثرهم، و فرقة بقيت مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ثم تراجع إليهم القسم الثانى شيئا فشيئا لما عرفوا أنه حى، و ما ورد من الاختلاف فى العدد محمول على تعدد المواطن فى القصة.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۲۶

و وقع عند أبى يعلى فى حديث عمر المتقدم: فلما كان عام أحد عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون.

و فى الاكتفاء: أنه لما قتل مصعب بن عمير أعطى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم اللواء على بن أبى طالب، فقاتل فى رجال من المسلمين، و لما اشتد القتال جلس رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يومئذ تحت راية الأنصار، و أرسل إلى على أن قدم الراية، فتقدم فقال: أنا أبو القصم، فناداه أبو سعد بن أبى طلحة: هل لك يا أبا القصم فى البراز من حاجة؟ قال: نعم، فبرزا بين الصفين، فاختلفا ضربتين: فضربه على فصرعه، ثم انصرف و لم يجهز عليه، فقال له أصحابه: أ فلا أجهزت عليه؟ فقال: إنه استقبلنى بعورته، فعطفتنى عليه الرحم، و عرفت أن الله قد قتله.

و قد قيل: إن سعد بن أبى وقاص هو الذى قتل أبا سعد هذا.

و روى الطبرانى برجال الصحيح عن ابن عباس قال: دخل على بن أبى طالب على فاطمة يوم أحد فقال: خذى هذا السيف غير ذميم، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: لئن كنت أحسنت القتال فقد أحسنه سهل بن حنيف و أبو دجانة بن خرشة.

و ذكر فى الاكتفاء دخول الحلقتين من حلق المغفر فى وجنته صلّى اللّه عليه و سلّم و أنه وقع فى حفرة من الحفر التى عمل أبو عامر الراهب ليقع فيها المسلمون و هم لا يعلمون، فأخذ على بيده، و رفعه طلحة حتى استوى قائما، و مص مالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى الدم من وجهه، و نزع أبو عبيدة بن الجراح إحدى الحلقتين من وجهه صلّى اللّه عليه و سلّم فسقطت ثنيته، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى، و رمى سعد بن أبى وقاص دون رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم قال سعد: فلقد رأيته يناولنى النبل و يقول: «ارم فداك أبى و أمى»، و أصيب يومئذ عين قتادة بن النعمان فردها رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بيده، فكانت أحسن عينيه، و أصيب فم

عبد الرحمن بن عوف فهتم، و جرح عشرين جراحة أو أكثر أصابه بعضها فى رجله فعرج، فلما انتهى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم إلى الشعب و معه أولئك النفر من أصحابه، فبينا هم فى الشعب إذ علت عالية من قريش: الجبل، فقال: اللهم إنه لا ينبغى لهم أن يعلونا، فقاتل عمر بن الخطاب و رهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل، و نهض رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم إلى صخرة من الجبل ليعلوها فلم يستطع، و قد كان بدّن و ظاهر بين درعين، فجلس تحته طلحة بن

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۲۷

عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: «أوجب طلحة» و صلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يومئذ الظهر قاعدا من الجراح التى أصابته، و صلّى المسلمون خلفه قعودا.

و فى الصحيح من حديث البراء أن أبا سفيان- حين أراد الانصراف- قال: «لنا العزى و لا عزى لكم» فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: أجيبوه، قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله مولانا و لا مولى لكم».

و فيه أيضا أن أبا سفيان أشرف يوم أحد فقال: أ فى القوم محمد؟ فقال: لا تجيبوه، فقال: أ فى القوم ابن أبى قحافة؟ قال: لا تجيبوه، قال: أ فى القوم ابن الخطاب؟ فلما لم يجبه أحد قال: إن هؤلاء قتلوا، و لو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه فقال:

كذبت يا عدو الله، قد أبقى الله لك ما يخزيك.

قال ابن إسحاق: فلما أجاب عمر أبا سفيان قال له: هلم إلى يا عمر، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم لعمر: ائته فانظر ما شأنه، فجاء، فقال له أبو سفيان: أنشدك بالله يا عمر أ قتلنا محمدا، فقال عمر: اللهم لا، و إنه ليسمع كلامك الآن، قال: أنت أصدق عندى من ابن قميئة و أبر، ثم نادى أبو سفيان: إنه قد كان فى قتلاكم مثل، و الله ما رضيت و ما سخطت، و ما أمرت و ما نهيت، و لما انصرف أبو سفيان و من معه نادى: إن موعدكم بدر العام القابل، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم لرجل من أصحابه: «قل: نعم، هو بيننا و بينكم موعد» ثم بعث رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم على بن أبى طالب فقال: اخرج فى آثار القوم فانظر ما ذا يصنعون و ما ذا يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل و امتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، و إن ركبوا الخيل و ساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، و الذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم، فخرج على فرآهم قد جنبوا الخيل و امتطوا الإبل و وجهوا إلى مكة، و فزع الناس لقتلاهم، و انتشروا يبتغونهم، و سيأتى خبرهم و تعيينهم إن شاء الله تعالى فى الفصل السادس من الباب الخامس، و بكى المسلمون يومئذ على قتلاهم، فسر المنافقون، و ظهر غش اليهود، و فارت المدينة بالنفاق.

الحكم التى فى قصة أحد

قال العلماء: و كان فى قصة أحد من الحكم و الفوائد أشياء عظيمة.

منها: تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية، و شؤم ارتكاب النهى؛ لما وقع من الرماة.

و منها: أن عادة الرسل أن تبتلى و تكون لها العاقبة.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۲۸

و منها: إظهار أهل النفاق حتى عرف المسلمون أن لهم عدوا بين أظهرهم.

و منها: أن فى تأخير النصر هضما للنفس.

و منها: أن الله هيأ لعباده المؤمنين منازل فى دار كرامته لا تبلغها أعمالهم، فسبب لهم ذلك ليبلغوها.

و منها: أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء، فساقها لهم بين يدى الرسول ليكون شهيدا عليهم.

قال ابن إسحاق: و فى شأن أحد أنزل الله ستين آية من آل عمران.

و روى ابن أبى حاتم من طريق المسور بن مخرمة قال: قلت لعبد الرحمن بن عوف:
أخبرنى عن قصتكم يوم أحد، قال: اقرأ العشرين و مائة من آل عمران تجدها: وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ إلى قوله: أَمَنَةً نُعاساً [آل عمران: ۱۲۱- ۱۵۴].

أبو عزة الجمحى و مقتله

ثم خرج رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بعد الوقعة مرهبا لعدوه حتى انتهى إلى حمراء الأسد، فأخذ فى وجهه ذلك أبا عزّة الجمحى، و كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قد منّ عليه يوم بدر بغير فداء، و أخذ عليه أن لا يظاهر عليه أحدا، و كان شاعرا، فقال له صفوان بن أمية: إنك امرؤ شاعر فأعنّا بلسانك، و لم يزل به حتى خرج معهم، فلما أخذه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: يا رسول الله أقلنى فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: و الله لا تمسح عارضيك بمكة تقول: خدعت محمدا مرتين، اضرب عنقه يا زبير، فضرب عنقه.
تحريم الخمر السنة الرابعة من الهجرة غزوة الرجيع غزوة بنى النضير.
و فى رواية أنه قال له: «إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، اضرب عنقه يا عاصم بن ثابت» فضرب عنقه.

تحريم الخمر

و فى هذه السنة أيضا حرمت الخمر، و يقال: فى التى بعدها، و قال الحافظ ابن حجر: الذى يظهر أن تحريمها كان عام الفتح سنة ثمان، و استدل بشىء فيه نظر.
و تزوج النبى صلّى اللّه عليه و سلّم حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما فى شعبان على الأصح، و قيل: فى التى قبلها، و زينب بنت خزيمة أم المساكين فى رمضان، فمكثت عنده شهرين أو ثلاثة، و قيل: ثمانية أشهر، و ماتت، و ولد الحسن بن على فى منتصف رمضان،
وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۲۹
و علقت أمه بالحسين بعد خمسين ليلة، و تزوج عثمان أم كلثوم بنت رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و الله أعلم.

السنة الرابعة من الهجرة

اشارة

السنة الرابعة: و كانت بئر معونة أولها فى المحرّم.
قلت: فى الصحيح من رواية أنس قال: إن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أتاه رعل و ذكوان و عصية و بنو لحيان، فزعموا أنهم قد أسلموا، و استمدوه على قومهم، فأمدهم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بسبعين من الأنصار، قال أنس: كنا نسميهم القراء، يحطبون بالنهار و يصلون بالليل، فانطلقوا بهم حتى بلغوا بئر معونة غدروا بهم و قتلوهم، فقنت شهرا يدعو على رعل و ذكوان و بنى لحيان، و فى بعض الروايات ما يقتضى أن الذين استمدوا لم يظهروا الإسلام، بل كان بينهم و بين النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عهد، و أنهم غير الذين قتلوا القراء لكنهم من قومهم، و هو الذى فى كتب السير و قد بين ابن إسحاق فى المغازى و كذلك موسى بن عقبة عن ابن شهاب أسماء الطائفتين، و أن أصحاب العهد هم بنو عامر و رأسهم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر، المعروف بملاعب الأسنة، و أن الطائفة الأخرى من بنى سليم، و أن عامر بن أخى ملاعب الأسنة أراد الغدر بأصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فدعا بنى عامر إلى قتالهم،

فامتنعوا و قالوا: لا نخفر ذمة أبى براء، فاستصرخ عليهم عصية و ذكوان من بنى سليم، فأطاعوه و قتلوهم، قالوا: و مات أبو براء بعد ذلك آسفا على ما صنع به عامر بن الطفيل، و قيل: أسلم أبو براء عند ذلك، و قاتل حتى قتل، و عاش عامر بن الطفيل حتى مات كافرا بدعاء النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أصابته غدة كغدة البعير، و لم يكن القراء المذكورون كلهم من الأنصار، بل كان بعضهم من المهاجرين مثل عامر بن فهيرة مولى أبى بكر و نافع بن ورقاء الخزاعى و غيرهما، كما يؤخذ من الصحيح أيضا، و اللّه أعلم.

ثم كانت غزوة الرجيع فى صفر.

غزوة الرجيع

قلت: ذكرها ابن إسحاق فى الثالثة قبل بئر معونة، و الرجيع: موضع ببلاد هذيل، و اللّه أعلم.

ثم كانت غزوة بنى النضير.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۲۳۰

غزوة بنى النضير

قلت: ذكرها بعضهم فى الثالثة قبل أحد، و قال الزهرى: كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر قبل أحد، و ذكرها ابن إسحاق فى الرابعة بعد بئر معونة و أن سببها أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم جاءهم يستعينهم فى دية، و جلس إلى جنب جدار لهم، فخلا بعضهم ببعض، و أمروا عمرو بن جحاش أن يرقى فيلقى عليه صخرة، فأتاه الخبر من السماء، فقام مظهرا أن يقضى حاجة، و قال لأصحابه: لا تبرحوا، و رجع مسرعا إلى المدينة، فأمر بحربهم و المسير إليهم، و أمر بقطع النخل و التحريق، قال: و حاصرهم ست ليال، فسألوا أن يجلوا من أرضهم على أن لهم ما حملت الإبل، فصولحوا على ذلك، فاحتملوا إلى خيبر و إلى الشام؛ فكانت أموالهم له صلّى اللّه عليه و سلّم خاصة، و وافق ابن إسحاق على ذلك جل أهل المغازى، و أصح منه ما رواه ابن مردويه بسند صحيح أنهم أجمعوا على الغدر، فبعثوا إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: اخرج إلينا فى ثلاثة من أصحابك و يلقاك ثلاثة من علمائنا، فإن آمنوا بك اتبعناك، فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر، فأرسلت امرأة من بنى النضير إلى أخ لها من الأنصار مسلم تخبره بأمر بنى النضير، فأخبر أخوها النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بأمر بنى النضير قبل أن يصل إليهم، فرجع و صبّحهم بالكتائب، فحصرهم يومه، ثم غدا على بنى قريظة فحاصرهم، فعاهدوه، فانصرف عنهم إلى بنى النضير فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء و على أن لهم ما أقلت الإبل إلا السلاح، فاحتملوا أبواب بيوتهم؛ فكانوا يخربون بيوتهم فيهدمونها و يحملون ما يوافقهم من خشبها، و كان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام.

و رواه أيضا عبد بن حميد فى تفسيره، و روى أيضا من طريق عكرمة أن غزوتهم كانت صبيحة قتل كعب بن الأشرف، و روى أن قريشا كتبوا لبنى النضير يحثونهم على حرب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فأضمروا الغدر بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم و لما حرق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم نخلهم قال حسان رضى اللّه عنه يعير قريشا من أبيات:

و هان على سراة بنى لؤى حريق بالبويرة مستطير

فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، و لم يكن أسلم حينئذ:

أدام اللّه ذلك من صنيع و حرق فى نواحيها السعير

ستعلم أيّنا منها بنزه و تعلم أى أرضينا تضير

أى: ستعلم أينا منها ببعد، و أى الأرضين أرضنا أو أرضكم يحصل لها الضير: أى الضرر؛ لأن بنى النضير إذا خربت أضرت بما جاورها و هو أرض الأنصار لا أرض

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۲۳۱

قريش، و نقل ابن سيد الناس عن أبى عمرو الشيبانى أن الذى قال البيت المتقدم المنسوب لحسان هو أبو سفيان بن الحارث، و أنه لما قال:

و عزّ على سراة بنى لؤى

بدل «هان» قال: و يروى «بالبويلة» بدل «بالبويرة» و أن المجيب له بالبيتين المتقدمين هو حسان، و ما قدمناه هو رواية البخارى.

قال ابن سيد الناس: و ما ذكره الشيبانى أشبه.

قلت: كأنه استبعد أن يدعو أبو سفيان فى حالة كفره على أرض بنى النضير، و قد قدمنا وجهه، و كان أشراف بنى النضير بنو الحقيق و حيى بن أخطب، فكانوا فى من سار إلى خيبر، فدان لهم أهلها، و أسلم منهم يامين بن عمير و أبو أسعد بن وهب، فأحرزا أموالهما.

و روى ابن شبة عن الكلبى قال: لما ظهر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم على أموال بنى النضير قال للأنصار: إن إخوانكم من المهاجرين ليست لهم أموال، فإن شئتم قسمت هذه الأموال بينهم و بينكم جميعا، و إن شئتم أمسكتم أموالكم فقسمت هذه فيهم، قالوا: بل اقسم هذه فيهم و اقسم لهم من أموالنا ما شئت، فنزلت: وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ [الحشر: ۹]. و قال ابن إسحاق: قسمها صلّى اللّه عليه و سلّم فى المهاجرين إلا سهل بن حنيف و أبو دجانة، ذكرا فقرا فأعطاهما منها، و اللّه أعلم.

ثم ولد الحسين بن على.

قلت: المشهور فى ولادته أنها فى الثالثة كما قدمناه، و اللّه أعلم.

ثم كانت بدر الموعود.

قلت: هى بدر الثالثة لما تقدم، و اللّه أعلم.

ثم كان مقتل سلام بن مشكم أى أبى رافع، و يقال: عبد اللّه بن أبى الحقيق و هى سرية عبيد اللّه بن عتيك. ثم رجم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم اليهوديين اللذين كان يحنى أحدهما على الآخر.

زواج أم سلمة هند بنت أبى أمية

قلت: و فيها فى شوال تزوج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أم سلمة هند- و قيل: رملة- بنت أبى

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۲۳۲

أمية، و هى أول من هاجر مع زوجها أبى سلمة إلى الحبشة ثم هاجرت إلى المدينة، كذا ذكر بعض أهل السير، و قال أبو عمر: تزوجها صلّى اللّه عليه و سلّم سنة اثنتين بعد بدر فى شوال.

غزوة ذات الرقاع

و فيها غزوة ذات الرقاع بعد بنى النضير بشهرين عند ابن إسحاق، و قيل: فى الخامسة، و ذكرها البخارى بعد خيبر لما فى الصحيح من حضور أبى موسى الأشعرى فيها، و هو من أصحاب السفينة، و لا مانع من التعدد، و اللّه أعلم.

السنة الخامسة من الهجرة

اشارة

السنة الخامسة: ثم فك رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم سلمان من الرق، ثم خرج إلى دومة الجندل، فرجع و لم يلق كيدا. ثم توفيت أم سعد بن عبادة.

ثم كسف القمر فى جمادى الآخرة؛ فصلى بهم كصلاة كسوف الشمس.

قلت: و جعلت اليهود يضربون بالطساس، و يقولون: سحر القمر. و روى ابن حبان فى صحيحه أنه صلّى اللّه عليه و سلّم صلّى لكسوف القمر، و الله أعلم.

ثم أصابت قريشا شدة، فبعث إليهم بفضة يتألفهم بها. ثم وفد بلال بن الحارث المزنى، فكان أول وافد مسلم إلى المدينة. ثم قدم ضمام بن ثعلبة، ثم غزا المريسيع فى شعبان، و فيها أنزلت آية التيمم بسبب عقد عائشة رضى الله عنها.

قلت: و سيأتى أن الأشبه أن بنى المصطلق هى هذه، و الله أعلم.

ثم غزوة الخندق.

غزوة الخندق

قلت: هكذا ذكره ابن إسحاق، و هو المعتمد، و قال موسى بن عقبة: كانت فى شوال سنة أربع، و صححه النووى فى الروضة، مع قوله بأن بنى قريظة فى الخامسة، و هو عجيب؛ لما سيأتى من أنها كانت عقيب الخندق، سميت بذلك لحفر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم الخندق بإشارة سلمان الفارسى، و تسمى بالأحزاب لاجتماع طوائف من المشركين فيها على الحرب، و هم الذين سماهم الله تعالى الأحزاب، و أنزل الله فى ذلك صدر سورة الأحزاب، و ذلك أن حيى بن أخطب فى نفر من بنى النضير خرجوا من خيبر إلى مكة، فحرضوا قريشا على الحرب، و خرج كنانة بن أبى الحقيق يسعى فى بنى غطفان و يحضهم على قتال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم على أن لهم نصف ثمر خيبر، فأجابه عيينة بن حصن الفزارى، و كتبوا إلى حلفائهم من بنى أسد فأقبل إليهم طليحة بن خويلد فيمن أطاعه، و خرج أبو سفيان بن حرب بقريش، فنزلوا مر الظهران، فجاءهم من أجابهم من بنى سليم، و كانوا قد استمدوهم فصاروا فى جمع عظيم- ذكر ابن إسحاق بأسانيد أن عدتهم عشرة آلاف، قال:

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۳۳

و كان المسلمون ثلاثة آلاف- و قيل: كان المسلمون ألفا، و المشركون أربعة آلاف- و ذكر موسى بن عقبة أن مدة الحصار كانت عشرين يوما، و نزلت قريش بمجتمع السيول من رومة بنى الجرف و زغابة، و غطفان و من تبعهم من أهل نجد بذنب نقمى إلى جانب أحد.

و فى رواية ابن مردويه عن ابن عباس: و نزل عيينة فى غطفان و من معهم من أهل نجد إلى جانب أحد بباب نعمان، و خرج رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و المسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع، و الخندق بينه و بين القوم، و جعل النساء و الذرارى فى الآطام.

و قال ابن إسحاق: نزلت قريش بمجتمع السيول فى عشرة آلاف من أحابيشهم و من تبعهم من بنى كنانة و تهامة، و نزل عيينة فى غطفان، و ذكر ما تقدم من رواية ابن عباس المذكورة.

و روى الطبرانى و رجاله ثقات عن رافع بن خديج قال: لم يكن حصن أحصن من حصن بنى حارثة، فجعل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم النساء و الصبيان و الذرارى فيه، و قال: إن لم يكن أحد فالمعن بالسيف، فجاءهن رجل من بنى ثعلبة بن سعد يقال له «نجدان» أحد بنى جحاش على فرس حتى كان فى أصل الحصن، ثم جعل يقول للنساء: أنزلن إلى خير لكن، فحركن السيف، فأبصره أصحاب رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فابتدر الحصن قوم فيهم رجل من بنى حارثة يقال له: ظفر بن رافع، فقال: يا نجدان ابرز، فبرز إليه، فحمل عليه فقتله، و أخذ رأسه فذهب به إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم.

و روى البزار بإسناد ضعيف عن الزبير بن العوام رضى الله عنه أن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم لما خرج للخندق جعل نساءه و عمته

صفيـة فى أطم يقـال له «فـارع» و جعل معهم حسان بن ثابت، فرقى يهودى حتى أشـرف على نساء رسول الله صـلّى اللّه عليه و سـلّم و على عمته، فقالت صـفية: يا حسان قم إليه حتى تقتله، قال: لا، و الله ما ذاك فىّ، و لو كان فى لخرجت مع رسول الله صـلّى اللّه عليه و سلّم قالت صـفية: فاربط السيف على ذراعى، ثم تقدمت إليه حتى قتلته، و قطعت رأسه، فقالت له: خذ الرأس فارم به على اليهود، قال: ما ذاك فىّ، فأخذت هى الرأس فرمت به على اليهود، فقالت اليهود: قد علمنا أن لم يك يترك أهله خلوفا ليس معهم أحد، فتفرقوا و ذهبوا.

و روى أحمـد بإسـناد قوى عن عبـد الله بن الزبير قال: كانت صـفية فى حصن حسان بن ثابت يوم الخندق، أى: و هو المسـمى بفارع، فذكر الحديث فى قتلها اليهودى و قولها لحسان: انزل فاسلبه، فقال: ما لى بسلبه حاجة.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۳۴

و روى الطبرانى هذه القصة عن صـفية رضى الله عنها فى غزوة أحد، و فى إسناده اثنان، قال الهيثمى: لم أعرفهما، و بقية إسناده ثقات، و المذكور فى كتب السير أن هذه القصة فى الخندق، و أن بعضهم كان بحصن بنى حارثة و بعضهم بفارع، و أن صفية رضى الله عنها لمـا فرغت من قتل اليهودى و رجعت إلى الحصن قالت لحسان: انزل فاسـلبه، فإنى لم يمنعنى من سـلبه إلا أنه رجل، قال: ما لى بسـلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب.

قال السـهيلى: محمل هـذا الحـديث عند الناس أن حسان كان جبانا شديد الجبن، و قد دفع بعض العلماء هذا و أنكره، و قال: لو صح هـذا لهجى حسان به، فإنه كان يهاجى الشـعراء، و كانوا يردون عليه فما عيّره أحـد بجبن، و إن صـح فلعل حسان كان معتلا فى ذلك اليوم بعلة منعته من شهود القتال، انتهى.

و روى الطبرانى برجال الصـحيح عن عروة مرسـلا أن النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم أدخل نساءه يوم الأحزاب أطما من آطام المدينة، و كان حسان بن ثابت رجلا جبانا، فأدخله مع النساء، فأغلق الباب، و ذكر القصة.

و ممن ذكر القصـة فى الخنـدق ابن إسـحاق، و يؤيـده أن اليهود إنمـا غـدروا فى الخنـدق، و ذلك أن حيى بن أخطب توجه إلى بنى قريظـة، فلم يزل بهم حتى غـدروا، و بلغ المسـلمين غـدرهم، فاشـتد بهم البلاء و الحصار حتى تكلم معتب بن قشير أخو بنى عمرو بن عـوف و أوس بن قيظى أخو بنى حارثـة و غيرهمـا من المنـافقين بالنفـاق، و أنزل الله تعـالى: وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنـافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً [الأحزاب: ۱۲] الآيات. قال ابن عباس: و كان الذين جاءوهم من فوقهم بنو قريظة، و من أسـفل منهم قريش و غطفان، و كان حيى بن أخطب أتى كعب بن أسد صاحب عقد بنى قريظة و عهدهم، فأغلق باب حصنه دونه، و قال: لم أر من محمـد إلا وفـاء و صـدقا، فقـال له: إنى جئتـك بعز الـدهر، جئتـك بقريش و غطفـان على قادتهما و سادتهما قـد عاهـدونى و عاقـدونى أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمـدا و من معه، فقال له كعب: جئتنى و الله بـذلّ الـدهر، و بجهام قـد هراق ماءه فهو يرعـد و يـبرق و ليس فيـه شـىء، فلـم يزل حـتى نقض كعـب عهـده و برئ ممـا كـان بينه و بين محمـد صـلّى اللّه عليه و سـلّم فاشـتد الخـوف بالمسلمين.

قال ابن إسـحاق: و لم يقع بينهم حرب إلا مراماة بالنبل، و لكن كان عمرو بن عبد ود العامرى اقتحم هو و نفر معهم خيولهم من ناحية ضيقة من الخندق، فبارزه على فقتله، و برز نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومى، فبارزه الزبير فقتله، و يقال: قتله على،

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۳۵

و رجعت بقيـة الخيول منهزمـة، و قيل: اقتتلوا ثلاثة أيام قتالا شديدا حتى يحجز الليل بينهم، سـيما فى اليوم الثالث، حتى شـغلهم القتال عن صلاة العصر و المغرب- و قيل:

و الظهر- و ذلـك قبل أن ينزل قوله تعالى: فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالًا أَوْ رُكْباناً [البقرة: ۲۳۹] قال مالك: و لم يستشهد يوم الخندق إلا أربعة أو خمسة، و ذكر غيره سـتة، و هم: سعد بن معاذ كما سيأتى، و أنس بن أوس بن عتيك، و عبد الله بن سهيل، و هم من بنى عبد الأشهل،

و ثعلبة بن غنمة، و الطفيل بن النعمان، و هما من بنى سلمة، و كعب بن زيد من بنى دينار بن النجار.

و كـان من المناوشات بين الفريقين أن مات بعض بنى عمرو بن عوف من أهل قباء، فاسـتأذن أقرباؤه رسول الله صـلّى اللّه عليه و سـلّم ليدفنوه، فأذن لهم، فلما خرجوا إلى الصـحراء لدفن ميتهم وافقوا ضرار بن الخطاب و جماعة من المشركين بعثهم أبو سفيان ليمتاروا له من قريظة على إبل له، فحملوا على بعضـها قمحا، و على بعضـها شـعيرا، و على بعضها تمرا و تبنا للعلف، فلما رجعوا و بلغوا ساحة قباء وافقوا الذين كانوا يدفنون ميتهم، فناهضـهم المسلمون و غلبوهم، فجرح ضرار جراحات، فهرب هو و أصحابه، و ساق المسلمون الإبل بما عليها إلى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و كان للمسلمين فى ذلك سعة من النفقة.

إسلام نعيم بن مسعود الأشجعى

ثم أتى نعيم بن مسعود الأشجعى إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مسلما، و لم يعلم به قومه، فقال له:

خذل عنا، فمضى إلى بنى قريظة، و كان نديما لهم، فقال: قد عرفتم محبتى، قالوا:

نعم، فقـال: إن قريشـا و غطفـان ليست هـذه بلادهم، و إنهم إن رأوا فرصـة انتهزوها، و إلا رجعوا إلى بلادهم و تركوكم فى البلاد مع محمد، و لا طاقة لكم به، قالوا: فما ترى؟

قال: لا تقاتلوا معهم حتى تأخـذوا منهم رهنا، فقبلوا رأيه، فتوجه إلى قريش فقال لهم: إن اليهود ندموا على الغدر بمحمد، فراسـلوه فى الرجوع إليه، فراسلهم بأنا لا نرضى حتى تبعثوا إلى قريش فتأخذوا منهم رهنا فأقتلهم، ثم جاء غطفان بنحو ذلك، فلما أصبح أبو سفيان بعث عكرمـة بن أبى جهـل إلى بنى قريظـة بأنا قـد ضاق بنا المنزل، و لم نجـد مرعى، فاغـدوا للقتال حتى نناجز محمـدا، فأجابوهم إن اليوم يوم السبت، و لا نعمل فيه شيئا، و لا بد لنا من الرهن منكم لئلا تغدروا بنا، فقالت قريش: هذا ما حذركم نعيم، فراسلوهم ثانيا: إنا لا نعطيكم رهنـا، فـإن شـئتم أن تخرجوا فـافعلوا، فقـالت قريظـة: هـذا مـا أخبرنا نعيم، ثم بعث الله عليهم الريـح فما تركت لهم بناء إلا هدمته، و لا إناء إلا أكفته، لا تقر

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۲۳۶

لهم قرارا و لا نارا و لا بناء، فقام أبو سـفيان فقال: يا معشر قريش، و الله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع و الخف، و أخلفتنا بنو قريظة، و لقينا من شدة الريح ما ترون، فارتحلوا فإنى مرتحل، فتحملت قريش و إن الريح لتغلبهم على بعض أمتعتهم، و سمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم، و قال صلّى اللّه عليه و سلّم: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا».

و فى الـذيل على أخبار المدينة لابن النجار لصاحبه العراقى عن الكلبى أنه قال: إن الملائكة اتبعوا الأحزاب حتى بلغوا الروحاء يكرون فى أدبارهم، فهربوا لا يلوون على شىء، و الله أعلم.

ثم كانت غزوة بنى قريظة.

غزوة بنى قريظة

قلت: قال أبو الربيع الكلاعى فى الاكتفاء: و لما أصـبح رسول الله صـلّى اللّه عليه و سـلّم انصرف عن الخندق راجعا إلى المدينة و معه المسـلمون، فلمـا كانت الظهر أتاه جبريل- و يقولون فيما ذكر ابن عقبـة أن رسول الله صـلّى اللّه عليه و سـلّم كان فى المغتسل عنـد ما جاءه جبريل، و هو يرجّل رأسه، قـد رجّل أحـد شـقيه، فجاءه جبريل على فرس عليه اللأمة و أثر الغبار، حتى وقف بباب المسـجد عند موضع الجنائز، فخرج إليه رسول الله صـلّى اللّه عليه و سـلّم فقال له جبريل: غفر الله لك! قد وضـعتم السلاح؟ قال: نعم، قال جبريل: ما وضعت الملائكة السلاح بعد، و ما رجعت إلا من طلب القوم، إن الله يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة، فإنى عامد إليهم فمزلزل بهم، اه.

و فى روايـة أخرى أنه قـال: انهض إليهم فلأضعضـعنهم، فـأدبر جبريل و من معه من الملائكـة حتى سـطع الغبار فى زقاق بنى غنم من الأنصار، و أصـله فى البخارى فى باب مرجع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من الأحزاب من روايـة أنس، قال: كأنى أنظر إلى الغبار ساطعا فى سكة بنى غنم من موكب جبريل.

و رواه ابن سـعد من طريق حميـد بن هلالـ مطولاـ لكن ليس فيه أنس، و أوله: كان بين النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم و بين بنى قريظة عهد، فلما جاءت الأحزاب نقضوه و ظاهروهم، فلما هزم الله الأحزاب تحصـنوا، فجاء جبريل فقال: يا رسول الله، انهض إلى بنى قريظة، فقال: إن

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۳۷

فى أصـحابى جهدا، قال: انهض إليهم فلأضعضـعنهم، قال: فأدبر جبريل و من معه من الملائكة حتى سـطع الغبار فى زقاق بنى غنم من الأنصار.

قلت: زقاقهم هو عند موضع الجنائز فى شرقى المسجد، كما علم من ذكر منازلهم.

و فى روايـة: لما انصـرف رسول الله صـلّى اللّه عليه و سـلّم من الخندق و المسـلمون، و وضعوا السلاح، أتى جبريل رسول الله صلّى اللّه عليه و سـلّم معتجرا بعمامـة من اسـتبرق على بغلـة عليها قطيفة من ديباج، فقال: أوقد وضـعت السـلاح يا رسول الله؟ قال: نعم، فقال: ما وضـعت الملائكة السـلاح بعد، و ما رجعت إلا من طلب القوم، إن الله يأمرك بالسـير إلى بنى قريظة، فأمر النبى صـلّى اللّه عليه و سلّم بلالاـ فـأذن فى النـاس: من كان سامعا مطيعا فلا يصـلين العصـر إلا فى بنى قريظـة، و قـدم على بن أبى طالب برايته إلى بنى قريظـة، و ابتدرها الناس، و حاصـرهم رسول الله صـلّى اللّه عليه و سـلّم خمسا و عشرين ليلة فى رواية، و فى أخرى خمس عشرة، و عند ابن سعد عشرة، حتى أجهدهم الحصار، و قذف فى قلوبهم الرعب، فعرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد و قال لهم: إما أن تؤمنوا بمحمد فو الله إنه نبى أو تقتلوا نساءكم و أبناءكم و تخرجوا مستقتلين ليس وراءكم ثقل و تبيتوا المسـلمين ليلة السبت، فقالوا: لا نؤمن و لا نستحل السبت، و أى عيش لنـا بعـد أبنائنـا و نسائنـا؟ و أرسـلوا إلى أبى لبابـة بن عبـد المنـذر أخى بنى عمرو بن عوف من الأوس، و كـانوا حلفاءهم، فاسـتشاروه فى النزول على حكم رسول الله صـلّى اللّه عليه و سلّم فأشار إلى حلقه، يعنى الذبح، ثم ندم، فتوجه إلى المسجد النبوى، و ارتبـط بساريـة تعرف به اليوم حتى تـاب الله عليه، و استشـهد من المسـلمين خلاـد بن سويـد من بنى الحـارث بن الخزرج، طرحت عليه امرأة من بنى قريظـة رحى فقتلته، و أمر صـلّى اللّه عليه و سـلّم بقتلها بعد ذلك، و مات فى الحصار أبو سـنان بن محصـن الأسدى أخو عكاشة بن محصن، فدفنه رسول الله صـلّى اللّه عليه و سـلّم فى مقبرة بنى قريظة التى تدافن فيها المسلمون لما سكنوها، و لم يصب غير هـذين، فلمـا اشـتد بهم الحصـار أذعنوا أن ينزلوا على حكم رسول الله صـلّى اللّه عليه و سـلّم فقال الأوس: قـد فعلت فى موالى الخزرج- أى: بنى قينقاع- ما علمت، قال: أ لا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى، قال: فذلك إلى سـعد بن معاذ، و كان سعد قد أصابه سهم فى أكحله يوم الخندق، فأتاه قومه، فحملوه على حمار، ثم أقبلوا معه يقولون: يا أبا عمرو، أحسن فى مواليك فإن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم، فلما أكثروا

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۳۸

قال: لقد آن لسعد ألّا تأخذه فى الله لومة لائم، فجاء سعد فرد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم الحكم إليه، فقال سعد: فإنى أحكم فيهم أن يقتل الرجال، و تقسم الأموال، و تسبى الذرارى و النساء، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: قد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة:

سماوات، ثم اسـتنزلوا، فحبسـهم رسول الله صـلّى اللّه عليه و سلّم فى المدينة، ثم خرج صلّى اللّه عليه و سلّم إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم، فضـرب أعناقهم فى تلك الخنادق و فيهم عـدو الله حيى بن أخطب؛ فإنه كان قـد عاهـد كعب بن أسد لئن رجعت قريش و غطفان لأدخلن معك فى حصـنك حتى يصيبنى ما أصابك، فلما رجعت الأحزاب دخل معه فى حصنه، فكان ذلك،

فأمر رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بقتل من أنبت منهم، و من لم ينبت استحياه، و لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة كانت طرحت رحى على خلاد بن سويد كما سبق.

و عند ابن سعد من مرسل حميد بن هلال: أن سعد بن معاذ حكم أيضا أن يكون دارهم للمهاجرين دون الأنصار، فلامه الأنصار، فقال: أحببت أن يستغنوا عن دوركم.

و اختلف فى عدتهم؛ فعند ابن إسحاق كانوا ستمائة، و عند ابن عائذ من مرسل قتادة كانوا سبعمائة، و قال السهيلى: المكثر يقول: إنهم ما بين الثمانمائة إلى السبعمائة، و فى النسائى و ابن ماجه بإسناد صحيح أنهم كانوا أربعمائة مقاتل، و كان الزبير بن باطا القرظى قد مر على ثابت بن قيس بن شماس فى الجاهلية يوم بعاث، فجاءه ثابت لما قتل بنو قريظة و هو شيخ كبير، و ذكّره بذلك، ثم ذهب فاستوهبه من رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فوهبه إياه، فأتاه فقال: شيخ كبير لا أهل له و لا ولد، فما يصنع بالحياة؟ فاستوهب له امرأته و ولده، فقال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم، فما بقاؤهم؟ فاستوهب له ماله، فأتاه فأعلمه، فقال: أى ثابت ما فعل فلان و فلان، و صار يذكر قومه و يصفهم، فقال له: قتلوا، قال:

فإنى أسألك يا ثابت بيدى عندك إلا ألحقتنى بالقوم، فو الله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير، فقدمه ثابت فضرب عنقه.

ثم قسم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم أموال بنى قريظة و نساءهم و أبناءهم على المسلمين، و أسهم للخيل، فكان أول فىء وقعت فيه السهمان، و أخرج منه الخمس، و اصطفى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خناقة إحدى نساء بنى عمرو بن قريظة، فكانت عنده حتى توفى، و كان يحرص عليها أن يتزوجها، فقالت: تتركنى فى ملكك فهو أحق على و عليك، فتركها، و قد كانت حين سباها كرهت الإسلام، فوجد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بذلك من أمرها، فبينا هو مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال: إن هذا لثعلبة بن شعبة يبشرنى بإسلام ريحانة، فكان كذلك، و قيل: إن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أعتقها و تزوجها، و إنها ماتت

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۳۹

فى حياته مرجعه من حجة الوداع، و هذا الأثبت عند الواقدى، و بعضهم يقول: هى من بنى النضير.

و لما انقضى شأن بنى قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ فمات شهيدا.

و فى البخارى ما يقتضى أن قريظة كانوا قد حاربوا قبل ذلك مع بنى النضير، و أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم منّ عليهم، و لم أر التصريح بذلك، و لم يتعرض له الحافظ ابن حجر فى شرحه، و قد قدمنا فى بنى النضير من رواية ابن مرديه ما يشهد له، و لفظ البخارى: عن ابن عمر قال: حاربت النضير و قريظة، فأجلى بنى النضير، و أقر قريظة و منّ عليهم، حتى حاربت قريظة، فقتل رجالهم و قسم نساءهم و أموالهم و أولادهم بين المسلمين، إلا بعضهم لحقوا بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم فأمنهم و أسلموا، و أجلى يهود المدينة كلهم: بنى قينقاع و هم رهط عبد الله بن سلام، و يهود بنى حارثة، و كل يهودى بالمدينة، اه.

و رواه أبو داود بنحوه، إلا أنه قال: حتى حاربت قريظة بعد ذلك، يعنى بعد محاربتهم الأولى و تقريرهم، و يؤخذ من ذلك أن إجلاء من بقى من طوائف اليهود بالمدينة كان بعد قتل قريظة.

و فى البخارى أيضا من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: بينما نحن فى المسجد خرج النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: انطلقوا إلى يهود، فخرجنا حتى إذا جئنا بيت المدراس قال:

أسلموا تسلموا، و اعلموا أن الأرض لله و لرسوله و أنى أريد أن أجليكم من هذه الأرض، فمن يجد منكم بما له شيئا فليبعه، و إلا فاعلموا أن الأرض لله و لرسوله، و هو مقتض لأن ذلك كان بعد خيبر؛ لأن إسلام أبى هريرة بها فى السنة السابعة، و الله أعلم.

ثم كانت سرية عبيد الله بن أنيس إلى سفيان بن خالد الهذلى ثم اللحيانى بعرنة، و فيها سقط رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم عن فرسه فجحش، و فيها دفت دافة العرب، فنهى عن ادخار لحوم الأضاحى فوق ثلاث.

قلت: و تزوج زينب بنت جحش، و هى بنت عمته أميمة، و قيل: فى الثالثة، و بسببها نزلت آية الحجاب، و أسلم خالد بن الوليد و عمرو بن العاص، و الله أعلم.

السنة السادسة من الهجرة

اشارة

السنة السادسة: فى أولها أتى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بثمامة بن أثال أسيرا، ثم كسفت الشمس ثانية بعد الكسوف الذى كان يوم مات ابنه إبراهيم.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۴۰

قلت: لعل فى النسخة خللا لما سنذكره من ولادة إبراهيم فى الثامنة و وفاته فى العاشرة، فالكسوف فى السادسة هو الكسوف الأول، و فيها نزل حكم الظهار، و الله أعلم.

و فيها قتل المشركون سرية محمد بن مسلمة و لم يفلت منهم غيره، و كانوا عشرة، ثم كانت سرية على بن أبى طالب إلى فدك فى مائة رجل، ثم كانت سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل، فظهر عليهم، فزوجه رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم تماضر بنت الأصبغ بن عمرو الكلبى و هو ملكهم، ثم أجدب الناس فاستسقى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فى رمضان فى موضع المصلى فسقوا، ثم أرسل زيد بن حارثة فى سرية، فسبى سلمة بن الأكوع فى تلك السرية بنت مالك بن حذيفة، ثم كانت الحديبية، ثم أغار عيينة بن حصن الفزارى على لقاح رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فاستنقذها.

قلت: قد قدمنا فى حدود الحرم أن لقاحه صلّى اللّه عليه و سلّم كانت ترعى بالغابة و ما حولها، فأغار عليها عيينة يوم ذى قرد، و هو الموضع الذى كان فيه القتال، سميت الغزوة به، و تسمى أيضا غزوة الغابة.

قال ابن إسحاق: لما قدم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم من غزوة بنى لحيان و كان فى شعبان سنة ست، لم يقم إلا ليالى قلائل حتى أغار عيينة فى خيل من غطفان على لقاح رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بالغابة، و فيها رجل من بنى غفار و امرأته، فقتلوا الرجل، و احتملوا المرأة فى اللقاح، و كان أول من نذر بهم سلمة بن الأكوع، غدا يريد الغابة متوشحا قوسه و نبله حتى إذا علا ثنية الوداع نظر إلى بعض خيولهم، فأشرف فى ناحية سلع، ثم صرخ: وا صباحاه، ثم خرج يشتد فى آثار القوم حتى لحقهم، فجعل يردهم بالنبل و يقول إذا رمى: خذها و أنا ابن الأكوع، و اليوم يوم الرضّع، فإذا وجهت الخيل نحوه هرب، ثم عارضهم، و هكذا، و بلغ رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم صياحه، فصرخ بالمدينة: الفزع، الفزع، فترامت الخيل إليه، فلما اجتمعوا أمّر عليهم سعد بن زيد الأشهلى، و قال: اخرج فى طلب القوم حتى ألحقك فى الناس، فقتل أبو قتادة رضى الله عنه حبيب بن عيينة بن حصن و غشاه برده، و أقبل رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فى المسلمين، فإذا حبيب مسجى ببرد أبى قتادة و لكنه قتيل، فظنوه هو، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: ليس بأبى قتادة و لكنه قتيل له، و أدرك عكاشة بن محصن رضى الله عنه أوبارا و ابنه عمر بن أوبار، و هما على بعير واحد، فانتظمهما بالرمح، فقتلهما جميعا، و استنقذوا بعض اللقاح، و سار رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم حتى نزل بالخيل من ذى قرد، و تلاحق به الناس، و أقام عليه يوما و ليلة، و قال له سلمة: يا رسول الله لو سرّحتنى فى مائة رجل لاستنقذت

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۴۱

بقية السرح و أخذت بأعناق القوم، فقال له صلّى اللّه عليه و سلّم: إنهم ليقرون فى غطفان، فقسم صلّى اللّه عليه و سلّم فى أصحابه فى كل مائة جزورا، و أقاموا عليها، ثم رجع، و أفلتت امرأة الغفارى على ناقة من اللقاح حتى قدمت على رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فأخبرته الخبر، و قالت: إنى نذرت لله أن أنحرها إن أنجانى الله عليها، فتبسم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و قال: بئس ما جزيتيها أن

حملك الله عليها و نجاك بها ثم تنحرينها، إنه لا نـذر فى معصـية الله و لا فيما لا تملكين، هـذه رواية ابن إسـحاق، و قد ذكر فيها قتل اثنين من المسلمين.

و خرّج مسـلم القصة عن سلمة مطولة و مختصرة، و خالف ما ذكره ابن إسحاق فى مواضع: منها أنها كانت بعد انصرافه صلّى اللّه عليه و سلّم من الحديبية، و جعلها ابن إسحاق قبلها، و منها:

أن فيه أن اللقاح كانت ترعى بذى قرد، و كذا هو فى البخارى، و قال ابن إسـحاق: بالغابة، و كذا هو فى حديث سـلمة الطويل، و لهذا قـال عيـاض: إن الأول غلط، و يمكن الجمع بأنها كانت ترعى تارة هنا و تارة هناك، و منها: أنه قال فيه: خرجت قبل أن يؤذن بالأولى فلقينى غلام لعبد الرحمن بن عوف فقال: أخذت لقاح رسول الله صـلّى اللّه عليه و سلّم فصرخت ثلاث صرخات: يا صباحاه، فأسمعت ما بين لابتى المدينة، ثم اندفعت على وجهى حتى أدركتهم و قد أخذوا بذى قرد يسـقون من الماء، و فى رواية لمسـلم ما يقتضـى أن سلمـة كان مع السـرح لما أغير عليه، و أنه قام على أكمـة و صاح: يا صـباحاه، ثلاثا، و هذا يرجح أن السـرح كان بالغابة، و يبعد كونه بذى قرد، و لو كان بذى قرد لما أمكنه لحوقهم، و منها: أن فيه أنه استنقذ سرح رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بجملته، و منها: أنه قال فيه: فرجعنـا إلى المدينـة، فو الله مـا لبثنا بها إلا ثلاث ليال حتى خرجنا إلى خيبر مع رسول الله صـلّى اللّه عليه و سـلّم و قال القرطبى: لا يختلف أهل السير أن غزوة ذى قرد كانت قبل الحديبية، انتهى.

و ما فى الصـحيح من التاريـخ لها أصـح مما فى السير، و يمكن الجمع بتكرر الواقعة، و يؤيده أن الحاكم ذكر فى الإكليل أن الخروج إلى ذى قرد تكرر؛ ففى الأولى خرج إليها زيـد بن حارثـة قبل أحد، و فى الثانية خرج إليها النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم فى ربيع الآخر سنة خمس، و التالية هى المختلف فيها، انتهى. و الله أعلم.

ثم كانت قصة العرنيين.

قصة العرنيين

قلت: و ذلك أن ثمانية منهم، و فى رواية من عكل، قدموا فأسلموا و اجتووا

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۴۲

المدينـة، و قالوا: إنا كنا أهل ضـرع و لم نكن أهل ريف، فبعثهم النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم إلى لقاحه، و فى روايـة «إبل الصدقـة» و كأنهمـا كانـا معـا، فصـح الإخبار بالبعث لكل منهما، ليشـربوا من أبوالها و ألبانها، فلما صـحوا قتلوا الراعى و اسـتاقوا الإبل، فبعث النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى طلبهم كرز بن خالد الفهرى فى عشرين، فأتى بهم، فأمر بقطع أيديهم و أرجلهم و سمل أعينهم و طرحهم فى الحرة يستسـقون فلا يسـقون، حتى ماتوا، هذا محصل ما فى الصـحيح، و ذكر أهل السير أن اللقاح كانت ترعى ناحية الجماوات، و فى روايـة بـذى الجدر غربى جبل عير على سـتة أميال من المدينة، و ذكر ابن سـعد عن ابن عقبة أن أمير الخيل يومئذ سـعيد بن زيد أحد العشـرة، فأدركوهم فربطوهم و أردفوهم على خيلهم، و ردوا الإبل، و لم يفقدوا منها إلا لقحة واحدة من لقاحه صـلّى اللّه عليه و سـلّم تدعى الحنا، فسأل عنها، فقيل: نحروها، فلما دخلوا بهم المدينة كان رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بالغابة.

غزوة بنى المصطلق (المريسيع)

قال بعضـهم: و ذلك مرجعه من غزوة ذى قرد، فخرجوا بهم، نحوه، فلقوه بالزغابة، فقطعت أيديهم و أرجلهم و سملت أعينهم و صلبوا هناك، و الله أعلم.

ثم غزا بنى المصطلق، و مر رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فى انصرافه على المريسيع. و فيها كانت قصة الإفك.

قلت: قد قدم غزوة المريسيع فى السنة الخامسة، و ذكر أن فيها أنزلت آية التيمم، و قد اقتضى كلامه أن المريسيع وقعت مرتين: فى الأولى التيمم، و فى الثانية الإفك، و فيه جمع بين ما ذكره كثير من أهل السير من أن المريسيع سنة خمس و بين ما نقله البخارى عن ابن إسحاق أنها سنة ست، لكن قد ثبت فى الصحيح أن سعد بن معاذ تنازع هو و سعد بن عبادة فى أصحاب الإفك؛ فلو كانت المريسيع التى هى غزاة بنى المصطلق سنة ست مع كون الإفك كان فيها لكان ما وقع فى الصحيح من ذكر سعد بن معاذ غلطا؛ لأن سعد بن معاذ مات أيام قريظة، و كانت سنة خمس، و قيل: أربع؛ فالأشبه أن بنى المصطلق و المريسيع واحد، كلاهما فى سنة خمس.

و قد ذكر ابن عبد البر فى التمهيد أن التيمم كان فى غزاة بنى المصطلق، و جزم به فى الاستذكار، و سبقه إليه ابن سعد و ابن حبان.

و فى البخارى «غزوة بنى المصطلق»، و هى غزوة المريسيع» و فى الطبرانى حديث: كنا مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى غزوة المريسيع غزوة بنى المصطلق، و بنو المصطلق بطن من خزاعة، و كان رئيسهم الحارث بن أبى ضرار، و كان معه عليه الصلاة و السلام بشر كثير، خرج بهم إليهم لما بلغه أنهم يجمعون له، و كان معه ثلاثون فرسا و أم سلمة و عائشة، فهزمهم و أسر

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۴۳

من الكفار جمعا عظيما، و تزوج جويرية بنت الحارث رئيسهم، فأعتق الناس ما بأيديهم من الأسرى لمكانها، و فى هذه الغزاة قال ابن أبى: لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَ [المنافقين: ۸] و قال: لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا [المنافقين: ۷] و ذلك أن ابن أبى خرج فى عصابة من المنافقين مع رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فلما رأوا أن الله قد نصر رسوله و أصحابه أظهروا قولا- سيئا، و اقتتل رجل من المهاجرين و رجل من الأنصار، فظهر عليه المهاجرى، فقال ذلك ابن أبى لقومه، فأخبر زيد بن أرقم بذلك النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فأجهد ابن أبى يمينه ما فعل، فحزن زيد بن أرقم لذلك، فأنزل الله تصديقه، و استأذن عبد الله بن عبد الله بن أبى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قتل أبيه فيما رواه عروة بن الزبير، فقال له رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: لا- تقتل أباك، و لما كان بينهم و بين المدينة يوم تعجل عبد الله بن عبد الله بن أبى حتى أناخ على مجامع طرق المدينة حتى جاء أبوه فقال له ابنه: لا و الله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و تعلم اليوم من الأعز و من الأذل، فقال له: أنت من بين الناس؟ فقال: نعم، أنا من بين الناس، فانصرف عبد الله حتى لقى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فاشتكى إليه ما صنع ابنه، فأرسل رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم إلى ابنه «أن خلّ عنه» فدخل المدينة، رواه ابن شبة.

و فى هذه السنة فرض الحج على الصحيح، كما سيأتى، و الله أعلم.

السنة السابعة من الهجرة

السنة السابعة: فيها قصة أبى سفيان مع هرقل فى الشام، و فى أولها كتب رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم إلى الملوك و بعث إليهم رسله، ثم كانت خيبر.

قلت: و استصفى صفية بنت حيى بن أخطب من المغنم، فأعتقها و تزوجها، و جاءته ماريه القبطية هدية و بغلته دلدل، و أسلم أبو هريرة، و سمته صلّى اللّه عليه و سلّم زينب بنت الحارث زوجة سلام بن مشكم، ثم صار النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إلى وادى القرى، فحاصر أهله ليالى و أصاب غلامه مدعم سهم غرب فقتله، و فى رجوعه إلى المدينة كان النوم عن صلاة الصبح، و روى بعضهم أنه كان فى الرجوع من غزوة تبوك، و قال الواقدى: و فى المحرم منها جاء رؤساء اليهود إلى لبيد بن الأعصم- و كان حليفا فى بنى زريق، و كان ساحرا- فقالوا له: يا أبا الأعصم، أنت أسحرنا، و قد سحرنا محمدا فلم نصنع شيئا، و نحن نجعل لك جعلا على أن تسحره لنا سحرا ينكؤه، فجعلوا له ثلاثة دنانير، و ذكر قصة سحره، و فى رواية عن

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۴۴

الزهرى بإسناد صحيح أن المدة التى مكث النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فيها فى السحر سنة، و فى رواية أربعين ليلة، و الله أعلم.

و فيها جاءته أم حبيبة بنت أبى سفيان، و تزوج بها، ثم كانت عمرة القضية و تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية.

السنة الثامنة من الهجرة

السنة الثامنة: فيها كانت مؤتة، ثم كان الفتح، ثم غزوة هوازن، ثم غزوة الطائف، و أمر على مكة عتاب بن أسيد، و أسلم مالك بن عوف النضرى، و تألف المؤلفة من غنائم هوازن، ثم انصرف إلى المدينة فى آخر ذى القعدة.

قلت: و فى هذه السنة ولد ابنه إبراهيم من مارية القبطية، و حلق رأسه يوم سابعه، و تصدق بزنة شعره فضة، و عقّ عنه بكبشين، و مات فى عاشر ربيع الأول من السنة العاشرة و سنه عام و نصف، و قيل: عام و ثلث، و فى الثامنة أيضا توفيت ابنته زينب، و هى أكبر أولاده، و كانت زوج أبى العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس الذى أثنى عليه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى صهارته، تزوجها قبل البعثة، و لما قدم عليها مسلما ردها النبى صلّى اللّه عليه و سلم بالنكاح الأول على الصحيح لقدومه عقب تحريم المسلمات على المشركين، و ذلك بعد صلح الحديبية، و اللّه أعلم.

السنة التاسعة من الهجرة

السنة التاسعة: فيها هجر نساءه شهرا، ثم تتابعت الوفود، ثم فرض الحج.

قلت: قد اختلف فى وقته، فقيل: قبل الهجرة، و هو غريب، و المشهور بعدها، فقيل: سنة خمس، و جزم به الرافعى فى موضع، و قيل: ست، و صححه الرافعى فى موضع آخر، و كذا النووى، و قيل: سبع، و قيل: ثمان، و قيل: تسع، و صححه عياض، و اللّه أعلم.

و أمّر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على الحج أبا بكر رضى اللّه عنه، ثم نزلت براءة، فأرسل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على بن أبى طالب رضى اللّه عنه؛ لينبذ إلى الناس عهدهم.

قلت: و فيها فى شهر رجب كانت غزوة تبوك، و هى آخر غزواته صلّى اللّه عليه و سلّم على ما ذكره ابن إسحاق، و اللّه أعلم.

السنة العاشرة من الهجرة

السنة العاشرة: فى أولها قدم عدى بن حاتم بوفد طىء، ثم قدم وفد بنى حنيفة، ثم

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۲۴۵

وفد غسان، ثم وفد نجران الذين كانت فيهم قصة المباهلة، ثم جاء جبريل يعلم الناس دينهم، ثم غزا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تبوكا.

قلت: و هو مخالف لما قدمناه عن ابن إسحاق من كونها فى التاسعة، و اللّه أعلم.

ثم أذن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم للناس بالحج فى حجة الوداع و رجع، ثم مرض فى صفر لعشر بقين منه، و توفى صلّى اللّه عليه و سلّم لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول يوم الإثنين، انتهى ما ذكره رزين عن أبى حاتم.

قلت: و شهر ربيع هذا من الحادية عشرة، و كان ابتداء مرضه فى بيت ميمونة، و قيل:

زينب بنت جحش، و قيل: ريحانة، و ذكر الخطابى أن ابتداءه يوم الإثنين، و قيل: السبت، و قيل: الأربعاء، و حكى فى الروضة قولين فى مدته، فقيل: أربعة عشر، و هو الذى صدّر به، و قيل: ثلاثة عشر، و عليه الأكثر، و قيل: عشرة، و به جزم سليمان التيمى، و مقتضى ما تقدم أن المدة تزيد على عشرين يوما، و لم أر من صرح به، و لا خلاف فى أن الوفاة كانت يوم الإثنين، و كونه من ربيع الأول، كاد يكون إجماعا، لكن فى حديث ابن مسعود عند البزار: فى حادى عشر رمضان، و كونها فى ثانى عشر ربيع الأول هو ما عليه الجمهور، و ذهب جماعة إلى أنها فى أوله، و رواه يحيى عن ابن شهاب، و قال: حين زاغت الشمس، و عن أسماء بنت أبى بكر أنه توفى

للنصف من ربيع الأول، و قيل: ثانيه، و رجحه السهيلى، و استشكل قول الجمهور بأنهم اتفقوا على أن الوقفة فى حجة الوداع كانت الجمعة، فأول ذى الحجة الخميس، فمهما فرضت الشهور الثلاثة توامّ أو نواقص أو بعضها، لم يصح كون الوفاة يوم الإثنين مع كونه ثانى عشر ربيع الأول، و أجاب البارزى باحتمال وقوع الثلاثة كوامل، و اختلاف أهل مكة و المدينة فى هلال ذى الحجة: فرآه أهل مكة ليلة الخميس، و لم يره أهل المدينة إلا ليلة الجمعة، فحصلت الوقفة برؤية أهل مكة، ثم رجعوا إلى المدينة فأرخوا برؤية أهلها، فكان أول ذى الحجة الجمعة، و هو و ما بعده كوامل، فأول ربيع الأول الخميس، و ثانى عشرة الاثنين، و لا يخفى بعد هذا الجواب، و قد جزم سليمان التيمى أحد الثقات بأن بدء مرضه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يوم السبت الثانى و العشرين من صفر، و مات يوم الإثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول، و منه يعلم أن صفر كان ناقصا، و لا يمكن أن يكون أول صفر السبت إلا إن كان ذو الحجة و الحرم ناقصين؛ فيلزم عليه نقص ثلاثة أشهر متوالية، و أما على قول من قال: «أول ربيع الأول»؛ فيكون اثنان ناقصين و واحد كاملا، و كذا على قول من قال: «للنصف منه».

و قال البدر ابن جماعة: يحمل قول الجمهور لاثنتى عشرة ليلة خلت: أى بأيامها، فيكون موته فى اليوم الثالث عشر، و تفرض الشهور كوامل؛ فيصح قول الجمهور، و يعكر

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۴۶

عليه ما فيه من مخالفة أهل اللسان فى قولهم «لاثنتى عشرة» فإنهم لا يفهمون منها إلا مضى الليالى، و أن ما أرخ بذلك يكون واقعا فى الثانى عشر.

قال الحافظ ابن حجر: فالمعتمد قول أبى مخنف أنه فى ثانى ربيع الأول، و كأن سبب غلط غيره تغيير ذلك إلى الثانى عشر، و تبع بعضهم بعضا فى الوهم.

و غسله صلّى اللّه عليه و سلّم على بوصيته، و العباس و ابنه الفضل يعينانه، و قثم و أسامة و شقران يصبون الماء، و كفن فى ثلاثة أثواب بيض سحولية ليس فيها قميص و لا عمامة- و سحول: بلدة باليمن- و عن جعفر بن محمد عن أبيه: كفن فى ثوبين صحاريين مما يصنع بعمان من كرسف و برد حبرة، و فى الإكليل و رواه يحيى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه:

كفن فى سبعة أثواب، و صلّى عليه فى حجرته بغير إمام؛ و نقل الأقشهرى عن الحسين بن محمد الصدفى أنه صلّى اللّه عليه و سلّم صلّى عليه فى وسط الروضة من مسجده، ثم حمل إلى بيته و دفن فيه.

قلت: هذا إنما هو معروف فى أبى بكر و عمر رضى الله عنهما، و فى مستدرك الحاكم و مسند البزار بسند ضعيف أنه صلّى اللّه عليه و سلّم أوصى أن يصلوا عليه أرسالا بغير إمام، و دفن صلّى اللّه عليه و سلّم ليلة الأربعاء، و قيل: يومها، و قيل: يوم الثلاثاء بعد أن عرف الموت فى أظفاره، و قال قائلون: ندفنه بمسجده، و آخرون بالبقيع، ثم اتفقوا على دفنه ببيته، فحمل بالفراش، و حفر له فى موضع الفراش، و روى يحيى عن ابن أبى مليكة أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: ما هلك نبى إلا دفن حيث تقبض روحه، و أوصى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فى مرضه بإخراج المشركين من جزيرة العرب كما فى الصحيح من حديث ابن عباس أنه صلّى اللّه عليه و سلّم أمر بذلك، و لفظه: و أمرهم بثلاث، فقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، و أجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم» و الثالثة إما سكت عنها، و إما أن قالها فنسيتها. قال سفيان: هذا- أى قوله و الثالثة إلى آخره- من قول سليمان: أى شيخ سفيان، قال الداودى: الثالثة هى الوصية بالقرآن، و قال المهلب: بل هى تجهيز جيش أسامة، و قواه ابن بطال بأن الصحابة لما اختلفوا على أبى بكر فى تنفيذ جيش أسامة، قال لهم أبو بكر: إن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عهد بذلك عند موته.

و قال عياض: يحتمل أن يكون قوله: «لا تتخذوا قبرى وثنا» فإنها ثبتت فى الموطأ مقرونة بالأمر بإخراج اليهود، و يحتمل أن يكون ما وقع فى حديث أنس أنها قوله:

«الصلاة و ما ملكت أيمانكم».

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۴۷

و الذى أجلى المشركين من جزيرة العرب هو عمر رضى الله عنه؛ ففى الصحيح من حديث ابن عمر أن عمر بن الخطاب أجلى اليهود و النصارى من أرض الحجاز، و كان رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم لما ظهر على أهل خيبر أراد أن يخرج اليهود منها، و كانت الأرض لما ظهر عليها لله و للرسول و للمؤمنين، فسأل اليهود رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يتركهم على أن يكفوا العمل و لهم نصف الثمر، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: «نقركم على ذلك ما شئنا» فأقروا حتى أجلاهم عمر فى إمارته إلى تيماء و أريحاء.

و فى الصحيح أيضا عن ابن عمر: لما فدع أهل خيبر عبد الله بن عمر قام عمر خطيبا، فقال: إن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم كان عامل يهود خيبر على أموالهم و قال: نقركم على ما أقركم الله، و إن عبد الله بن عمر خرج إلى ماله هناك، فعدى عليه من الليل، ففدعت يداه و رجلاه، و ليس لنا هناك عدو غيرهم، هم عدونا و تهمتنا، و قد رأيت إجلاءهم، فلما أجمع عمر على ذلك أتاه أحد بنى الحقيق، فقال: يا أمير المؤمنين، أ تخرجنا و قد أقرنا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم؟ و عاملنا على الأموال، و شرط ذلك لنا، فقال عمر: أظننت أنى نسيت قول رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: «كيف بك إذا أخرجت من خيبر تعدو بك قلوصك ليلة بعد ليلة» فقال: كانت هذه هزيلة من أبى القاسم صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: كذبت يا عدو الله، فأجلاهم عمر، و أعطاهم قيمة ما كان لهم من الثمر مالا و إبلا و عروضا من أقتاب و حبال و غير ذلك.

و ظاهر هذا أن عمر رضى الله عنه إنما استند فى إجلائهم لهذه القصة.

و روى ابن زبالة عن مالك عن ابن شهاب أن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لا يبقى دينان فى جزيرة العرب».

قال ابن شهاب: ففحص عن ذلك عمر بن الخطاب حتى أتاه الثلج و اليقين أن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لا يبقى دينان فى جزيرة العرب» فأجلى يهود خيبر، قال مالك: و قد أجلى عمر بن الخطاب يهود نجران و فدك.

و روى البيهقى من حديث عمر مرفوعا: «لئن عشت إلى قابل لأخرجن اليهود و النصارى من جزيرة العرب» و خرجه مسلم بدون «لئن عشت» و فى مسند أحمد و البيهقى عن أبى عبيدة قال: كان آخر ما تكلم به رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: «أخرجوا يهود الحجاز و أهل نجران من جزيرة العرب» الحديث.

و روى أحمد بسند جيد عن عائشة قالت: آخر ما عهد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم أن قال: «لا يترك بجزيرة العرب دينان».

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۴۸

قال الجوينى و القاضى حسين من أصحابنا: الجزيرة هى الحجاز، و المشهور أن الحجاز بعض الجزيرة.

و لما مات النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لم يتفرغ أبو بكر رضى الله عنه لإخراجهم، فأجلاهم عمر رضى الله عنه و هم زهاء أربعين ألفا، و لم ينقل أن أحدا من الخلفاء أجلاهم من اليمن مع أنها من الجزيرة؛ فدل على أن المراد الحجاز فقط.

و حكى أن بعض اليهود أظهر كتابا، و ادعى أنه كتاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بإسقاط الجزية عن أهل خيبر، و فيه شهادة الصحابة؛ فعرض على أبى بكر الخطيب البغدادى فقال: هذا مزور؛ لأن فيه شهادة معاوية، و هو أسلم عام الفتح، فلم يحضر ما جرى، و فيه شهادة سعد بن معاذ، و قد مات فى بنى قريظة بسهم أصابه فى الخندق، و ذلك قبل خيبر بسنتين، و ذلك من فوائد علم التاريخ، و الله أعلم.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۴۹

الباب الرابع فيما يتعلق بأمور مسجدها الأعظم النبوى

اشارة

، و الحجرات المنيفات، و ما كان مطيفا به من الدور و البلاط، و سوق المدينة، و منازل المهاجرين، و اتخاذ السور، و فيه سبعة و ثلاثون فصلا.

الفصل الأول فى أخذه صلّى اللّه عليه و سلّم لموضع مسجده الشريف، و كيفية بنائه

اشارة

تقدم أن ناقته صلّى اللّه عليه و سلّم لما بركت عند باب المسجد قال صلّى اللّه عليه و سلّم: «هذا المنزل إن شاء الله» و فى كتاب يحيى عن الزهرى أنها بركت عند مسجد الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم و هو يومئذ يصلى فيه رجال من المسلمين، و كان مربدا لغلامين يتيمين فى حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم حين بركت راحلته: هذا إن شاء الله المنزل، و قال: اللهم أنزلنا منزلا مباركا و أنت خير المنزلين، قاله أربع مرات.

و روى رزين نحوه عن أنس، و لفظه: فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: «هذا المنزل إن شاء الله» ثم أخذ فى النزول فقال: «ربّ أنزلنى منزلا مباركا و أنت خير المنزلين» و لم يقل قاله أربعا.

و فى كتاب يحيى عن الزهرى أيضا أن المربد كان لسهل و سهيل، و أنهما كانا فى حجر أبى أمامة أسعد بن زرارة، و أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال حين بركت به راحلته: «هذا المنزل إن شاء الله» ثم دعا الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدا، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى أن يقبله هبة حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجدا.

قال يحيى تبعا لابن زبالة: و قال بعضهم: كان لغلامين يتيمين لأبى أيوب هما سهل و سهيل ابنا عمرو، فطلب المربد من أبى أيوب، فقال أبو أيوب: يا رسول الله المربد ليتيمين، و أنا أرضيهما، فأرضاهما، فأعطاه لرسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فاتخذه مسجدا. و عند ابن إسحاق أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: لمن هذا؟ يعنى المربد، فقال له معاذ بن عفراء: هو لسهل و سهيل ابنى عمرو يتيمان لى، و سأرضيهما منه، فاتخذه مسجدا، فأمر به أن يا بنى. و يؤيده أنه وقع فى مرسل ابن سيرين عند أبى عبيد فى الغريب أنهما كانا فى حجر معاذ بن عفراء.

و الذى فى صحيح البخارى أنهما كانا فى حجر أسعد بن زرارة، كذا هو فى رواية الجميع إلا أبا ذر، ففى روايته سعد بإسقاط الألف، و رواية الجماعة هى الوجه؛ إذ كان أسعد من السابقين إلى الإسلام، و هو المكنى بأبى أمامة، و أما أخوه سعد فتأخر إسلامه.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۲۵۰

و قد يجمع باشتراك من ذكر فى كونهما كانا فى حجورهم، أو بانتقال ذلك بعد أسعد إلى من ذكر واحدا بعد واحد، سيما و قد روى ابن زبالة عن ابن أبى فديك قال: سمعت بعض أهل العلم يقولون: إن أسعدا توفى قبل أن يا بنى المسجد، فابتاعه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من ولى سهل و سهيل.

و روى ابن زبالة فى خبر: كان مسجد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لسهل و سهيل ابنى أبى عمرو من بنى غنم، فأعطياه رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فبناه مسجدا.

و فى الصحيح أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أرسل إلى ملأ بنى النجار بسبب موضع المسجد، فقال:

يا بنى النجار، ثامنونى بحائطكم هذا، فقالوا: لا و الله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله.

و عند الإسماعيلى «إلا من الله» و هو ظاهر فى أنهم لم يأخذوا له ثمنا.

و فى رواية فى باب الهجرة من الصحيح بعد ذكر تأسيس مسجد قباء: ثم ركب رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم راحلته، فسار يمشى معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول بالمدينة، و هو يصلى فيه يومئذ رجال من المسلمين، و كان مربدا للتمر لسهل و سهيل

غلامين يتيمين فى حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم حين بركت به راحلته: هذا إن شاء الله المنزل، ثم دعا الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدا، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجدا.

و وقع فى رواية ابن عيينة: فكلم عمهما- أى الذى كانا فى حجره- أن يبتاعه منهما، فطلبه منهما فقالا: ما تصنع به؟ فلم يجد بدا من أن يصدقهما، فأخبرهما أن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم أراده، فقالا: نحن نعطيه إياه، فأعطياه رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فبناه، أخرجه الجندى. و طريق الجمع بين ذلك- كما أشار إليه الحافظ ابن حجر- أنهم لما قالوا لا نطلب ثمنه إلا إلى الله سأل عن من يختص بملكه منهم، فعينوا له الغلامين، فابتاعه منهما أو من وليهما أن كانا غير بالغين. و حينئذ فيحتمل أن الذين قالوا: «لا نطلب ثمنه إلا إلى الله» تحملوا عنه للغلامين بالثمن، فقد نقل ابن عقبة أن أسعد عوّض الغلامين عنه نخلا له فى بنى بياضة.

و تقدم أن أبا أيوب قال: هو ليتيمين لى، و أنا أرضيهما، فأرضاهما، و كذلك معاذ بن عفراء، فيكون ذلك بعد الشراء. و يحتمل أن كلا من أسعد و أبى أيوب و ابن عفراء أرضى اليتيمين بشىء، فنسب ذلك لكل منهم. و قد روى أن اليتيمين امتنعا من قبول عوض، فيحمل ذلك على بدء الأمر، لكن يشكل على هذا ما نقل عن التاريخ الكبير لابن سعد أن الواقدى قال: إنه صلّى اللّه عليه و سلّم اشتراه من ابنى عفراء بعشرة دنانير ذهبا، دفعها أبو بكر الصديق، و قد يقال: إن الشراء وقع من ابنى عفراء لأنهما كانا وليين لليتيمين، و رغب أبو بكر فى

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۲۵۱

الخير كما رغب فيه أسعد، و أبو أمامة و معاذ بن عفراء، فدفع لهم أبو بكر العشرة، و دفع كل من أولئك ما تقدم، و لم يقبله صلّى اللّه عليه و سلّم بلا ثمن أولا لكونه لليتيمين، لكن ابن سيد الناس نقل عن البلاذرى أنه قال عقب كلامه الآتى: فعرض- يعنى أسعد- على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أن يأخذها و يغرم لليتيمين ثمنها، فأبى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم ذلك، و ابتاعها منه بعشرة دنانير أداها من مال أبى بكر، انتهى؛ فيحتمل أنه صلّى اللّه عليه و سلّم أخذ أولا بعض المربد، ثم أخذ بعضا آخر؛ لما سيأتى من أنه زاد فيه مرة أخرى؛ فليست القصة متحدة. و رأيت بخط الأقشهرى فى كلام نقله عن أبى جعفر الداودى عن عبد الله بن نافع صاحب مالك أن المسجد كان مربدا لابنى عفراء.

قلت: يحتمل نسبته إليهما لولايتهما على اليتيمين، أو أن لليتيمين أما تسمى عفراء، و أما ابنا عفراء المشهوران فهما معاذ و معوذ ابنا الحارث، و الذى فى الصحيح من تسمية الغلامين سهل و سهيل أصح، و الله أعلم.

و فى كتاب يحيى ما يقتضى أن أسعد بن زرارة كان قد بنى بهذا المربد مسجدا قبل مسجد الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم؛ فإنه قال: حدثنا بكر ثنا محمد بن عمر ثنا معاذ بن محمد عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة قال: سمعت أم سعد بنت سعد بن الربيع تقول:

أخبرتنى النوار بنت مالك أم زيد بن ثابت أنها رأت أسعد بن زرارة قبل أن يقدم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يصلى بالناس الصلوات الخمس، و يجمع بهم فى مسجد بناه فى مربد سهل و سهيل ابنى رافع بن أبى عمرو بن عائذ بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار، قالت: فأنظر إلى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم لما قدم صلّى بهم فى ذلك المسجد و بناه، فهو مسجده اليوم.

و نقل ابن سيد الناس عن ابن إسحاق أن الناقة بركت على باب مسجده صلّى اللّه عليه و سلّم و هو يومئذ ليتيمين من بنى مالك بن النجار فى حجر معاذ بن عفراء سهل و سهيل ابنى عمرو، ثم قال: و ذكر أحمد بن يحيى البلاذرى، قال: فنزل رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم عند أبى أيوب، و وهبت له الأنصار كل فضل كان فى خططها، و قالوا: يا نبى الله إن شئت فخذ منازلنا، فقال لهم خيرا، قالوا: و كان أبو أمامة أسعد بن زرارة يجمّع بمن يليه فى مسجد له، فكان رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يصلى فيه، ثم إنه سأل أسعد أن يبيعه أرضا متصلة بذلك المسجد كانت فى يديه ليتيمين فى حجره يقال لهما سهل و سهيل ابنا رافع بن أبى عمرو بن عائذ بن ثعلبة بن غنم، كذا نسبهما البلاذرى، و هو يخالف ما سبق عن ابن إسحاق و غيره، و الأول أشهر، انتهى، و تشهيره للأول- و هو كون

الغلامين ابنى عمرو- تقدم ما يقتضيه، لكن تقدم أيضا ما يقتضى الثانى، و هو الأرجح فقدم صرح ابن حزم فى الجمهرة، و رواه ابن زبالة عن ابن شهاب، و كذا ذكره ابن عبد البر. و ذكر السهيلى فيما نقله عنه الذهبى ما يحصل به الجمع

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۵۲

و يرفع الخلاف إلا أن فيه بعض مخالفة لما تقدم، فقال: سهل بن عمرو الأنصارى النجارى أخو سهيل صاحب المربد، و كانا فى حجر أسعد بن زرارة، ينسبان إلى جدهما، و هما ابنا رافع بن عمرو بن أبى عمرو بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن النجار، انتهى. فعلى هذا يكون سقط من الرواية المتقدمة ابن عمرو بين رافع و أبى عمرو، و تصحف عبيد بعائذ، و الله أعلم.

و قال المجد: ذكر البيهقى المسجد فقال: كان جدارا مجدرا ليس عليه سقف، و قبلته إلى القدس، و كان أسعد بن زرارة بناه، و كان يصلى بأصحابه فيه، و يجمّع بهم فيه الجمعة قبل مقدم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فأمر رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بالنخل التى فى الحديقة و بالغرقد أن يقطع، و كان فيه قبور جاهلية، فامر بها فنبشت، و أمر بالعظام أن تغيّب، و كان فى المربد ماء مسحل فسيره حتى ذهب- و المسحل: ممشى ماء المطر، انتهى. و لم أره فى المعرفة للبيهقى، و لا فى السنن الكبير، و لا فى الدلائل، و المعروف أنه كان مربدا للتمر: أى يجفّف فيه التمر، و كأنه سماه حديقة لاشتماله على نخل؛ ففى الصحيحين أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم «لما أخذه كان فيه نخل و قبور المشركين و خرب، فأمر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بالنخل فقطع، و بقبور المشركين فنبشت، و بالخرب فسويت، فصفوا النخل قبلة له، و جعلوا عضادتيه حجارة» و قد قدمنا الكلام على قطع هذا النخل فى أحكام الحرم، و كأن معنى صف النخل قبلة له جعلها سوارى فى جهة القبلة ليسقف عليها كما فى الصحيح «كان المسجد على عهد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم مبنيا باللبن، و سقفه الجريد، و عمده خشب النخل» و سيأتى فيما أسند يحيى أنه كان فى جوف الأرض- أى أرض المربد- قبور جاهلية، فامر رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بالقبور فنبشت، فرمى بعظامها، فأمر بها فغيبت، و كان فى المربد ماء مستنجل فسيره حتى ذهب» و وقع فى رواية عطاف بن خالد عند ابن عائذ أنه صلّى اللّه عليه و سلّم «صلى فيه و هو عريش اثنى عشر يوما، ثم بناه و سقفه» و سيأتى ما يشهد له.

و أسند ابن زبالة عن أنس قال: بناه رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم- يعنى المسجد- أول ما بناه بالجريد، قال: و إنما بناه باللبن بعد الهجرة بأربع سنين.

قلت: و هو واه أو مؤول، و المعروف خلافه.

و أسند أيضا عن شهر بن حوشب قال: لما أراد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يحجر بناء المسجد قيل له: عريش كعريش أخيك موسى سبع أذرع، و أسنده يحيى من غير طريقه عن شهر أيضا بلفظ: لما أراد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يا بنى المسجد، و أورده رزين بلفظ: لما أراد

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۵۳

رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بناء المسجد قال: قيل لى: عريش كعريش أخيك موسى سبعة أذرع، ثم الأمر أعجل من ذلك. و أسند يحيى عن الحسن قال: لما قدم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة قال:

ابنوا لى مسجدا عريشا كعريش موسى، ابنوه لنا من لبن. و أورده رزين بلفظ: لما أخذ فى بناء المسجد قال: ابنوا لى عريشا كعريش موسى، ثمامات و خشبات و ظلة كظلة موسى، و الأمر أعجل من ذلك، قيل: و ما ظلة موسى؟ قال: كان إذا قام فيه أصاب رأسه السقف، و عمل فيه بنفسه صلّى اللّه عليه و سلّم ترغيبا لهم؛ ففى الرواية المتقدمة فى الصحيح عقب قوله: «حتى ابتاعه منهما» و طفق رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم ينقل معهم اللبن فى ثيابه، و يقول و هو ينقل اللبن:

هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبرّ ربّنا و أطهر

و يقول:

اللهم إنّ الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار و المهاجرة

قال ابن شهاب: فتمثل صلّى اللّه عليه و سلّم بشعر رجل من المسلمين، و لم يبلغنا فى الأحاديث أنه تمثل ببيت شعر تام غير هذه الأبيات، زاد ابن عائذ فى آخره: التى كان يرتجزهن و هو ينقل اللبن لبناء المسجد.

و الحمال مخفّف بمهملة مكسورة: أى هذا المحمول من اللبن أبر عند الله من حمال خيبر، أى ذات التمر و الزبيب. و قوله «ربّنا» أى يا ربنا. و أسند يحيى عن الزهرى فى معنى قوله «هذا الحمال لا- حمال خيبر» قال: كانت يهود إذا صرمت نخلها جاءتهم الأعراب بركائبهم فيحملون لهم عروة بعروة إلى القرى، فيبيعون، يكون لهذا نصف الثمن و لهؤلاء نصفه، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ذلك. و فى الرواية المتقدمة فى الصحيح عقب قوله: «و جعلوا عضادتيه حجارة» فجعلوا ينقلون ذلك الصخر و هم يرتجزون و رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم معهم، يقولون:

اللهم لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار و المهاجرة

و يذكر أن هذا البيت لعبد الله بن رواحة.

و عن الزهرى: بلغنى أن الصحابة كانوا يرتجزون به، و كان رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم ينقل معهم و يقول:

اللهم لا خير إلا خير الآخرة فارحم المهاجرين و الأنصار

و كان لا يقيم الشعر، قال الله تعالى: وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ [يس: ۶۹]

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۵۴

و فعل ذلك احتسابا و ترغيبا فى الخير؛ ليعمل الناس كلهم، و لا يرغب أحد بنفسه عن نفس رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و لهذا أسند ابن زبالة عن مجمع بن يزيد أنه قال عقب ذلك: و عملوا فيه و دأبوا، فقال قائل من المسلمين:

لئن قعدنا و النّبىّ يعمل ذاك إذا للعمل المضلّل

و أسند أيضا أن على بن أبى طالب كان يرتجز و هو يعمل فيه يقول:

لا يستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها قائما و قاعدا

و من يرى عن الغبار حائدا

و أسند هو أيضا و يحيى من طريقه و المجد، و لم يخرجه، عن أم سلمة رضى الله عنها قالت: بنى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم مسجده، فقرب اللبن و ما يحتاجون إليه، فقام رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فوضع رداءه، فلما رأى ذلك المهاجرون الأولون و الأنصار ألقوا أرديتهم و أكسيتهم، و جعلوا يرتجزون و يعملون و يقولون:

لئن قعدنا و النبىّ يعمل

البيت.

و كان عثمان بن عفان رضى الله عنه رجلا نظيفا متنظفا، و كان يحمل اللبنة فيجافى بها عن ثوبه، فإذا وضعها نفض كمه، و نظر إلى ثوبه، فإن أصابه شىء من التراب نفضه، فنظر إليه على بن أبى طالب فأنشأ يقول:

لا يستوى من يعمر المساجدا

الأبيات المتقدمة.

فسمعها عمار بن ياسر، فجعل يرتجز بها و هو لا- يدرى من يعنى بها، فمر بعثمان فقال: يا ابن سمية، ما أعرفنى بمن تعرض، و معه جريدة فقال: لتكفن أو لأعترضن بها وجهك، فسمعه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و هو جالس فى ظل بيتى، يعنى أم سلمة، و فى كتاب يحيى «فى ظل بيته» - فغضب رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم ثم قال: إن عمار بن ياسر جلدة ما بين عينى و أنفى، فإذا بلغ ذلك من المرء فقد بلغ، و وضع يده بين عينيه، فكف الناس عن ذلك، ثم قالوا لعمار: إن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قد غضب فيك، و نخاف

أن ينزل فينا القرآن، فقال: أنا أرضيه كما غضب، فقال: يا رسول الله مالى و لأصحابك؟ قال: مالك و ما لهم؟ قال: يريدون قتلى، يحملون لبنة لبنة و يحملون على اللبنتين و الثلاث، فأخذ بيده فطاف به فى المسجد، و جعل يمسح و فرته بيده من التراب و يقول: يا ابن سمية لا يقتلك أصحابى، و لكن تقتلك الفئة الباغية.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۵۵

و قد ذكر ابن إسحاق القصة بنحوه كما فى تهذيب ابن هشام، قال: و سألت غير واحد من أهل العلم بالشعر عن هذا الرجز فقالوا: بلغنا أن على بن أبى طالب ارتجز به، فلا ندرى أ هو قائله أم غيره، و إنما قال ذلك على رضى الله عنه مطايبة و مباسطة كما هو عادة الجماعة إذا اجتمعوا على عمل، و ليس ذلك طعنا.

و أخرج ابن أبى شيبة من مرسل أبى جعفر الخطمى قال: كان رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يا بنى المسجد و عبد الله بن رواحة يقول:

أفلح من يعالج المساجدا

فيقولها رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فيقول ابن رواحة:

يتلو القرآن قائما و قاعدا

فيقولها رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم.

و فى الصحيح فى ذكر بناء المسجد: و كنا نحمل لبنة لبنة و عمار لبنتين لبنتين، فرآه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فجعل ينفض التراب عنه و يقول: «ويح عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة و يدعونه إلى النار» و قال: يقول عمار: أعوذ بالله من الفتن.

و أسند ابن زبالة و يحيى عن مجاهد قال: رآهم رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و هم يحملون الحجارة على عمار، و هو يا بنى المسجد، فقال: «ما لهم و لعمار؟ يدعوهم إلى الجنة و يدعونه إلى النار، و ذلك فعل الأشقياء الأشرار».

و أسند الثانى أيضا عن أم سلمة قالت: كان رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه يبنون المسجد، فجعل أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يحمل كل رجل منهم لبنة لبنة و عمار بن ياسر لبنتين لبنة عنه و لبنة عن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فقام إليه رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فمسح ظهره و قال: «يا ابن سمية لك أجران و للناس أجر، و آخر زادك من الدنيا شربة من لبن، و تقتلك الفئة الباغية».

و فى الروض للسهيلى: أن معمر بن راشد روى ذلك فى جامعه بزيادة فى آخره، و هى: فلما قتل يوم صفين دخل عمرو على معاوية رضى الله عنهما فزعا فقال: قتل عمار، فقال معاوية: فما ذا؟ فقال عمرو: سمعت رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «تقتله الفئة الباغية» فقال معاوية: دحضت فى بولك، أ نحن قتلناه؟ إنما قتله من أخرجه.

و روى البيهقى فى الدلائل عن عبد الرحمن السلمى أنه سمع عبد الله بن عمرو بن العاص يقول لأبيه عمرو: قد قتلنا هذا الرجل، و قد قال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فيه ما قال، قال:

أى رجل؟ قال: عمار بن ياسر، أ ما تذكر يوم بنى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم المسجد؛ فكنا نحمل

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۵۶

لبنة لبنة، و عمار يحمل لبنتين لبنتين، فمر على رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «تحمل لبنتين لبنتين و أنت ترحض، أما إنك ستقتلك الفئة الباغية، و أنت من أهل الجنة» فدخل عمرو على معاوية فقال: قتلنا هذا الرجل و قد قال فيه رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم ما قال، فقال: اسكت، فوالله ما تزال تدحض فى بولك، أ نحن قتلناه؟ إنما قتله على و أصحابه، جاءوا به حتى ألقوه بيننا.

قلت: و هو يقتضى أن هذا القول لعمار كان فى البناء الثانى للمسجد؛ لأن إسلام عمرو كان فى الخامسة كما سبق.

و أسند ابن زبالة عن حسن بن محمد الثقفى قال: بينا رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يا بنى فى أساس مسجد المدينة و معه أبو بكر و

عمر و عثمان رضى الله عنهم، فمر به رجل فقال: يا رسول الله ما معك إلا هؤلاء الرهط؟ فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: هؤلاء ولاة الأمر من بعدى.

و روى أبو يعلى برجال الصحيح إلا- أن التابعى لم يسم عن عائشة رضى الله عنها قالت: لما أسس رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم مسجد المدينة جاء بحجر فوضعه، و جاء أبو بكر بحجر فوضعه، و جاء عمر بحجر فوضعه، و جاء عثمان بحجر فوضعه، قالت: فسئل رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم عن ذلك، فقال: هذا أمر الخلافة من بعدى.

و تقدم فى تأسيس مسجد قباء نحو ذلك من غير ذكر أمر الخلافة.

و قال الأقشهرى فى روضته: روى صاحب السيرة و لم يسمه أن جبريل عليه السلام أتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و قال: يا محمد، إن الله يأمرك أن تبنى له بيتا، و أن ترفع بنيانه بالرهص و الحجارة- و الرهص: الطين الذى يتخذ منه الجدار- فقال: كم أرفعه يا جبريل؟ قال:

سبعة أذرع، و قيل: خمسة أذرع، و لما ابتدأ فى بنائه أمر بالحجارة و أخذ حجرا فوضعه بيده أولا، ثم أمر أبا بكر فجاء بحجر فوضعه إلى جنب حجر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ثم عمر كذلك، ثم عثمان كذلك، ثم عليا، انتهى ما ذكره الأقشهرى و من خطه نقلته.

و روى البيهقى فى الدلائل عن سفينة مولى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم قال: لما بنى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم المسجد وضع حجرا، ثم قال: ليضع أبو بكر حجره إلى جنب حجرى، ثم ليضع عمر حجره إلى جنب حجر أبى بكر، ثم قال: ليضع عثمان حجره إلى جنب حجر عمر، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: «هؤلاء الخلفاء من بعدى».

و أسند يحيى عن أسامة بن زيد عن أبيه قال: خرج رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و معه حجر، فلقيه أسيد بن حضير فقال: يا رسول الله أعطنيه، فقال: اذهب فاحتمل غيره، فلست بأفقر إليه منى.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۵۷

و عن مكحول قال: لما كثر أصحاب رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم قالوا: اجعل لنا مسجدا، فقال:

خشبات و ثمامات، عريش كعريش أخى موسى صلوات الله عليه، الأمر أعجل من ذلك.

و رواه رزين و زاد فيه: فطفقوا ينقلون اللبن و ما يحتاجون إليه و رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم ينقل معهم، فلقيه رجل و مع رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم لبنة فقال: أعطنيها يا رسول الله، فقال: اذهب فخذ غيرها، فلست بأفقر إلى الله منى.

و نقل المجد عن رواية محمد بن سعد نحوه، قال: و جاء رجل يحسن عجن الطين، و كان من حضرموت، فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: رحم الله امرأ أحسن صنعته، و قال له: الزم أنت هذا الشغل فإنى أراك تحسنه.

و فى كتاب يحيى من طريق ابن زبالة عن الزهرى: كان رجل من أهل اليمامة يقال له طلق من بنى حنيفة يقول: قدمت على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و هو يا بنى مسجده، و المسلمون يعملون فيه معه، و كنت صاحب علاج و خلط طين، فأخذت المسحاة أخلط الطين و النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ينظر إلى و يقول: إن هذا الحنفى لصاحب طين.

و روى أحمد عن طلق بن على قال: بنيت المسجد مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فكان يقول: قربوا اليمامى من الطين فإنه أحسنكم له مسكا و أشدكم منكبا.

و عنه أيضا قال: جئت إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه يبنون المسجد، قال: فكأنه لم يعجبه عملهم، قال: فأخذت المسحاة فخلطت بها الطين، فكأنه أعجبه أخذى المسحاة و عملى فقال: دعوا الحنفى و الطين فإنه من أصنعكم للطين.

و أسند ابن زبالة و يحيى من طريقه فى أثناء كلام عن ابن شهاب فى قصة أخذ المربد، قال: فبناه مسجدا، و ضرب لبنه من بقيع الخبخبة ناحية بئر أبى أيوب بالمناصع و الخبخبة:

شجرة كانت تنبت هناك.

و أسند يحيى من طريق عبد العزيز بن عمر عن يزيد بن السائب عن خارجة بن زيد بن ثابت قال: بنى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم مسجده سبعين فى ستين ذراعا أو يزيد، و لبّن لبنه من بقيع الخبخبة، و جعله جدارا، و جعل سواريه خشبا شقة شقة، و جعل وسطه رحبة، و بنى بيتين لزوجتيه.

قال عبد العزيز: فسألت زيدا: أين بقيع الخبخبة؟ قال: بين بئر أبى أيوب و تلك الناحية، و هذا بقيع الغرقد لبقيع المقبرة، و قال: سألت عبد العزيز عن بقيع الخبخبة فقال:

هى- أى الخبخبة- يسار بقيع الغرقد حين تقطع الطريق و تلقاها عند مسجد يحيى، فقلت: و من يحيى صاحب المسجد الذى ذكرت؟ فقال: يحيى بن طلحة بن عبيد الله.

قلت: بقيع الخبخبة لا يعرف اليوم كما ذكره شيخ مشايخنا الزين المراغى، لكن

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۵۸

الخارج من درب البقيع إذا مشى فى البقيع لجهة مشهد سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه و صار مشهد سيدنا إبراهيم بن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم على يمينه يكون على يساره طريق تمر بطرف الكومة، فإذا سلكها انتهى بعد رأس العطفة التى على يمينه إلى حديقة تعرف قديما بأولاد الصيفى بها بئر ينزل إليها بدرج تعرف ببئر أيوب قديما و حديثا، و عن يسار الخارج من درب البقيع أيضا إذا سلك طريق سيدنا حمزة فى شامى الحديقة المعروفة بالرومية حديقة تعرف بالرباطية وقف رباط اليمنة بها بئر. قال المراغى: تعرف ببئر أيوب أيضا، يتبرك بها الناس، و هى بالقرب من الحديقة المعروفة بدار فحل، و هى عن يسار بقيع الغرقد أيضا، قال الزين المراغى: و لعلها أقرب إلى المراد.

قلت: و الذى يظهر أن الأولى هى المراد، لما سنبينه فى الآبار.

و فى كتاب رزين ما لفظه: عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: كان بناء مسجد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بالسميط لبنة على لبنة، ثم بالسعيدة لبنة و نصف أخرى، ثم كثروا فقالوا:

يا رسول الله لو زيد فيه، فبنى بالذكر و الأنثى، و هى لبنتان مختلفتان، و كانوا رفعوا أساسه قريبا من ثلاثة أذرع بالحجارة، و جعلوا طوله مما يلى القبلة إلى مؤخرة مائة ذراع، و كذا فى العرض، و كان مربعا، و فى رواية جعفر: و لم يسطح، فشكوا الحر فجعلوا خشبه و سواريه جذوعا، و ظللوا بالجريد ثم بالخصف، فلما و كف عليهم طينوه بالطين، و جعلوا وسطه رحبة، و كان جداره قبل أن يظلل قامة و شيئا، انتهى. و الظاهر أنه ليس جميعه من كلام جعفر؛ بدليل قوله فى الأثناء «و فى رواية جعفر».

و قد ذكر ابن زبالة و يحيى من غير طريقه كلام جعفر متمحضا فأسندا عنه أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان بناء مسجده بالسميط لبنة لبنة، ثم إن المسلمين كثروا فبناه بالسعيدة، فقالوا: يا رسول الله لو أمرت من يزيد فيه، فقال: نعم، فأمر به فزيد فيه، و بنى جداره بالأنثى و الذكر، ثم اشتد عليهم الحر فقالوا: يا رسول الله لو أمرت بالمسجد فظلل، قال: نعم، فأمر به فأقيمت فيه سوارى من جذوع النخل، ثم طرحت عليها العوارض و الخصف و الإذخر، فعاشوا فيه، و أصابتهم الأمطار، فجعل المسجد يكف عليهم، فقالوا: يا رسول الله لو أمرت بالمسجد فطيّن، فقال: لا، عريش كعريش موسى، فلم يزل كذلك

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۵۹

حتى قبض رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و كان جداره قبل أن يظلل قامة، فكان إذا فاء الفيء ذراعا و هو قدمان يصلى الظهر، فإذا كان ضعف ذلك صلّى العصر، ثم نقلا عنه تفسير السميط و السعيدة و الأنثى و الذكر بما تقدم، و لم يذكرا ذرعا.

و فى الإحياء عن الحسن مرسلا: لما أراد صلّى اللّه عليه و سلّم أن يا بنى مسجد المدينة أتاه جبريل فقال: ابنه سبعة أذرع طولا فى السماء، و لا تزخرفه، و لا تنقشه، انتهى.

و تقدم فيما نقله الأقشهرى عن صاحب السيرة عن جبريل عليه السلام فى ارتفاعه سبعة أذرع، و قيل: خمسة.

و أسند يحيى عن أسامة بن زيد عن أبيه قال: خرج رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و معه حجر، فلقيه أسيد بن حضير، و ذكر ما قدمناه، ثم قال: قال- يعنى زيدا- و رفعوا الأساس قريبا من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة، و كان فى جوف الأرض قبور جاهلية، فأمر بالقبور فنبشت فرمى بعظامها، و أمر بها فغيبت، و كان فى المربد ماء مستنجل فسربه حتى ذهب، و كان الذين أسسوا المسجد جعلوا طوله مما يلى القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، و فى الجانبين الآخرين مثل ذلك فهو مربع، و يقال: إنه كان أقل من مائة ذراع، و جعل قبلته إلى بيت المقدس، و جعل له ثلاثة أبواب: باب فى مؤخره، أى و هو فى جهة القبلة اليوم، و باب عاتكة الذى يدعى باب عاتكة و يقال باب الرحمة، و الباب الذى كان يدخل منه رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و هو باب آل عثمان اليوم، و هذان البابان لم يغيرا بعد أن صرفت القبلة، و لما صرفت القبلة سد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم الباب الذى كان خلفه و فتح هذا الباب، و حذاء هذ الباب- أى و محاذيه- هذا الباب الذى سد. و عبر ابن النجار عن ذلك بقوله: و لما صرفت القبلة سد الباب الذى كان خلفه و فتح بابا حذاءه. قال المجد: أى تجاهه، انتهى.

و ذكر الأقشهرى فى خبر عن ابن عمر ما يخالف هذا، فإنه قال: و عن عبد الله بن عمر قال: كان مسجد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فى زمانه من اللبن، و سقفه من غصن النخل، و له ثلاثة أبواب: باب فى مؤخره، و باب عاتكة و هو باب الرحمة، و الباب الذى كان يدخل منه و هو باب عثمان، و هو الذى يسمى اليوم باب جبريل، و لما صرفت القبلة سد الباب الذى خلفه و فتح الباب الآخر، و هو الذى يسمى باب النساء، انتهى. و هو غريب، و لعل قوله: «و هو الذى يسمى باب النساء» من تصرفه و فهمه فى معنى الخبر، و لذلك أورد عقبه حديث أبى داود مرفوعا «لو تركنا هذا الباب للنساء» لكن أبو داود بيّن أن الأصح أنه من قول عمر كما سيأتى، و على ما ذكره فلم يجعل للمسجد بعد التحويل بابا خلفه، و باب عن يمين المصلى، و باب عن يسار المصلى، ثم انتهوا إلى البناء باللبن، فجعل رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يحمل معهم اللبن فى ثيابه و يقول:

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۶۰

هذا الحمال لا حمال خيبر

الرجز المتقدم.

و روى أحمد عن أبى هريرة أنهم كانوا يحملون اللبن إلى بناء المسجد و رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم معهم، قال: فاستقبلت رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و هو عارض لبنة على بطنه، فظننت أنها شقت عليه، فقلت: ناولنيها يا رسول الله، قال: خذ غيرها يا أبا هريرة فإنه لا عيش إلا عيش الآخرة.

زيادة النبى فى مسجده

قلت: و هذا فى البناء الثانى، أى لأن أبا هريرة لم يحضر البناء الأول؛ لأن قدومه عام فتح خيبر.

و أسند ابن زبالة من طريق ابن جريج عن جعفر بن عمرو قال: كان المربد لسهل و سهيل ابنى عمرو فأعطياه رسول الله صلى اللّه عليه و سلّم فبناه، و أعان أصحابه أو بعضهم بنفسه فى عمله، و كان على بن أبى طالب يرتجز و هو يعمل فيه، قال: و بناه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مرتين: بناه حين قدم أقل من مائة فى مائة، فلما فتح الله عليه خيبر بناه و زاد عليه مثله فى الدور.

و روى الطبرانى بإسناد فيه ضعيف عن أبى المليح عن أبيه قال: قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لصاحب البقعة التى زيدت فى مسجد المدينة- و كان صاحبها من الأنصار- فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «لك بها بيت فى الجنة» قال: لا، فجاء عثمان فقال له: «لك بها عشرة آلاف درهم» فاشتراها منه، ثم جاء عثمان إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول الله اشتر منى البقعة التى اشتريتها من الأنصارى، فاشتراها منه ببيت فى الجنة، فقال عثمان: إنى اشتريتها بعشرة آلاف درهم، فوضع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لبنة، ثم دعا أبا بكر فوضع لبنة، ثم دعا عمر فوضع لبنة، ثم جاء عثمان فوضع لبنة، ثم قال للناس: «ضعوا» فوضعوا.

و روى الترمذى و حسّنه فى حديث قصة إشراف عثمان على الناس يوم الدار عن ثمامة بن حزن القشيرى أن عثمان رضى الله عنه قال: أنشدكم بالله و بالإسلام هل تعلمون أن المسجد ضاق بأهله فقال رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم: من يشترى بقعة آل فلان فيزيدها فى المسجد بخير له منها فى الجنة؟ فاشتريتها من صلب مالى، فأنتم اليوم تمنعوننى أن أصلى فيها ركعتين، قالوا: اللهم نعم، الحديث، و أخرجه الدارقطنى أيضا، و كذا أحمد بنحوه.

و أخرجا أيضا حديثا طويلا عن الأحنف بن قيس فيه: أن عثمان رضى الله عنه قال:

أ هاهنا على؟ قالوا: نعم، قال: أ هاهنا طلحة؟ قالوا: نعم، قال: أنشدكم بالله الذى لا إله

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۶۱

إلا هو أ تعلمون أن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم قال: أمن يبتاع مربد بنى فلان غفر الله له، فابتعته بعشرين ألفا أو خمسة و عشرين ألفا، فأتيت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقلت: قد ابتعته، فقال: اجعله فى مسجدنا و أجره لك، قالوا: اللهم نعم.

و أخرج خيثمة بن سليمان فى فضائل عثمان عن قتادة قال: كانت بقعة إلى جنب المسجد فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: من يشتريها و يوسعها فى المسجد له مثلها فى الجنة، فاشتراها عثمان، فوسعها فى المسجد.

و أسند ابن زبالة عن خالد بن معدان قال: خرج رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم على عبد الله بن رواحة و أبى الدرداء و معهما قصبة يذرعان بها المسجد، فقال: ما تصنعان؟ فقالا: أردنا أن نبنى مسجد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم على بنيان الشام، فيقسم ذلك على الأنصار، فقال: هاتياها، فأخذ القصبة منهما، ثم مشى بها حتى أتى الباب، فدحا بها، و قال: كلا، ثمام و خشيبات و ظلة كظلة موسى، و الأمر أقرب من ذلك، قيل: و ما ظلة موسى؟ قال: إذا قام أصاب رأسه السقف.

و روى البيهقى فى الدلائل من طريق يعلى بن شداد عن عبادة أن الأنصار جمعوا مالا- فأتوا به النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقالوا: يا رسول الله ابن بهذا المسجد و زينه، إلى متى نصلى تحت هذا الجريد؟ فقال: ما بى رغبة عن أخى موسى، عريش كعريش موسى.

و روى البيهقى أيضا عن الحسن فى بيان عريش موسى قال: إذا رفع يده بلغ العريش، يعنى السقف.

و عن ابن شهاب: كانت سوارى المسجد فى عهد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم جذوعا من جذوع النخل، و كان سقفه جريدا و خوصا ليس على السقف كثير طين، إذا كان المطر امتلأ المسجد طينا، إنما هو كهيئة العريش.

و فى الصحيح فى ليلة القدر: و إنى أريت أنى أسجد فى ماء و طين، فمن كان اعتكف مع رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فليرجع، فرجعنا و ما نرى فى السماء قزعة فجاءت سحابة فمطرت حتى سال سقف المسجد، و كان من جريد النخل، و أقيمت الصلاة، فرأيت رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يسجد فى الماء و الطين، حتى رأيت أثر الطين فى جبهته.

الفصل الثانى فى ذرعه و حدوده التى يتميز بها عن سائر المسجد اليوم

اشارة

اعلم أن الذراع حيث أطلق فالمراد به ذراع الآدمى، و قد قدمنا فى تحديد الحرم

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۶۲

أنه ذراع غير ثمن من ذراع الحديد المستعمل بمصر و بمكة، و هو شبران تقريبا، و قد تحصلنا كما تقدم فى ذرع المسجد على أربع روايات: الأولى: سبعون ذراعا فى ستين أو يزيد، و الثانية: مائة ذراع فى مائة، و أنه مربع، و الثالثة: أنه أقل من مائة ذراع، و هذا صادق بالأولى فليحمل عليها، الرابعة: أنه بناه أولا أقل من مائة فى مائة، ثم بناه و زاد عليه مثله فى الدور، و لا يصح أن يراد بذلك الأذرع قطعا؛ لأنها تقتضى أنه بعد البناء الثانى صار أحد امتداديه إما الطول أو العرض نحو مائتى ذراع، و الامتداد الآخر نحوها، و لا شك أن

حد مسجده صلّى اللّه عليه و سلّم من جهة المشرق غايته الحجرة الشريفة، فعرضه من جدارها إلى جدار المسجد الغربى، و ذرع هذا القدر اليوم بعد الزيادات المجمع عليها لا تبلغ مائة و خمسين ذراعا كما اختبرته، بل تنقص أزيد من ستة أذرع، و قد أجمع المؤرخون على أن عمر و عثمان رضى الله عنهما زادا فى المسجد من هذه الجهة، ثم غيرهما من الخلفاء؛ فالظاهر أن المراد من هذه الرواية الأشبار لا الأذرع، فيقتضى أن المسجد النبوى بعد البناء الثانى صار أحد امتداديه مائتى شبر، و الامتداد الآخر نحوها؛ فيوافق رواية مائة ذراع فى مثلها، على أن ما ذكره المتأخرون من التحديد بالأمور الآتية يقتضى أنه لم يكن مائة ذراع؛ فهو مقتض لترجيحهم الرواية الأولى، و هى سبعون ذراعا فى ستين، و تكون السبعون للطول و الستون للعرض.

و قد نقل النووى ذلك فى منسكه عن خارجة بن زيد أحد فقهاء المدينة السبعة، و لفظه: بنى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم مسجده سبعين ذراعا فى ستين أو يزيد، و هو الذى جزم به ابن النجار فقال: بنى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم مسجده مربعا، و جعل قبلته إلى بيت المقدس، و طوله سبعين ذراعا فى ستين ذراعا أو يزيد، انتهى.

هذا، و قد قال يحيى قبيل ما جاء فى حجر أزواج النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: حدثنى هارون قال:

حدثنا محمد بن يحيى- يعنى صاحب مالك- قال: فيما كان انتهى إلينا من ذرع مسجد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من القبلة إلى حده الشامى أربعة و خمسون ذراعا و ثلثا ذراع، و حده من المشرق إلى المغرب ثلاث و ستون ذراعا، يكون ذلك مكسرا ثلاثة آلاف و أربعمائة و أربعة و أربعين ذراعا، انتهى.

و قال ابن النجار: اعلم أن حدود مسجد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم- أى: الذى كان فى زمنه- من القبلة الدرابزينات التى بين الأساطين التى فى قبلة الروضة، و من الشام الخشبتان المغروزتان فى صحن المسجد، و أما من المشرق إلى المغرب فهو من حجرة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إلى الأسطوان الذى بعد المنبر، و هو آخر البلاط، انتهى.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۶۳

و فيما ذكره ابن النجار مناقشة: أما ما ذكره من التحديد بالدرابزينات من جهة القبلة و بالخشبتين من جهة الشام، فالخشبتان اليوم غير معروفتين، و قد نبه على فقدهما الزين المراغى، و كلام المطرى يفهمه، و لم أر لهما ذكرا فى كلام المتقدمين، نعم ذكر ابن زبالة كلاما فيه غموض يقتضى تحديد بعض جهات المسجد بعودين علا الكبس على أحدهما، و أن الآخر كان موجودا فى زمانه، فلعل ذلك مأخذ ابن النجار، و عبارة ابن زبالة تنبو عن ذلك؛ إذ لم يذكرهما فى حد جهة الشام، و الحد من هذه الجهة اليوم- على ما يعرف فى زماننا- الحجران الآتى ذكرهما فى صحن المسجد، و سيأتى ما يقتضى رد ذلك.

و ذكر ذلك ابن جماعة فى منسكه فقال: قد عرّف المتأخرون مقدار المسجد الذى كان عليه أولا فقالوا: كان على التربيع من الحجرة المقدسة إلى مكان السارية السابعة من جهة المغرب، و من موضع الدرابزين الذى هو بين الأساطين المتصل بالصندوق أمام المصلى الشريف إلى موضع الحجرين المغروزين فى صحن المسجد الشريف، انتهى.

و مستنده فى ذلك قول المطرى فى الحجرين المذكورين يذكر أنهما حد المسجد من جهة الشام و المغرب، قال: لكنهما ليسا على سمت المنبر الشريف، بل هما داخلان إلى جهة المشرق بمقدار أربعة أذرع أو أقل، و كذا متقدمان إلى القبلة بمثل ذلك، قال: لأنى اعتبرت ذلك بالذرع فوجدتهما ليسا على ذرع المسجد الأول.

قلت: كونهما داخلين عن سمت المنبر إلى جهة المشرق بما ذكر لا يقدح فى كونهما الحد المذكور؛ لأن المراد أن جهة المغرب هناك فى سمتهما، كما أن المراد أن جهة الشام فى سمتهما، لا أنها ما يحاذى الحجرين فقط، و وقع الاستغناء عن تحرير ابتداء جهة المغرب بما تقدم له نقلا عن ابن النجار من الأسطوانة التى تلى المنبر من تلك الجهة، كما استغنى بكون الحجرة الشريفة حده من جهة المشرق؛ إذ لم يذكر حد لجهة المشرق مما يلى الحجرين فى جهة الشام، و فى الحقيقة لم يقصد بهما سوى بيان جهة الشام، على أنه يحتمل أن مقدم المسجد كان أعرض من مؤخره كما هو موجود اليوم، فيكون الحجران حده من جهة المغرب حقيقة، و أما

قوله إنهما متقدمان إلى القبلة بأربعة أذرع و إنهما ليسا على ذرع المسجد الأول يعنى السبعين التى ذكرها ابن النجار فقد بناه على ما قاله أيضا من أن الدرابزينات التى ذكرها ابن النجار من جهة القبلة متقدمة على موضع الحائط القبلى؛ لأن الحائط القبلى كان محاذيا لمصلى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و إنما جعل هذا الصندوق الذى فى قبلة المصلى الشريف أى بين المصلى و الدرابزينات سترة بين المقام الشريف و بين الأسطوانات، قال: و ورد أيضا أنه كان بين الحائط القبلى و بين المنبر ممر الشاة، و بين

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۶۴

المنبر و الدرابزين اليوم مقدار أربعة أذرع و ربع ذراع، و المنبر لم يغير من جهة القبلة، و كذا المصلى الشريف، انتهى. فلم يعتبر الذرع من الدرابزينات.

و قد اختبرت أنا ذلك بنفسى من الدرابزينات المذكورة إلى الحجرين المذكورين فكان سبعين ذراعا بذراع اليد المتقدم ذكره، و قد قال ابن جماعة: إنه اختبر ذلك بذراع العمل فكان ستة و أربعين ذراعا و ثلثى ذراع؛ فهو موافق لذرعنا، بل يرجح قليلا؛ لأن ذراع العمل ذراع و نصف راجح من ذراع اليد.

و أما ما ذكره المراغى فى كتابه من الذرع فغير موافق لذرعنا؛ لأنه اعتمد فى ذلك كما صرح به على ذراع المدينة الشريفة اليوم، و قد اختبرته فوجدته يزيد على ذراع اليد الذى حررناه بأكثر من قيراط، و قول المطرى: «إن بين المنبر و الدرابزين اليوم مقدار أربعة أذرع و ربع» مخالف لما اختبرناه؛ فإن بينهما ثلاثة أذرع و نصف بالذراع الذى حررناه، لكن سيأتى أن المنبر اليوم ليس هو ذلك، و أنه قد اتضح لنا عند الحفر لتأسيس المنبر الرخام الآتى ذكره صحة ما قاله المطرى، و أن المنبر الذى أدركناه قدّم عن محل المنبر الأصلى لجهة القبلة أزيد من نصف ذراع، كما سنوضحه إن شاء الله تعالى.

و قد ذكر ابن زبالة و يحيى من طريقه نقلا عن غير واحد من أهل العلم تحديد المسجد الشريف من هذه الجهة فقالا: و علامته فى القبلة حروف المرمر الذى المنبر وسطه، و علامته من الشام أربعة طيقان من ناحية المشرق و المغرب، و علامة الطيفان الأربع أنهن مخضرات الأجواف بالفسيفساء كلهن.

قلت: و المرمر اليوم لا يظهر منه شىء. لكن يؤخذ من كلام ابن زبالة فى وصف هذا المرمر أنه كان دكة مرتفعة حول المنبر قدر الذراع، و أنه ممتد من المغرب قدر ثلاثة أذرع، و من المشرق ثلاثة، و من القبلة ثلاثة، فإنه قال: حدثنى محمد بن إسماعيل قال: رأيت طنفسة كانت لعبد الله بن حسن بن حسن تطرح قبالة المنبر على مرمر كان هناك، قال: فحبس عبد الله بن حسن سنة أربعين و مائة، و بقيت الطنفسة بعده أياما، ثم رفعت، قال: ثم إن الحسن بن زيد بن الحسن بن على رضى الله عنهم لما ولى المدينة سنة خمسين و مائة فى خلافة أبى جعفر نقض المرمر و وسعه من جوانبه كلها حتى ألحقه بالسوارى، فكلمه أبو مودود عبد العزيز بن أبى سليمان أن يدع له مصلاه فتركه و لم يلحق المرمر بالأساطين المقدمة؛ فالمرمر اليوم هو الذى عمل الحسن بن زيد، و المرمر الذى حول المنبر المرتفع عن المرمر الذى عمل الحسن بن زيد بين ستة أساطين ثلاثة أذرع من قبل القبلة و ثلاثة أذرع من قبل المشرق و ثلاثة أذرع من قبل المغرب، و هو مرتفع عن الأرض نحوا من ذراع، انتهى.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۶۵

و قال فى موضع آخر: عرض المرمر الذى حول المنبر ثمانية أذرع، و طوله ثمانى عشرة ذراعا، و سماه فى موضع آخر رخاما، و هو يطلق عليه لغة، و سيأتى ذكر هذه الدكة التى المنبر فى وسطها عن ابن النجار حيث قال: و ارتفاع الدكة التى المنبر عليها شبر و عقد، فكأن الكبس علا؛ فإنها كانت ذراعا فى زمن ابن زبالة، و فى زمن ابن النجار شبرا و عقدا، ثم علا الكبس فلم يوجد اليوم، و قد ظهر أثرها و أثر الرخام المذكور عند حفر ما حول المنبر الشريف، و شاهدت الرخام الذى فى قبلته كما سيأتى، و تلخص من هذا أن المرمر كان فى جهة القبلة ثلاثة أذرع بعد المنبر، و الظاهر أن عرض جدار المسجد الشريف أدخل فى ذلك من جهة القبلة؛ فقد روى يحيى فى ترجمة ما جاء فى زيادة الوليد أن عمر بن عبد العزيز أحضر رجالا من قريش فأروه مسجد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و

الذى زاد فيه عمر، و الذى زاد فيه عثمان، فعلم عمر بن عبد العزيز المسجد الأول الذى كان على عهد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فكان جدار القبلة من وراء المنبر ذراعا و أكثر من ذراع. و روى ابن زبالة أخبارا تتضمن أن جدار القبلة كان بينه و بين المنبر قدر ممر العنز، و فى العتبية ممر الرجل منحرفا، و فى الصحيح عن سهل: كان بين مصلى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و بين الجدار ممر الشاة.

و فيه أيضا عن سلمة: كان جدار المسجد عند المنبر ما كادت الشاة تجوزه؛ فتعين ما أشرنا إليه من إدخال جدار المسجد فى ذلك الممر الذى جعل علامة فى جهة القبلة، و أما الطاقات الأربع التى ذكرها علامة لنهاية المسجد من جهة الشام فغير معروفة اليوم، إلا أنه سيأتى فيما نقله المرجانى عن الحارث المحاسبى ما يبين محلها.

و أما الجواب على ما ذكر المطرى من كون الدرابزينات متقدمة فالظاهر أن ابن النجار فهم أن المراد إدخال عرض الجدار الذى كان موجودا فى زمنه صلّى اللّه عليه و سلّم لما تقرر عندنا من أن جدار المسجد من جملة المسجد، و يؤيده ما تقدم من التحديد بالمرمر من تلك الجهة، و ما سيأتى فى الفصل الثانى عشر من رواية أحمد عن نافع أن عمر رضى الله عنه زاد فى المسجد من الأسطوانة- أى التى عند المصلى الشريف- إلى المقصورة؛ لأن ذلك هو الرواق الذى بين الأساطين التى فى قبلة الروضة و بين الأساطين التى تليها فى القبلة. و قد قال المراغى: إن الذى ظهر له أن الصندوق الذى فى قبلة المصلى الشريف جعل فى مكان الجدار القديم، و يشهد له ما سيأتى عن يحيى فى ذرع ما بين المصلى الشريف و جدار القبلة اليوم، لكن عرض هذا الصندوق ذراعان، و بينه و بين الدرابزين أرجح من نصف ذراع، و ذلك فيما يظهر أزيد من عرض الجدار القديم بنحو الذراع؛ لأنى شاهدت لبنا أخرج من جدران الحجرة الشريفة فى العمارة التى أدركناها أولا يزيد فى الطول على الذراع، و عرضه نصف ذراع، و سمكه ربع ذراع، و فيه شىء مرتفع طوله و عرضه و سمكه واحد، و كل ثنتين منه طول لبنة مما قدمناه، و الذى يظهر أنه كان من بقايا لبن الحجرة

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۶۶

الشريفة التى كانت مبنية به أولا جعل للتبرك لأنه أتى غير مستو، و الجدار مبنى بالحجارة الوجوه المحكمة و بالقصة؛ فلا يناسبه وضع ذلك فيه، و لهذا جعل بين الحجارة الوجوه فى أعالى الجدار، و قد تقدم أن الذى استقر عليه عرض الجدار فى زمنه صلّى اللّه عليه و سلّم الأنثى و الذكر، و هما لبنتان مختلفتان، و اللبنتان المختلفتان من هذا اللبن الذى رأيناه أو اللبنة و نصف الأخرى و هو السعيدة يزيد على ذراع و نصف يسيرا، فيكون ذلك هو عرض الجدار فى زمنه صلّى اللّه عليه و سلّم و يشهد له ما شاهدناه أيضا فى عرض جدار الحجرة الشريفة على ما سنذكره، ثم اتضح الحال بظهور المرمر الذى فى قبلة المنبر؛ فإنا وجدنا بينه و بين الدرابزين المذكور أرجح من ذراع، و بينه و بين طرف محل المنبر الأصلى من جهة القبلة ثلاثة أذرع سواء، كما ذكر ابن زبالة، فذلك هو عرض الجدار مع ما كان بين المنبر و بينه.

و أما ما ذكره ابن النجار من التحديد بالأسطوانة التى تلى المنبر من جهة المغرب و أنها آخر البلاط و بالحجرة الشريفة من جهة المشرق؛ فالبلاط الذى ذكره لا يوجد اليوم، و كأنه يريد به الرخام الذى كان المنبر وسطه، و قد عبر عن ذلك ابن جماعة كما تقدم بقوله: من الحجرة إلى مكان السارية السابعة من جهة المغرب، فإن السابعة من صف الأساطين المذكورة هى التى تلى المنبر من المغرب إن عددنا الأسطوان الملاصق للحجرة، و لم أر لما ذكره ابن جماعة مستندا فى كلام المؤرخين سوى ما ذكره ابن النجار؛ فيتعين الحمل على الأسطوانة المذكورة، و قد ذرعت ما بين الأسطوانة التى تلى المنبر عند ظهره من المغرب إلى حائز عمر بن عبد العزيز الذى داخله الحجرة الشريفة بمقط؛ فكانت مساحته سبعة و خمسين ذراعا و نصف ذراع راجح، و عرض الحائز المذكور ذراع و ربع راجح، كما تحرر لى عند عمارة ما نقض منه، و ليس بينه و بين جدار الحجرة من هذه الجهة فضاء أصلا، بل هو لاصق به ليس بينهما مغرز إبرة خلاف ما ذكره المؤرخون؛ فيكون ما بين الأسطوانة المذكورة و الحجرة الشريفة تسعة و خمسون ذراعا ينقص يسيرا، و كأن ابن النجار جرى على قول من تقدمه من المؤرخين فى أن بين الحائز و جدار الحجرة فضاء من هذه الجهة، و ظن أن عرض

الحائر أكثر مما ذكرناه؛ فجعل نهايـة قولهم فى عرض المسـجد ستين ذراعا أو يزيـد إلى الأسـطوانة التى تلى المنبر أو أن ذلك القـدر الناقص لتفاوت الأذرعـة، على أن الظاهر أن ابن جماعة لم يعتبر الأسـطوانة اللاصـقة بالحجرة، و أنه جعل السارية السابعة هى التى تلى الساريـة التى تلى المنبر فى جهـة المغرب، و هى الثانية من المنبر فى تلك الجهة، فإنه قال: إنه ذرع ما بين الأسـطوانة السابعة إلى حائر الحجرة الشريفة فكان ذلك اثنين و أربعين ذراعا و ثلثى ذراع بذراع العمل.

قلت: و قد اعتبرت ما ذكره من الذرع بذراع العمل فرأيته ينتهى إلى الأسطوانة الثانية

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۶۷

من المنبر فى جهة المغرب، و ذرعته بذراع اليد الذى حررناه فكان خمسا و ستين ذراعا، و هو مطابق لما قاله ابن جماعة و لما اختبرناه بـذراع العمل؛ لأن ذراع العمل ذراع و ثلث من ذراع الحديـد المسـتعمل بمصـر، و ذلك اثنان و ثلاثون قيراطا، و الذراع الذى حررناه أحد و عشـرون قيراطا، فذراع العمل ذراع و نصف قيراط بالذراع الذى حررناه، و قد مال المراغى إلى اعتبار التحديد بهذه الأسطوانة- أعنى الثانية من المنبر- فإنه ذكر عدم وجود البلاط اليوم، ثم قال: لكنى اعتبرت ذرعه من المشـرق إلى المغرب على روايـة يحيى ثلاثة و ستين، و هى من أقل الروايات؛ فكان من جدار الحجرة الشريفة يعنى الحائر الظاهر إلى الأسطوانة الثانية من المنبر لا التى بعده ستون ذراعا تقريبا، قال: و على هذا يكون عرض جدار عمر بن عبد العزيز و ما بينه و بين جدار الحجرة الشـريفة الأصـلى ثلاث أذرع تقريبا، انتهى. و لا يخفى ما فهم؛ لأنه جعل المسافة المذكورة ستين ذراعا تقريبا و هى خمسة و سـتون تحريرا، و تبع من تقدمه من المؤرخين فى ثبـات فضـاء بين حـائر عمر بن عبـد العزيز و جـدار الحجرة، فخمن أن ذلـك مع عرض الحائر ثلاثـة أذرع، و قـد علمت أن عرض الحائر ذراع و ربع يرجح يسيرا، و ليس بينه و بين جدار الحجرة شىء.

و قد روى ابن زبالة و يحيى من طريقه أشـياء فى تحديد المسجد و ذرعه يقتضى أن جدار المسجد الشريف فى زمنه صلّى اللّه عليه و سلّم من جهـة المشـرق لم ينته إلى حـائر عمر بن عبـد العزيز، بل الحائر و بعض ما يليه من المغرب فى موضع حجرة عائشـة رضـى الله عنها، و أن جـدار حجرة عائشـة كان فيما بين الأساطين اللاصـقة بجـدار القبر و بين الأساطين التى بينها المقصورة الدائرة على الحجرة الشـريفة، و أنه صـلّى اللّه عليه و سلّم كان قد بنى المسجد أولا و جعله ثلاث أساطين عن يمين المنبر فى المغرب و ثلاث أساطين عن يساره فى المشـرق، و أن نهايته من جهة المشـرق كانت أولا أسطوان التوبة؛ لأنها تكون فى موضع الجدار بعد الأساطين الثلاث، و أن مساحة ذلك من المشرق إلى المغرب ثلاث و ستون ذراعا، و قيل:

خمس و خمسون، و أنه زاد فيه بعد ذلك من المشـرق و المغرب، و مع ذلك لم ينته زيادته فى المشرق إلى موضع حائر عمر بن عبد العزيز، و أنه لم يزد فيه من جهة القبلة و لا من جهة الشام.

قلت: و هو موافق لما روى أنه كان مائة ذراع كما سنبينه، و يرجحه عندى أن المنبر الشريف يكون حينئذ متوسطا للمسجد؛ إذ يبعد أنه صلّى اللّه عليه و سـلّم لا- يتوسـط أصـحابه و يقف على منبر فى طرفهم، و كون المسـجد النبوى لا ينتهى إلى موضع حائر عمر بن عبد العزيز كما قدمناه خلاف ما عليه متأخرو المؤرخين، لكنه حسن؛ إذ يبعد أن يا بنى عمر بن عبد العزيز حائزه فى شـىء من المسـجد، و ينتقص الروضة الشريفة به، حاشاه من ذلك، و الذى صح

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۶۸

أن محل القبور الشـريفة فى صـفة بيت عائشـة، و لا بـد للصـفة من مرافق، فيظهر أن الحائط الذى فى جوف الحائر هو حائط الصـفة، و الحائر فيما خرج عنها من بقية البيت.

ثم ظفرت فى كلام المرجانى نقلا عن الحارث المحاسبى بما يصـرح بذلك، لما سـيأتى من أنه ذكر فى تحديد المسـجد ستة أساطين من جهة شرقى المنبر، ثم قال:

و الروضة ما بين القبر و المنبر، فما كان منها فى الأسـطوانة السادسة التى حددت لك عن يمين المنبر فليس من المسـجد الأول، و إنما

كان من حجرة عائشة رضى الله عنها فوسع به المسجد، و هو من الروضة، انتهى.

و لنورد عبارة ابن زبالة فإن يحيى روى ذلك عنه من غير زيادة و لا مخالفة مع ما فيها من أشياء لا تعرف اليوم، و لكن إفادة هذه الأمور الغريبة التى لم يذكرها متأخرو المؤرخين اقتضت إيرادنا لذلك فنقول: أسند ابن زبالة عن عبيد بن عمر بن حفص بن عاصم أن مسجد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم كان ثلاث أساطين مما يلى المشرق، و ثلاث أساطين مما يلى المغرب، سوى ما خرج فى الرحبة أى الأساطين المصفوفة من الرحبة إلى القبلة، و لو لا ما سيأتى من التصريح بأن هذه الست كانت ثلاثة منها على يمين المنبر و ثلاثة عن يساره- يعنى فى البناء الأول- لحملنا ذلك على أن ابتداء هذه الست من الأسطوانة التى تلى المنبر؛ فيكون نهايتها الأسطوان التى يلى أسطوان التوبة، و يكون جدار الحجرة بعدها، فيوافق التحديد المتقدم، لكنه قال عقبه: و قال جمهور الناس من أهل العلم و غيرهم: هو إلى الفرضتين اللتين فى الأسطوانتين اللتين دون المربعتين الغربية و التى فى القبر.

قلت: لا تعرف اليوم فى المسجد القديم مربعة غربية، غير أن الذى ظهر لى- من مقابلتها بمربعة القبر و مما سيأتى فى بيان الحائز الذى عمل لمنع ماء المطر أن يغشى المسقف القبلى- أنها الأسطوانة العظيمة المثمنة اليوم فى المسقف القبلى، فإنها كانت ركن رحبة المسجد فى هذا المسقف من جهة المغرب، كما أن مربعة القبر كانت ركن الرحبة فى جهة المشرق، قبل زيادة الرواقين اللذين ذكرهما فى المسقف القبلى كما يؤخذ من مواضع فى كلام ابن زبالة و يحيى، و الذى يظهر أن تثمين الأسطوانة المذكورة حادث، و إنما كانت مربعة، كما ثمنوا ما ظهر من مربعة القبر و ما يلى الحجرة منها باق على تربيعه، و مربعة القبر هى التى فى نهاية الصفحة الغربية من الحائز الدائر على الحجرة من جهة الشام، و تعرف بأسطوان مقام جبريل عليه السلام كما سيأتى إيضاحه، و الأسطوان التى دونها هى الملاصقة بالشباك الدائر على الحجرة اليوم، و هى بين المربعة و بين أسطوان الوفود؛ فيكون جدار الحجرة على هذا كان فيما بين مربعة القبر و التى يليها.

قال ابن زبالة عقب ما قدمناه عنه: و احتجوا بأن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم كان يعتكف فى

المسجد فى موضع مجلس بنى عبد الرحمن بن الحارث، و أن عائشة رضى الله عنها كانت ترجل رأسه و هو معتكف فى المسجد و هى فى بيتها، و كان مالك بن أنس يقول: الجدار من المشرق فى حد القناديل التى بين الأساطين التى فى صفها أسطوان التوبة و بين الأساطين التى تلى القبر، و أرفه عمر بن عبد العزيز من ورائها فى الأسطوانة التى تلى القبر.

قلت: ما نقله عن مالك صريح فيما قدمناه من أن جدار المسجد الشرقى كان فيما بين الأساطين اللاصقة بالقبر و بين الأساطين المقابلة لها؛ فيكون فى محاذاة القناديل الآخرة من القبلة إلى الشام فيما بين هذه الأساطين، و يكون عمر بن عبد العزيز أخره إلى الأسطوان اللاصق بجدار القبر، و سيأتى ما يصرح بذلك من كلام المحاسبى أيضا و أما قوله: «و احتجوا إلى آخره» فوجه الاحتجاج أن معتكفه صلّى اللّه عليه و سلّم كان لاصقا بحجرته، بحيث إن عائشة رضى الله عنها كانت ترجل رأسه و هو فى معتكفه و هى فى بيتها، و لهذا أورد ابن زبالة عقبه حديث «كان يدنو منى و أنا حائض فأرجله و هو فى المسجد» و مجلس بنى عبد الرحمن بن الحارث الذى ذكره ابن زبالة لا يعرف اليوم، و روى ابن زبالة و يحيى فى بيان معتكفه صلّى اللّه عليه و سلّم أشياء سنذكرها إن شاء الله تعالى، و المناسب لما نحن فيه منها: أنه كان للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم سرير من جريد فيه سعفه يوضع بين الأسطوان التى و جاه القبر و بين القناديل، كان يضطجع عليه صلّى اللّه عليه و سلّم و قوله: «التى و جاه القبر» يريد به المواجهة له، و هى اللاصقة بشباك الدائر على الحجرة اليوم فى صف أسطوان التوبة، بل قيل: إنها أسطوان التوبة كما سيأتى، و هذا مطابق لما ذكره مالك من أن الجدار كان فى حد القناديل المذكورة.

و أسند ابن زبالة أيضا عن غير واحد من أهل العلم أن مسجد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم كان ثلاث أساطين عن يمين المنبر و أنت مستقبل القبلة فى موضع معتكف حسن بن زيد الذى كان يعتكف فيه، و من الشق الآخر إلى أسطوان التوبة، و كان ذرعه من

المشرق إلى المغرب ثلاثة و ستين ذراعا، و قال عبد الرحمن بن سعد عن أشياخه: كان خمسين فى خمسين.

قلت: فيكون الحجر التى فى شرقى المسجد أدخلت بعد أو بعضها فى الزيادة الآتية أو أنها لم تستقر فى شرقيه إلا بعد ذلك.

ثم قال ابن زبالة: قالوا: و علامة مسجد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم- أى الذى بنى عند مقدمه من مكة- و ذكر علامات كانت فى السقف المحترق و الفسيفساء التى زالت فلا تعرف اليوم، ثم قال: و علامة مسجد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم الذى بنى عند مقدمه من خيبر قالوا: ترك رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم المسجد من القبلة فى تلك البنية فى حده الأول، و زاد فيه من ناحية

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۷۰

المشرق إلى الأسطوان التى دون المربعة التى عند القبر، و علامة تلك الأسطوان أن لها نجافا طالعا فى الرحبة من بين الأساطين، و من المغرب إلى الأسطوان التى تلى المربعة التى لها نجاف أيضا من بين الأساطين، و ظهر ذلك أى حد المسجد بحجارة، و عبارة يحيى: و قد صمد بحجارة تحت الحصباء، منها أرفة عند الأسطوان التى بين أسطوان التوبة و بين القبر فى صف الأسطوان التى لها نجاف، و من المغرب مثل ذلك بأرفة حجارة فى الأرض مبنية، و ترك مما يلى الشام لم يزد فيه، انتهى كلام ابن زبالة بحروفه.

و قوله: «و من المغرب مثل ذلك» أى ظهر الحد بأرفة حجارة فى الأرض، و لا أدرى معنى قوله بأرفة.

و ذكر ابن زبالة أيضا فى موضع آخر ذرع مسجد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم الذى كان فى زمنه، يعنى ما استقر عليه فى آخر الأمر، ثم قال: وحده من شرقى المنبر أربع أساطين، و من غربيه أربع أساطين، انتهى.

و العجب من ابن النجار فمن بعده من المؤرخين حيث لم يتعرضوا لهذا، لكن ابن النجار اعتذر فى أول كتابه بأنه كان مجاورا بالمدينة، و لم تكن كتبه حاضرة عنده، و ذكر ما يقتضى أنه كتب ذلك مما علق بفكره، و المطرى جرى على منواله، و ابن زبالة و يحيى عمدة فى ذلك؛ فإنهما أقدم من أرخ للمدينة لأن ابن زبالة هو محمد بن الحسن أحد أصحاب الإمام مالك بن أنس، و يؤخذ من كلامه أنه وضع كتابه فى صفر سنة تسع و تسعين و مائة، و أما يحيى فهو من أصحاب أصحابه، و كانت وفاته سنة سبع و سبعين و مائتين عن ثلاث و ستين سنة، و أما ابن شبة فكان معاصرا ليحيى و قبله بيسير، و لم أظفر من كتابه بهذا المحل المشتمل على ذكر المسجد، و لو ظفرت به لكان الشفاء؛ فإنه يوضح الأمور إيضاحا تاما، و هو إمام ثقة، و ابن زبالة و إن كان ضعيفا لكن اعتضد بموافقة يحيى له و روايته لكلامه من غير تعقيب.

ثم ظفرت فى كلام المرجانى نقلا عن المحاسبى بما يوافق كلامه؛ فهو العمدة عندى.

قال المرجانى: قال الحارث بن أسد المحاسبى: حد المسجد الأول ستة أساطين فى عرضه عن يمين المنبر إلى القناديل التى حذاء الخوجة، و ثلاث سوار عن يساره من ناحية المنحرف منه، و منتهى طوله من قبلته إلى مؤخره حذاء تمام الرابع من طيقان المسجد

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۷۱

اليوم: أى فى زمنه، و ما زاد على ذلك فهو خارج عن المسجد الأول، قال- يعنى المحاسبى- و قد روى عن مالك أنه قال: مؤخر المسجد بحذاء عضادة الباب الثانى من الباب الذى يقال له باب عثمان، أعنى العضادة الآخرة السفلى، و هو أربع طيقان من المسجد، ثم قال: و الروضة ما بين القبر و المنبر، إلى آخر ما قدمناه عنه.

و قوله «عن يمين المنبر» أى فى جهة المشرق، لما سبق عنه خلاف ما تقدم فى كلام ابن زبالة، فإنه عنى يمين مستقبل المنبر، و الطيقان التى ذكرها لها ذكر فى كلام ابن زبالة و يحيى كما تقدم، و هى غير موجودة اليوم، و الباب الثانى من باب عثمان هو المعروف اليوم بباب النساء؛ فهو صريح فى رد ما تقدم من تحديد جهة الشام بالحجرين الموجودين اليوم فى صحن المسجد، و مؤيد للرواية المتقدمة فى الذرع، و هى رواية مائة ذراع فى مائة ذراع؛ لأنه يقرب من ذلك.

و قد تحصلنا من هذا مع ما تقدم عن المتأخرين على خلاف فى نهاية المسجد النبوى من جهة المغرب.

فأحد الأقوال:

أنه إلى الأسطوانة التى تلى المنبر من تلك الجهة، و هو الذى عوّل عليه ابن النجار و من اتبعه.

و الثانى:

أنه إلى التى تليها، و هى الثانية من المنبر من تلك الجهة أيضا، و هما بعيدان.

و الثالث:

أنه إلى الأسطوانة الثالثة من المنبر فى تلك الجهة، و قد اقتضى كلام ابن زبالة أن ذلك حد المسجد قبل زيادة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فيه، خلاف ما يظهر من كلام المحاسبى.

و الرابع:

أنه إلى الأسطوانة الرابعة من المنبر؛ لما تقدم من أنه كان على ثلاثة أساطين عن يمين المنبر؛ فيكون جداره الغربى فى موضع الأسطوانة الرابعة فى صفها من جهة القبلة أسطوان مربع من أسفله عن الأرض بقدر الجلسة، و فى صفه من جهة الشام أسطوان محراب الحنفية المحدث.

و الخامس:

أنه إلى الأسطوانة الخامسة من المنبر؛ لما تقدم من أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم زاد فيه بعد فتح خيبر من جهة المغرب بقدر أسطوان آخر، كما يؤخذ مما تقدم، و لما صرح به ابن زبالة كما قدمناه أيضا حيث قال فى حده: و عن غربيه أربع أساطين؛ فينتهى حده إلى الأسطوانة الخامسة من المنبر، و هى التى تلى الأسطوانة المذكورة فى جهة المغرب فى صفها، و هى مربعة من أسفلها بقدر الجلسة أيضا، و فى صفها من جهة الشام الأسطوان التى تلى محراب الحنفية من جهة المغرب، فهاتان المربعتان هما اللتان يتردد فيما يكون منهما فى موازاة حد المسجد النبوى من جهة المغرب، و قد ذهب تربيعهما فى العمارة

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۲۷۲

المتجددة فى زماننا بعد الحريق؛ و المربعة الثانية- أعنى الخامسة من المنبر- هى التى يترجح عندى أيضا؛ لأن تجاهها فى حائط القبلة طراز آخذ من السقف نازل إلى العصابة السفلى الظاهرية، لكنه انقشر بعضه عند إصلاح العصابة العليا و تبييض الجدار فى العمارة التى أدركناها أولا، و ذهب منه ما كان بين العصابتين، و بعض ما فوق العليا، و بقى منه ما بين العصابة العليا و السقف، ثم ذهب بقيته فى الحريق الحادث فى زماننا، و بقى موضعه أصباغ ملونة فى الجدار من صناعة الأقدمين، و قد ذهب ذلك عند هدم الجدار القبلى؛ فالظاهر أنه علامة نهاية المسجد النبوى من هذه الجهة، خلاف ما سيأتى عن المطرى فى جعله علامة لنهاية زيادة عثمان رضى الله عنه؛ لوجوه:

الأول: أنى ذرعت من الأسطوان التى المنبر إلى الأسطوان المحاذية لهذا الطراز؛ فكان ذلك سبعا و ثلاثين ذراعا، فإذا أضفنا ذلك إلى الذرع المتقدم فيما بين الأسطوان التى تلى المنبر و بين الحجرة الشريفة، و هو نحو الستين ذراعا كما تقدم، قارب ذلك المائة التى تقدمت الرواية بها.

الثانى: أنه يبعد أن يجعل هذا الطراز لزيادة عثمان رضى الله عنه كما زعمه المطرى، و يترك التعليم للمسجد الأصلى و الاعتناء به أشد. و قد قال ابن زبالة: إن له علامات فى الفسيفساء، و الظاهر أن الفسيفساء لما زالت جعل هذا بدلها.

الثالث: أنه سيأت أن عمر لما زاد فى المسجد جعل عرضه مائة و عشرين ذراعا، و أنه لم يزد فيه من جهة المشرق شيئا؛ فيكون نهاية المسجد فى زمنه من جهة المشرق الحجرة الشريفة، و قد علمت أن من الحجرة الشريفة إلى ما يحاذى الطراز المذكور ينقص عن المائة، فكيف يكون نهاية زيادة عثمان؟ و عثمان قد زاد أسطوانا من جهة المغرب على زيادة عمر، فلو كان ذلك الطراز نهاية زيادة عثمان لزم أن يكون عرض المسجد فى زمن عمر نحو التسعين، و لا قائل به.

الرابع: أنه سيأتى أن عثمان رضى الله عنه لم يزد فى جهة المغرب غير أسطوانة واحدة، و أن زيادة الوليد من المغرب أسطوانتان، و لا شك أن من الأسطوانة التى تحاذى الطراز المذكور إلى جدار المسجد الغربى خمس أساطين، فإذا سقط منها ثلاث أساطين لعثمان رضى الله عنه و للوليد بقى أسطوانتان لزيادة عمر رضى الله عنه، و هما يقربان من عشرين ذراعا التى زادها عمر رضى الله عنه على المائة كما سيأتى.

الخامس: أن موضع المنبر لم يغير كما سيأتى، و يبعد كل البعد أن يجعل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم موضع منبره فى طرف مسجده و لا يتوسط أصحابه فى حال قيامه.

السادس: أنه سيأتى أن عمر رضى الله عنه زاد فى المسجد شيئا من دار العباس و أن

ما بقى منها زاد عثمان رضى الله عنه بعضه، و ما بقى دخل فى دار مروان بن الحكم.

و روى يحيى فى قصة زيادتها ما يصرح بأنها كانت ملاصقة بجدار المسجد النبوى، بل روى أنه كان لها ميزاب يصب فيه، و قد نقل يحيى أنها كانت فيما بين الأسطوان المربعة التى تلى دار مروان بن الحكم، أى و الباب الذى يلى دار مروان بن الحكم؛ لما تقدم من دخول بعضها فى دار مروان؛ فوجب أن تكون المربعة المذكورة أول دار العباس و آخر المسجد النبوى.

السابع: ما قدمناه من أن المربعة الغربية إذا أطلقت، فالمراد بها الأسطوانة التى كانت ركن صحن المسجد فى المغرب عند نهاية المسقف القبلى قبل زيادة الرواقين الآتيين فيه، و هى المثمنة اليوم؛ فهى المرادة بما تقدم عن الجمهور من أن المسجد النبوى كان إلى الفرضتين اللتين فى الأسطوانتين اللتين دون المربعتين الغربية و التى فى القبر كما نقله ابن زبالة، و لا شك أن الأسطوانة الخامسة من المنبر فى جهة المغرب دون المربعة المذكورة؛ لأن المربعة المذكورة هى السادسة من المنبر، فوضح أنها المراد بذلك، فيكون الجمهور على رواية أن المسجد كان مائة فى مائة، و مما يرجح هذه الرواية أيضا ما تقدم عن المحاسبى من تحديد مؤخر المسجد الأول نقلا عن مالك بعضادة الباب الثانى من باب جبريل- و هو باب النساء- و ما سيأتى من أن باب الرحمة- و يعرف بباب عاتكة- لم يغيره عمر رضى الله عنه، يعنى أنه نقله فأخره فقط و جعله فى تجاه الباب الأول، لأنه زاد فى المسجد من جهة المغرب، و بين باب الرحمة و بين الحجرين اللذين ذكر أنهما حد المسجد من جهة الشام تفاوت ظاهر؛ لتأخره عن موازاتهما كثيرا، و كأنهما إنما جعلا هناك تميزا لفوهتى بالوعة عندهما الحجران المذكوران هناك؛ فالذى يترجح فى النقد رواية المائة و ما ذكرناه من التحديد، و يحتمل أن ابن النجار لما رأى اختلاف الروايات أراد الأخذ بالأقل لأنه المحقق فذكر التحديد المتقدم، و تبعه من بعده، على أنه اعتذر فى أول كتابه بغيبة كتبه، و أن الحفظ قد يزيد و ينقص، و لما اتضح ذلك للمقر الشجاعى شاهين الجمالى ناظر الحرم الشريف النبوى و شاد عمائره و شيخ خدامه اتخذ لأعالى الأسطوانة الخامسة من المنبر من صف الأساطين التى فى قبلة المنبر طرازا متصلا بالسقف منقوشا فيه أن ذلك هو الذى استقر عليه الأمر فى نهاية المسجد النبوى وحده، فالله تعالى يوفقه للمداومة على حفظ الحدود، و يلحقه بالمقر بين الشهود.

و يتفرع على ذلك مسألة ذكرها النووى فقال فى شرح مسلم و المناسك و غيرهما: إن الصلاة إنما تتضاعف فى المسجد الذى كان فى زمنه صلّى اللّه عليه و سلّم دون بقية الزيادات، و لم يحك غيره، لكن الخطيب بن حملة نقل عن المحب الطبرى أن المسجد المشار إليه فى حديث

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۷۴

المضاعفة هو ما كان فى زمنه صلّى اللّه عليه و سلّم مع ما زيد فيه، لأخبار و آثار وردت فى ذلك، و استحسنه ابن حملة على ما ذهب إليه النووى فى كتبه من التخصيص، مع أن البرهان ابن فرحون نقل فى شرحه لابن الحاجب الفرعى أنه لم يخالف فى هذه المسألة غير النووى، و أن الشيخ محب الدين الطبرى نقل فى كتابه الإحكام أن النووى رجع عن ذلك، قال: و نقل أبو عبد اللّه بن فرحون فى شرح مختصر الموطأ أنه وقف على كتاب من كتب المالكية فيه أن مالكا سئل عن ذلك فقال: ما أراه عليه السلام أشار بقوله: «فى مسجدى هذا» إلا لما سيكون من مسجده بعده، و أن اللّه أطلعه على ذلك، انتهى.

قلت: أما قوله «إنه لم يخالف فى ذلك إلا النووى» فممنوع؛ فقد نقل ذلك ابن الجوزى فى الوفاء عن ابن عقيل الحنبلى، و أما ما نقله عن الإحكام للطبرى فقد راجعتها فرأيته ترجم لبيان أن مسجده صلّى اللّه عليه و سلّم المشار إليه بالتفضيل هو الموجود فى زمنه مع ما زيد فيه، و أورد بعض الأخبار الآتى ذكرها فى آخر الفصل الثانى عشر، ثم قال: و قد يتوهم بعض من لم يبلغه ذلك قصر الفضيلة على الموجود فى زمنه صلّى اللّه عليه و سلّم لمكان الإشارة، و قد وقع ذلك لبعض أئمة العصر، فلما رويت له ما سبق جنح إليه و تلقاه بالقبول، انتهى.

فكأن ابن فرحون فهم أن المراد من قولهم «بعض أئمة العصر» النووى.

و أما ما حكاه عن مالك فقد نقله الأقشهرى فى روضته عن عبد اللّه بن نافع صاحب مالك عن مالك، و لفظه فى أثناء كلام: قيل له- أى لمالك- فحد المسجد الذى جاء فيه الخبر هو على ما كان فى عهد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أو على ما هو الآن؟ قال: بل هو على ما هو الآن، قال: لأن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أخبر بما يكون بعده، و زويت له الأرض فأرى مشارقها و مغاربها، و تحدث بما يكون بعده، فحفظ ذلك من حفظه فى ذلك الوقت، و نسى ذلك من نسيه، و لو لا هذا ما استجاز الخلفاء الراشدون المهديون أن يزيدوا فيه بحضرة الصحابة و لم ينكر عليهم ذلك منكر، انتهى.

قلت: و متمسك من ذهب إلى التخصيص الإشارة فى قوله «مسجدى هذا» و لعله صلّى اللّه عليه و سلّم إنما جاء بها ليدفع توهم دخول سائر المساجد المنسوبة إليه بالمدينة غير هذا المسجد، لا لإخراج ما سيزاد فيه، و قد سلّم النووى أن المضاعفة فى المسجد الحرام تعم ما زيد فيه، فليكن مسجد المدينة كذلك، كما أشار إليه ابن تيمية، قال: و هو الذى يدل عليه كلام الأئمة المتقدمين و عملهم، و كان الأمر عليه فى عهد عمر و عثمان رضى اللّه عنهما، فإن كلّا منهما زاد فى قبلة المسجد، و كان مقامه فى الصلوات الخمس فى الزيادة و كذلك مقام الصف الأول الذى هو أفضل ما يقام فيه، و يمتنع أن تكون الصلاة فى غير مسجده أفضل منها فى مسجده، و أن يكون الخلفاء و الصفوف الأول كانوا يصلون فى غير مسجده، قال:

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۷۵

و ما بلغنى عن أحد من السلف خلاف هذا، إلا أن بعض المتأخرين ذكر أن الزيادة ليست من مسجده، و ما علمت له سلفا فى ذلك.

و سيأتى فى زيادة عمر بن الخطاب ما ورد من الأخبار و الآثار المقوية لذلك و ليست مسألة الحلف على أن لا يدخل هذا المسجد فزيد فيه من هذا القبيل، لأن الأيمان مبناها على العرف.

الفصل الثالث فى مقامه الذى كان يقوم به صلّى اللّه عليه و سلّم فى الصلاة قبل تحويل القبلة، و بعد ما جاء فى تحويلها

اشارة

روينا فى البخارى عن البراء بن عازب رضى اللّه عنه قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يصلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا، و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يحب أن يوجه إلى الكعبة، فأنزل اللّه تعالى: قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ

[البقرة: ۱۴۴] فتوجه نحو الكعبة و قال السفهاء من الناس و هم اليهود: ما وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِی کانُوا عَلَیْها قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ [البقرة: ۱۴۲] فصلی مع النبی صلّی اللّه علیه و سلّم رجل، ثم خرج بعد ما صلی، فمر علی قوم من الأنصار فی صلاة العصر نحو بیت المقدس فقال: هو یشهد أنه صلّی مع رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم و أنه توجه نحو الکعبة، فتحرف القوم حتی توجهوا نحو الکعبة.

و أسند یحیی عن ابن عباس قال: کان رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم إذا وقف یصلی انتظر أمر الله فی القبلة، و کان یفعل أشیاء مما لم یؤمر بها و لم ینه عنها من فعل أهل الکتاب، قال:

فبینما رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم یصلّی، فأشار له جبریل: یا محمد صلّ إلی البیت، و صلّی جبریل علیه السلام إلی البیت، قال: فدار النبی صلّی اللّه علیه و سلّم إلی البیت، قال: فأنزل الله تعالی: قَدْ نَری تَقَلُّبَ وَجْهِکَ فِی السَّماءِ فَلَنُوَلِّیَنَّکَ قِبْلَةً تَرْضاها إلی وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا یَعْمَلُونَ [البقرة:

۱۴۴] قال: فقال المنافقون: حن محمد إلی أرضه و قومه، و قال المشرکون: أراد محمد أن یجعلنا له قبلة، و أن یجعلنا له وسیلة، و عرف أن دیننا أهدی من دینه، و قالت الیهود للمؤمنین: ما صرفکم إلی مکة و ترکتم قبلة موسی و یعقوب و الأنبیاء؟ و الله ما أنتم إلا تعبثون، و قال المؤمنون: لقد ذهب منا قوم ماتوا ما ندری أ کنّا نحن و هم علی قبلة أم لا؟

فأنزل الله تعالی فی ذلک: سَیَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ إلی قوله: إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِیمٌ [البقرة: ۱۴۲- ۱۴۳].

و روی ابن زبالة عن عثمان بن عبد الرحمن قال: کان رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم إذا وقف یصلی انتظر أمر الله فی القبلة، و کان یفعل أشیاء مما لم یؤمر بها و لم ینه عنها من فعل أهل

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفی، ج ۱، ص: ۲۷۶

الکتاب، فبینا رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم یصلی الظهر فی مسجده قد صلّی رکعتین إذ نزل علیه جبریل فأشار إلیه أن صلّ إلی البیت، و صلّی جبریل إلی البیت، و ذکر نحو ما تقدم.

و أسند یحیی عن رافع بن خدیج قال: صلی رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم رکعتین من الظهر فی مسجده بالمسلمین، و أمر أن یوجّه إلی المسجد الحرام، فاستدار، قال رافع: فأتانا آت و نحن نصلی فی بنی عبد الأشهل فقال: إن رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم قد أمر أن یوجه إلی الکعبة، قال: فأدارنا إمامنا إلی الکعبة و درنا معه.

و عن ابن عمر قال: بینما نحن فی صلاة الصبح بقباء جاءهم رجل فقال: إن رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم قد أنزل علیه اللیلة قرآن، و قد أمر أن یستقبل الکعبة، ألا فاستقبلوها، و کانت قبلة الناس إلی الشام، فاستداروا و توجّهوا إلی الکعبة، و هو فی الصحیحین بلفظ: کانت وجوههم إلی الشام، فاستداروا إلی الکعبة، و فی لفظ: کانوا رکوعا فی صلاة الصبح.

و عن عثمان بن محمد بن الأخنس أنه صلّی اللّه علیه و سلّم صلّی بأصحابه فیه- یعنی فی مسجد القبلتین- الظهر، فلما صلّی رکعتین أمر أن یوجه إلی الکعبة، فاستدار رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم إلی الکعبة، و استقبل المیزاب.

و عنه أیضا نحوه، و أن الفریضة کانت الظهر، و أنها یومئذ کانت أربع رکعات.

و عن سعید بن المسیب قال: صلی رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم إلی بیت المقدس سبعة عشر شهرا، و صرفت القبلة قبل بدر بشهرین، و الثبت عندنا أنها صرفت فی الظهر فی مسجد القبلتین.

و فی روایة أخری عنه: صلی رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم بعد أن قدم المدینة نحو بیت المقدس ستة عشر شهرا، ثم حولت القبلة قبل بدر بشهرین.

و عن کثیر بن عبد الله المزنی عن أبیه عن جده قال: صرفت القبلة یوم الإثنین النصف من رجب علی رأس سبعة عشر شهرا.

و فی مسلم عن البراء بن عازب: صلّیت مع النبی صلّی اللّه علیه و سلّم إلی بیت المقدس ستة عشر شهرا حتی نزلت الآیة التی فی

البقرة: وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ [البقرة: ۱۴۴] فنزلت بعد ما صلّى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فانطلق رجل من القوم فمر بناس من الأنصار و هم يصلون، فحدثهم بالحديث، فولّوا وجوههم قبل البيت.

تاريخ تحويل القبلة

و فى رواية له عنه أيضا: ستة عشر شهرا، أو سبعة عشر شهرا، على الشك.

و عند الزمخشرى: صرفت القبلة و رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم فى مسجد بنى سلمة- يعنى مسجد

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۷۷

القبلتين- و قد صلى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر، فتحول فى الصلاة، و استقبل الميزاب، و حول الرجال مكان النساء و النساء مكان الرجال.

و روى ابن أبى حاتم فى تفسيره من طريق تويلة بنت أسلم قالت: صليت الظهر و العصر فى مسجد بنى حارثة، فاستقبلت مسجد إيلياء، فصلينا سجدتين: أى ركعتين، ثم جاءنا من يخبرنا أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قد استقبل البيت الحرام، فتحول النساء مكان الرجال، و الرجال مكان النساء، فصلينا السجدتين الباقيتين إلى البيت الحرام.

قال الحافظ ابن حجر: و هذه القصة المرادة بقوله فى الحديث المتقدم «فمر على قوم من الأنصار يصلون فى صلاة العصر نحو بيت المقدس» فهؤلاء القوم هم بنو حارثة، و المار عباد بن بشر، و وصل الخبر وقت الصبح إلى أهل قباء، فلا منافاة بين الحديثين.

و سيأتى فى مسجد القبلتين أن ابن زبالة نقل أن القبلة صرفت و نفر من بنى سلمة يصلون الظهر فى مسجد القبلتين، فأتاهم آت فأخبرهم و قد صلوا ركعتين فاستداروا حتى جعلوا وجوههم إلى الكعبة، فبذلك سمى مسجد القبلتين.

قال المجد: فعلى هذا كان مسجد قباء أولى بهذه التسمية.

مدة الصلاة إلى بيت المقدس

و عند أبى القاسم القشيرى فى لطائف التفسير: صلى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم إلى بيت المقدس بعد قدومه المدينة مهاجرا ستة عشر شهرا عن قتادة، و قيل: سبعة عشر شهرا عن ابن عباس، و قال أنس: كان تسعة أشهر أو عشرة أشهر، و قال معاذ بن جبل: ثلاثة عشر شهرا استمالة لقلوب اليهود أن يصلى إلى قبلتهم ربما يرغبون فى دينه، ثم إنه صلّى اللّه عليه و سلّم كره موافقتهم فى أمر القبلة لما قالوا: لو لا أن ديننا حق لما صلّى إلى قبلتنا، و لما استن بسنتنا، فقال صلّى اللّه عليه و سلّم لجبريل: وددت أن ربى صرفنى عن قبلة اليهود إلى غيرها، فقال جبريل: إنما أنا ملك عبد، لا أملك شيئا، فسل ربك، فصعد جبريل السماء، و خرج رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم إلى الصحراء نحو أحد يصلى هاهنا ركعتين و هاهنا ركعتين، و يدعو الله أن يجيز له فى ذلك، فلم يزل كذلك يديم النظر إلى السماء، حتى دخل ناحية أحد، فأنزل الله تعالى فى رجب بعد زوال الشمس قبل الظهر: قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ [البقرة: ۱۴۴] الآية، و صرفت القبلة، و ذلك قبل بدر بشهرين، و فى السير لابن حبان: حولت بعد سبعة عشر شهرا و ثلاثة أيام، و حديث البراء المتقدم رواه ابن خزيمة فى صحيحه «ستة عشر شهرا» على الجزم كرواية مسلم الأولى، و قال الشيخ شرف الدين الدمياطى: حوّلت القبلة نصف رجب بعد خمسة عشر شهرا و نصف، و نقل النووى فى سير الروضة عن محمد بن حبيب الهاشمى أن التحويل يوم الثلاثاء النصف من شعبان من السنة الثانية. و نقل المجد عن ابن

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۷۸

حبيب أنها حوّلت فى النصف من شعبان فى الركعة الثالثة، و قيل: فى صلاة العصر. و عند النحاس بعد بضعة عشر شهرا. و عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك: صرفت فى جمادى، قال: و هو أولى الأقوال بالصواب. و قال ابن جرير عن معاذ: بعد ثلاثة

عشر شهرا من مقدمه المدينة، قال: و عن أنس عشرة أو تسعة أشهر، انتهى ما نقله المجد.

و قال ابن سعد: يقال: إنه صلّى اللّه عليه و سلّم صلّى ركعتين من الظهر فى مسجده بالمسلمين، ثم أمر أن يتوجه إلى المسجد الحرام، فاستدار و دار معه المسلمون، و يقال: زار النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أمّ بشر بن البراء بن معرور فى بنى سلمة و صنعت له طعاما، و حانت الظهر فصلى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم بأصحابه ركعتين، ثم أمر فاستدار إلى الكعبة و استقبل الميزاب، فسمى مسجد القبلتين. قال ابن سعد: قال الواقدى: هذا أثبت عندنا.

أول صلاة إلى الكعبة

و فى الصحيح أن أول صلاة صلاها- أى متوجها إلى الكعبة- صلاة العصر.

قال الحافظ ابن حجر: التحقيق أن أول صلاة صلاها فى بنى الظهر، و أول صلاة صلاها بالمسجد النبوى العصر. قال: و أسانيد الروايات المتقدمة- أعنى رواية ثلاثة عشر شهرا و تسعة عشر شهرا و نحوها- شاذة. قال: و أما رواية الصحيح فطريق الجمع بين رواية سبعة عشر شهرا و ستة عشر، و رواية الشك فى ذلك: أن من جزم بستة عشر لفق من شهر القدوم و شهر التحويل شهرا، و ألغى الأيام الزائدة، و من جزم بسبعة عشر شهرا عدهما معا، و من شك تردد فى ذلك، و ذلك أن القدوم كان فى شهر ربيع الأول بلا خلاف، و كان التحويل فى نصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح، و به جزم الجمهور، و رواه الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس، و قول ابن حبان: «سبعة عشر شهرا و ثلاثة أيام» مبنى على أن القدوم كان فى ثانى عشر ربيع الأول.

و قال الربيع: كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى ابتداء الهجرة مخيرا فى التوجه إلى بيت المقدس أو الكعبة، إلا أنه أمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس، فكان التوجه إليه فرضا، و إن كان مخيرا فيه كالمخير فى كفارة اليمين أى واحد اختار فهو فرض عليه، و قال ابن عباس: بل كان الفرض التوجه إلى بيت المقدس ثم نسخ.

و قال ابن العربى و غيره: نسخت القبلة مرتين.

إلى أىّ جهة كانت الصلاة بمكة قبل الهجرة؟

و قال ابن رشد فى البيان: و لم يختلف فى أن صلاته صلّى اللّه عليه و سلّم كانت بالمدينة إلى بيت المقدس حتى حولت القبلة، و إنما اختلف فى صلاته بمكة قبل قدومه المدينة، فروى أنها كانت إلى الكعبة، و روى أنها كانت إلى بيت المقدس، و روى أنه كان يصلى إلى بيت

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج۱، ص: ۲۷۹

المقدس و الكعبة بين يديه- أى بين الركنين اليمانيين- و حكى ابن عبد البر الاختلاف فى صلاته صلّى اللّه عليه و سلّم بمكة: هل كانت إلى الكعبة، أو بيت المقدس؟ ثم قال: و أحسن من ذلك قول من قال: كان يصلى بمكة مستقبل القبلتين يجعل الكعبة بينه و بين بيت المقدس.

و روى الطبرى و غيره عن ابن عباس قال: لما هاجر رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم إلى المدينة و اليهود أكثر أهلها يستقبلون بيت المقدس أمره الله تعالى أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها سبعة عشر شهرا، و كان رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يحب أن يستقبل قبلة إبراهيم، فكان يدعو و ينظر إلى السماء فنزلت، و هو ظاهر فى أن استقبال بيت المقدس كان بوحى، لا باجتهاد من النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أنه إنما وقع بعد الهجرة، لكن أخرج أحمد عن ابن عباس: «كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يصلى بمكة نحو بيت المقدس و الكعبة بين يديه» فيجمع بأنه لما هاجر أمر بأن يستمر على الصلاة لبيت المقدس.

و روى الطبرى أيضا من طريق ابن جريج قال: صلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أول ما صلّى إلى الكعبة، ثم صرف إلى بيت المقدس

و هو بمكة، و صلّى ثلاث حجج، و هاجر فصلى إليه بعد قدومه المدينة ستة عشر شهرا، ثم وجّهه الله إلى الكعبة.

كيف حرّرت قبلة مسجد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم؟

و قال ابن النجار: و صلّى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فيه- أى: فى مسجده- إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا، ثم أمر بالتحول إلى الكعبة، فأقام رهطا على زوايا المسجد ليعدل القبلة، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يا رسول الله ضع القبلة و أنت تنظر إلى الكعبة، ثم قال بيده هكذا، فأماط كل جبل بينه و بينها، فوضع القبلة و هو ينظر إلى الكعبة لا يحول دون نظره شىء، فلما فرغ قال جبريل عليه السلام هكذا، فأعاد الجبال و الشجر و الأشياء على حالها، و صارت قبلته إلى الميزاب.

و أسند يحيى من طريق ابن زبالة و غيره عن الخليل بن عبد الله الأزدى عن رجل من الأنصار أن رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم أقام رهطا على زوايا المسجد ليعدل القبلة، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يا رسول الله، ضع القبلة و أنت تنظر إلى الكعبة، ثم قال بيده هكذا، فأماط كل جبل بينه و بين القبلة، فوضع تربيع المسجد و هو ينظر إلى الكعبة لا يحول دون نظره شىء، فلما فرغ قال جبريل عليه السلام بيده هكذا، فأعاد الجبال و الشجر و الأشياء على حالها، و صارت قبلته إلى الميزاب.

و عن نافع بن جبير من طرق مرفوعا: ما وضعت قبلة مسجدى هذا حتى رفعت إلىّ الكعبة فوضعتها أؤمها.

و عن ابن عجلان قال: وضع رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم قبلة مسجده و جبريل قائم ينظر إلى الكعبة، ثم كشف له ما بينه و بينها.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۸۰

و عن ابن شهاب مرفوعا: ما وضعت قبلة مسجدى هذا حتى فرج لى ما بينى و بين الكعبة فوضعتها أؤمها.

و أسند العراقى فى ذيله من طريق أبى على بن شاذان بسنده عن إبراهيم بن دينار عن مالك بن أنس عن زيد بن أنس عن زيد بن أسلم قال: قال ابن عمر: وضع جبريل عليه السلام القبلة لرسول صلّى اللّه عليه و سلّم بالمدينة، تفرد به عن مالك و محمد بن إبراهيم- قلت: و هو ثقة.

و فى العتبية: قال مالك: سمعت أن جبريل عليه السلام هو الذى أقام لرسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم قبلة المسجد مسجد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم مسجد المدينة، انتهى.

و أسند ابن زبالة عن أبى هريرة قال: كانت قبلة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم الشام، و كان مصلاه الذى يصلى فيه بالناس إلى الشام فى مسجده أن تضع موضع الأسطوان المخلّق اليوم خلف ظهرك ثم تمشى إلى الشام، حتى إذا كنت بيمنى باب آل عثمان كانت قبلته ذلك الموضع.

قال الذهبى: هذه القبلة كانت فى شمالى المسجد، فلما حولت القبلة بقى حائط القبلة الأولى مكان أهل الصفة، انتهى. و الأسطوانة المخلقة هى التى تدعى أسطوان عائشة رضى الله عنها فيما قاله المطرى، و سيأتى ما نقله ابن زبالة فيها من أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم صلى إليها المكتوبة بضعة عشر يوما بعد أن حولت القبلة، ثم تقدم إلى مصلّاه الذى وجاه المحراب فى الصف الأوسط، هذا لفظه بحروفه.

و قوله: «وجاه المحراب» يريد المحراب العثمانى الكائن فى جدار القبلة.

و قال المطرى: إن الحائط القبلى- أى الأول- كان محاذيا لمصلى النبى (؛ لما ورد أن الواقف فى مصلى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم تكون رمانة المنبر الشريف حذو منكبه الأيمن، قال:

فمقام النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لم يغير باتفاق، و كذلك المنبر لم يؤخر عن منصبه الأول: أى من جهة القبلة؛ لما سيأتى أنه زيد فيه من جهة الشام، قال: و إنما جعل هذا الصندوق الذى قبالة مصلى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم سترة بين المقام و بين الأسطوانات، انتهى.

و سيأتى فى ذكر الجذع الذى كان يخطب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إليه اختلاف فى محله: هل هو عن يمين المصلى الشريف أو عن يساره لجهة القبر الشريف؟

و سيأتى ما عبر به ابن النجار فى حكاية الرواية الأولى حيث قال: كان فى موضع الأسطوانة المخلّقة التى عن يمين محراب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عند الصندوق و الرواية الثانية هى المرادة بما أسنده يحيى عن ابن أبى الزناد و غيره من علماء المدينة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يخطب إلى جذع فى المسجد كان موضعه عند الأسطوانة المخلقة التى تلى القبر: أى فى جهة القبر التى عن يسار الأسطوانة المخلقة التى كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يصلى عندها التى هى عند الصندوق، هذا لفظه، و الغرض من إيراده هنا قوله: «التى عن يسار الأسطوانة المخلقة..

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۸۱

إلى آخره» فهذه الأسطوانة المشار إليها- أعنى التى كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يصلى إليها- هى التى عن يمين الواقف فى المصلى الشريف من جهة القبلة، و علم أن وضع الصندوق هناك كان من الزمن القديم، لكنه كان صندوق مصحف كما سيأتى، و وصفها بالمخلقة لا يشكل عليك بما اشتهر من وصف أسطوانة المهاجرين- و هى أسطوانة عائشة- بالمخلقة، فالوصف بالمخلقة يطلق على أساطين متعددة كما سنوضحه، و لهذا اشتمل هذا الكلام على وصف كل من هاتين الأسطوانتين بهذا الوصف.

و نقل المرجانى أن فى العتبية ما لفظه: أحب مواضع التنفل فى مسجد رسول اللّه مصلاه حيث العمود المخلق، انتهى.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى؛ ج ۱؛ ص ۲۸۱

قال ابن القاسم: أحب مواضع الصلاة فى مسجده صلّى اللّه عليه و سلّم فى النفل العمود المخلق، و فى الفرض فى الصف الأول، قال ابن رشد: فى كون العمود المخلق كان قبلة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أو أقرب إلى قبلته صلّى اللّه عليه و سلّم قول ابن القاسم و سماعه.

قلت: و هو دال على أن العمود المخلق هو الذى عند المصلى الشريف، و لهذا روى ابن وهب عن مالك أنه سئل عن مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و قيل له: أى المواضع أحب إليك الصلاة فيه؟ قال: أما النافلة فموضع مصلاه، و أما المكتوبة فأول الصفوف، انتهى. فعبر هنا عن العمود المخلق بمصلاه. و رأيت فى جامع العتبية من البيان لابن رشد ما لفظه:

قال مالك: ليس العمود المخلق قبلة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و قبلة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم هو حذو قبلة الإمام، و إنما قدمت القبلة حذو قبلة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم سواء.

قال ابن رشد عقبه: و قد مر فى كتاب الصلاة عن ابن القاسم أن مصلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم هو العمود المخلق، خلاف قول مالك هنا، انتهى. و قول مالك: «و إنما قدمت القبلة» يشير به إلى المحراب الذى فى جدار القبلة بزيادة عثمان رضى اللّه عنه، و هذا الذى ذكره يكاد أن يكون قطعيا، و ليس مراد ابن القاسم إلا أن العمود المخلق أقرب شىء إلى قبلة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فيعرف به، و لهذا نقل ابن النجار عن مالك ما يقتضى أن الأسطوانة المذكورة علم لمصلّى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم؛ فإنه قال: قال مالك بن أنس: أرسل الحجاج بن يوسف إلى أمهات القرى بمصاحف، فأرسل إلى المدينة بمصحف منها كبير، و كان فى صندوق عن يمين الأسطوانة التى عملت علما لمقام النبى صلّى اللّه عليه و سلّم.

و قال ابن زبالة فيما سيأتى عنه: إن الخيزران لما أمرت بأن تخلق المسجد أشار عليهم إبراهيم بن الفضل فزادوا فى خلوق أسطوانة التوبة و الأسطوان التى هى علم عند مصلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فخلقوهما حتى بلغوا بهما أسفلهما، و زادوا فى الخلوق فى أعلاهما، انتهى. و قد توهم جماعة أن المراد من كلام ابن القاسم، و ما نقل عن مالك، الأسطوانة

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۸۲

المعروفة اليوم بالمخلقة، و هى التى بأوسط الروضة، و هو مردود؛ لأن الأسطوانة المذكورة ليست علما على مصلى الرسول عليه السلام

اتفاقا، و منشأ الوهم ظنهم اختصاصها بوصف المخلقة، و ممن اعتقد ذلك الحافظ ابن حجر فقال فى الكلام على قول يزيد بن عبيد: «كنت آتى مع سلمة بن الأكوع فيصلى عند الأسطوانة التى عند المصحف» ما لفظه: هذا دال على أنه كان للمصحف موضع خاص به، و وقع عند مسلم بلفظ:

يصلى وراء الصندوق، و كأنه كان للمصحف صندوق يوضع فيه، قال: و الأسطوانة المذكورة حقق لنا بعض مشايخنا أنها المتوسطة فى الروضة، و أنها تعرف بأسطوانة المهاجرين، و أسرت بها عائشة لابن الزبير، ثم وجدت ذلك فى تاريخ المدينة لابن النجار، و ذكره قبله محمد بن الحسن فى أخبار المدينة، هذا كلام الحافظ ابن حجر، و مراده بمحمد بن الحسن ابن زبالة، و ليس فى كلامه و لا فى كلام ابن النجار ما يقتضى أن الأسطوانة التى عند الصندوق هى أسطوانة المهاجرين، إلا من حيث وصف كل منهما بالمخلقة، فتوهم اتحادهما، و ليس كذلك، و الله أعلم.

محراب المسجد النبوى، و متى صنع؟

و سيأتى أن المسجد الشريف لم يكن له محراب فى عهده صلّى اللّه عليه و سلّم و لا فى عهد الخلفاء بعده، و أن أول من أحدثه عمر بن عبد العزيز فى عمارة الوليد، و زعم الأقشهرى فى روضته أن مصلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى موضع الصندوق، و فى موضعه اليوم المحراب المرخم المرتفع عن المصلى الشريف و بنائه، فإنه قال و من خطه نقلت: إنه قيل: إن منبر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لم يتغير تقديما و لا تأخيرا؛ فالزيادة وقعت فى المنبر شماليا لا غير، وحد المنبر الأصلى اليوم مساوية مع مصلى الإمام، و مصلى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم أمامه فى موضع الصندوق اليوم فهو خارج عن حد المنبر، انتهى. و استنتج من ذلك أن يكون ما حاذى الصندوق يمنة و يسرة، قال: و هو مما زاده عمر روضة من رياض الجنة، قال: لأن المصلى الشريف روضة بلا شك، أى فما حاذاه كذلك، و هو عجيب لم أر من سبقه إليه، و ما زعمه من أن حد المنبر- يعنى من القبلة- مساو لمصلى الإمام اليوم، يريد به أن نهاية مصلى الإمام اليوم مساوية لنهاية المنبر من جهة القبلة، فإنه صور ذلك بخطه كما ذكرناه، و كأنه توهم أن مصلاه صلّى اللّه عليه و سلّم كان فى محراب بارز عن سمت المسجد؛ لأنه جعل ما عن يمينه و يساره من زيادة عمر رضى الله عنه، و لم يقل به أحد، مع أن ما زعمه من الاستواء لا يشهد له عقل و لا نقل؛ لأن المنبر الذى كان فى زمنه هو المنبر الذى كان فى زمن المطرى، فإنهما متعاصران، و قد سبق عن المطرى فى الفصل قبله أن بين المنبر و الدرابزين الذى فى القبلة مقدار أربع أذرع و ربع، و أنه اتضح لنا صحة ما قاله، و ذلك هو محل المنبر النبوى كما

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۸۳

سنوضحه، و عرض الصندوق المذكور و ما بعده إلى الدرابزين المذكور ذراعان و نصف راجح، و المنبر الذى أدركناه أولا لم يكن بينه و بين الدرابزين القبلى سوى ثلاثة أذرع و نصف راجحة، و مع ذلك فحد المنبر متأخر عن حد مصلى الإمام من جهة القبلة بنحو الذراع، و على ما ذكره المطرى- و هو الصواب- يكون متأخرا بأزيد من ذلك، و ذلك فيما يظهر هو القدر الوارد فيما كان بين المنبر و الجدار القبلى، و أوضح من ذلك فى الرد عليه أن يحيى نقل فى كتابه عن محمد بن يحيى صاحب مالك قال: وجدنا ذرع ما بين مسجد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم الذى كان بعهده إلى جدار القبلة اليوم الذى فيه المحراب عشرين ذراعا و ربعا، و هذه هى الزيادة التى زيدت بعد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم انتهى.

قال المراغى: و قد اعتبرته من وجه سترة مصلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إلى جدار القبلة فكان كذلك، و به يظهر أن المصلى الشريف لم يغير عن مكانه، و أن الصندوق إنما جعل فى مكان الجدار الأول، انتهى.

و قد اعتبرت ما ذكره من جدار المسجد القبلى إلى طرف المصلى الشريف المحاذى لطرف صندوق السترة، فكان ذلك إحدى و عشرين ذراعا و نصف و ربع يرجح قيراطا، فإذا أسقط من ذلك عرض الجدار- و هو ذراع و نصف راجح- كان الباقى عشرين ذراعا

و ربعا كما ذكره يحيى، و قد علمت أن الصندوق المذكور له أصل قديم هناك، فكيف يكون فى موضع المصلى الشريف و لا ينبه عليه أحد؟ بل يذكرون ما يدل على خلافه، بل كيف يمكنون من ذلك، و يحرمون المسلمين التيمن بمكانه؟ هذا مما يكاد العقل يحيله.

و قال النووى فى مناسكه ما لفظه: و فى إحياء علوم الدين أنه- أى: المصلى- يجعل عود المنبر حذاء منكبه الأيمن، و يستقبل السارية التى إلى جانبها الصندوق، و تكون الدائرة التى فى قبلة المسجد بين عينيه، فذلك موقف رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم انتهى.

قلت: و كأن المراد من استقبال السارية المذكورة جعلها عن جهة اليمين كما عليه وضع المصلى اليوم. و قد ذكر ابن زبالة هذه الأسطوانة ثم قال: حدثنى إبراهيم بن محمد عن غير واحد منهم خارجة بن عبد الله بن كعب بن مالك قال: إذا عدلت عنها- أى عن الأسطوانة المذكورة- قليلا- و جعلت الجزعة التى فى المقام بين عينيك و الرمانة التى فى المنبر إلى شحمة أذنك قمت فى مقام رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و كأن الرمانة المذكورة كانت فى أعلى عمود المنبر النبوى، و لذا عبر به فى الإحياء.

و سيأتى أنه لما حفر بعد الحريق الثانى لتأسيس المنبر الرخام وجدوا محل المنبر الأصلى شبه حوض من حجر، و فى جانبيه من المشرق و المغرب فرضتان منقورتان فى الحجر بهما شىء من الرصاص بحيث لا يخفى على من أحاط علما بصفة المنبر النبوى

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۸۴

أنهما محل عموديه كانا محكمين بالرصاص فيهما، و قد وقعت فى المصلى الشريف مما يلى مؤخره، و تأملت الفرضة التى مما تلى الروضة فوجدتها فى محاذاة يمينى، فظهر أنها المرادة.

و أما الجزعة فذكر المطرى أن هذه الجزعة كانت فى المحراب القبلى المقابل للمصلى الشريف، و أنها أزيلت منه، قال: و ما حققه الغزالى عند ذكر المصلى الشريف بقوله: «إذا وقف المصلى فى مقام النبى صلّى اللّه عليه و سلّم تكون رمانة المنبر حذو منكبه الأيمن و يجعل الجزعة التى فى القبلة بين عينيه فيكون واقفا فى مصلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إنما كان قبل حريق المسجد، و قبل أن يجعل هذا اللوح القائم فى قبلة مصلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: أى فإنه صار يحجب عن مشاهدة ما فى المحراب القبلى، قال: و إنما جعل بعد حريق المسجد، قال: و كان يحصل بتلك الجزعة فتنة كبيرة و تشويش على من يكون بالروضة الشريفة من المجاورين و غيرهم.

و ذلك أنه كان يجتمع إليها الرجال و النساء، و يقال: هذه خرزة فاطمة بنت رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و كانت عالية لا تنال بالأيدى، فتقف المرأة لصاحبتها حتى ترقى على ظهرها و كتفيها حتى تصل إليها، فربما وقعت المرأة و انكشفت عورتها، و ربما وقعتا معا.

فلما كان سنة إحدى و سبعمائة جاور الصاحب زين الدين أحمد بن محمد المعروف بابن حنا المصرى، فرأى ذلك، فاستعظمه و أمر بقلع الجزعة، فقلعت، قال: و هى الآن فى حاصل الحرم، ثم توجه إلى مكة فى أثناء السنة فرأى أيضا ما يقع من الفتنة عند دخول البيت الحرام، و تعلق الناس بعضهم ببعض، و حمل النساء على أعناق الرجال للاستمساك بالعروة الوثقى فى زعمهم، فأمر بقلع ذلك المثال، و زالت تلك البدعة أيضا، و لله الحمد.

قلت: و الظاهر أن هذه الجزعة هى التى ذكرها ابن جبير فى رحلته فى سنة ثمان و سبعين و خمسمائة لما قدم المدينة، قال: رأيت على المحراب مسمارا مثبتا فى جداره فيه شبه حق صغير لا- يعرف من أى شىء هو يزعمون أنه كأس كسرى، و شاهدت على رأس المحراب حجرا مربعا أصفر قدر شبر فى شبر ظاهر البريق و البصيص، يقال: إنه مرآة كسرى، و الله أعلم بحقيقة ذلك كله، انتهى.

ثم رأيت فى العقد لابن عبد ربه- و هو أقدم من ابن جبير- أن على ترس يعنى المحراب العثمانى فضة ثابتة غليظة فى وسطها مرآة مربعة ذكر أنها كانت لعائشة رضى الله عنها، ثم فوقه إزار رخام فيه نقوش صفائح ذهب مثمنة فيها جزعة مثل جمجمة الصبى الصغير مسمرة، ثم تحتها إلى الأرض إزار رخام مخلق بالخلوق فيه الوتد الذى كان صلّى اللّه عليه و سلّم يتوكأ عليه فى المحراب الأول،

انتهى.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۸۵

قلت: و قد سألت عن هذه الجزعة المتولى لأمر حاصل الحرم الشريف و خازن داره- و كان قديم الهجرة- و غيرهما فقالوا: إنه ليس عندهم بالحاصل شيء من ذلك، و لعل ذلك ذهب فيما أخذه الأمير جماز عند كسر حاصل الحرم الشريف، و قد وسع المحراب القبلى عما كان عليه و زيد فى طوله بعد هدم الجدار القبلى بعد الحريق الثانى.

و قال ابن زبالة: إن ذرع ما بين المنبر و مقام النبى صلّى اللّه عليه و سلّم الذى كان يصلى فيه حتى توفى صلّى اللّه عليه و سلّم أربعة عشر ذراعا و شبرا.

قلت: و قد ذرعت ما بين المنبر الموجود قبل الحريق الثانى و أعلى الحفرة الذى ينزل منه إلى درجتها من ناحية مؤخر المصلى الشريف، فكان أربعة عشر ذراعا، و عرض الدرجة شبر راجح؛ فصح ذلك، و أما حده من جهة المشرق فسيأتى أن جعله على هذه الهيئة الموجودة اليوم أمر حادث.

و قد قال ابن زبالة: إن ذرع ما بين مصلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من مسجده الأول و بين أسطوان التوبة سبع عشرة ذراعا، و أسطوان التوبة فى جهة المشرق، و قد ذرعت ما بينها و بين درجة الحفرة الشرقية فكانت ست عشرة ذراعا، فعلمنا بذلك أن المصلى الشريف فى جانب الحفرة الغربى، و أن ما يلى المشرق منها ليس منه، و يشهد له ما سبق من كلام مالك و الإحياء لذكرهما السارية التى عندها الصندوق، بل فى خط الأقشهرى فى مصنفه فى الزيادة ضبط قول ابن زبالة فيما بين المصلى الشريف و أسطوان التوبة تسع عشرة ذراعا- بتقديم التاء على السين- و قد ذرعت ما بين طرف أسطوان التوبة الشرقى و بين طرف الحفرة الغربى فكان كذلك.

و نقل الأقشهرى أيضا عن أبى غسان أحد أصحاب مالك أن ما بين الحجرة الشريفة و مقام النبى صلّى اللّه عليه و سلّم الذى كان يقوم فيه ثمانية و ثلاثون ذراعا، و أنا ما بينه و بين المنبر الشريف مثل ما سبق عن ابن زبالة، و قد اختبرت ما بين طرف الحفرة الغربى و رخام جدار الحجرة الشريفة فكان ثمانية و ثلاثين ذراعا، فعلمنا أن المحاف عليه فى حد المصلى الشريف هو طرف الحفرة الغربى، و لم تكن هذه الحفرة فى الزمن القديم، و لهذا قال المجد: حكى ابن النجار الإجماع على أن المصلى الشريف لم يغير بتقديم و تأخير، و إنما غيرت هيئته فى هذا العصر الأخير بجعل المصلى شبه حفير أو حوض صغير منخفض عن موقف المأمومين نحو ذراع بسبب ترخيمه و تكاثر الرمل المفروش به الروضة.

قلت: و هو الآن شبه حوض مربع ينزل إليه بدرجة طوله ذراعان و نصف و ثمن، و عرضه ذراعان و نصف و نصف ثمن، لكن زادوا فى طوله فى العمارة الحادثة بعد الحريق أرجح من نصف ثمن ذراع و نحوه فى العرض.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۸۶

قال البدر بن فرحون و غيره: و ما زال العلماء الأئمة يتحرجون من ذلك، و فى أيام القاضى السراج- و هو أول قاض ولى لأهل السنة- فمن بعده كانت ترفع تلك الحفيرة بالرمل حتى تزول الكراهة، إلى أيام الشرف الأسيوطى، فأراد طمس الحفرة أو رفعها و إزالة الخشب المنقوش أمامها الآتى ذكره، فقام عليه بعض الناس من الخدام، و استعانوا عليه بالأشراف، فكف و انتقل عن المحراب، و صار يصلى إلى الأسطوانة التى تقابل أسطوانة الوفود- أى من مقدم الروضة- و لزمها إلى أن مات، و صار من الفقهاء من يرفع الكراهة بما يحصل من القرب إلى مقامه صلّى اللّه عليه و سلّم و موضع قدمه، و هذه نزغة؛ فقد كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه فى الموقف سواء، فمن خالف سنته بالهوى فقد غوى.

قلت: و هذه الحفرة بعيدة من موقف النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لعلو الأرض؛ لما سيأتى عن البدر بن فرحون أنهم وجدوا عند تجديد المنارة التى بباب السلام باب مروان و تحصيب المسجد الشريف القديم بعد حفر قامة، و لما اتضح لنا فى العمارة الآتى ذكرها؛ فقد اعتبرت أرض الحجرة الشريفة و أرض المسجد، فكان بينهما من التفاوت ذراعان و نصف و أزيد، لكن مقتضى ما ظهر من الرخام

الـذى وصـفه ابن زبالـة حول المنبر و مشاهدتنا لما انكشف منه فيما بين المنبر و الأساطين التى خلفه عدم بعض أرض هذه الحفرة من محـل الموقف الشـريف فى ذلـك العصـر؛ لأن نسـبة ما بين هـذه الحفرة و الرخام المـذكور أقل من نصف ذراع، و قـد حققت مسألة انخفاض المصـلى الشـريف فى كتابى الموسوم «بكشف الجلباب و الحجاب عن القـدوة فى الشـباك و الرحاب» و لم يتحرر لى ابتداء ترخيم المصـلى الشـريف و جعله على هـذه الهيئة، و سـماه ابن جبير فى رحلته بالروضـة الصـغيرة، و قـال: إن الإمـام يصـلى بالروضـة الصغيرة المذكورة إلى جانبها الصندوق، و قال قبل ذلك فى وصفها:

و بإزائهـا لجهـة القبلـة عمـود مطبق يقـال: إنه على بقيـة الجـذع الـذى حنّ للنـبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم و على حافتهـا فى القبلـة منها الصندوق، انتهى.

و لم يذكر فيها ترخيما و لا انخفاضا، مع ذكره لذلك فى المحل الذى عليه المنبر كما سـيأتى، و الظاهر أن حدوث انخفاض المصـلى الشريف بما حوله تجدد بعد الحريق الأول، و قد اقتضى رأى متولى العمارة الحادثة بعد الحريق الثانى أن يخفض أرض المسجد حتى تكون مساوية للمصـلى الشريف، فقطع من الأرض نحو ذراع؛ فكانوا يجدون طبقة من التراب، و تليها طبقة من الرمل، حتى وصلوا إلى الأرض المساوية للمصـلى الشريف، و ظهر لهم الرخام الذى كان عليه المنبر الشريف بعد حفر نحو نصف ذراع، و حصل بذلك إزالة هذه البدعة، و لله الحمد و المنة.

و كان فى قبلة المصلى الشريف صندوق خشب بديع الصنعة يعلوه محراب قد أمتج

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۸۷

الصـناع فيه نتائج مبدعة من صـنعة النجارة، و المحراب المذكور شـبه باب نقنطر لموضع لطيف على ظهر الصـندوق المذكور مكتوب فى داخله أمام مسـتقبله بعد البسـملة آية الكرسـى، و على ظاهر الباب المقنطر بعد البسملة قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها [البقرة: ۱۴۴] الآية، و فيه صنعة عجيبة و صبغ باللازورد و تذهيب عجيب يشغل الخاطر، و يفرق القلب الحاضر؛ إذ لا قلب أجمع و أعلى و أرفع من قلب سيد الأنـام. عليه أفضـل الصـلاة و السـلام، و قـد قـال فى شأن الخميصـة من أجل تلك الأعلام «اذهبوا بخميصتى هـذه إلى أبى جهم و ائتونى بأنبجانية أبى جهم، فإنها ألهتنى آنفا عن صـلاتى» و سـيأتى أنه لما قال عمر بن عبد العزيز بعد زخرفة المسجد لعمرو بن عثمان رضى الله عنه: بناؤنا أحسن أم بناؤكم؟ فقال له: بنيناه بناء المساجد، و بنيتموه بناء الكنائس.

و قال مالك فيما نقله عنه صاحب التبصـرة: كره الناس ما فعل فى قبلة المسـجد بالمدينة من التزاويق؛ لأنه يشغل الناس فى صلاتهم، و أرى أن يزال كل ما يشـغل الناس عن الصـلاة، و إن عظم ما كان أنفق فيه فالله تعالى يبعث لهـذا المصـلى الشـريف من يزيل عنه هذه الزخارف و يسويه كما كان فى زمن المصـطفى صـلّى اللّه عليه و سـلّم و قـد أدعم هـذا المحراب الخشبى من ورائه بدعامة شـبه التاج العظيم حتى اتصل بالدرابزين الذى بين الأساطين فى قبلة الروضة، و برز عنها، و جعل فى أعلاه و عن يمينه و شماله مع امتداد الروضة مغـارز لفرخـات القناديـل المسـماة بالبزاقـات تسـرج فى ليالى الزيارات، و فى داخله كسوة جليلـة من الحرير من جنس كسوة الحجرة الشـريفة ذات طراز منسوج، و قـد احترق ذلك كله فى الحريق الثانى الآتى ذكره، و ذلك بعد تمام هذا التأليف، فاقتضـى رأى متولى العمارة الحادثـة بعـد ذلك إبـداله بمحراب مرخّم فى دعامـة تبنى فى محل الصـندوق المـذكور، فحفروا هناك لأساسـها نحو القامـة، فوجدوا هناك قبرا بدا لحده مسدودا باللبن أخرجوا منه بعض العظام، و وجدوا الأقدمين لما أسسوا الأسطوانة التى عنده حرفوا أساسها عنه قليلا فتركوه على حاله، و أسـسوا للمحراب المـذكور، و رخموه بالرخام الملون ترخيما بـديعا فيه صـبغ ذهبى و غيره، و هو أبهى منظرا من الأول، و جعلوا أرض المحراب المـذكور مرفعـة قليلا على المصـلى الشـريف؛ لأنه إنما جعل فى محل الصـندوق الذى كان أمام المصلى الشريف، فليتنبه لذلك، و الله أعلم.

تنبيهات- الأول: قال البخارى فى صـحيحه «باب قدركم ينبغى أن يكون بين المصـلى و السترة» ثم روى عن سـهل بن سـعد قال: كان بين مصلى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و بين الجدار ممر

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۸۸

المشاة، ثم روى عن سلمة- يعنى: ابن الأكوع- قال: كان جدار المسجد عند المنبر ما كادت الشاة، تجوزها: أى المسافة، و هى ما بين المنبر و الجدار، و قوله فى الحديث الأول «كان بين مصلى رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم» أى: مقامه فى صلاته، و كذا هو فى رواية أبى داود، و قوله: «و بين الجدار» أى: جدار المسجد مما يلى القبلة كما صرح به من طريق ابن غسان فى الاعتصام، و منه يعلم ما فى قول النووى فى شرح مسلم: يعنى بالمصلى موضع السجود، و الحديث الثانى رواه الإسماعيلى بلفظ: كان المنبر على عهد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم ليس بينه و بين حائط القبلة إلا قدر ما تمر العنز. قال الكرمانى فى بيان مطابقته للتبويب: إن ذلك من حيث إنه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقوم بجنب المنبر: أى و لم يكن لمسجده محراب، فيكون مسافة ما بينه و بين الجدار نظير ما بين المنبر و الجدار، فكأنه قال: الذى ينبغى أن يكون بين المصلى و سترته قدر ما كان بين منبره صلّى اللّه عليه و سلّم و جدار القبلة.

قلت: و كأن الكرمانى بنى ذلك على ما عهده فى غالب المساجد من أن مصلى الإمام يكون إلى جانب المنبر، و قد تقدم بيان ما بينهما من المسافة و حكاية الإجماع على أنه لم يغير، و أيضا فلا يلزم من كونه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يصلى إلى جانب المنبر أن يكون بينه و بين الجدار نظير ما بين المنبر و الجدار كما لا يخفى، و أوضح مما ذكره- كما قال الحافظ ابن حجر- ما ذكره ابن رشد من أن البخارى أشار إلى حديث سعد بن سهل الذى فى باب الصلاة على المنبر فإن فيه أنه صلّى اللّه عليه و سلّم «قام على المنبر حين عمل، و صلّى عليه» فاقتضى ذلك أن ما بين المنبر و الجدار يؤخذ منه موضع قيام المصلى.

قلت: لكن يلزم من ذلك التأخر عند السجود؛ لأن ذلك المقدار لا يتأتى فيه السجود، و قد ثبت رجوعه صلّى اللّه عليه و سلّم القهقرى من أجل السجود لما صلّى على المنبر لعدم تأتيه عليه.

و قال ابن بطال: هذا أقل ما يكون بين المصلى و سترته، يعنى قدر ممر الشاة، و قيل:

أقل ذلك ثلاثة أذرع؛ لحديث بلال أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم «صلى فى الكعبة و بينه و بين الجدار ثلاثة أذرع» كما فى الصحيح، و جمع الداودى بأن أقله ممر الشاة، و أكثره ثلاثة أذرع، و جمع بعضهم بأن الأول فى حال القيام و القعود، و الثانى فى حال الركوع و السجود، قاله الحافظ ابن حجر.

قلت: و يلزمه التأخر عن موقفه الأول عندهما كما قدمناه، و هو متعين؛ إذ لا يتأتى

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۸۹

السجود فى أقل من ثلاثة أذرع، و لهذا كان حريم المصلّى الذى يكون بينه و بين سترته ثلاثة أذرع عندنا.

و قال ابن الصلاح: قدروا ممر الشاة بثلاث أذرع.

قال الحافظ ابن حجر: و لا يخفى ما فيه.

قلت: الظاهر أن البخارى إنما أورد حديث سلمة المشتمل على بيان ما بين المنبر و الجدار ليستدل به على مقدار ممر الشاة، فإن ما بينهما كان معلوما عندهم، و قد تقدم عن العتبية أنه كان بينهما قدر ما يمر الرجل منحرفا، و الذى اقتضى حمل ابن الصلاح ممر الشاة على ما ذكره أن ذلك هو القدر الذى يتأتى فيه السجود مع الاستمرار فى الموقف.

و قد قال البغوى: استحب أهل العلم الدنو من السترة بحيث يكون بينه و بينها قدر إمكان السجود، و كذلك بين الصفوف، و قد ورد الأمر بالدنو من السترة مع بيان حكمة ذلك، و هو ما رواه أبو داود و غيره مرفوعا: «إذا صلّى أحدكم إلى سترة فليدن منها لا يقطع الشيطان عليه صلاته»، قال الحافظ ابن حجر: و هو حديث حسن، و الله أعلم.

التنبيه الثانى: فى العود الذى كان فى المصلى الشريف.

روينا فى كتاب يحيى عن مصعب بن ثابت قال: طلبنا علم العود الذى كان فى مقام النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فلم نقدر على أحد يذكر لنا فيه شيئا، قال مصعب: حتى أخبرنى محمد بن مسلم بن السائب صاحب المقصورة قال: جلس إلى أنس بن مالك، فقال:

تدرى لم صنع هذا العود؟ و ما أسأله عنه، فقلت: لا و الله ما أدرى لم صنع، فقال أنس: كان رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يضع عليه يمينه ثم يلتفت إلينا فيقول: استووا، و اعدلوا صفوفكم.

و عن أنس بن مالك قال: لما سرق العود الذى كان فى المحراب فلم يجده أبو بكر حتى وجده عمر رضى الله عنهما عند رجل من الأنصار بقباء قد دفن فى الأرض أكلته الأرضة، فأخذ له عودا، فشقه فأدخله فيه، ثم شعبه، فرده فى الجدار، و هو العود الذى وضعه عمر بن عبد العزيز رحمه الله فى القبلة، و هو الذى فى المحراب اليوم باق فيه.

و عند أبى داود عن محمد بن أسلم صاحب المقصورة قال: صلّيت إلى جنب أنس بن مالك يوما فقال: هل تدرى لم صنع هذا العود؟ فقلت: لا و الله، قال: كان رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يضع يده عليه فيقول: «استووا و اعدلوا صفوفكم».

قلت: سيأتى فى الكلام على الجذع أن الأسطوانة المتقدم ذكرها التى هى علم

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۹۰

المصلّى الشريف كان بها خشبة ظاهرة محكمة بالرصاص، يقول الناس: إنها من الجذع الذى حن للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أن المطرى قال: إن الأمر ليس كذلك، و إن العز ابن جماعة أمر بإزالتها، فأزيلت عام خمس و خمسين و سبعمائة.

قال المجد: و رأى بعض العلماء أن إزالتها كانت وهما منهما، و ذلك أن إتقان هذه الخشبة، و ترصيصها بين حجارة الأسطوان و إبرازها لم يكن سدى، و إنما شاهد الحال يشهد بأنه كان من عمل عمر بن عبد العزيز؛ فالظاهر أنه كان من الجذع.

قلت: بل الظاهر أنها ليست منه؛ إذ لم ينقل بقاء شىء منه، بل الظاهر أنها من هذا العود المذكور؛ لما قدمناه فيه، و لما سيأتى عن ابن النجار.

و قول الزينى المراغى: «إن احتمال ذلك كان يمكن تسليمه قبل حريق المسجد، أما بعده فمردود؛ لأنه بقى من حريق المسجد بقايا خشب كثيرة كما سنحققه».

و قول المؤرخين: «إنه لم يبق و لا خشبة واحدة» مردود؛ فقد شاهدت عند إزالة هدم الحريق من الحجرة الشريفة ما لا يحصى من أطراف الخشب المحترق، حتى ميزاب الحجرة الشريفة رأيته من عرعر فيما أظن احترق بعضه و بقى منه قدر الذراع، و أخذ الناس كثيرا من تلك الأخشاب، و اتخذ متولى العمارة و غيره منها سبحا كثيرة، و عبارة ابن النجار صريحة فيما ذكرناه من كون العود المذكور كان بالأسطوانة المذكورة، فإنه ترجم عليه بقوله: «ذكر العود الذى فى الأسطوانة التى عن يمين القبلة»، ثم روى عن أهل السير خبر مصعب بن ثابت المتقدم.

و شيوع أن تلك الخشبة من الجذع قديم، فقد قال ابن جبير فى رحلته: إن بإزاء الروضة- يعنى المصلى الشريف منها- لجهة القبلة عمودا مطبقا يقال: أنه على بقية الجذع الذى حنّ للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم و قطعة منه وسط العمود ظاهرة يقبلها الناس و يبادرون للتبرك بلمسها و مسح خدودهم فيها، و على حافتها فى القبلة منها الصندوق، انتهى.

و استفيد منه أيضا أن وضع الصندوق هناك كان قبل حريق المسجد فى زمنه، و سبب الشيوع المذكور فى تلك الخشبة ما سيأتى من أن الجذع كان قريبا من محل الأسطوانة المذكورة؛ فالظاهر أن الخشبة المذكورة كانت قريبا منه فى الجدار، فجعلت فى تلك الأسطوانة لقربها من المحل الأول؛ فقد روى يحيى أيضا عن أنس بن مالك أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم «كان يستمسك بعود كان فى القبلة، ثم يلتفت عن يمينه و عن شماله، فإذا استوت الصفوف كبر».

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۹۱

و روى ابن زبالة عن عمرو بن مسلم قال: كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم حين أسن قد جعل له العود الذى فى المقام، إذا قام فى الصلاة توكأ عليه، قال: ثم ألصق إليه عود معه، و روى أيضا هو و يحيى من طريقه عن مسلم بن خباب قال: لما قدم عمر رضى الله عنه القبلة فقد العود الذى كان مغروسا فى الجدار، فطلبوه، فذكر لهم أنه فى مسجد بنى عمرو بن عوف أخذوه فجعلوه فى مسجدهم،

فأخذه عمر فرده إلى المحراب، و كان رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم إذا قام إلى الصلاة أمسكه بكفه يعتمد عليه، ثم يلتفت فى شقه الأيمن فيقول: عدّلوا صفوفكم، ثم يلتفت إلى الأيسر فيقول مثل ذلك، ثم يكبر للصلاة، و ذلك العود من طرفاء الغابة.

هل مصلاه صلّى اللّه عليه و سلّم على عين القبلة أو جهتها؟

التنبيه الثالث: أسند يحيى عقب ما تقدم عن ابن عباس قال: كنت أرى صفحة خد رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم اليمنى فى مسجده يتيامن.

و عن عروة: كان الزبير بن العوام و أناس من أصحاب رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم يتيامنون و يقولون: إن البيت تهامى، قال يحيى: و سمعت غير واحد من مشايخنا ممن يقتدى به يقول: المنبر على القبلة.

قلت: لعل ما ذكره من التيامن فى غير المصلى الشريف، و الذى ذكره أصحابنا أنه لا يجتهد فى محراب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لأنه صواب قطعا؛ إذ لا يقر على خطأ؛ فلا مجال للاجتهاد فيه حتى لا يجتهد فى اليمنة و اليسرة، بخلاف محاريب المسلمين، سيما و قد تقدم أنه وضعه و جبريل يؤم به البيت، و المراد بمحرابه صلّى اللّه عليه و سلّم مكان مصلاه، فإنه لم يكن فى زمنه صلّى اللّه عليه و سلّم محراب، نعم إن ثبت تيامنه صلّى اللّه عليه و سلّم فى مكان مصلاه فما نقله متجه، و يؤيده أن الدكة التى ظهرت فى محل المنبر و وجد فيها آثار قوائم المنبر النبوى كما سيأتى متيامنة، و لذا حرّضت على بقائها على ما وجدت عليه فبقيت على حالها، إلا أنهم وضعوا المنبر عليها غير متيامن فصار محرفا عنها، و عبارة النووى فى التحقيق: و كل موضع صلّى فيه رسول الله صلّى اللّه عليه و سلّم و ضبط موقفه تعين، و لا يجتهد فيه بتيامن و لا تياسر، انتهى.

و قال الشيخ محب الدين الطبرى فى شرح التنبيه، و من خطه نقلت: إن قيل محرابه صلّى اللّه عليه و سلّم على عين الكعبة؛ إذ لا يجوز فيه الخطأ، فيلزم مما قلتم أنه لا يصح صلاة من بينه و بينه من أحد جانبيه أكثر من سمت الكعبة إلا مع الانحراف.

قلنا: من أين لكم أنه على يمين الكعبة؟ فيجوز أن يكون ذلك و لا خطأ بناء على أن

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۹۲

الفرض الجهة، نعم إن روى فى الصحيح أنه نصب على العين فنقول: مقتضى الدليل ما ذكرتموه على القولين، أما على العين فظاهر، و أما على الجهة فإنما ذلك عند عدم المشاهدة، و هذا المحراب منزل منزلة الكعبة فمشاهده كمشاهدها، إلا أن إجماع الصحابة رضى الله عنهم على بناء مسجد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم واسعا و صلاتهم فى أقطاره من غير أن ينقل الانحراف عنهم دليل على طرد حكم البعد فى كل مكان، سواء تحقق صوب عين الكعبة أم لا، توسعة و تعميما للحكم، و تحقيقا للقول بأن فرض البعيد هو الجهة مطلقا، و لا أعلم أحدا تكلم فى هذه المسألة، و الظاهر فيها ما ذكرته، انتهى.

و فيه نظر، بل صلاة من بينه و بين المصلى الشريف أكثر من سمت الكعبة صحيح، و اعتبار العين من غير انحراف لما تقرر من أن المسامتة تصدق مع البعد، أ لا ترى أن الدائرة إذا عظمت اتسعت الخطوط فيسامت الخط الخارج من جبين المصلى الكعبة ظنا، و هو المكلف به فى البعد، نعم هذا يقتضى جواز الاجتهاد بالتيامن و التياسر لمن بينه و بين المصلى الشريف أكثر من سمت الكعبة إلا أن ينقل عدمه عن الصحابة فى زمنه صلّى اللّه عليه و سلّم مع إقراره صلّى اللّه عليه و سلّم لهم على ذلك، و الله أعلم.

قد تم- بمعونة الله تعالى و حسن توفيقه- الجزء الأول من كتاب «وفاء الوفا، بأخبار دار المصطفى» تأليف العلامة المحقق، و المؤرخ المدقق، نور الدين على السمهورى، أحد علماء القرن العاشر الهجرى، و يليه- إن شاء الله تعالى- الجزء الثانى منه، و أوله «الفصل الرابع، فى خبر الجذع الذى كان يخطب إليه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم- إلخ» نسأل الله الذى بيده تتم الصالحات أن يعين على إكماله، بمنه و فضله؛ إنه لا معين سواه، و لا يوفق للخير غيره.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج ۱، ص: ۲۹۳

فهرس الجزء الأول

ترجمة مؤلف الكتاب/ ۵

خطبة المؤلف/ ۷

أبواب الكتاب/ ۸

الباب الأول: فى أسماء هذه البلدة الشريفة/ ۱۳

أثرب/ ۱۳

أرض الله/ ۱۴

ذات الحجر/ ۱۹

الباب الثانى/ ۳۱

الفصل الأول: فى تفضيلها على غيرها من البلاد مكة أفضل أم المدينة/ ۳۱

الفصل الثانى: وعد من صبر على شدها/ ۳۹

الفصل الثالث: فى الحث على حفظ أهلها و إكرامهم/ ۴۵

الفصل الرابع: فى بعض دعائه صلّى اللّه عليه و سلّم لها و لأهلها، و ما كان بها من الوباء، و نقله/ ۴۸

الفصل الخامس: فى عصمتها من الدجال و الطاعون/ ۵۵

الفصل السادس: فى الاستشفاء بترابها، و بتمرها/ ۵۹

الفصل السابع: فى سرد خصائصها/ ۶۴

الفصل الثامن: فى الأحاديث الواردة فى تحريمها، و هى كثيرة/ ۷۵

الفصل التاسع: فى بيان عير و ثور/ ۷۷

الفصل العاشر: فى أحاديث تقتضى زيادة الحرم على ذلك التحديد، و أنه مقدر ببريد/ ۸۰

الفصل الحادى عشر: فى بيان الألفاظ المتعلقة بالتحديد/ ۸۲

الفصل الثانى عشر: فى حكمة تخصيص هذا المقدار المعين بالتحريم/ ۸۶

الفصل الثالث عشر: فى أحكام هذا الحرم الشريف، و فيه مسائل/ ۸۷

الفصل الرابع عشر: فى ذكر بدء شأنها، و ما يؤول إليه أمرها/ ۹۶

الفصل الخامس عشر: فيما ذكر من وقوع ما أخبر به صلّى اللّه عليه و سلّم من خروج أهلها و تركها، و ذكر كائنة الحرة المقتضية لذلك/ ۹۹

الفصل السادس عشر: فى ظهور نار الحجاز التى أنذر بها النبى صلّى اللّه عليه و سلّم/ ۱۱۳

الباب الثالث: فى أخبار سكانها فى سالف الزمان، و مقدمه صلّى اللّه عليه و سلّم إليها، و ما كان من أمره بها فى سنين الهجرة، و فيه اثنا عشر فصلا/ ۱۲۵

الفصل الأول: فى سكانها بعد الطوفان، و ما ذكر فى سبب نزول اليهود بها، و بيان منازلهم/ ۱۲۵

الفصل الثانى: فى سبب سكنى الأنصار بها/ ۱۳۲

الفصل الثالث: فى نسبهم/ ۱۳۸

الفصل الرابع: فی تمکنهم بالمدینة، و ظهورهم علی یهود، و ما اتفق لهم مع تبع/ ۱۴۲
الفصل الخامس: فی منازل قبائل الأنصار بعد إذلال الیهود/ ۱۵۱
الفصل السادس: فیما کان بینهم من حرب بعاث/ ۱۷۰
الفصل السابع: فی مبدأ إکرام الله لهم بهذا النبی صلّی اللّه علیه و سلّم و ذکر العقبة الصغری/ ۱۷۳
الفصل الثامن: فی العقبة الکبری/ ۱۷۹
الفصل التاسع: فی هجرة النبی صلّی اللّه علیه و سلّم إلیها/ ۱۸۴
الفصل العاشر: فی دخوله صلّی اللّه علیه و سلّم أرض المدینة، و تأسیس مسجد قباء/ ۱۹۱
الفصل الحادی عشر: فی قدومه صلّی اللّه علیه و سلّم باطن المدینة/ ۱۹۸
الفصل الثانی عشر: فیما کان من أمره صلّی اللّه علیه و سلّم بها فی سنی الهجرة إلی أن توفاه الله عز و جل مختصرا/ ۲۰۹
الباب الرابع: فیما یتعلق بأمور مسجدها الأعظم النبوی/ ۲۴۹
الفصل الأول: فی أخذه صلّی اللّه علیه و سلّم لموضع مسجده الشریف، و کیفیة بنائه/ ۲۴۹
الفصل الثانی: فی ذرعه و حدوده التی یتمیز بها عن سائر المسجد الیوم/ ۲۶۱
الفصل الثالث: فی مقامه الذی کان یقوم به صلّی اللّه علیه و سلّم فی الصلاة قبل تحویل القبلة/ ۲۷۵

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلّامة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج ۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّـلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائى/ "بناية "القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِى الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹